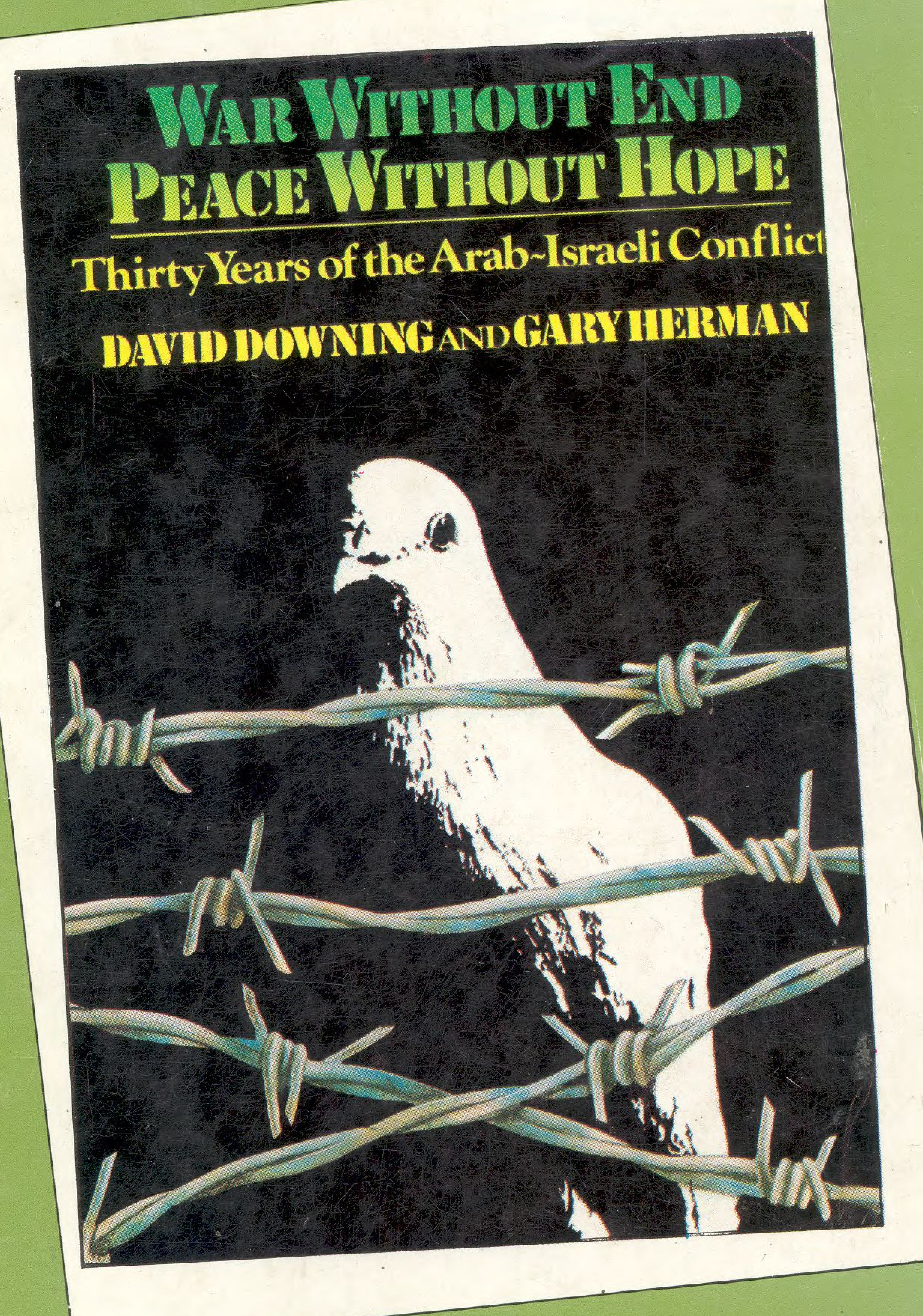
جمهورية مصر العربية
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة رقم (٧٤١)



حرب بلا نهاية
وسلام بلا أمل.

ثلاثون سنة من الصراع العربى الاسرائيلى

تأليف : دافيد داونينج
جارى هيرمان

رقم الايداع ١٩٨٠/٥٠٩٩

الترقيم الدولى ٢-٢٨-٧٢٦٤-٩٧٧ ISBN

رقم الايداع ٥٠٩٩/١٩٨٠

الترقيم الدولى ٣-٢٨-٧٢٦٤-٩٧٧ ISBN

الرقم	مسلسل	التاريخ
٩٩	٢١٤٢	١٩٨٠

يصنع الرجال تاريخهم ، ولكنهم لا يصنعونه كما يشاؤون ، انهم لا يصنعونه فى ظل ظروف يختارونها هم انفسهم بل فى ظل ظروف مباشرة من صنع الماضى.

ان تقاليد الاجيـــال البائدة تجثم كالكابوس على عقول الأحياء .

كارل ماركس

عندما كنت صبيا ، كان جبل صهيون هو شعارى مثلما كان العلم الأخضر يرفرف فوق الجزيرة العربية ، والآن وقـــد كبرت ، فقد سافرت هنـــا وهناك .. ان القدس هى الأخرى مدينـــة ، ولو كان الملك داود حيا لكان اليوم مختبئا فى الشوارع الحجرية الملتوية ولكان النصب قد أصاب « شالوميث » مع مرور السنين ..

ستيف سميث : صندوق الدنيا الالهى



نهـــدى

هـذا الكتاب الى السلام ، والى هذا النوع من المجتمع الذى يكون فيه السلام أكثر من مجـرد حلم •• والى الرجال والنسوة الذين سيحققون هـذا المجتمع •• .



مقدمة

١ ـ مدينتان بين نهر الأردن والبحر :

تقع مدينة أريحا بوادى الأردن ، على بعد بضعة أميال قليلة شرقى القدس ، تلك المدينة ذات المقدسات الثلاث ، ومن ناحيتها الغربية تصعد التلال الخضراء الى هضبة اسرائيل الوسطى .. وفى الاتجاه المقابل تنحدر الأرض دون مستوى البحر الميت الى ألف وثلاثمائة قدم تحت سطح الماء .. أما البحر الميت فهو بحيرة مرة محرومة من الحيوان ، يلفها السكون والحر الشديد والتراب الجاف .. ولو أنك وقفت على حافة أحد التلال الصغيرة لشاهدت منظرا طبيعيا قاحلا هلالى الشكل تكتنفه الطبقات الملحية والكثبان الرملية ، وأرض موحلة رمادية اللون . وبين الفينة والفينة تدب الحياة فى هذا المنظر المقفر الهامد ، وترى العين بقعا من الأرض تغمرها المياه حتى تقترب من أريحا نفسها ، ويتوارى اللون الرمادى ليحل محله أولا اللون البنى ، ثم الأخضر الذهبى البراق مما يذكرنا بمعجزة الحياة .. ومن الصحراء خلقت مياه نهر الأردن جنة يانعة الخضرة ..

ولعل هذه المدينة ، ذات العشرة آلاف نسمة ، هى الموقع الذى قامت عليه جنة عدن المفقودة . ومن المؤكد أن على الجناح العربى للهلال الخصيب الذى يمتد من الخليج الفارسى الى وادى الدجلة والفرات والى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، قامت أولى المستوطنات الزراعية المعروفة فى العالم .. ومن المحتمل أن تكون أريحا نفسها أقدم مدينة فى العالم تشهد استمرار الاستيطان . وتدل البحوث الأثرية على أنه قد ظهرت هناك أول نواة للمجتمع منذ حوالى

ثمانية آلاف سنة ، كما يقول بعض الخبراء ان المنطقة ربما تكون قد عمرت بالسكان منذ بزوغ فجر الحضارة قبل ذلك بأربعة آلاف سنة ..

وعلى مدى العصور ، كان رجال أريحا ونساؤها يعملون ويلهون ، يعانون ويمرحون ، يدفنون موتاهم ويتعهدون بالتربية أطفالهم .. لقد رأوا الممالك والامبراطوريات فى شروقها وأفولها .. عبدوا النهر والشمس ، وركعوا أمام آلهة القوة والأكثر قوة ، وكانت تحكمهم عساكر وأفكار الكنعانيين والبابليين والمصريين والسوريين والاسرائيليين واليهود والآشوريين والفرس والمقدونيين والعرب والمماليك والأتراك والبريطانيين ... وحاول القائد العظيم تيمورلنك الاستيلاء على المنطقة ، وكذلك حاول نابليون ..

ان أريحا تنتمى الى هؤلاء جميعا ، وهذا يعنى انها لا تنتمى الى أى منهم بل الى جموع البشرية المتصارعة ، من الوثنيين أو اليهود أو المسلمين أو المسيحيين ، الذين بعثوا فيها الحياة بالعرق وبثمار العمل الشاق .

واليوم يعيش أريحا العرب الذين يسمون بالفسلطينيين ، وهو الاسم الذى كان يطلق على أجدادهم منذ ألفى سنة .. ولكن فلسطين نفسها ليست بذات كيان .. فهى منذ القدم ولاية ، كتب عليها أن تكون محكومة لا حاكمة . والاسرائيليون هم اليوم حكامها ، حيث استولوا على أريحا من الاردنيين الذين كانوا قد استولوا عليها من البريطانيين .

ولا يزال هناك ما يذكرنا بزوال الامبراطورية ، وهو ما نلمسه عندما نطوف بشوارع أريحا ونرى أثار أعمال التربة طبقة فوق طبقة وهى الذكرى الباقية لما كان يقيمه الحكام الأقدمون ليؤمنوا المدينة التى كانوا يعتقدون أنها ملكا لهم ، وكانوا على حق فى اعتقادهم ، ضد الغزاه الذين كانوا يدعون هم الآخرون نفس الحق لأنفسهم .. ولعل واحدة من هذه الطبقات الترابية تمثل السور الخرافى لأريحا الذى تروى لنا التوراة أن يسوع وعصبته من المحاربين الملحدين قد أحدقوا به ودمروه بحثا عن أرض يحتلونها ويحكمونها .

سيحاول البعض تبرير ما قامت به اسرائيل رسميا من ضم أريحا ، وهم فى ذلك يستجمعون روح يسوع ويستندون الى التوراة والى الامبراطورية اليهودية القديمة ، امبراطورية الملك داود والملك سليمان ،

وهذا ما فعله المفكرون والاستراتيجيون الصهيونيون طوال قرن من الزمان ، ويحاجون بأن ديانة اليهود وكتبهم المقدسة وطقوسهم قد أضفت على اليهود ذاتية خاصة •

لقد أعطت التوراة لليهود ، الذين بنوا اسرائيل الحديثة ، احساسا فريدا بالبقاء مع ماضيهم المجيد ، كما أعطتهم أيضا حلما بالمستقبل ، غير ان الاحساس بالبقاء ما كان ليعطيهم فى حد ذاته الحق فى تحقيق هذا الحلم • وليست التوراة بسند ملكية • وكان على الصهيونيين — شأن شعب يشوع من قبلهم — أن ينالوا حقهم بغزو الأرض واخضاع أهلها •• جاؤا كيهود مدفوعين بشعور القومية ، وما لبثوا أن استقروا كاسرائيليين يتحملون الشعور بواقع الأمة • أما أرض الميعاد ، فكان عليهم أن يستولوا عليها بصرف النظر عن الميعاد ••

وليست اسرائيل سوى الأخيرة فى المسيرات الطويلة للممالك والامبراطوريات والجمهوريات التى حكمت هذا القطاع الضيق من الأرض •• أن كلا من هذه القوى قد جاءت لتحكم بالقوة ، وظلت حاكمة بالتهديد باستعمال القوة أو باستعمالها فعلا • ولقد جاء فى رسالة التوراة وفى تراث الأقدمين ان الأمم تصاغ بالصراع ، وأن الحكومات لا تحكم بسلطات سماوية ولكن بحق القوة المتفوقة •• ويسجل التاريخ صراعات ومواكب الحاكمين والمحكومين •• انها قصة مليون أريحى •• واذا كان من الواضح ان الاستيلاء على الأرض هو دائما المبرر النهائى الذى عليه يقوم الحق فى الحكم ، فان من الواضح أيضا ان النصر الأخير لم يكن يشكل آى ضمان لمستقبل أمن الحكومات والحكام ، لأنهم لن يحكموا الا ببراعتهم فى السيطرة على الجيوش الأقوى أو فى قيادتهم لجيوش تفوقها ، وهكذا يستمر موكب التاريخ •

تقع اللد على الحافة الشرقية للسهل الساحلى لفلسطين ، وعلى بعد خمسة عشر ميلا تقريبا شرقى تل أبيب • ومن وراء المدينة ترتفع التلال نحو سلسلة من الجبال هى بمثابة العمود الفقرى ليهودا والسامرة وفوق هذه السلسلة الجبلية نحو الجنوب الشرقى تقوم مدينة القدس المقدسة •

عندما قررت الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ تقسيم فلسطين ، وقعت اللد فى المنطقة التى كانت من نصيب الدولة العربية الجديدة • غير أن عرب فلسطين رفضوا التقسيم اذ كانوا يرون أنه لا يمكن لهم أن يرضوا بأقل من نصف الأرض التى هى أرضهم •

وفى أواخر عام ١٩٤٧ وأوائل عام ١٩٤٨ ، عندما أخذ البريطانيون ينفضون أيديهم من الأرض ومن المسئولية ، حاول كل من اليهود والعرب ، بعد أن أصبح العداء بينهم متبادلا ، أن يفرضوا سلطتهم السياسية والعسكرية على أجزاء كانوا يتمسكون بها من أرض الانتداب•

كانت اللد وقتئذ مدينة عربية ، ولكن اليهود الذين كانوا يحاربون — كما يعتقدون — من أجل هدفين مترابطين هما تكوين الدولة والبقاء ، لم يكن يعنيهم التركيب العنصرى لأهل المدينة بقدر ما كان يعنيهم المغزى العسكرى لموقع المدينة • اذ كان بوسع القوات العربية فى اللد أن تسيطر على الطريق بين تل أبيب والقدس ، ولا يكون أمامهم حينئذ غير السير عشرة أميال فقط للوصول الى البحر ، ولذا يتسنى لهم شطر اسرائيل الى شطرين وفى مواجهة مثل هذه الحقائق فان آراء العرب الذين يقطنون اللد لم تكن ذات أهمية تذكر ، شأنهم فى ذلك شأن الكثيرين من بعدهم ، اذ يقولون ان القرارات سيتم اتخاذها فى مكان آخر ، فى تل أبيب أو عمان ، فى واشنطن أو القاهرة أو موسكو أو دمشق •

وفى صباح العاشر من يولية ١٩٤٨ تقرر مصير اللد •• من فوق تل يبعد نحو الميل شرقا ، فهناك أخذ موسى كلمان ، قائد الكتيبة الثالثة من لواء بيفتهاش يبحث امكانية الاستيلاء على المدينة •• وكان من المؤكد غياب الجيش العربى الأردنى الذى لم يظهر على المسرح •• وهكذا قرر كلمان أن يبدأ مغامرته •• وبعد بضع ساعات من المعارك الصغيرة القليلة ، ولكنها أيضا مريرة ، سقطت اللد فى يد اسرائيل ، التى أبلغت السكان العرب ان فى وسعهم البقاء بها طالما التزموا الهدوء والسكينة •

وفى اليوم التالى اتجهت دبابة وسيارتان مصفحتان من الجيش العربى الى المدينة فى مهمة استطلاعية يحدوها الأمل الكبير ، وكان همها هو الوقوف على مدى قوة اسرائيل المحلية •• ولكن سرعان ما تراجعوا •• وكانوا الأهالى من عرب المدينة قد علموا بوصول قوة الجيش العربى واعتقدوا أن تحرير المدينة أصبح وشيكا •• وانطلق الكثيرون الى الشوارع يقتلون الجنود الاسرائيليين ويمزقون جثثهم فى نشوة وفرح••

واكن سرعان ما تلاشى هـــذا الفرح ، ولجأ معظم الدهماء الى مســـجد « دهماش » الكبير وكان مسجدا محصنا ، وأطلق الاسرائيليون صاروخا من طراز « بيات » فأحدثوا ثغرة فى جدار المسجد السميك واقتحموه ليلتحموا بمن كانوا يدافعون عنه •• ولكن ما كان أغناهم عن ذلك ! لقـــد أحال الصاروخ صحن المسجد الى مشهد من السجاد العجمى وقد تشرب بالدماء وتناثرت عليه أشلاء القتلى ••

وعادت المدينة الى سيطرة الاسرائيليين •• ولكن ما هو مصـــير سكانها ؟ كان عليهم أن يرحلوا الى شرق الأردن خلال ثلاث ساعات •• حيث كان هذا تبليغا من جانب أحد الضباط للأعيان المحليين ••وفى عصر هـــذا اليوم بدأ سكان المدينة من العرب مسيرة العشرين ميلا الى (رام الله) ومن هنا بدأ منفاهم الأبدى ••

لم تكن اللد سوى مدينة واحدة ولكنها لم تتفرد بالمصير الذى انتهت اليه •• والمأساة ، شـــأن كل المآسى التى خلفها النزاع العربى الاسرائيلى ، ترتكز على العديد من المقدمات •• ومن الصعب أن نرى كيف يمكن لأى طرف من الأطراف المتورطة أن يتصرف على نحو آخر • واذا كانت اسرائيل أمرا واقعا ورفض العرب قبول هذا الأمر الواقع ، فعندئذ تصبح اللد خطرا يهدد اسرائيل •• اما اذا كانت اللد — أو لود كمـــا تسمى حاليا — مدينة اسرائيلية فهذا يعنى مأساة المنفى لسكانها العرب ، وهذا هو العالم الصغير للمأساة التى أخذت تفتك بمخيمـــات اللاجئين الفلسطينيين طوال الثلاثين عاما ••

واليوم ، فى عام ١٩٧٨ ، وفى هـــذه المخيمات ، لا يزال أبناء من قاموا بالمسيرة الطويلة الى رام الله يتحدثون عن تدمـــير اسرائيل ، ولا يزالون يحلمون بالعودة الى أرض لا يعلمون من أمرها الا ما قصه عليهم الشيوخ الطاعنون فى السن •• أما السكان الاسرائيليون فى هذه المدينة المزدهرة فهم يصوتون دائما وبأغلبية ساحقة لصالح حكومات وطنية لا تتحدث الا عن الكفاح من أجل أمن اسرائيل •

وهكذا تستمر الحلقة المفرغة عبر حروب تبدو وكأنه لا نهاية لها ، وعبر جهود السلام التى ليست فى ذاتها سوى التعبير الساخر عن اسم الســـلام نفســـه ••

الجــزء الأول

الفصــل الأول

السنة التالية فى القدس حرب تقسيم فلسطين :
نوفمبر ١٩٤٧ — مارس ١٩٤٩ ..

عندما تطوق الأرض يكون الدهاء مطلوبا ..

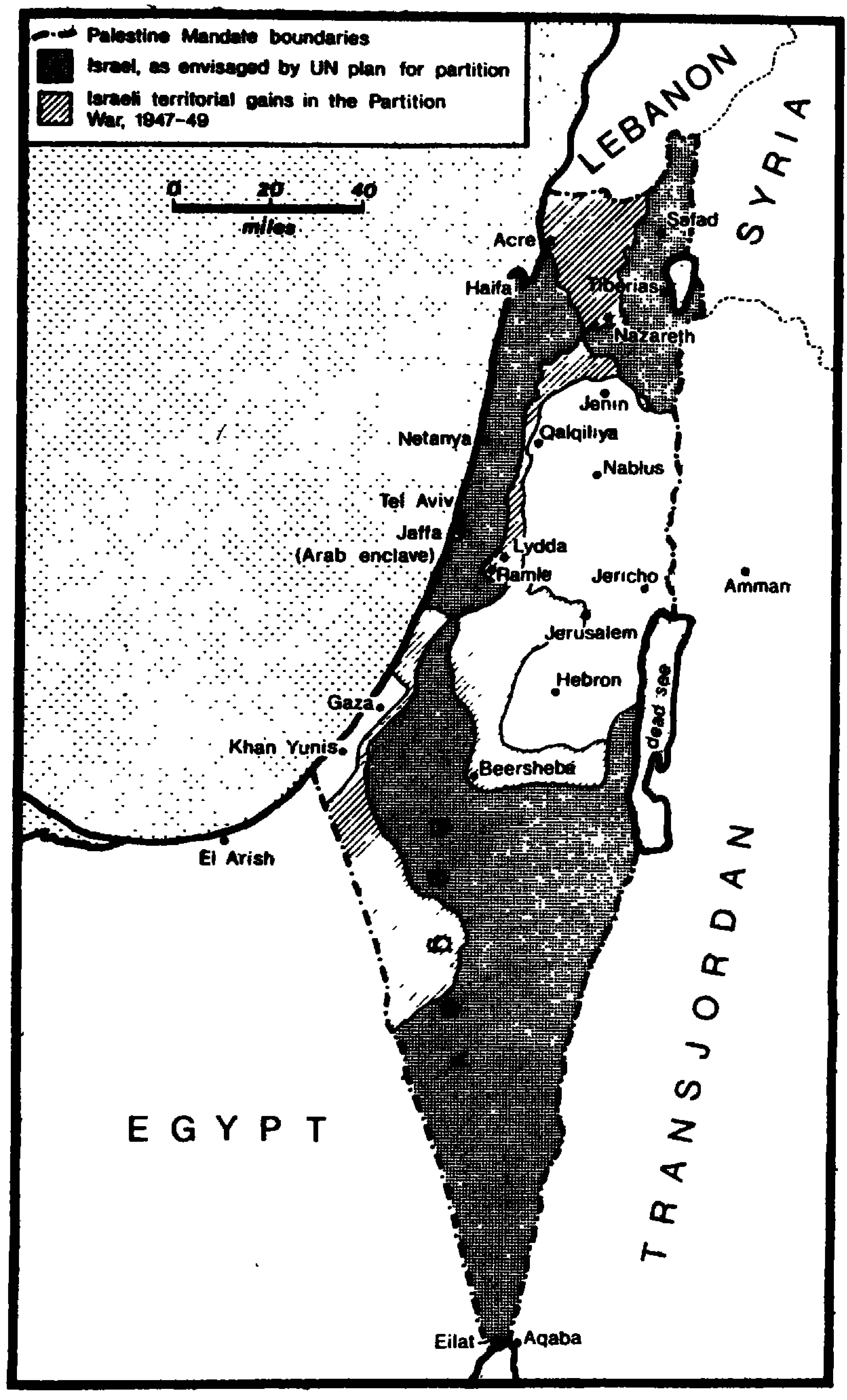
صان تزو

انى متأكد من أن العــالم ســيحكم على الدولة
اليهودية على ضوء ما ستفعله مع العرب ..

حاييم وايزمان

فى مســاء التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ قررت الجمعية العمومية للامم المتحدة تقسيم أرض فلسطين التى كانت تحت الانتداب البريطانى • وكان من شأن هذا القرار وما انطوى عليه من خلق دولتين احداهما يهودية والأخرى عربية أن فتح الباب أمام حلم وأمام كابوس•• لقد رأى اليهود ، سواء منهم الصــهيونيون الرواد أم أيتام المجزرة البشرية أنهم قد كوفئوا فى نهــاية الأمر على انتظارهم الطويل للأمن والحماية اللذين يمكن أن يحققهما لهم وجود دولتهم •

أما الفلسطينيون العرب ، الذين ظلوا طوال خمسين عاما يرقبون نمو ذلك الوجود الغريب فوق أرض يعتقدون أنها أرضهم ، فقد رأوا فى هــذه الدولة اليهودية المقترحة ما يؤيد مخاوفهم العميقة • ان خمسين عاما من أعمال العنف المتقطعة أوشكت أن تنفجر فى حرب سافرة•



The partitioning of Palestine

ولعل الطائفتين كانتا مستعدتين على السواء لشن الحرب ، ولكن لم تكن كلتاهما قد أخذت أهبتها على قدم المساواة •• فعداء العرب فى السنوات العشر السابقة قد دفع الطائفة اليهودية لان تنظم نفسها •• والهاجاناه التى ولدت خلال قلاقل عام ١٩٢٠ قد نمت وترعرعت فى الاصطدامات الأكثر خطورة التى وقعت بعد ذلك فى عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠ •• وبمرور السنين أخذ اتجاهها الدفاعى الأولى يتحول ببراعة ودهاء وفقا لطبيعة المهام التى قدر لها القيام بها •• كان خير دفاع يمكن القيام به ضـــد حرب العصابات هو الهجوم المضاد ، وهذا ما فعلته الهاجاناه فى وحداتها المتنقلة التى نظمها كل من المهاجر الروسى « ايزاك ساديه » والضابط البريطانى « أورد وينجيت » ذى الميول الصهيونية المتحمسة ••

وانه وان كان ما قررته الحكومة البريطانية فى عام ١٩٣٠ من اتخاذ موقف موال للعرب قد أجبر الهاجاناه على أن تتراجع وتتوارى ، الا أنه كان من الطبيعى أن يؤدى هذا القرار الى التعجيل بنمو وتطور القوة العسكرية اليهودية ، فتكونت وحدات « هيس » المتنقلة للعمل نصــف الوقت •• كما أن الهاجاناه وقد أصبحت ذات قيادة مركزية ولها بناؤها الرســـمى ، بدأت تأخذ طابع جيش فى أولى مراحله •

وخلال الحرب العالمية الثانية هدأت الخلافات مؤقتا بين البريطانيين واليهود ، وانضم نحو السبعة والعشرين ألف يهودى لخدمة جيوش الحلفاء •• وكانت هذه فرصة ليتعلموا فيهـــا التكتيكات البدائيـــة ، كما تدربوا على استخدام الأسلحة الحديثة ••

وفى عـــام ١٩٤١ تم تأسيس قوة متنقلة جديدة تعمل طوال الوقت وهى « البالماخ » وحاربت فى الحملات السورية واللبنانية فى تلك السنة . وتلقت تدريبا ، كما تلقت أسلحة بريطانية مقابل التعهد بمقاومةالاحتلال الألمانى لفلسطين •• ولكن روميل لم يصل أبدا الى هناك •• ثم انتهت الحرب ، وما لبث أن تحول نشاط الهاجاناه من جديد ضد البريطانيين والعرب ، فاما قوة الاحتلال التى أفزعتها حملات الارهاب التى تقودها أرجون وجماعات ليهى اليهودية المنشقة فانها سوف تجلو فى نهـــاية المطاف • ولكن العرب لم يكن أمامهم مكان آخر يلجأون اليه وكان من المقدر لهم الهزيمة فى ميدان المعركة ••

لقد أصبحت القوات اليهودية الآن من القوة بحيث تستطيع أن

تفعل الكثير •• وعندما لاحت فى الأفق الحرب الأهلية كان تعداد الهاجاناه يقرب من الواحد وأربعين ألفا ، من بينهم اثنان وثلاثون ألفا يرابطون كوحدات للدفاع المحلى ، وثمانية آلاف كوحدة متنقلة تعمل نصف الوقت، وثلاثة آلاف كوحدة متنقلة مختارة تمثل « بالماخ » •• كانت الأسلحة لا تزال هزيلة فلم يكن لدى الهاجاناه فى أواخر عام ١٩٤٧ سوى ثمانية عشر ألف بندقية وأقل من ألف بندقية رشاشة ، ولم تكن لديها أية مدفعية أو دبابات أو أسلحة مضادة للدبابات أو طائرات ، ولكن المقاتلين كانوا أفضل تدريبا ، وكانت للهاجاناه قيادة مركزية •• والأهم من ذلك هو انها كانت تمثل طائفة متحدة عازمة على البقاء •

أما الفلسطينيون العرب فكانت حالتهم العسكرية أسوأ من ذلك بكثير •• فلعشرات السنين كانت تلاحقهم طلبات شراء الأراضى أكثر مما يلاحقهم أو يطاردهم المحاربون اليهود ، فلم يكن هناك ما يحفزهم على تنظيم أنفسهم عسكريا ••

وبينما كانت الهاجاناه تستجمع قوتها فى بطء وهدوء كان الفلسطينيون العرب منهمكين فى التصدى للقيود التى فرضها الوجود البريطانى ، وكانوا يظنون أنه متى منحوا الاستقلال فى نهاية الأمر فلن تحدث بعده هجرة يهودية ، وانه لن يكون هناك بعد ذلك استغلال للعرب من جانب اليهود الأجانب •• ومن ثم اعتقد نفر قليل جدا من العرب بجدوى اكتساب الخبرة العسكرية فى الحرب العالمية الثانية وفضل الكثير من الزعماء من الفلسطينيين وغيرهم ، أن يلعبوا لعبتهم السياسية مع « الرايخ الثالث » •• وبعد الحرب ، كانوا يراقبون اليهود وهم يحاربون البريطانيين فى غير اكتراث ظاهرى •• ولم يكن يعنيهم كثيرا أى الفريقين سينتصر وكان من المفروض أن نصر الانجليز سيعقبه تنفيذ « الكتاب الأبيض » ، الذى صدر فى عام ١٩٣٩ والمشاريع للعرب •• وقد يؤدى خروج البريطانيين الى ترك العرب المحليين وشأنهم لحل المشكلة اليهودية وفق ما يحلو لهم ، وربما كان ذلك أيضا بالاستعانة بجيرانهم من الدول العربية اذا دعت الضرورة ••

وبدلا من أن يستعد العرب للقتال من أجل أرضهم ، اذا بهم ينتظرون صابرين أن يتم تسليم الأرض لهم رسميا ••وعندما بدا واضحا ان ما سيتسلموه أقل من نصف فلسطين ، كان الوقت قد فات لتنظيم معركة من أجل بقية الأرض •

وطوال بضعة أشهر لم يدرك العرب المطمئنون آثار هذا البطء • والواقع أنه بينما أخذت الأحداث الدامية التى وقعت قبـــل التقسيم تتحول الى حرب أهلية ، كان الموقف يبدو وكأنه فى صـــالح العرب ، حيث كان من السهل عليهم أن يصلوا الى السلاح من الدول العربيـــة المجاورة ، كما أن موقعهم الجغرافى كان هو الأقوى • أما المنـــاطق الرئيسية للمستوطنات اليهودية كما تبدو فى الصورة المبالغ فيها للحدود الجديدة المقترحة ، فهى القطاع الساحلى ، وشرقى الجليل وشمالى النقب والقدس •• وكانت هـــذه المناطق الأربع تشكل جيوبا كبيرة فى الأرض العربية ، وكانت مرتبطة ببعضها وبطبيعة الحال ، بطرق تخترق الأرض العربيـــة •

كانت الاستراتيجية العربية المثلى غنية عن أى بيان ، فما عليهم الا أن يحتفظوا بأرضهم على المرتفعـــات التى تهيمن على تلك الطرق الكبرى ، ويمنعوا تدفق الامدادات اليهودية عبر هذه الطرق مما يجبر تلك الجيوب على الانهيار لنقص المـــاء والغذاء والسلاح ولذلك فانه لم يمر أســـبوع واحد على اعـــلان التقسيم حتى هوجم قطار يحمل الامدادات لليهود على طريق تل أبيب القدس ، وبعد أسبوع واحـــد وقعت هجمات مماثلة على الطريق بين القدس والخليل •

وكان رد اليهود هو تنظيم قوافل تموين ، ولكن ذلك لم يـــكلل بالنجاح ، فقد كانت الطرق تنســـاب فوق أرض تعتبر مثـــالية لتدبير الكمائن ، ولم يكن من الممكن الدفاع عن القوافل الا بالقدر المحدود جدا الذى يسمح به ما كان فى المتناول من أسلحة ••

وسرعان ما أخـــذت الامـــدادات تشـــح فى القـــدس وفى بعض المستوطنات •• النائية ••

وكان هناك سبب آخر لارتياح العرب ، ومبعثه وجـــود جيش التحرير العربى الذى تم تشكيله حديثا تحت قيادة فوزى القاووقجى، وكانت تموله الجامعة العربية •• وكان هذا الجيش قد بدأ يتسلل فى يناير ١٩٤٨ الى فلسطين عن طريق شرقى الاردن ، وقوامه بين الأربعة آلاف والخمسة آلاف من الجنود غـــير النظاميين ، من الفلســـطينيين والمتطوعين من سوريا والعراق ومصر (ومعظمهم من الاخوان المسلمين) ولبنـــان ••

وكان على ذلك الجيش أن يعمل فى أربع مناطق رئيسية •• ورابطت قوتان ، قوام كل منهما حوالى الثمانمائة رجل ، فى يافا وجنوبيها على السـهل الساحلى •• وكان على المجموعتين الرئيسيتين تحت قيـادة القاووقجى نفسه وعبد القادر الحسينى أن تعمل الأولى فى جنـوبى الجليل والأخرى فى ضـواحى القدس •• وفى أوائل فبـراير بدأت المجموعتان الأخيرتان فى اثبات وجودهما وأخذت مجموعة الحسينى فى احكام قبضة العرب على الطريق بين تل أبيب والقـدس بينما أخـذ القاووقجى يعد العـدة للهجوم فى وادى بيسان ••

وفى السادس عشر من فبراير هاجم القاووقجى مستعمرة « تيرات زيطى » ، وفقد فى هـذا الهجوم أربعين رجلا مقابل يهودى واحد قبل أن يتيح له التدخل البريطانى الذى جاء متأخرا ، أن ينسحب وينجو من خزى النتائج المحتملة ••

ولم تنعكس نذر الكارثة على الطائفة العربية الفلسطينية • وبينما ارتفعت معنويات اليهود العالمين ببواطن الأمور ، كان العرب يحتفلون بادعاءات القاووقجى الصاخبة التى تقول انه تم قتل ثلاثمائة يهودى ••

وفى الوقت الذى بدأ فيه جيش التحرير العربى حياته القصيرة غير الموفقة ، كان البريطانيون قد أخذوا فى الجلاء ببطء عن فلسطين ، مدينة تلو أخرى ومنطقة تلو الأخرى • وحاول كل من اليهود والعرب الاستيلاء على النقط العسكرية الهامة التى تركها البريطانيون وغالبا ما كانت للعرب هنا ميزات أفضل ، فقد كان صغار الضباط البريطانيين المتأثرين بالتراث الروحى للورنس والناقمين على ما أصابهم من النشاط الارهابى اليهودى ، يفضون سرا الى الزعماء العرب المحليين بالمواعيد السرية لجلائهم •• غير أن هذه المنة لم يكن لها سوى أثرها السطحى لأن طريقة الجلاء فى مجموعها كانت فى مصلحة اليهود ••

لم يتسم الجلاء البريطانى بطابع الذوق أو الكياسة ، فبدلا من أن يقوم البريطانيون بتسـليم محطـة الكهرباء هجروها مكتفين بنزع مفاتيحها •• ولكن اليهود الذين كانوا قد أصبحوا جالية تحكم نفسها بنفسها فى كفاءة لم يعجزوا عن مد الكهرباء الى مختلف مناطقهم •• بينما كان الأمر بالنسبة للعرب الذين لم تكن لديهم دراية مبعثا للفوضى

•• وكذلك كانت الاتصالات التليفونية والاضاءة معطلة فوق كل فلسطين العربيـــة •••

وفى المجال العسكرى البحت كانت القصة شبيهة بسابقتها •• لقد أخفق العرب فى مجاراة القوة العسكرية اليهودية النامية •• وفى فبراير ١٩٤٨ كانت الطائفة اليهودية فى حالة تعبئة كاملة ، ودفعت الى الميدان بستة ألوية من « هيس » وثلاثة من « بالماخ » بما يبلغ تعداده ثلاثين ألف رجل ، وفى نفس الوقت أخذ اليهود يبحثون فى كل مكان عن الأسلحة المستعملة ، وأخذت جولدا مائير تطوف بالولايات المتحدة حيث جمعت خمسة وعشرين مليون دولار لسداد ثمن الأسلحة •• ولم يكن مثـــل هـــذا الأسلوب والنظام الدقيق متوفرا لدى الجانب العربى •• وكانت القوات غير النظامية المحلية وقوات جيش التحرير العربى السىء التنسيق منصرفة الى القيام بعمليات قاطعى الطرق التى يضفون عليها الطابع الســـياسى ••

وفى شهر فبراير سنة ١٩٤٨ كان الأمل فى نضال متكافىء لا يزال معلقا فى كفة القدر حيث لم تفلح القوافل اليهودية فى الحفـــاظ على مستوى مناسب من الامدادات لجيوبها المتحاربة ، ولم تستطع القيادة العليا اليهودية النهوض للتغلب على هذه المشكلات من خلال هجوم شامل الا فى أوائل شهر مارس حين تدعمت بشحنات جديدة من الأسلحة المهربة ، وكان هدف هـــذا الهجوم الشامل هو الاستيلاء على المناطق المخصصة للدولة اليهودية بموجب التقسيم وكذا المنـــاطق التى بهـــا اســـتيطان يهودى ملموس والحفاظ عليها فى قبضتهم فى سلســـلة من العمليات العسكرية على مستوى قوة اللواء • وهكذا فان اسرائيل كانت آخذة فى التوسع والانتشار مع أنه لم يكن قد تم مولدها بعد ••

لم يكن هناك اختيار حقيقى •• وكان من شأن رفض العـــرب للتقسيم ، أن اضطر اليهود للقتال من أجل هذا التقسيم •• ان الحدود التى تم تخطيطها وفقا للأسس طائفية أكثر منها عسكرية لم تعد ذات اعتبار ، فلكى يتحصل اليهود على الدولة التى خصصت لهم فى مواجهة المعارضة العربية ، فانهم اضطروا للاستيلاء على مناطق من نصيب العرب ، ومن ثم فان هجوم ابريل ــ الخطة « د » ــ استهدف تأمين المرتفعات المطلة على الطريق بين تل أبيب والقدس ، والاستيلاء على

ممر فسيح بين الجليل والسهل الساحلى مع اخضاع المدن « المشتركة » وهى حيفا وتل أبيب ويافا وطبرية وصفد ••

وكان لابد أن يتم ذلك كله قبل الخامس عشر من مايو ، وهو موعد رحيل البريطانيين ، كما أنه أيضا الموعد المحتمل جدا لدخـول الدول العربية ••• وقد تم معظم ذلك •• ففى الشمال ، شن القاووقجى هجوما استغرق سبعة أيام ضد مستوطنة « ميشمار هايمبك » ، ولعله كان يهدف الى عزل الممر الذى كان فى قبضة اليهود ويربط بين الجليل والقطاع الساحلى ، غير أن هزيمته النهائية والمخزية فى الثالث عشر من ابريل أتاحت لليهود حرية العمل طوال الأيام المتبقية من ابريل وأوائل مايو للتركيز على تطهير شرقى الجليل من كل القوات المعادية •• وفى هـذه العملية انتقلت الى يد اليهود فى هدوء كل من المدينتين المشتركتين طبرية وصـفد ••

ولكن النجاح لم يكن من السـهل تحقيقه فى الممر الحاسـم بين تل أبيب والقدس ، وفى الثالث من ابريل بدأت عملية ناخشون فى محاولة للاستيلاء على المرتفعات التى تسيطر على الممر ، وذلك بالهجوم على كاستيل •• فزحفت القوات اليهودية فى عجلة فوق المنحدرات للاستيلاء على التل ، ولكن سرعان ما تراجعت أمام الهجوم المضاد الذى شنه الحسينى •• وفى اليوم الثامن تكررت القصة ، ولكن بنفس المصير •• غير أن اليهـود عادوا فى التاسـع من أبريل فاستولوا على الموقع •• وبقوا فيه ، وكان لمقتل الحسينى فى الهجوم المضاد الذى أخفق أثره الباقى ، والأكثر أهمية على القضية العربية ••

وفى نفس اليوم قامت فصائل من المجموعتين الارهابيتين « أرجون » و « ليهى » بمهاجمة قرية دير ياسين التى كانت حتى ذلك اليوم قرية مسالمة على بعد ثلاثة أميال • فلقد خلق العجز ذعرا ، وخلق الذعر سفك الدماء •• وذبح مائتان وخمسون من أهل القرية •• وكان قد سـبق لزعماء حرب العصابات من العرب أن نصحوا السكان المحليين بالجلاء مؤقتا عن قراهم حتى يتسنى لهم العمل بحرية فى المناطق المتنـازع عليها •• ولكن لم يفعل ذلك سوى عدد قليل حتى ذلك الحين ، ولربما ان مذبحة دير ياسين لم تكن هى التى حركت هجرة العرب من فلسطين ، ولكنها حولتها بالفعل ، وبين عشية وضحاها ، الى هجرة تتم بالآلاف بدلا من العشرات بل وتحت جنح الظلام ••

وفى أثناء ذلك الوقت فان الهاجاناه التى كانت لا تزال منهمكة فى أعمال المطاردة كانت قد نجحت فى الاستيلاء على معظم المرتفعات المهيمنة على الطريق ، واستطاعت قافلتا امداد وتموين أن تصلا الى القدس قبل أن يقوم العرب باعادة اغلاق الطريق فى السابع عشر من أبريل •• وأما فى القدس نفسها فان موقف اليهـود ظل مزعزعا ، حيث كان من النادر أن يكون الموقف بالنسبة للغذاء والمياه غير خطير ، فى حين كانت القوات العربية تحاصر المدينة القديمة •• وأراد قائد الهاجاناه فى المدينة، دافيد شالتيل ، اجلاء المستوطنات اليهـودية على طريقى رام الله والخليل ، ولكن القيادة العليا منعته من القيام بذلك •• بل أمرته بأن يستمر فى امداد كلتا المدينتين ، بل أيضا امداد القدس نفسها ، وان ينجد المدينة القديمة والمعقل اليهودى على جبل الكرمل على بعد ميل أو نحوه الى الشمال الغربى ولكن مما ضاعف من الصعاب أمامه قلة رجـال الهاجاناه الذين كانوا تحت قيادته بالنسبة الى عظم شـأن فصائل « أرجون » و « ليهى » المشتركة فى العمليات •• وذلك أن اليهود لم يجاروا العرب فى تقسيم صفوفهم الا فى القدس وحدها ، ومن السهل أن يتنبأ الانسان بأن أيا من الجانبين لم يحرز نجاحا ذا بال ، فقد توالت الأحداث الواحد بعد الآخر ، وكان أسوأ ما حدث هو ذبح قافلة يهودية فى شيخ جراح انتقاما لدير ياسين ، ولكن خطوط الجانبين قلما تحركت عن موقعها ••

أما عن المدن الكبرى الأخرى فان القصة تختلف • ففى الأسابيع الثلاثة الأخيرة من الانتداب البريطانى كانت طبرية وصفد تعتبران من مدن الشمال ، وحيفا ويافا من مدن الساحل • واشتدت قبضة اليهود على شرقى الجليل وساحل البحر المتوسط •• وفى الداخل فقط كانت تطلعات وآمال العرب لم تفقد بريقها ، ولكنها تبدو قاتمة •• فلقـد أغلق الطريق ثانية بين تل أبيب والقدس ، وبدت سيطرة اليهود على عاصمتهم المستقبلة بعيدة التحقيق •• وفى جنوبى المدينة تم فى النهاية اجتياح مستوطنات اتزيونى فى ١٣ مايو ، وهى التى كانت قد قاومت بصورة بطولية ولكنها غاشمة باستفزاز الفيلق العربى لشرقى الأردن بمهاجمة قوافل أسلحته ••

وفى صباح اليوم التالى خرج من القدس فى هدوء آخر مندوب سام بريطانى ، وبذا انتهى الانتداب •• وفى المساء أعلن بين جوريون

فى صوت مرتفع وعاطفى مولد دولة اسرائيل اليهودية •• وقال : « اننا نعرض فقط السلام والصداقة على كل الدول والشعوب المجاورة » •• ودخلت الحرب مرحـــلة جديدة ••

— ٢ —

فى الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ دخلت خمسة جيوش عربيـــة فلسطين ، عاقدة العزم على سرعة ازالة الدولة الجديدة • وكان الدافع الرسمى والشعبى هو حماية حقوق الفلسطينيين العرب ، ولكن الهدف كان أبعد من ذلك •• ذلك أن معظم العرب كانوا بالتأكيد مستائين مما رأوه من أن الأمم المتحدة قد أضفت الشرعية على استعمار جديد •• ورأى البعض أن قضية الوحدة العربية غير الواضحة لا يمكن أن تتدعم وتتقوى مع احتلال اسرائيل للنقب حيث من شأنه أن يشطر العـــالم العربى الى قسمين •• ولكن فى ذلك الوقت ، أى فى عام ١٩٤٨ لم يكن مثل هذه المشاعر من وزن الا فى حالة اتفاقها ومصالح الأسر الحاكمة ••

أما فاروق ملك مصر فانه كان بوده أن يحتفظ بجيشه داخل بلاده من أجل هدف له قيمته ، وهو مساندة عرشه المهتز •• ولكن لمـــا دنت ساعة القرار أدرك أن الكثيرين من أعدائه سيهاجمون كثيرا موقفه من فلسطين اذا هو ظل — فى عظمه — بعيدا عن المعركة بينما هو متربع على كرســـيه ••

وكان خصومه السياسيون الرئيسيون فى مصر — وهم الاخوان المسلمين — متورطين فعلا بصورة «بطولية» فى القتال ، كما أن منافسيه الرئيسيين فى العالم العربى وهما ملكا الاردن والعراق الهاشميان ، كان من المحتمل أن يتدخلا •• وهنا قرر فاروق أن يغامر بارسال جيشه عبر سيناء •• وما الذى يضير فى ذلك طالما انه سيتسلى فى فلســـطين باستخدام الأسلحة الفاسدة التى تم شراؤها من السوق الســـوداء العالمية بأسعار تعود بالربح على نظـــام الحكم ••

لم يكن فاروق الحاكم الوحيد الذى يتكلم عن الفلسطينيين وهو يفكر فى رفاقه من الحكام •• فكان كل من عبد الله ملك شرق الاردن ، والنظام الحاكم فى سوريا ، مهتما بالاستئثار بفلســـطين دون الطرف الآخر قدر اهتمامه بسحق اسرائيل •• وكان العراق يميل لمســـاندة الاردن حيث كان كلاهما حليفا لبريطانيا ، والحكم فيه للهاشميين ،

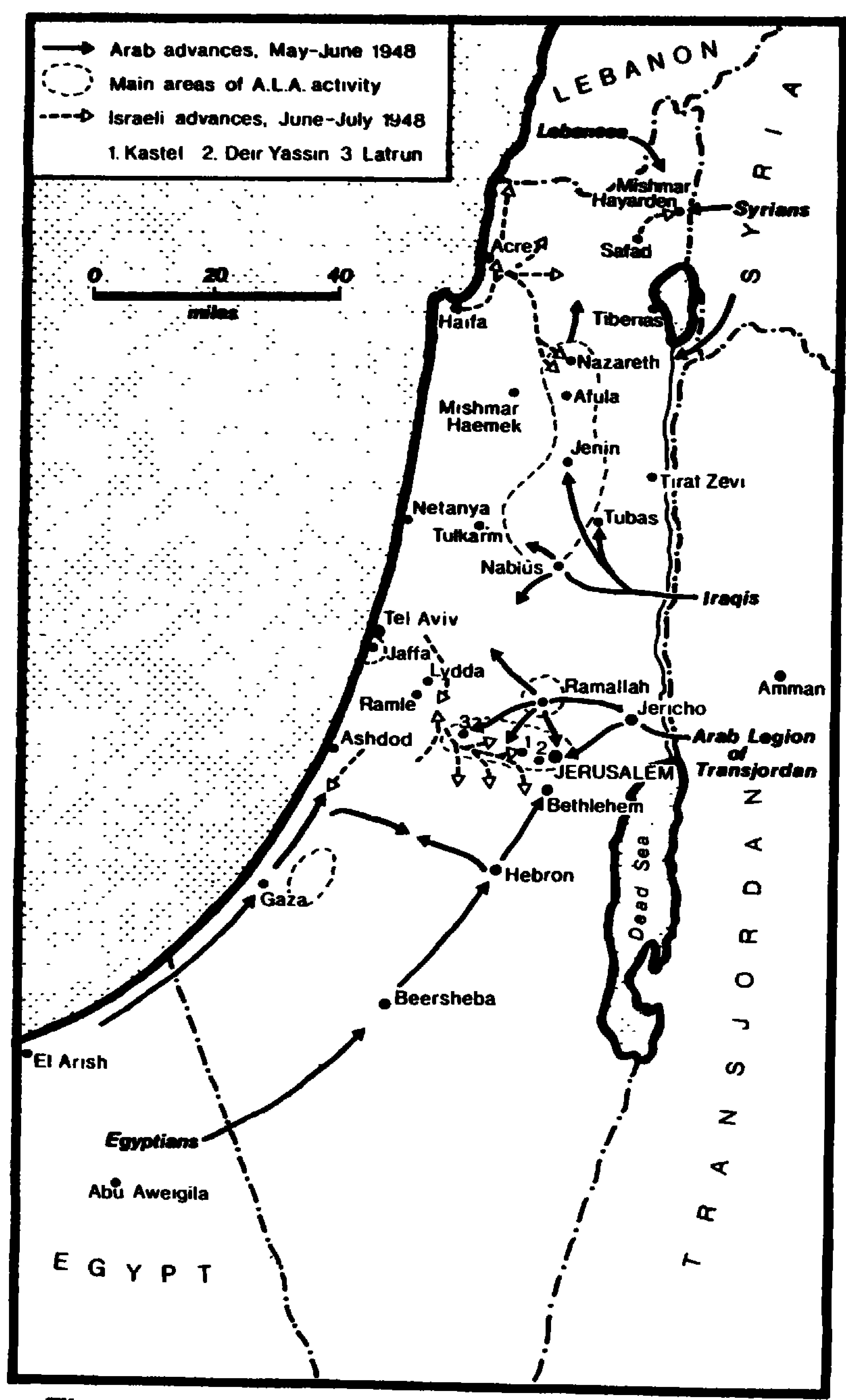
أما سوريا فكانت تتجه لمساندة مصر والوقوف بجانبها •• وكان عبد الله مستعدا نسبيا لقبول التقسيم طالما أن الحصة العربية ستكون من نصيبه •• وكان قد أفضى بوجهة نظره هذه الى جولدا مائير فى لقاء تم سرا بينهما فى نوفمبر السابق ولكن مفتى القدس وهو زعيم العرب من الفلسطينيين أصحاب الحق ، لم يشاركه هذا الرأى ، حيث كان يريد أن يحكم هو كل فلسطين لحسابه •• وتطلع الى السوريين لمساندته ، ولكنهم كانوا أكثر اهتماما بالقاووقجى الذين اعتقدوا خاطئين أنه سيكون زعيما عسكريا فعالا •• وظل المفتى والقاووقجى يكيد كل منهما للآخر زهاء عشر سنوات ••

وما كان لهذا الخليط من الشكوك والعداء بين العرب الا أن يؤثر حتما وليس للمرة الأخيرة فى ذلك الأمل الواهى الذى كان يراودهم فى تحقيق هدف يبدو ظاهريا انه هدف مشترك ••

كان تعيين الملك عبد الله قائدا عاما اسميا لقوات الغزو العربية أمرا يدعو للسخرية ، كما كان أيضا أمرا لا داعى له •• أما عن كونه مدعاة للسخرية فلأن عبد الله كان أقل زعماء العرب اهتماما بمحاربة اسرائيل •• كما أن تعيينه لم يكن ضروريا لأن أى زعيم عربى لم يكن لديه أدنى استعداد لقبول أية أوامر قد يصدرها عبد الله فى غباء ••

وانطلق كل جيش الى فلسطين فى تباطؤ ، دون أن تكون هناك أية خطة مشتركة للحملة ••

وفى أقصى الشمال ، لم يكن العرب مصدر مضايقة •• وأظهر الجيش اللبنانى تضامنه العربى بغزوة رمزية ، ثم سرعان ما توقف ، أما السوريون فقد شنوا هجوما من شعبتين ، وعبرت احدى القوتين نهر الأردن لتستولى على « ميشمار هاياردين » ، وهاجمت الأخرى جنوبى بحر الجليل •• وقنعت الأولى بمكسبها ، أما الأخرى فسرعان ما أوقفت • وزحفت القوة العراقية نحو السامرة واحتلت « المثلث » ، أى قطاع الأرض بين طولكرم وجنين نابلس وما ان تم لهم ذلك حتى اتخذوا موقفا دفاعيا لم يقوموا فيه الا بمجرد صد هجوم اسرائيلى هزيل على جنين ••



. The partition war, May-July 1948

أما الجيش العربى ، وهو أكثر القوات العربية احتراما ، والذى كان ضباط بريطانيون لا يزالون يتولون تدريبه وقيادته ، فقد ركز كل اهتمامه على تخطيط الحدود التى يطالب بها عبد الله فى المنطقة التى تحـدها الجليل ولطرون ورام الله ، بما فيهـا القدس •• وفى المدينة المقدسة نفسها أفسد الجيش العربى نجاحا اسرائيليا يربط جبل الكرمل بالمدينة الجديدة ، وبذا استقر الموقف •• وظل الطريق بين تل أبيب والقدس مغلقا مع سيطرة كلا الطرفين على قطاعات هامة •• ومنيت بالفشل ثلاث محاولات اسرائيلية للاستيلاء على لطرون التى يمر خلالها الطريق والتى كان الجيش العربى يحكم قبضته عليها •• وفى المحاولات الثلاث استخدمت الهاجاناه تكتيك الهجوم المباشر غير المعقول وهى هفوة لا مثيل لها منيت فيها اسرائيل بنسبة عالية من الخسائر بالنسبة الى الحرب بأكملها ••

وفى الجنوب ، كان يبدو أن الجيش المصرى يشق طريقه قدما ، حيث قاتلت قوتان كبيرتان فى طريقها نحو الشمال الغربى من رفح على القطاع الساحلى الى اشدود ، ومن العوجه وبير سبع والخليل الى بيت لحم •• ولكن على حين فجأة أخذت المقاومة العنيفة من جانب المستوطنات الاسرائيلية فى طريق القوات المصرية تعوق تقدم هذه القوات ، وفى أوائل يونيه تمكنت القوات النظاميةاليهودية من شن هجوم مضاد أوقفت به الزحفين ، الأول على عشرين ميلا جنوبى تل أبيب ، والثانى عند الضواحى الجنوبية للقدس ••

وبعيدا فى نيويورك ، قضت الأمم المتحدة معظم شهر مايو فى مناقشة الفوائد النسـبية لفرض وقف اطلاق النار دوليـا •• فأما الامريكيون ، وهم يخشون انتصار العرب ، فقد أرادوا وقف اطلاق النار قبل أن تزول اسرائيل تحت موجات حرب طائفية ، وأما البريطانيون الذين كانوا يريدون قواعد جوية لهم فى النقب ومن ثم كانوا لا يريدون لاسرائيل هزيمة محدودة نسبيا (وكانت النقب من نصيب الدولة اليهودية فى التقسيم) فكانوا مترددين فى الموافقة على وقف اطلاق النار الى أن يتمكن العرب من السيطرة على هذه المنطقة •• ولم توافق بريطانيا على تأييد وقف اطلاق النار المدعم بفرض عقوبات على خرقه الا بعد أن تبين أن موقف المصريين فى النقب كان مزعزعا ••

ولقد شارك بريطانيا حلفاؤها العرب علانية فى هذه الثقة التى لا محل لها فى قدرة المصريين على الاستمرار فى سيطرتهم ، كما عزز من هذه الثقة فى الأحاديث الخاصة الحاجة الى وقت يعاد فيه تنظيم الجيوش الغازية التى اتخذت لها مواقع خاطئة ..

ولما كان الفيلق العربى للملك عبد الله قد استولى على كل الأرض التى كانت شرق الأردن تشتهيها ، والآن وقد أصبح يعانى من عجز خطير فى الذخيرة ذلك العجز الذى يرجع جزئيا الى استيلاء المصريين على شحنة أسلحة لشرق الاردن ، فقد كان واثقا من أنه لن يستطيع التمسك بما فى حوزته الا اذا لم يتطلب الموقف شن أى هجوم آخر ..

وأما السوريون الذين كانوا فى بداية التحرك ، فانهم كانوا راغبين عن التوقف ، أما العراقيين الذين اشتكوا من أنهم كانوا يعملون على « جبهة عريضة فى اتجاهات مختلفة » فانه كان من الطبيعى أن يحتاجوا الى بعض الوقت لمراجعة الخرائط .. وكان المصريون هم الآخرون فى حالة سيئة من التنظيم ، وساعد تقدمهم على مضاعفة حالة الفوضى فى الامداد والتموين التى امتدت الى القاهرة ..

ومن ثم فقد وافق العرب فى رحابة صدر على هدنة شهر كامل ..

وكان هذا ملائما لاسرائيل . وطبيعى ان القيود التى كانت مفروضة على استيراد الرجال والعتاد قد رفعت على أثر رحيل البريطانيين ... وأخذت القوات الاسرائيلية تزداد قوة أسبوعا بعد أسبوع .. وفى الخامس عشر من مايو كان عدد الاسرائيليين فى الميدان معادلا تقريبا لعدد القوات العربية المشتركة ، والآن وقد أخذ المزيد من اليهود يتدفقون على فلسطين فقد أخذ الفارق يزداد بين تعداد الجانبين .. وكانت نظم الحكم العربية قد عبأت كل أولئك الذين أمكن الاستغناء عنهم فى المهمة الأكثر دقة وهى الحفاظ على الاستقرار الداخلى .. وكان الاسرائيليون يدركون بالطبع انه سيتعين عاجلا أو آجلا طرد عدوهم من النقب والجليل ومن تلك المواقع التى تهدد السهل الساحلى .. وكان الوقت فى صالح اسرائيل ، ولذلك كانوا يرحبون بلحظة التقاط الأنفاس .. قد أمكن جلب المزيد من الأسلحة ، كما أمكن تسوية المشاكل المتعلقة بالتنسيق بين مختلف الألوية ، وأمكن كذلك اعطاء الجنود الذين أرهقتهم المعارك فرصة للراحة كانوا فى مسيس الحاجة اليها ..

بدأ تنفيذ وقف اطلاق النار فى الحادى عشر من يونية ، واستمر لمدة شهر تقريبا ، ولكن العرب أنهوه •• ورغم أن قادتهم العسكريين لم يكونوا متحمسين لاستئناف الحرب ، فان رؤساءهم السياسيين الذين كانوا أعلنوا عن انتصارات لا وجود لها شعروا بأن عليهم أن يبرروا دعايتهم • واسترضاء للعسكريين اتفق على أن تظل الجيوش العربية فى موقف الدفاع •• وقد أوجز « كورزمان » هذا الحل الهزلى بقوله : « ان العرب بالطبع لن يستطيعوا أن يحققوا أى كسب بهذه التكتيكات ، ولكنهم بالحظ وحده لن يخسروا أيضا أى شىء » ••

وفى الوقت الذى انهمك فيه العرب فى مثل هذا النقاش الاستراتيجى ، كان الاسرائيليون يستعدون لاستئناف القتال بسلسلة من الهجمات التى سوف تكسبهم الحرب فعلا •• وفى لحظة انطلاق أولى الطلقات المصرية فى الجنوب وضعت هذه الخطوط الاسرائيلية موضع التنفيذ ، وبها يتم وقف المصريين ، وطرد السوريين وجيش التحرير العربى فى الشمال والجيش العربى فى الوسط واجبارها على التقهقر ••

وكان أنجح هجوم هو ما تمثله عملية « ديكيل » وكانت أهدافها هى تأمين « وادى زبيولون » والاستيلاء على الناصرة •• فلقى الهجوم مقاومة من جانب الجنود غير النظاميين فى جيش التحرير العربى •• وبعد أيام قليلة فقط من القتال تم تحقيق الأهداف ، وأصبح غربى الجليل فى قبضة يد الاسرائيليين •• وفى أقصى الشمال أثبت السوريون أنه من الصعب زحزحتهم ، وتمكنوا من صد الهجمات الاسرائيلية على « ميشمار هاياردين » ••

ولكنها كانت نقمة ظاهرها النعمة ، فقد شجع ذلك البريطانيين على معارضة وقف اطلاق النار مما أتاح للاسرائيليين وقتا ليلحقوا هزيمة منكرة بالحليف الاول ببريطانيا ، عبد الله وجيشه العربى فى المنطقة الوسطى الحساسة ، واستولت القوات المتجمعة على اللد والرملة ، واستغل الاسرائيليون نجاحهم للاندفاع والانتشار جنوبا وشرقا ، وبذلك وسعوا الممر الذى يربط بين القدس والساحل •• وبالرغم من فشل هجوم آخر على « لطرون » وان الطريق الرئيسى ظل مغلقـا فان الطريق البديل الذى تم بناؤه خلال الهدنة أصبح الآن محميا بحزام عريض من الارض •• وأخفق الاسرائيليون بقواتهم المرابطة فى القدس فى هجوم شنوه على المدينة القديمة ، فبقيت فى يد الجيش العربى ••

وان كانت المدينة الجديدة قد صارت آمنة فى حوزة الاسرائيليين الآن •• ولقد طالب الاسرائيليون بمعظم الارض التى كانت من نصيبهم ، وطالبوا أيضا بالمزيد • أضف الى ذلك أنه لم تكن هناك فرصة كبيرة لزحزحتهم بالوسائل العسكرية ••

لذلك رأى البريطانيون المتفائلون أن الامر يتطلب تدخل السياسة من جديد ، وأدى الضغط القوى فى الأمم المتحدة الى وقف ثان لاطلاق النار فى ١٧ و ١٨ يوليو •• وقد بدا واضحا هذه المرة أنه لصالح العرب ولكنهم لم يفعلوا الا القليل لادراك فوائده ••

ان المضمون الغامض للتضامن الذى كان ظاهرا فى مايو قد تلاشى تماما الآن حيث أخذ كل نظام فى لوم الآخر على ما لحق به من فشل مهين ••

والواقع أنه لم يكن هناك من يرغب حقيقة فى استمرار الحرب ، ولكن لم يشأ أحد أن يكون هو البادىء بقبول الصلح •• وأعلنت الحكومة اللبنانية أنها توافق على أن تكون « ثانى » حكومة تعقد الصلح •• واستمرت المكائد •• وفى الاجتماع الذى عقد فى أغسطس بمدينة عمان لوزراء خارجية العرب أخذ كل منهم يرفع معنويات الآخر ، وقرروا فى حماس استئناف الحرب •• ولكنهم حرصوا على عدم تحديد موعد لاستئنافها •• ومر شهر سبتمبر دون أن تظهر تحركات على هذا الطريق ••

وكان من سوء حظ العرب أن الاسرائيليين كانوا يشعرون أنهم أقل تعطشا للدماء •• وكان هناك رجل ، هو الدبلوماسى السويدى الكونت برنادوت ، الذى كان يهدد بالوقوف فى وجه اسرائيل •• كانت الأمم المتحدة قد عينته ليتفاوض فى فلسطين من أجل تحقيق السلام فيها ، وكان مفروضا أن يكون محايدا ولكن حياده بدا للاسرائيليين وكأنه يخفى فى طياته اهتماما غير لائق بمصالح بريطانيا وشرق الاردن •• ولم تعمل مراجعته لمشروع التقسيم الاصلى على تبديد هذه الشكوك •• وكان من المفروض أن يتم تخطيط فلسطين وشرق الاردن معا فى دولتين يربطهما اتحاد فيدرالى مرن ، وذلك مع تسليم القدس والنقب الى العرب ، وفى مقابل ذلك يعطى لليهود غربى الجليل الذى كان الاسرائيليون يحتلون بالفعل معظم أجزائه ••

كذلك لم تفكر الدول العربية الأخرى كثيرا فى مقترحات برنادوت لكونها تنطوى على توسيع شرق الاردن •• وبالنسبة لاسرائيل فان هذه المقترحات كانت أكثر من أن تكون غير مرضية ، لأن تنفيذها سيحرم الدولة اليهودية الجـديدة من المناطق التى كانت من نصـيبها بموجب التقسيم الأصلى وتعتبر حيوية لبقائها ونموها • ومن الطبيعى أنه لم يكن فى وسع الجيوش العربية مساندة المشروع ولكن طالما أنها تسيطر على هذه المناطق فستظل اسرائيل عرضة للضغط الدولى •• وقد تختـار الأمم المتحدة اضفاء الشرعية على الوجود العربى بأن تعترف مثلا بحكومة المفتى الفلسطينية التى تكونت صيفا فى منطقة غزة بتشجيع من المصريين •• وأن تعزز هذه الشرعية بالتصديقات الدولية ••

وما كان ليمكن منع هذا الاحتمال المخيف الا باحتلال اسرائيل للنقب •• وكان يسود الاعتقاد بأن الامم المتحدة سيكون من الصعب عليها اضفاء الشرعية على مطالبة العرب بالارض التى لم تعد تحت سيطرتهم ••

فى منتصف سبتمبر كان الاسرائيليون مستعدين للهجوم ، وكان جيشهم عندئذ أحسن تماسكا ، حيث كانت النزعات شبه الاستقلالية من جانب ألوية « بالماخ » اليسارية والمنظمات الارهابية اليمينية ، قد زالت تماما وبلغ تعداد الجنود فى الميدان تسعين ألف مقابل ستين ألف للعرب ، وكانت موزعة فى أربع قوات اقليمية تغطى الشمال والوسط والجنوب والقدس ••

ولم يعد الاسرائيليون يحاربون بسريات ذات اكتفاء ذاتى تتكون الواحدة منها من مائة رجل أو ما يقرب من ذلك ، بل بقوات متكاملة قوامها الألوف من الجنود تساندها كل أسـلحة الخدمات من مخابرات وامداد وتموين وصيانة ، على غرار أى جيش حـديث •• واذا كانت أسلحة المدفعية وأسلحة الطيران قد ظلت « هيكلية » فان ذلك كان متوقعا • وكان الخوف وحده من حركات دولية مضادة هو الذى أثنى هذا الجيش عن التركيز ضد الجيوش العربية الأصغر والمتفرقة ، وعن مهاجمتها واحدا بعد الآخر ••

ولكن سرعان ما تبدد هذا الخوف •• ففى السابع عشر من سبتمبر قام أعضاء منظمة « ليهى » التى لم تكن بعد قد سوت خلافاتها مـع

حكومة بن جوريون المكلفة باغتيال الكونت برنادوت فى القدس ..
وكما حدث بالنسبة لدير ياسين ، استنكرت الحكومة الاسرائيلية هنا أيضا هذا العمل ، وكما حدث أيضا فى دير ياسين ، كان هذا العمل مفيدا الى أقصى الحدود .. لقد استطاع الاسرائيليون أن يدركوا مدى تصميم وعزم خصومهم .. ولم يكن لرد الفعل الدولى أى وزن .. وأخذ العرب يلوحون بالتهديد ، ولكنهم لم يحركوا جيوشهم ..

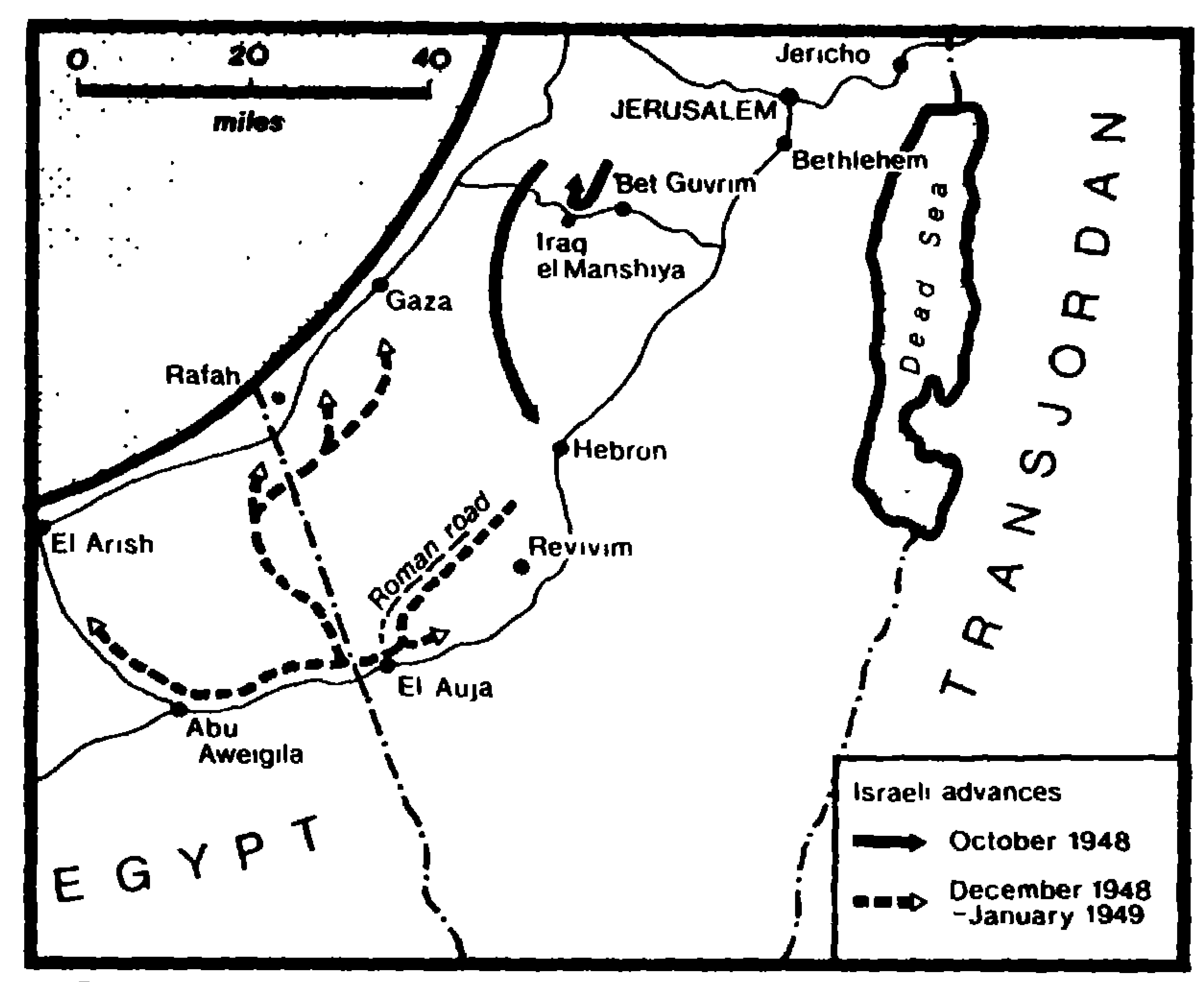
لقد قوبلت خطة الوسيط الراحل بالتعاطف والاحترام لدى الامم المتحدة .. ومن ثم فانه صار من الواضح أن التحرك ضد المصريين فى النقب ضرورى وممكن أيضا ..

ومما جعل « عملية يواف » أكثر سهولة موقف القوات المصرية التى كانت تتألف من ثلاثة خطوط طويلة ومكشوفة ، يتبع اثنان منها الطرق السابق ذكرها من العريش الى أشدود ، ومن العوجة الى بيت لحم .. أما القوة الثالثة فكانت منتشرة على طريق جانبى يربط الطريقين الآخرين مارا بالفالوجا وبيت جوفرين .. وكانت الخطة الاسرائيلية هى اقتحام الخط الجانبى والاندفاع جنوبا وشرقا لقطع خطوط الامداد للقوات المصرية على طريق الخليل ..

وفى الخامس عشر من أكتوبر ، افتعلت اسرائيل حادثا فى النقب ، وبه بدأت « عملية يواف » ، وقام السلاح الجوى الاسرائيلى الناشىء بهجوم ناجح على القواعد الجوية المصرية فى سيناء ، بينما قام الجيش البرى بشن هجمات على طول الطريق الساحلى وشرقى الفالوجا ، ليصرف بذلك نظر العدو عن الضربة الرئيسية التى اعتزم توجيهها فى منطقة عراق المنشية ، ولكن فوجىء الاسرائيليون بفشل الهجوم ..

وازاء الضغط المتزايد فى الامم المتحدة من أجل وقف جديد لاطلاق النار ، شن الاسرائيليون هجوما انتحاريا على مفترق الطرق العربية القوية فى الفالوجا ، ونجح هذا الهجوم بالرغم من فداحة الخسائر واستولوا على مدينة بئر سبع العربية فى العشرين من أكتوبر ، ولم ينقذ الخليل من نفس المصير الا حركة ردع قام بها الجيش العربى ..

وفى الثانى والعشرين من أكتوبر بدأ تنفيذ وقف اطلاق النار الجديد ، وكان كل من الجانبين قد استحوز على قطاع هام من النقب



The northern Negev, October 1948–January 1949

الشمالى ، وحول الفالوجا حاصر الاسرائيليون قوة مصرية ضخمة ، وكان الضابط الذى قام بالتفاوض بشأنها هو الرائد جمال عبد الناصر •• وقد تحدث طويلا وبحماس الى الطرف الآخر الاسرائيلى عن الحاجة الى طرد البريطانيين من مصر ••

وكان الاسرائيليون لا يزالون أكثر اهتماما بطـرد المصريين من النقب ولما كانت قواتهم فى الشمال قد « حررت » كل الخليل من قبضة القاووقجى والسوريين واللبنانيين ، فان القيادة الاسرائيلية العليـا أخذت فى التخطيط لمغامرة جديدة فى الجنوب ••

كان الجيش المصرى وقتئذ فى موقف أقوى ، وكان لا يزال مسيطرا على الطريق الساحلى وطريق الخليل حتى « ريفيفيم » ولم يكن هناك بين هذين الطريقين غير الرمال التى لاح انه لا يمكن المرور خلالها ، وكان من المفروض أن يشق الاسرائيليون طريقهم عبر هذه الطرق وأن يقتحموا نقاطها المنيعة ، الواحدة بعد الاخرى ، وقد يكون ذلك بطيئا وباهظ التكاليف ••

وهنا حالف الحظ اسرائيل ، فقد عثرت احدى دوريات الاستطلاع على طريق رومانى قديم يخترق هذه الرمال التى لا يمكن المرور خلالها أو اختراقها ، وقام الاسرائيليون فى نشاط باصلاح سطح الطريق •• وفى الثانى والعشرين من ديسمبر ، وبعد تدبير ذريعة جديدة ملائمة لكسر وقف اطلاق النار ، استخدمت اسرائيل هذا الطريق ، ولاحت الوحدات الميكانيكية من قلب الصحراء لتهاجم المصريين الذين روعهم الهجوم فى العوجة ، وأما المواقع العسكرية على الطريق الى الشـمال فانها بعد أن انقطعت صلتها بالجيش انهار معظمها فى غضون بضـعة أيام قلائل •• واندفع الاسرائيليون غربا الى سـيناء •• وبعـد أن اكتسحوا أم كاتف ، أخذت الوحدات الاسرائيلية المتقدمة تهدد بالاستيلاء على العريش من الجنوب وبذلك تعزل القوات المصرية الكبيرة التى كانت لا تزال تحتفظ بالمناطق الساحلية حول رفح وغزة •• لكن حكومة اسرائيل رجعت عن هـذا التهديد تحت الضغط الشـديد من جانب الحكومتين البريطانية والامريكية ، كما أن القيادة العسكرية الاسرائيلية اختارت حلا ثانيا أفضل ، اذ بعثت بقواتها الى طريق العوجة — رفح ، لان الاستيلاء على رفح من شأنه أن يحقق نفس هذه الغايات ولكن ليس بمثل هذا الوضوح ، غير أن هذه الحيلة المكشوفة فشلت عندما جاء انذار بريطانى ليوقف الاسرائيليين عند حدهم حين رأى البريطانيون أن العرب خسروا بالفعل ما فيه الكفاية ••

فى أوائل يناير جاهد المصريون من أجل توقيع هدنة ، وفى الاشهر التالية حذت النظم العربية الاخرى ، الواحد تلو الآخر حذو مصر •• وقام الاسرائيليون المنتصرون بعملية أخرى ، اذ استولوا فى أوائل مايو على النقب الجنوبى وايلات مع عدة أميال من الخط الساحلى عند الطرف الشمالى لخليج العقبة ••

وانتهت الحرب •• لكن آثارها جعلت من الصعب التوصل الى السلام ••

وصدر حكم عسكرى مؤقت بشأن المطالب المتنافسة فى شأن ذلك القطاع من الارض الممتد بين نهر الأردن والبحر ، ولكنه كان حكمـا يفتقر الى سند سياسى ••

* * *

الفصـل الثانى

الارض غير الموعودة فلسطين حتى ١٩٢٠

— ١ —

يرى كثير من الناس أن حـرب فلسطين هى مصـدر كل النزاع والحروب اللاحقة التى شملت اسرائيل والعرب •• ومن المؤكد أنها خلقت تغييرا حاسما فى المظهر السياسى العام للشرق الأوسط •• ولعل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين هى المأساة الكبرى بعد هذه الحرب ، ولكن هناك عوامل أخرى أسهمت بالمثل فى الابقـاء على الجو العدائى وفى اشعال الحروب •• فهزيمة الجيوش العربية خلقت الشعور بالمرارة ، كما أن احتلال الارض العربية من جانب اسرائيل والاردن تحديا لأهداف خطة التقسيم التى قررتها الامم المتحدة ، لم يساعد الموقف فى أى شىء •• لقد تمثلت المشكلة أساسا فى أن حرب فلسطين قد صنعت وشكلت دولة جديدة فى الشرق الاوسط ، دولة كانت طبيعتها فى حد ذاتها تحديا للأغلبية العربية بالمنطقة ••

ان الدولة لم تظهر الى عالم الوجود طفرة واحدة ومن المؤكد أنها لم تكن ثمرة أى اعلان عن قيام دولة أو استقلالها من جانب الطائفة اليهودية فى فلسطين ، كما أنها أيضا لم تخلق فى أتون الحرب •• لقد سمحت الحرب بأن تبنى اسرائيل نفسها عن طريق الالتحام بين جيش وطنى فعال ونظام قيادة مركزية قادرة على تكريس نفسها لمهام الزعامة السياسية والادارة المدنية •• كما أنهـا هيأت الظروف لبنـاء هيكل اقتصادى ثابت •• ولكن نواة الدولة كانت موجودة بالفعل من قبل •• فقبل عام ١٩٤٨ بكثير ، كان قد تم تقريبا تكوين المؤسسات العسكرية

والاقتصادية والسياسية التى هى المقومات الضرورية لأى دولة ، وذلك انتظارا لساعة الميلاد ..

وقبل مولد اسرائيل كانت هناك فترة « الحمل » التى تسبق « الوضع » .. وعلينا الآن أن نتتبع النزاع العربى الاسرائيلى الى أن نصل الى لحظات « الرغبة العاطفية » التى سبقت « الحمل » فى ذلك الطفل العنيد (وهو ما تفعله تلك اللحظات عادة) ..

— ٢ —

اذا لم استطع اخضاع الآلهة ، فسأطلق سراح جهنم ..

الشاعر فرجيلى

خلال القرن الاخير كانت « المسألة الشرقية » كما قال فيها « هوبسبوم » : (المشكلة الاكثر تفجرا فى الشئون الدولية بعد حروب نابليون ، وهى المشكلة الوحيدة التى قد تؤدى الى حرب شاملة) وهى ما تحدث به ساسة القرن التاسع عشر عن مجموعة النزاعات الدولية المعقدة التى أخذت تلوح مع قرب زوال الامبراطورية العثمانية التى كانت فى وقت من الأوقات امبراطورية قوية . لقد ظهر الأتراك العثمانيون فجأة فى القرن الرابع عشر ليلتقطوا تلك العباءة الملطخة بالدماء والتى سقطت م نفوق أكتاف الأباطرة البيزنطيين قبل ذلك بعدة قرون ، وبحلول سنة ١٦٨٠ فانهم كانوا قد بسطوا سلطانهم على اليونان والبلقان وشمال افريقيا وفلسطين وسوريا والعراق .. وما ان تم صدهم أمام أبواب فيينا سنة ١٦٨٣ حتى أخذ نجمهم فى الأفول ..

وبمجرد أن وجد العثمانيون استحالة التوسع الى أبعد مما وصلوا اليه فانهم مثل كل الامبراطوريات التى من هذا القبيل واجهتهم مهمة ضخمة هى الحفاظ على تثبيت حكمهم فوق منطقة فسيحة تنوعت فيها الثقافات ، وعملت الثورة الداخلية والاغارات من المناطق المحيطة بها ، على ارهاق تلك الادارة المركزية (التى كانت تحمل اسما غريبا ، هو « الباب العالى ») ، فقد استحال عليها مجاراة العصر كما استحال عليها أيضا أن تتصرف فى الامور عامة .. وبدأت الامبراطورية تتفكك تحت هذا الارهاق والتوتر ..

وكان من الطبيعي أن تجد عملية التفكك هذه ما يشجعها حيث كانت الامبراطوريات الناشئة تحاول أن تضع يدها على أجزاء كبيرة من هذه الامبراطورية التى كانت على وشك أن تحتضر •• ولكن الاهداف المتضاربة لمختلف الدول الاوروبية الكبرى الناشئة فرضت على العديد منها مساندة الحكم العثمانى بوصف كونه حاجزا فعالا فى وجه الآخرين فالبريطانيون ، على سبيل المثال ، كانوا يعملون على الاستقرار والحياد فى شرقى البحر المتوسط وكانت هذه السياسة فى معظم القرن التاسع عشر تخدم أغراض المواصلات الامبراطورية مع الهند • وحرصت بريطانيا على تجنب أية مواجهة عسكرية مباشرة فى هذه المنطقة ، ولم تكن تلجأ للسلاح الا عندما كانت تجد أنه هو الطريق الوحيد أمامها •• بل ان البريطانيين كانوا شديدى الاهتمام بألا يكون لهم وجود عسكرى فى الامبراطورية التركية خوفا من أن يعجل ذلك بنهاية العثمانيين ••

وفى معظم القرن التاسع عشر كان موقف البريطانيين من مصر هو ما أوجزه لورد بالمرستون بقوله : « اننا لا نريدها لأنفسنا الا كأى رجل معقول يمتلك عقارا فى شمالى انجلترا ، وله محل اقامة فى الجنوب ، فهو يتمنى أن تكون له حانات على الطريق الشمالى •• وكل ما يمكن أن يرغب فيه هو أن تكون تلك الحانات نظيفة ومن السهل الوصول اليها وان تمده عندما يأتى اليها بشرائح الضأن ، وان يجد فيها حصانا يمتطيه ••

وعلى أية حال فانه أصبح واضحا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أن الامبراطورية العثمانية أخذت تتمزق بصورة بشعة برغم ما بذله البريطانيون من محاولات للحفاظ على تماسكها •• ولم يمنع التهديد بالقوة أو القوة نفسها الدول المنافسة لبريطانيا من الاستيلاء على أجزاء الامبراطورية الممزقة •• وعندما لم يعد ممكنا ضمان المصالح البريطانية فى الخارج ، عندئذ فقط قرر البريطانيون التعجيل بزوال الامبراطورية ، واستولوا هم أنفسهم على بعض أراضيها ••

كانت هناك منطقتان هامتان ، الاولى هى مصر حيث كانت بريطانيا تواجه موجة عالية من القومية الوطنية ، وبرامج قوية للأخذ بأسباب الحضارة الحديثة لأسرة حاكمة ذات ميول فرنسية ، والاخرى هى الخليج الفارسى وبلاد ما بين النهرين حيث كان التهديد الطبيعى بالتدخل

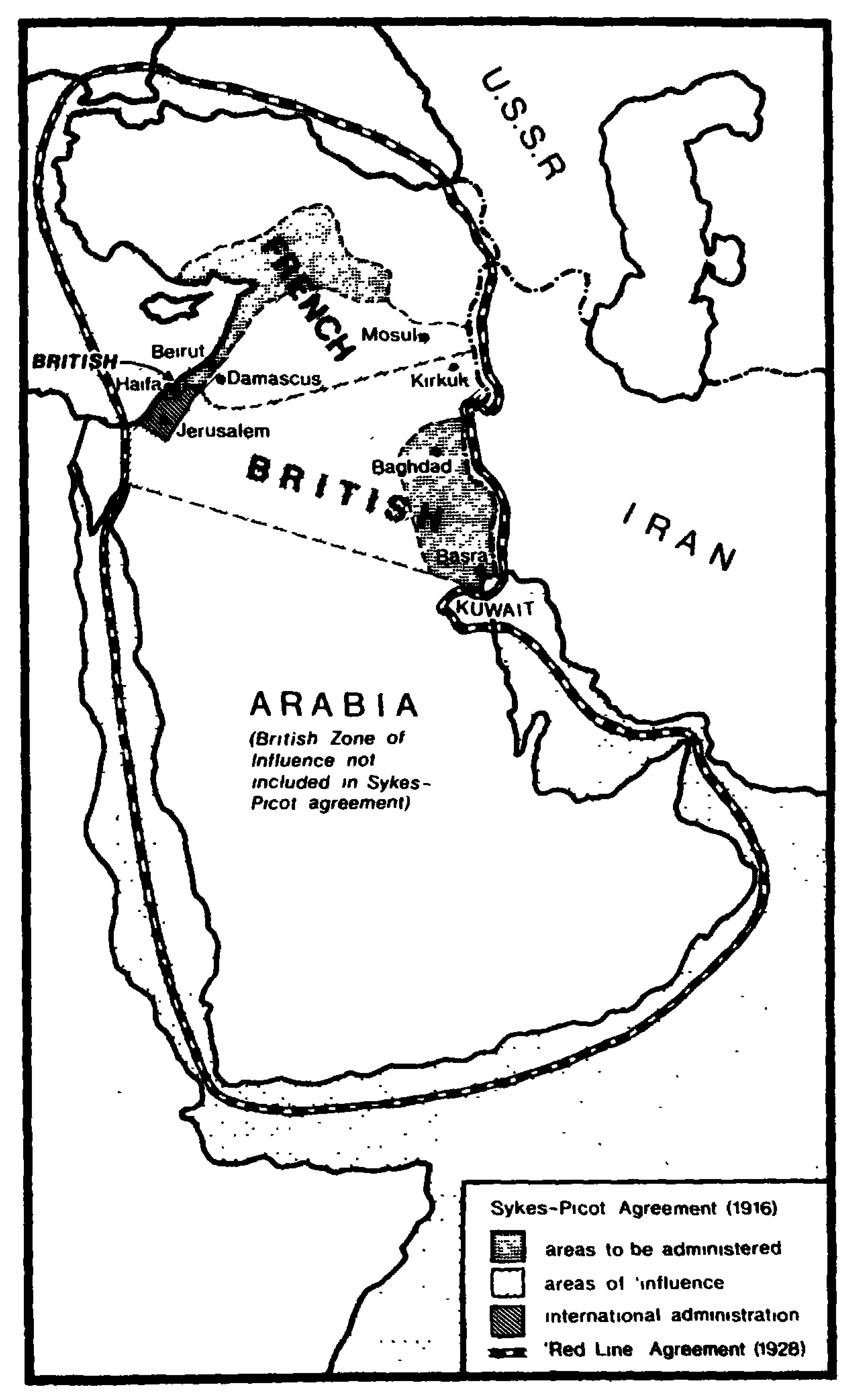
الألمانى أو الروسى قد ازداد حتى بلغ درجة الازمة فى السنوات التى أعقبت عام ١٨٧٠ ..

وفى عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر ، لتضمن من ناحية السيطرة على قناة السويس التى كانت قد افتتحت حديثا ، ومن ناحية أخرى ، لكى تحمى الاستثمارات البريطانية فى الاقتصاد المصرى (وخاصة فى المجال الهام لانتاج القطن) ، وأخيرا لكى تواجه أى تهديد بمحاولة سيادة القومية الوطنية المتطرفة والمناهضة لأوربا .. وشهدت السنوات التالية صراعا من أجل السيطرة على منطقة الخليج الفارسى ..

والواقع أن الروس والبريطانيون توصلوا الى تفاهم حول ايران، ولكن ميل الاتراك وقتئذ نحو الالمان كان قد أصبح حاسما .. وأصبح اشتراك ألمانيا فى مد خط السكة الحديدية بين برلين وبغداد مصدر تهديد ليس للمصالح الاستراتيجية البريطانية على ما كانت عليه ، فى الخليج اذا ما حدث هجوم على المؤخرة فحسب ، بل أيضا لحصولها على النفط الذى تم اكتشافه بالمنطقة فى أواخر القرن التاسع عشر ..

وفى عام ١٩١١ ، وصلت الأزمة الى ذروتها عندما أعلن ونستون تشرشل (وزير البحرية حينئذ) أن الاسطول البريطانى سيتحول من نظام الغلايات التى تستخدم الفحم الى الغلايات التى تعمل بالنفط .. لقد ظلت البحرية البريطانية زمنا طويلا هى الضمان لسيادة بريطانيا كدولة عظمى فى العالم ، واعتبارا من عام ١٩١١ لم تعد السيطرة البريطانية فى الشرق الأوسط مجرد موضوع « حماية طرق المواصلات الامبراطورية » ، بل كان عليها أن تصبح ببساطة أساس قوة بريطانيا • ان لم تكن هى الضمان الوحيد لبقاء الامبراطورية البريطانية فى أية صورة كانت ..

واقتربت ساعة الحرب المحتومة بين القوى الامبراطورية الكبرى فى أوربا • وكما يفعل الأقارب الجشعون من حول سرير جدهم عند احتضاره ، أخذت الدول الأوربية تتقاتل بشراسة من أجل الاستحواز على أثمن الأجزاء فى الممتلكات الشركية .. ولعل ما قررته تركيا من الانضمام الى ألمانيا والنمسا ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا كان عملا مبعثه اليأس .. ان انتصار ألمانيا هو وحده الذى يمكن أن يقف فى وجه



Middle East oil between the wars

الرغبة المشتركة من جانب الدول الأخرى الثلاث فى تفتيت الامبراطورية العثمانية ..

فانحياز تركيا أعطى بريطانيا الذريعة التى تتذرع بها لتقوم بغزو على نطاق كامل ضد الامبراطورية العثمانية ، وهو الغزو الذى طالما أجلته بريطانيا ..

وكان لبريطانيا أربعة أهداف رئيسية فى المنطقة ، هى :

١ ــ حماية قناة السويس ..

٢ ــ تأمين الاتصال الاقليمى بين مصر والهند ..

٣ ــ صد الفرنسيين الذين كانوا يساندون ما يطالب به بعض العرب من قيام « سوريا الكبرى » التى تشمل معظم « الهلال الخصيب » ..

٤ ــ تأمين امدادات النفط ، وطريق النفط ، من الخليج الفارسى والعراق الى البحر المتوسط ..

وفى عام ١٩١٤ اتصل ببريطانيا الشريف حسين ، أمير مكة .. وكان حسين من سلالة النبى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ويوصف كونه حاكما اسميا للحجاز ، وهو القطاع الساحلى الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ويضم المدينتين المقدستين مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ... وانه كان فى وسعه أن يقدم قوات كبيرة فى الصراع ضد تركيا ... واهتمت بريطانيا بهذا العرض عندما بدأت قواتها تواجه الهزيمة فى معركة الشرق الأوسط .. وفى مجموعة من الخطابات المتبادلة بين حسين والمندوب السامى البريطانى فى مصر ، سير هنرى ماكماهون تم التوصل الى اتفاق يبدو أنه يتضمن وعدا باستقلال العرب مقابل قيام العرب بثورة ضد الاتراك بقيادة حسين ..

وعن طريق ماكماهون عرض البريطانيون بصورة غير رسمية التأييد والاعتراف باستقلال العرب فى منطقة يستبعد منها فقط منطقة مبهمة التحديد غربى دمشق وحمص وحماه وحلب ، قال عنها ماكماهون فى رسالته « انه لا يمكن أن يقال انها عربية صرفة » ..

ولم تكن لدى بريطانيا النية فى منح الاستقلال للعرب ، كما انهم

فى الواقع لم يعدوا به اطلاقا •• بل لقد فضلوا فى الواقع تمزيق المنطقة الى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية وروسية •• وقد تم تخطيط ذلك فى اتفاقية « سايكيس ـ بيكو » السرية عام ١٩١٦ (انظر الخريطة رقم ٤) •• ان هذا الاتفاق يقدم أكثر الصور واقعية لاطماع بريطانيا فى الشرق الأوسط • وبعد الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧ كشف الروس عن تفاصيل اتفاق « سايكيس ـ بيكو » ورفضوا أية مطالب اقليمية فى المنطقة •• وعندئذ أعلن البريطانيون أن الاتفاق لم يعد نافذا ، ولكن هذا لم يمنعهم من وضع اليد على الاراضى التى كانت من نصيبهم بموجب هذا الاتفاق الذى لم تكتب له الحياة •• بل استولوا أيضا خلسة على منطقة الموصل الغنية بالنفط ، حيث انتزعوها من يد الفرنسيين فى الايام الأخيرة من الحرب ••

وفى نفس الوقت ، قامت الثورة فى عام ١٩١٦ كما وعد حسين •• ولكى ينفى البريطانيون عن أنفسهم صفة الغدر ، زحفوا على فلسطين متخذين من عرب حسين جناحا أيمن لهم ، وفى نفس الوقت تقريبا قدموا جزءا من أرضها لليهود ••

فقد قام وزير الخارجية البريطانية ، تحت الحاف الاتصالات الدبلوماسية للزعيم الصهيونى حاييم وايزمان (الذى أصبح فيما بعد أول رئيس لاسرائيل) بارسال مذكرة الى المنظمة الصهيونية عن طريق لورد روتشيلد •• انها وعد بلفور المعروف فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، وقد جاء فيها « تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف الى اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين » ••

كان هذا نصرا لنوع مدروس من الابهام •• لقد تضمن البيان تعهد بريطانيا ببذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف بشرط ألا يفعل شىء من شأنه الاضرار بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة بفلسطين ، او بالحقوق والنظام السياسى التى يتمتع بهما اليهود المقيمون بأى دولة أخرى •• وكانت هذه عموميات وشروط يمكن أن يتخفى وراءها حتى أكبر امبراطورية عرفها التاريخ ••

وغالبا ما قيل ان فلسطين تدخل ضمن المنطقة التى قال عنهما ماكماهون انها « ليست عربية صرفة » •• وسواء أكانت هذه الحجة صادقة أم غير صادقة ، فانها غير ملائمة وبعيدة عن الموضوع فلقد كان

وعد بالفور قمة البراعة فى الخداع السياسى ، شأنه فى ذلك شأن الوعد الذى قطعه ماكماهون الذى لم يكن من ورائه دافع نبيل كالتفكير فى اليهودى أو العربى •• وهو كدعاية ، كان حصيلة الممارسة الدبلوماسية الطويلة التى اشترت حلفاء يهودا لهم قيمتهم فى أمريكا وروسيا الثورة ، فى وقت كانت فيه أمريكا بحاجة الى أن تقوم على الاشتراك فى جهود الحلفاء ، وكانت روسيا بحاجة الى من يغريها بعدم الانفصال عن هذه الجهود ••

ووعد بالفور المشئوم بما تضمنه من التزام بريطانى فى الشرق الاوسط أعطى بريطانيا مبررا علنيا لاحتلال المنطقة •• انه لا ماكماهون ولا بالفور قد أعطى أيهما أى وعد حقيقى صادق بالاستقلال •• وكانت الوثائق فى نظر اليهود والعرب على السواء مجردة من كل قيمة ••

وفى يناير ١٩١٧ ، نسب الى رئيس الوزراء البريطانى ، لويد جورج قوله عن فلسطين : « علينا أن نمسك بها •• وما فعلناه هو البداية » ••

أصبح الشرق الاوسط موضوعا للمناقشة فى العديد من المؤتمرات بعد هدنة ١٩١٨ • وقبل الامير فيصل بن حسين كمندوب فى مؤتمر الصلح فى فرساى ، وكان فيصل قد اتصل فعلا بحاييم وايزمان تبعـــا لنصيحة أدموند اللننى قائد القوات البريطانية فى الشرق الاوسط •• ونشأت بين فيصل ووايزمان صداقة ، واتفقا على أن يمثلا جبهة متحدة أمام البريطانيين والفرنســيين •• وحرص كلا الرجلين على عـــدم استخدام تعبير « الدولة اليهودية » فى أية مفاوضات ، ولكن لا شك فى أن فيصل أدرك أن « الدولة » هى بالذات ما كان اليهود يريدونه •• لقد عمل حسابه أن من الممكن للصهيونيين أن يكونوا قوة مؤثرة على بريطانيا ، ولم يجد مبررا لان يخلق عداوات لا داعى لها أمام موقف بلغ هذا القدر من التعقيد فى المساومات •

من الواضح أن فيصل أدرك أن بريطانيا ذات وجهين ولكنه كان رجلا واقعيا لقد تمسك الفرنسيون بصلاحية اتفاق « سايكيس — بيكو » ولكنهم كانوا على استعداد للتجاوز عن مطالبهم فى الموصل وفلسطين مقابل تعويض مالى عاجل •• ولعل فيصل كان يرتاب فى الفرنسيين الضعفاء أكثر من ارتيابه فى البريطانيين الاقوياء ، وكان سحب الفرنسيين للمطالبة بفلسطين هو الفرصة الملائمة التى كان بحاجة اليها •• فوافق

على أن تصبح فلسطين موقعا للوطن القومي اليهودي ، ووافق على أن تصبح فلسطين والدولة العربية المقترحة (وتضم المملكة العربية السعودية على ماهي عليه اليوم ، ولبنان ، والأردن ، وسوريا والعراق)، محميتين بريطانيتين لفترة محدودة .. وطلب فى مقابل ذلك قيام حكم عربى فى الدولة العربية مع الاستقلال التام فى نهاية الامر ..

لقد كانت فلسطين ثمنا بخسا بالنسبة لفيصل يدفعه فى مقابل مملكة قد تمتد من المحيط الهندى على وجه التقريب الى حدود روسيا ، خاصة وان فلسطين لم تكن ملكا له ولم يوعد بها ..

قدم فيصل ووايزمان وثيقة مشتركة الى مؤتمر الصلح يتضمن اتفاقهما بشأن فلسطين .. وطبيعى أن الوثيقة تضمنت وعدا بحماية الحقوق الدينية والسياسية والاقتصادية للفلسطينيين غير اليهود . ومن الصعب أن نتخيل أن أيا من الرجلين قد أخذ هذا الوعد بمنتهى الجدية .. لقد كان فيصل يستطيع بوضوح أن يتجاهل الكثير ليحصل على دولته العربية ، ويتجاهل من بين ما يتجاهل الحقيقة الواضحة وهى أن الدولة اليهودية سيكون عليها أن تلجأ للتفرقة ضد غير اليهود .. وكل ما كان يريده وايزمان وهو أن يضمن اعترافا دوليا بحق المنظمة الصهيونية فى أن تتكلم باسم فلسطين .. وفى لعبة سياسة القوة لا يفوز الا القوى وأولئك الذين يختارهم القوى ليرفعهم الى مركز السلطة ..

وكما حدث بالفعل فان هذا التشابه فى الاتفاق بين المطامح القومية الصهيونية والعربية كان ينطوى على تهديد للبريطانيين ، فقيام دولة عربية واحدة كبيرة فيه من السوء ما فيه .. وعلى أية حال ، كانت هناك المطالب الفرنسية التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار وكانت هناك أيضا تلك الحقيقة وهى أن الشرق العربى لم يكن موحدا كما كان يبدو ، فقد مزقته المنافسات الاسرية والطائفية .. وكان مقسما الى مناطق تختلف فى تقاليدها كل الاختلاف كما تختلف فى ثقافتها واقتصادها .. وكان ابن سعود ، حاكم نجد أو المنطقة الوسطى من شبه جزيرة العرب ، يقاتل حسينا وأسرته الهاشمية فى الحجاز وكان سعود يحظى بتأييد بريطانيا المشكوك فى أهدافه شأنه فى ذلك شأن حسين ..

وفى الشمال ، كانت هناك حركة قوية لاعلان قيام « سوريا الكبرى » كالزعيم الطبيعى للأمة العربية ـ وشعب ما بين النهرين له ـ

حضارة ترجع الى مئات سابقة من السنين وكان يطالب فى ذلك الوقت بالاستقلال ..

وفوق ذلك كله ، كانت حقول النفط فى العراق وحول الخليج الفارسى قد أخذت تزداد أهمية بالنسبة للصناعة فى أوربا ، وكان الصراع عليها على أشده بين البريطانيين والفرنسيين والهولنديين والامريكيين ..

وتوصل مؤتمر سان ريمو فى عام ١٩٢٠ الى اتفاق مرضى ، حين قسمت المنطقة الى أقاليم مختلفة ، ومنح البريطانيون الانتداب على فلسطين وشرق الاردن والعراق .. وتنازل الفرنسيون عن مطالبهم فى فلسطين والموصل ، وأخذوا سوريا ولبنان ونصيبا من نفط العراق .. ومنح الحجاز الاستقلال واستولى عليه ابن سعود من الهاشميين فى عام ١٩٢٤ .. أما فيصل الذى كان البريطانيون قد نصبوه ملكا على سوريا قبل مؤتمر سان ريمو ، فانه سرعان ما طرده الفرنسيون .. ومنح العراق الاستقلال الاسمى بعد ثورة شعبية كادت أن تنجح فى طرد الانجليز ونصب فيصل ملكا عليه ..

وكان عبد الله ، الابن الثانى لحسين ، فى طريقه الى سوريا لينتقم لأخيه ، عندما تلقى عرضا دبلوماسيا بريطانيا بأن يصبح أميرا لشرق الاردن .. فقبل ذلك العرض وهو سعيد ..

وكان الفرنسيون أقل دهاء ، وحكموا سوريا ولبنان كمستعمرات حقيقية بغض النظر عن التسميات ، اننا لو سميناها انتدابا أو محميات أو مستعمرات ، فان النتيجة دائما واحدة ، وهى انها جميعا بلاد محتلة ..

ومع ذلك كان لنظام الانتداب ميزة هامة جعلته يبدو كما لو لم يكن هناك احتلال فعلا للبلد المعنية ، بل عناية بأمرها .. وقد ترعرع هذا الوهم فى شرق الاردن والعراق باقامة حكومات هاشمية كالدمى المتحركة .. وهكذا بدت المصالح البريطانية فى مأمن من جديد ..

* * *

الفصـــل الثالث

غرباء فى بلاد غريبة

فلسطين الانتداب من ١٩٢٠ ــ ١٩٤٨

ربما كانت معركة واترلو قد احرز النصر فيهـا بساحات المعارك فى ايتون ولكن المعارك الافتتاحية لكل ما تلاها من الحروب قد باعت بالزهيمة هناك .

عن جورج اورويل فى كتابه « الاسد واحادى القرن »

ــ ١ ــ

ان هناك حــدا لأعمال الأساليب الديمقراطية . فبوسعك ان تستفسر عن كل المســافرين عن نوع السيارة التى يفضـــلون ركوبها ، ولكن الأمر يكون مستحيلا ان تسألهم عما اذا كنت تستخدم الفرامل اذا كان القطار منطلقا باقصى سرعة وتهدده وقوع حادث ..

عن ليون تروتسكى فى كتابه « تاريخ الثورة الروسية »

لقد اعتبر البريطانيون فلسطين الواقعة تحت انتدابهم هبة من الله ، ومع أن فلسطين فى حد ذاتها قليلة الفائدة جدا الا أنها كانت تتمتع بمركز استراتيجى لكونها تطل على قناة السويس من ناحية ، ولكونها الطريق البرى الموصل الى الزيت والى الهند من ناحية أخرى .. ولقد صادق الانتداب على وعد بلفور وأخذ يكرر مبادئه الغامضة بنفس هذه

النغمة الغامضة فكتب ونستون تشيرشل فى سنة ١٩٢٠ عن الوقت الذى يمكن أن « يخلقوا فيه •• دولة يهودية على ضفاف نهر الاردن تحت حماية التاج البريطانى •• ومضى قائلا ان مثل هــذا الحدث سيكون منسجما بنوع خاص مع المصالح الحقة للامبراطورية البريطانية » •

وجلية الأمر هى أن أهداف وعد بلفور كانت من الغموض وسوء التحديد بحيث يمكن للبريطانيين ، من الناحية النظرية ، أن يحتفظوا بوجودهم فى فلسطين الى مالا نهاية • وبدأ أن ليس لهم سلطة الانتداب فقط على الممتلكات وانما لهم السلطة المطلقة فيها كذلك • وحقا أن الانتداب اعترف بالمؤسسة الصهيونية باعتبارها الممثلة للشعب اليهودى فى فلسطين ، وشكل الوكالة اليهودية كنوع من الحكومة داخل الحكومة •• ولكن الانتداب أصر أيضا على أن يسلك سلوكا نزيها بالنسبة الى كل فلسطين ولم يعترف أبدا بأى هدف صهيونى محدد أكثر من « انشاء وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى » •• وهو ما كان يعنى أى شىء ، فهو يمكن أن يعنى دولة يهودية راسخة القدمين ويمكن أن يكون كوخا فى تل أبيب أمامه لافتة تقول « وطن قومى — لليهود فقط » ••

أما عن المؤسسة الصهيونية فانها كانت تعرف جيدا ما الذى تريده• فبعض الصهاينة جادلوا بأن القومية اليهودية قومية عنصرية ووضعوا كهدف لهم نوعا من الدولة لليهود والعرب كليهما — وهؤلاء كانوا يطلبون المستحيل — لأن غاية ما نادى به أى مؤتمر يهودى هو « التعــاون مع العرب » ، وظل الحال كذلك حتى ١٩٢٩ •• بينما طالب آخرون بالحكم اليهودى الفورى • وحجتهم فى ذلك هى أن التدرج ينطوى على خطر الهزيمة ، وشكل فريق من أولئك الصهيونيين الاتجاه « الصــهيونى الداعى الى التعديل » فى سنة ١٩٢٥ ، ونادى بقيام دولة يهودية على ضفتى نهر الاردن ورأوا شن نضال مسلح فى مواجهة البريطانيين • والورثة الروحيون لهؤلاء هم ارهابيو جماعة أرجون وقد اكتسبت أفكار زعيمهم ، فلاديمير جابوتنسكى الاحترام السياسى فى شكل حزب حيروت لمناحم بيجين « حرب ليكود فيما بعد » •• ولو أنه قد حدث التحــام جدى بينهم وبين البريطانيين فى العشرينات لكانوا عرضة للابادة ••

وعلى أية حال فان الجهود المبذولة لاقامة دولة يهودية تلقت دفعة هائلة من الاعتراف الرسمى لحكومة الانتداب بالصهيونية •• فهاهو ذا

نفس ونستون تشيرشل الذى حيا الدولة اليهودية فى سنة ١٩٢٠ يعود الى صياغة الكتاب الابيض المشئوم فى سنة ١٩٢٢ بوصف كونه وزير للمستعمرات وفيه قال : « لقد استخدم وايزمان عبارات يشير فيها الى دولة عاجلة ، والى أن فلسطين يجب أن تصبح يهودية مثلما أن انجلترا دولة انجليزية » • وان حكومة صاحب الجلالة ترى أن مثل تلك الآمال غير عملية وليس فى نيتها تحقيق مثل هذا الهدف • كما أن حكومة صاحب الجلالة لم تفكر فى أى وقت •• فى اختفاء أو اخضاع الشعب العربى أو لغته أو ثقافته للغير • وهى تلفت النظر الى الحقيقة الواقعة وهى أن عبارات وعد بلفور •• لا تضع فى الاعتبار أن فلسطين كلها يجب أن تتحول الى وطن قومى يهودى ، وانما مثل هذا الوطن سوف ينشأ فى فلسطين ••

فمن الناحية النظرية لم يكن هناك غبار على حكم الانتداب البريطانى وليس ثمة قطيعة فيه ، غير أن التفكير النظرى لم يضع فى حسبانه حقائق الامور ، ذلك أن المؤسسة الصهيونية كانت تريد حماية الانتداب لها فى الوقت الذى كانت تكتسب فيه التنظيم الكافى والقوة العددية والكفاءة العسكرية ، ولكنها رفضت الجهود البريطانية لوضع العراقيل فى طريق قيام الدولة فى نهاية المطاف ، وبناء على ذلك فان الزعماء الصهيونيين ظلوا حتى الثلاثينيات ينادون بتدعيم قوات البوليس البريطانى وتقويتها ويعارضون انشاء الهيئات التمثيلية التى كان من شأنها أن تضعف من سلطة المندوب السامى البريطانى فى فلسطين •• وفى الوقت ذاته فانهم أنشأوا هيئات مستقلة استقلالا ذاتيا فى ظل الوكالة اليهودية لأغراض ادارة الحكم المحلى « فاد ليومى » وتنظيم ورفاهية قوة العمل اليهودية « الهستدروت » والدفاع عن المستعمرات الزراعية « الهاجاناه » • ولقد خولت هيئة فاد ليومى التى انتخبت من بين أعضاء « الجمعية التشريعية » وهى جمعية أكبر منها سلطة جباية الضرائب من الجالية اليهودية ••

فبغض النظر عن المؤسسة الصهيونية وفروعها ، فان هذه الهيئات الثلاث وحدها كونت وشكلت جنين دولة ــ وقد تكونت جميعها وتشكلت بانتهاء سنة ١٩٢٠ •• وعلى ذلك فان الحقيقة التى تجاهلها البريطانيون هى أن دولة يهودية كان يجرى بناؤها بالفعل بغض النظر

عما يمكن أن تقوله المؤسسة الصهيونية أو تذكره خلافا لذلك « وهم قد قبلوا الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ بالاجماع » •

وأما عرب فلسطين فانهم لم يتجاهلوا ذلك • لقد خدعهم فيصل الذى كان يدلى ، وهو جالس على عرشه فى بغداد ، بالشعارات المعادية للصهيونية فى حين أن البريطانيين كانوا يستخدمون نفوذهم عليه فى الخفاء ولقد شاهدوا خداع الصهيونيين الذين وعدوا بالتعاون مع العرب وبألا يقبلوا على شىء من التفرقة ضدهم ثم لم يلبثوا ان واصلوا السير فى طريقهم الخاص • وشاهدوا بناء جهاز للدولة ينبذ العرب •• والأراضى التى كان يفلحها العرب (أو التى كانوا عاجزين عن فلاحتها للحاجة الى المال) كانت تباع لليهود •• وكانت تنشأ فرص العمالة والعمل ولكن لم يسمح للعرب بالتنافس عليها •• ومما هو جرى بالملاحظة مع ذلك ، ان اليهود لم يكونوا يفعلون شيئا غير مشروع ، أو حتى مناف للخلق وفقا لكل المعايير ، لأنهم انما كانوا يعملون لتحقيق مصالحهم الذاتية وليس أكثر ••

فليكن ما كانوا يعملون مشروعا وأدبيا ــ ولكنه لم يكن منصفا • فالعرب لم يكونوا متعلمين ، وكانت تنقصهم المهارات الفنية ويعوزهم التنظيم • والأهم من هذا وذاك فأنه كان ينقصهم المال •• حقا كانت لديهم العزيمة ولكنه لم يكن لديهم المال الكاف أو الضرورى •• ولم يكن الأمر مرجعه الى أنهم معادون للسامية ــ فهذه على أية حال فكرة غريبة وانما كان الأمر ببساطة هو انهم رأوا المهاجرين اليهود يستخدمون المال والنفوذ والتعليم للحصول على الأشياء التى أحسوا بأنها ينبغى أن تكون من نصيبهم هم أيضا • ففى السنوات ما بين ١٩٢٠ و ١٩٢٥ على سبيل المثال أنفق الصهيونيون قرابة مليون جنيه استرلينى فى شراء الأراضى البور وأراضى المستنقعات بوادى جرزيل بالقرب من الجليل •• ولقد كتب المندوب السامى البريطانى انه عندما شاهد الوادى فى سنة ١٩٢٠ •• كان هناك أربع أو خمس قرى عربية صغيرة حقيرة ، متباعدة الواحدة منها عن الأخرى لمسافات طويلة ، ويمكن رؤيتها هنا وهناك على قمم التلال المنخفضة ، وفيما خلا ذلك فان الريف كان غير آهل بالسكان ، ولا عجب فى ذلك بالنسبة لمثل هذه المنطقة المنعزلة •• ومع ذلك فانه فى خلال خمس سنوات كان ٢٦٠٠ يهودى قد استوطنوا الوادى ، وتمت زراعة ثلاثة آلاف فدان من

أراضى الغابات وافتتاح عشرين مدرسة ، وتمت زراعة ما يربو على خمسين ميلا مربعا •• وان المرء ليعجب مما استلزمه ذلك كله من العمل الدائب والعرق ، ولكن عليه أن يفكر فيما عساه أن يكون قد تكلفه من المـال ـ لتغطية أثمان الشجيرات والبذور ومواد البنـاء والأدوات الزراعية والآلات وتكاليف النقل •• انه وان كان لا يوجد سجل لذلك الا أن التكاليف لابد وانها كانت باهظة ـ كان المـال أكبر مما تصـل اليه أحلام العرب فى تلك « القرى الأربع أو الخمس الصغيرة والحقيرة » لو انهم تضافرت أحلامهم •• وهذه المستعمرة لم تكن الا الأولى من بين مستعمرات كثيرة مماثلة سوف تنشأ • فما هو الدور الذى سمح للفلاحين العرب بأن يلعبوه فى تحقيق هذا الحلم اليهودى الفخم ؟ لا شىء • وما هى المنافع التى رأوا أن المستقبل يحملها اليهم فى طياته ؟ وهم المواطنون من الدرجة الثانية فى أمة تقوم على التمويل الخاص •• ثم يقال لهم بعد ذلك ، كما كان يقول فيصل ووايزمان • وكما كانت المؤسسة الصهيونية تقول على الدوام ، بأن مصالحهم هى نفس مصالح اليهود فى فلسطين ، مما لم يكن له من أثر سوى مضاعفة شـعورهم بالحرج المؤلم • ولا عجب اذن فى أن كثيرا من الفلسطينيين العـرب الذين كانوا يتطلعون الى الاستقلال ووعدوا به رأوا فى الصـهيونية عدوهم الرئيسى وهى التى داست على أحلامهم وهددت باحراق ما ينالهم من الخير ـ هذا بينما فيصل يجلس فى بغداد • فلم يكن أمامهم الا أن يفعلوا الشىء الوحيد الممكن بالنسبة اليهم ، وهو ان يحاربوا فحاربوا •

ثم كان ان وضع فصل شرق الأردن عن فلسـطين عائقا للحركة الداعية الى مشروع سوريا الكبرى ، وهو المشروع الذى كان كثير من الفلسطينيين العرب يؤيدونه ويناصرونه •• وذلك لان عبد الله كان شديد الارتباط ببريطانيا ، وبالاتحاد غير الرسمى مع العراق أكثر من ارتباطه أو ميله للاتحاد مع سوريا • ومن ثم فان قيام شرق الأردن ذات الحكم الذاتى المستقل لم يخطر باعجاب الجميع بحال من الأحوال • فذلك كان معناه بالنسبة للصهيونيين انهم خسروا أرضا كانوا يطالبون بهـا فى الضـفة الشرقية لنهر الأردن لانها فى رأى الكثيرين منهم كانت جزءا لا يتجزأ من اسرائيل المقدسة ، وأما الفلسطينيون العرب فقـد رأوا فى الرعاية التى يوليها البريطانيون للهاشميين ما يتهدد تطلعاتهم ، فلما خبت روح القومية لسوريا الكبرى ظهرت قومية فلسطينية معينة باعتبارها التيار الأيديولوجى الأقوى فى المنطقة ••

ولقد ظلت الهجمات العربية على المستعمرات اليهودية ، حتى سنة ١٩٢٠ ، هجمات متفرقة بلا هدف مرسوم — اذ كانت تشن هذه الهجمات غالبا قبائل بدوية متجانسة تبحث عن الرزق أو فلسطينيون ممن طردوا فهم يسعون الى نوع من الانتقام •• ولاح صك الانتداب الصادر فى سنة ١٩٢٠ كما لو كان يستثنى بنوع خاص الفلسطينيين العرب من أية خطط لخلق كيانات قومية عربية ، وزاد انشاء شرق الاردن الأمور سوءا فزادت الاضطرابات وأحس البريطانيون ، بعد بلوغ هدفهم فى الحصول على الاعتراف الرسمى بحقهم فى حماية الجالية اليهودية الآخذة فى الازدهار والانتشار السريع بأن الوقت قد حان لأحداث تغيير فى الأولويات والاهتمامات ، فشرع المندوب السامى البريطانى الجديد لفلسطين ، السير هيربرت صمويل ، فى العمل وهو الذى كان (يهوديا ومشايعا للصهيونية) ••

ولذلك فانه أقدم فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٠ على وضع حد للهجرة اليهودية — ولم يحل شهر مايو من السنة التالية الا وكان قد وجد انه من الضرورى أن يوقف الهجرة اليهودية تماما ، وكذلك فانه أصدر الى حيز الوجود مرسوم سنة ١٩٢٠ الخاص بنقل ملكية الأراضى وهو المحاولة الأولى من بين عديد من المحاولات للحد من امتلاك اليهود لأراضى العرب • فهذه الاجراءات لم يكن الهدف منها الوحيد منها هو تهدئة الرأى العام العربى • ففى حقيقة الأمر فان أقلية من هؤلاء كانت تقف فعلا فى صف الهجرة اليهودية وبخاصة بين صفوف الطبقة الوسطى من العرب سكان المدن (وغالبيتهم من المسيحيين) حيث كانت نظرتهم الغربية ومصالحهم العملية تجد المساعدة والعون من أموال اليهود وخبرتهم وكذلك تستفيد من تدفق الأيدى العاملة الرخيصة من الفلاحين على المدن على طول الساحل الفلسطينى • ولربما كان لحسابات البريطانيين نفس هذه الأهمية من أنه كلما طال أمد أعاقتهم لليهود عن تحقيق أغلبية لهم فى فلسطين كلما كان من حقهم ولمدة أطول أن ينفذوا الالتزامات الناشئة عن وعد بالفور وهى الالتزامات التى أصبحت الآن من واجبات سلطة الانتداب ••

وهذه هى سياسة « فرق تسد » البريطانية المعروفة ، ولكن كان ينقصها حتى الآن عنصر حيوى وهو الحاجة الى وجود مؤسسة أو منظمة عربية يمكن أن تجد أعمال العنف الكامنة ضد الصهيونية التعبير

من خلالها داخل المؤسسات السلمية التى بوسع البريطانيين أن يسيطروا عليهـا • واعتبارا من سنة ١٩٢٠ فصاعدا حاولت بريطانيا عدة محاولات لاقامة مجالس استشارية وتشريعية تضم ممثلين من العرب واليهود ، لكن العقبة الأولى التى كان عليهم أن يتخطوها هى عدم وجود ممثلين من بين السكان العرب يعطفون على هدف بريطانيا فحـاول هيربرت صمويل انشاء مؤسسة عربية تتحدى السلطة التنفيذية العربية التى كان من الواضح انها غير متعاونة ، وانتهز فرصة وفاة مفتى القدس فى سنة ١٩٢١ ••

وذلك ان المندوب السامى كان فى حاجة الى أن يحمل مركز المفتى (وهو الزعيم الدينى للفلسطينيين العرب) ثقلا سياسيا فخلع عليـه لقب « فخامة المفتى » ورتب أمور الانتخابات ففاز مرشحه فيها وهو الحاج أمين الحسينى ولربما كان ذلك من أسخف الحركات التى أقدمت عليها الادارة البريطانية فى فلسطين على الاطلاق ••

وذلك ان الحاج أمين كان ينتمى الى واحـدة من كبريات الأسر الفلسطينية • وكان قد سبق له أن لعب دورا رئيسيا بارزا فى مظاهرات سنة ١٩٢٠ وأصدر البريطانيون حكمهم عليه بالسجن خمسة عشر عاما بعد أن كان قد فر من البلاد • كما كان قد سبق له أن خدم فى الجيش مع الأتراك ومع فيصل • وسبق له أن كان ، وفى وقت واحد ، أحـد الرسميين فى الحكومة العسكرية البريطانية لفلسطين ورئيسا للنـادى العربى للقدس وهو النادى الذى تزعم الحملة الفلسطينية من أجل قيام سوريا الكبرى •• فمن الواضح اذن انه كان مرنا يستطيع التكيف مع الظروف كما كان مؤثرا له نفوذه • ولقد ألغى البريطانيون الحـكم الصادر عليه بالسجن خمسة عشر عاما ، وأملوا فى أنه بوسـعهم أن يخففوا من وطنيته المتشددة باعطائه السلطة كما أملوا فى أن ينشئوا حوله منظمة عربية فلسطينية تحظى بمعرفتهم « أى البريطانيين » •

ولقد أصدرت السلطات البريطانية مرسوما ، فى مطلع عام ١٩٢٢ ، يقضى بتأسيس المجلس الاسلامى الأعلى ليدير أمور طائفة المسلمين الفلسطينيين بنفس الطريقة التى ترعى بها الوكالة اليهودية أمور اليهود ، وانتخب الحاج الحسينى ، بطبيعة الحال ، رئيسا لهذا المجلس ، ولكن

شتان بينه وبين وايزمان وشتان الفرق بين الفلسطينيين العرب وبين الصـــهيونيين •

فالصهيونيون ظلوا زمنا طويلا أقلية صغيرة فى فلسطين بحيث انهم لم يكونوا يتعدون احدى عشر فى المائة سنة ١٩٢٢ وكان من الطبيعى أن يلبوا رغبات البريطانيين آملين فى أنهم بذلك لا يقوضـــون دعـــائم السلطة البريطانية ويظفرون بحمايتها •• فلو أن بريطانيا شـــاءت أن يتحدثوا مع العرب فانهم يتحدثون معهم ، بل انهم كانوا يرضـــون بالجلوس معهم فى المجالس التشريعية وان جادلوا بأن المصالح العربية والمصالح اليهودية منفصلة احداها عن الأخرى ــ ان لم تكن قد أصبحت بعد متنافرة ومتضاربة ، وطالبوا بأن يكون التمثيل العربى اليهودى متساويا كشرط لتعاونهم ••

واذ رأى غالبية العـــرب الضعف النسبى للصـــهيونيين وكانـــوا يعارضون أهدافهم فانهم سرعان ما كانوا يرفضون أى مجلس ينطوى على تمثيل زائد عن الحد للطائفة اليهودية • فلانهم لم يكونوا يتفهمون فى الحقيقة المسالك المتعرجة لأسلوب الديمقراطية الغربية فانهم رفضوا أتباعه ، وما أن حلت سنة ١٩٢٣ الا وكان كل الممثلين العرب قد عقدوا العزم على رفض « اقتسام السلطة » مفضلين على ذلك عند الضرورة أن يجعلوا أنفسهم تحت رحمة العدل البريطانى غير الكامل فى ادارة الأمور ، وكان ذلك رؤية مسبقة ، ومصغرة للنزاعات المقبلة ، والأكثر عنفـــا ، حول التقسيم ••

أما الحاج أمين الحسينى فانه استفاد جيدا من مركزه الذى منحه له البريطانيون لدعم طموحه الشخصى الواسع فى العالم العربى • فعندما وافق الزعماء العرب الآخرون على فرض معارضتهم المتزايدة غير المثمرة لتأسيس المجلس التشريعى المشترك فى سنة ١٩٢٩ قام فخامة المفتى بأعمال خياله عن وجود مؤامرة يهودية للاستيلاء على القـــدس وتدنيس الأماكن الاسلامية المقدسة ، فنتج عن ذلك وقوع اضطرابات لم تشهد البلاد أسوأ منها من قبل حيث قتل تسعة وخمسون رجـــلا وامرأة وطفلا يهوديا فى أشنع حادث ومثل بجثثهم فى مدينة الخليل •• وبهذا الحادث بدأ عهد جديد فى فلسطين ••

فلقد كانت الزعامة الصهيونية تعنى ، حتى تلك اللحظة بالحصول على تأييد « الجناح اليسارى » لمنظمتهم ــ وبخاصة الأقلية المؤثرة من اليهود التى كانت تجادل لصالح المعايشة مع العرب ، ومن أجل هذه الغاية فأنهم قبلوا الكتاب الأبيض لسنة ١٩٢٢ ووافقوا على عدد من القرارات النظرية الداعية الى « التعاون العربى ــ اليهودى » •• وهذه الصيغة الفارغة زادت هى الأخرى من الثقة بهم فى أعين البريطانيين والجماعات الدولية الأخرى ••

الا أنه بعد سنة ١٩٢٩ تضاعف الضغط من « الجناح اليمينى » الصهيونى وكان على الزعامة أن تحافظ على توازن دقيق •• فاستمر « التعاون » فى المجلس وفى الوقت الذى كان الصهيونيون يحاولون فيه الحفاظ فى الظاهر على وجه الاعتدال ظهرت البوادر شيئا فشيئا ، على عدم الاستجابة اليهودية للمطالب العربية أو البريطانية • فكتاب باسفيلد الأبيض الذى أصدره البريطانيون فى أعقاب الاضطرابات التى حدثت سنة ١٩٢٩ اقترح وضع قيود جديدة على الهجرة اليهودية وعلى مبيعات الأراضى لليهود ، ولم يكن بالامكان وضع تلك المقترحات موضع التنفيذ العملى بدون موافقة الصهيونيين ، ولكن الصهيونيين ، فى ذلك الوقت لم يريدوا أن يوافقوا ولم تكن بهم حاجة الى الموافقة لان الهجرة كانت من الممكن ان تستمر عن طريق شبكة سرية جيدة التنظيم ولأن مبيعات الأراضى لم يكن بالامكان الحد منها فعليا لأن نسبة كبيرة من الارض المعروضة للبيع كانت مملوكة لكبار ملاك الأرض المتغيبين والذين كان يسعدهم أن يتم ترتيب نقل ملكية أراضيهم بواسطة أطراف ثالثة تعمل خارج فلسطين •• وهكذا فان كتاب باسفيلد الأبيض كان أول اقتراح بريطانى ترفضه المؤسسة الصهيونية رفضا باتا ••

ولقد استمر تصاعد الضغط العربى ، فعقد أول مؤتمر شامل للعرب بالقدس فى سنة ١٩٣١ وأعلن التزامه الصريح بمعارضة الاستعمار الصهيونى لفلسطين ، لكنه ، هو الآخر ، رفض كتاب باسفيلد الأبيض « لكونه ليس قويا ومتشددا بما فيه الكفاية » •• أما عن البريطانيين فانهم ، فى محاولة يائسة منهم لئلا يدفعوا اليهود الى موقف متشدد ، أقدموا على معجزة أخرى من معجزات الديبلوماسية حيث كتب رئيس الوزراء رامزى ماكدونالد الى المؤسسة الصهيونية مرة أخرى فى سنة ١٩٣١ واعدا اياها بأن وعد بلفور سيظل معمولا به على الرغم من الكتاب الأبيض لباسفيلد الذى تحاشى ، فى دهاء التنكر له •• غير أنه لم يكن

بوسع السلطات البريطانية أن تواصل السير المسرحى طويلا على هـذا الحبل المشدود الذى كان يجرى هزه الآن من طرفيه .. ففوق هـذا وذاك فان أفدح أزمة اقتصادية فى التاريخ قد أصابت بريطانيا بنـوع خاص اصابة شديدة وشرعت الحكومة تفكر فى بناء شباك النجاة من السقوط الذى لا تعدى عنه ..

الا أنه على الرغم من خطاب ماكدونالد فان الصهيونيين أخذوا فى التأهب لليوم الذى يتعين عليهم فيه أن يهاجموا البريطانيين .. وكانت السياسة الصهيونية قد درجت على عدم الرد على الهجمات العربيـة بهجمات مماثلة ، وعلى أن تهيب ، بدلا من ذلك ، بالسلطات البريطانية طالبة حمايتها ، لكن تلك السلطات كانت تزداد عجزا يوما بعد يـوم عن أن تحمى أى انسان فى فلسطين ، وعلى الرغم من أن الاعتماد على سلطة الانتداب ظل هو السياسة الصهيونية المعلنة فان الأمور كانت قد تغيرت خلف الكواليس .. ففى سنة ١٩٣٠ أخذت الهاجاناه فى تخزين كميات هائلة من الأسلحة المهربة وجرى تمركز واحكام هيكل قيادة تلك القوات الدفاعية المفككة . لكن البعض رأى أن ذلك لم يكن كافيا فكان أن انشقت أرجون زفاى ليومى عن الهاجاناه فى سنة ١٩٣١ وبدأت القيام بنشاطات ارهابية ضد البريطانيين . وفى سنة ١٩٣٥ انشق المجددون الصهيونيون بقيادة جابو — تنسكى عن المؤسسة الصهيونية ..

واستعد العرب ، بدورهم ، لمحاربة البريطانيين . وعندما توفى رئيس القيادة العربية فى سنة ١٩٣٤ انشقت هذه على نفسها ، وكانت فعاليتها قد اضمحلت بتزايد المنافسة بين الكتلتين الاسريتين الرئيسيتين اللتين تشكلت منهما زعامتها .. وقد اندمجت هاتان الكتلتان فى اثنتين من أولى الأحزاب السياسية العربية الفلسطينية ، واستمر تسابقهما على السلطة (وعدد من الأحزاب الاصغر) طوال عدة أشهر قليلة فى حين واصلت السلطات البريطانية جهودها العقيمة لانشاء نوع من الهيئة التمثيلية تضم كلا من اليهود والعرب .

ولكن سرعان ما أخذ المهاجرون اليهود يصلون الى فلسـطين فى اعداد أكبر نسبيا فرارا من وجه موجة مد جديدة من معاداة السامية فى أوربا الشرقية وفى المانيا النازية ولاح كما لو أن العرب قد يصبحون أقل عددا فى عاجل الأيام حتى انه ما بين سنتى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ تضاعف

سكان فلسطين من اليهود وقاربوا ثلث مجموع السكان ودخلها منهم فى سنة الذروة ، وهى سنة ١٩٣٥ ، ما يربو على ستين ألف مهـاجر يهودى •• وفجأة أصبحت الحاجة العاجلة للوحدة العربية أمرا ملحـا وكان أن شكلت الأحزاب الرئيسية الستة وعدد من الأفراد البارزين اللجنة العربية العليا خلفا للهيئة التنفيذية العربية ، وكان لابد أن يقع الاختيار على الحاج أمين الحسينى رئيسا للجنة لأنه كان يحظى باحترام أعظم العناصر تشددا من بين السـكان العرب ••

فلما تهدد العرب خطر وجود أغلبية يهودية استطاعوا آخر الأمر أن يجدوا لهم صوتا مؤثرا حيث نظمت اللجنة العربية العليا اضرابا عاما شل الاقتصاد الفلسطينى وهدد بخطر اندلاع الثورة فى شرق الاردن ولبنان وسوريا ، ولذلك حول البريطانيون آلافا اضافية من الجنـود واستخدموا نفوذهم على حكام شرق الأردن والعراق والعربية السعودية واليمن ليضغطوا على اللجنة العربية العليا لتنهى الاضراب ، ولولا تأييد هذه الدول العربية البارزة (ولم يكن ينظر الى مصر حينئذ باعتبارها دولة عربية حقة ومن المؤكد انها لم تكن تعتبر جزءا من المشرق العربى) لمـا استطاعت اللجنة العربية العليا السيطرة أكثر من ذلك على العمال الفلسطينيين الذين لم يروا منفعة مباشرة من استمرار عملية الاضراب•• ثم ان اللجنة العربية العليا انقسمت على نفسها نتيجة للمنافسات القديمة بين الأسر الحاكمة ، وصار التأييد للهاشميين هو البند الرئيسى من بنود برنامج المعارضة للحاج أمين الحسـينى ، وما ان انتهى الاضراب الا وانسحب المناصرون للهاشميين من المنظمة تاركين الحاج أمين وأتباعه يلجأون للارهاب على نطاق واسع ضد البريطانيين واليهود على حـد سـواء ••

لكن الاضراب نجح فى اقلاق بال البريطانيين كثيرا ، ولمـا كانت نذر حرب أوربية تلوح فى الأفق فانهم كانوا فى حاجة لاحكام قبضتهم على الشرق الأوسط فحاولوا أول ما حاولوا وضع مشروع للتقسيم مبنى على وجـود دولتين عربية ويهودية منفصلتين ، ووجود منطقة يسيطر عليها البريطانيون حول القدس ذات ممر يوصلها الى البحر الأبيض المتوسط ومنطقة بريطانية حول العقبة •• وكان المشروع يقضى بربط الدولة العربية بشرق الاردن ، ووضع حد للهجرة اليهودية لمدة خمس سنوات •• ولقد وافقت الزعامة الصهيونية على بحث هـذا المشروع

والتفكير فيه لأنه كان فى صالحهم جدا ، ولكنهم رفضوا فرض القيود على الهجرة اليهودية •• وأما العرب فأنهم رأوا أن مشروع التقسيم مرفوض برمته خاصة وهو يعترف بحق اليهــود فى الأراضى ، وكان معظمها ليس ملكا لليهود حتى ذلك الحين ، وأما بقية الأراضى فانهم كانوا يعتبرون انها آخذت بطرق ملتوية وغير عادلة • كما وأن الارتباط بشرق الاردن كان بالمثل أمرا غير مستساغ •• ولذلك فانه فى غضون أشهر قليلة تخلى البريطانيون عن المشروع باعتباره غير صالح للتطبيق •

كان الاتفاق مع العرب يزداد أهمية يوما بعد يوم •• وكان الحاج أمين قد فر من البلاد فى سنة ١٩٣٧ ــ وصار فيما بعد مستشارا للرايخ الثالث فىشئون المسلمين ــ ولكن أتباعه شكلوا تهديدا للمصالحالبريطانية فى الشرق الأوسط •• وبحلول سنة ١٩٣٩ كان الموقف قد صار ميؤوسا منه ولم يكن هناك من يشك فى أن بريطانيا سوف تشتبك سريعا فى حرب مع المانيا وربمــا مع روسيا •• وكانت مصر قد صارت مستقلة استقلالا اسميا فى سنة ١٩٣٦ وأخذت بمرور الوقت تزداد تقربا من ايطاليــا الفاشسية ، واما أثيوبيا فانها كانت قد سقطت فى أيدى ايطاليا قبــل ذلك بعــام •• ولم يكن بوسع أحد أن يتكهن بما سوف تفعله فرنســا خاصة وأن انتدابها على كل من سوريا ولبنان كان مقررا أن ينتهى ؛ فكان من الأمور الجوهرية بالنسبة لبريطانيا اذن أن تضمن تأييد العرب فى شتى أنحاء الشرق الأوسط لذات نفس الاسباب القديمة المعهودة ؛ وهى الزيت وطرق التجارة والامبراطورية ••

ولقد استخلصت الحكومة البريطانية ، ولم يكن يعوزها المنطق ، انه بامكانها أن تعتمد على التأييد اليهودى فى أى نضال ضد النازى أو أشياعه مهما يكن أولئك الأشياع •• وفى الحقيقة فان حفنــة من الصــهيونيين اليمنيين بين صفوف الارجون والجمــاعة المنشقة الاكثر تطرفا ، وهى جماعة « ليهى » وهى الجماعة المشهورة باسم « جمــاعة اشتيرن » كانت تجادل بأن بريطانيا هى العدد الأول • بل أن البعض لاح عليهم انه قد استهوتهم فــكرة الدخول فى نوع من التحــالف مع ايطاليا •• ولكن الأغلبية الساحقة من الصهيونيين كانوا مستعدين للدخول فى تحالف مؤقت مع بريطانيا بهدف ايقاع الهزيمة بالشر الأعظم وهو شر النازية ، وعلى ذلك فان البريطانيين أصدروا كتابا أبيض فى شــهر مايو سنة ١٩٣٩ أقترحوا فيه اقامة دولة فلسطينية مستقلة فى خلال

عشر سنوات على أساس النسبة القائمة بين السكان وهى عربيان اثنان الى كل يهودى واحد • ولبلوغ هذه الغاية يجرى تقييد الهجرة اليهودية وشرائهم للاراضى ••

وكان من الطبيعى أن يعتبر الصـــهيونيون الكتاب الأبيض خيانة كاملة ، ولكن لم يكن باليد حيلة فليس بوسعهم أن يفعلوا شيئا غير جلب المهاجرين بطريقة غير مشروعة • وتخزين الأسلحة والذخائر ، والانتظار الى أن تنتهى الحرب المقبلة • ولقد تكلم بن جوريون ، وهو الذى كان مقدرا له أن يكون أول رئيس لوزراء اسرائيل ، بلسان غالبية الصهيونيين حين قال : « أننا سنحارب مع بريطانيا ضد هتلر كما لو لم يكن هناك الكتاب الأبيض ، سنحارب الكتاب الأبيض كما لو لم تكن هناك حرب » •

— ٢ —

انه ما من لحظة كئيبه يمكن أن تواجه حـكومة بريطانية اكثر من لحظة تتطلب منها ان تتوصـل الى قرار صعب سريع محدد ..

عن بربارا ططشمان ، فى كتابها ذى جريت جنز أوف أوجست « مدافع أغسطس العظيمة » .

أعطى الكتاب الأبيض تأييد بريطانيا الرسمى لسياسة كان من شأنها أن تؤدى ، فيما لو بقى كل شىء آخر على حاله ، الى قيـام فلسطين العربية وبها أقلية يهودية كبيرة ، غير أن كل شىء آخر لم يبق على حاله • فالسياسة غير المتبصرة لفخامة المفتى وغيره من الزعماء الفلسطينيين العرب زعزعت الثقة فيهم بشدة ، وأما البريطانيون ، وهم أبعد ما يكونون عن خلق زعامة عربية معقولة ، فانهم قد اضطروا بالفعل الى القضاء على فرص قيام أى تنظيم عربى داخل فلسطين مما جعـل الفلاحين والوطنيين داخل البلاد يفقدون الثقة فى الوعود البريطانية السابقة على الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ •• ولمـا انضم الحاج أمين الحسينى والزعيم الفلسطينى اللبنانى المولد ، فوزى القاووقجى للثورة المشايعة للالمان بالعراق فى سنة ١٩٤١ فقدت بريطانيا كل ثقة فيهم • وبحلول عام ١٩٤٥ فان أى قوة موازية لقوة الصهيونيين لم يكن بالامكان توفيرها الا من خارج البلاد ••

فبعد أن قمع البريطانيون الثورة العراقية بالقوة بوقت قصير أقدموا على اتخاذ الخطوات اللازمة لضمان أن تظهر مثل هذه القوة فعلا ، ولم يستطيعوا أن يقاوموا اللعبة المزدوجة للطبقة الراقية ، أى لعبة النفاق وذلك على الرغم (أو ربما بسبب) الاقتراب التدريجى للحقيقة المزعجة ، الا وهى ان الكساد الذى حل فى الثلاثينيات والحرب العظمى التى أعقبته قد عجلا بالافلاس الاقتصادى والسياسى للامبراطورية البريطانية ••

أما وقد أحتلت بريطانيا أفضل جزء فى الشرق الأوسط أثناء السنوات الأولى للحرب « ومن بينها سوريا ولبنان اللتين كان من المتعين الدفاع عنهما ضد فرنسا فى ظل حكومة فيشى المشايعة للالمان » • فانها شرعت فى خلق اتحاد سياسى من الدول العربية فكان ذلك انقلابا غريبا فى سياسة بريطانيا تجاه حلم الشريف حسين فى قيام دولة عربية كبرى واحدة •• وكانت مصر فى عهد الملك الشاب والمحبوب فاروق تزداد فيها روح العداء للوجود البريطانى ، ذلك العداء الذى كان يزداد بصورة دراماتيكية — على الرغم من التوقيع على معاهدة حديثة فى سنة ١٩٣٦ تجلو بريطانيا بمقتضاها عن مصر فى بحر عشرين سنة — تقول كان العداء يزداد بصورة دراماتيكية كلما تقدم روميل بجيوشه عبر شمال أفريقيا • « حتى أنه أشيع ، قبل أفول نجم الالمان فى أواخر سنة ١٩٤٢ ، ان روميل كان محجوزا له غرفة باسمه فى فندق شبرد بالقاهرة » •• ولقد كان فاروق يفضل بالفطرة صحبة حاشية من الايطاليين على حراسة البريطانيين المقيدين لحريته •• وأما المصريون الآخرون ومن بينهم أنور السادات الذى كان حينذاك ضابطا صغيرا بالجيش فقد استهوتهم عروض تحالف المانى ضد البريطانيين • وفى ظل هذه الظروف كان البريطانيون مستعدين لقبول مطالب مصر بأن يقوم تحالف يجمعها ودول المشرق العربى — وهو التحالف الذى كان سيربط مصر بشرق الأردن الموالية لبريطانيا عبر الدولة الفلسطينية التى يفكرون فيها ••

ولقد عقدت سلسلة من المحادثات فيما بين سنتى ١٩٤٢ — ١٩٤٤ بواسطة مصر ومختلف الدول العربية الأخرى بقصد اقامة « جامعة عربية » ، وولدت الجامعة فى الوقت المناسب فى شهر مارس سنة ١٩٤٥ ، مشتملة على مصر والعراق والعربية السعودية واليمن وشرق الأردن وسوريا ولبنان — وهى كل الدول العربية التى كانت مستقلة رسميا • (ولقد انضمت الدول العربية الأخرى الى الجامعة عندما استقلت) •

ولم يكن بالامكان أبدا أن توصف الجامعة العربية بأنها اتحاد كامل الا اذا أطلقنا لخيالنا العنان • فميثاق الجامعة ، على سبيل المثال ، ينص على وجه التحديد على أنه لا يمكن لقرار تصدره الجامعة أن يكون ملزما للاعضاء الذين يعارضـــونه ــ ولمـــا كانت المناقشات العربيـــة متأصلة فى النفوس ، فان موافقة الدول الأعضاء لم تكن مضمونة أبدا على أى شىء لا يحظى بالموافقة الاجماعية ــ وعلى ذلك فقد صححت حقا لقـــد أعلن العرب تعطشهم للوحدة ، غير ان الجامعة جاءت بالكاد رشفة أو جرعة لا تكاد تطفى الظمأ ، بل انها بمثابة فاتح للشهية وليس أكثر لمن برح به الجوع والعطش ••

وكان من رأى بريطانيا انه مما يخدم أغراضها بما فيه الكفاية أن تتأكد من أن الجامعـــة سوف تلقى بكل ما لها من ثقل على مطالب المجتمعات العربية الأخرى من أجل الاستقلال • فهذه المطالب ، وهى الشىء الوحيد الذى كان بامكان أعضاء الجامعة العربية أن يتفقوا عليه ، كانت موجهة فى معظم الحالات ضد فرنسا وأمريكا وروسيا ، وذلك ان فرنسا كانت تتشبث بممتلكاتها فى شمال أفريقيا كمـــا كانت لا تزال تطالب بسوريا ولبنان • وعن أمريكا فان مصـــالح الزيت الأمريـــكية والاستخدام الذكى للعملة الصعبة كانا يدفعان بقوة أمريكا الى الشرق الأوسط • وعن روسيا فان تجاورها لايران (وكانت قد احتلت جزءا منها أثناء الحرب وظلت تحتله لفترة قصيرة بعدها) ، هذا التجاور هدد المصالح البريطانيـــة فى الخليج الفارسى ولمـــا لم يكن البريطانيون يستطيعون احتلال العالم العربى احتلالا شاملا الا بشق النفس فانه كان بوسع الجامعة ، ومقرها فى مصر التى يحتلها البريطانيون وأمينها العام رجل مصرى ، نقول كان بوسعها أن تضمن أنه ما من أمة أخرى ســـوف تأخذ مكان بريطانيا بســـهولة ••

الا أن تأييد الجامعة العربية للاستقلال لم يتوقف عند حدود الدول التى لا تسيطر عليها بريطانيا • فمن ناحية ظلت مصر تلح فى اجـــلاء حوالى ثمانين ألف جندى بريطانى كانوا معسكرين حول منطقة قنـــاة السويس ، ومن ناحية ثانية فان المطالبة بفلسطين العربية المستقلة ، وعلى الرغم من أنها كانت موجهة بادىء الأمر ضد الولايات المتحدة الا أنها كانت ولابد من أن تجر بريطانيا الى دبلوماسية فظيعة ••

ولقد أحدث الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ صدمة فى نفوس كثير من الناس وأحدث تمسك بريطانيا برفض السماح للاجئين اليهود الفارين من وجه الهتلرية بدخول فلسطين صدمة شديدة لغيرهم ، لان ضحايا القسوة والوحشية التى لا يمكن أن تصوروها ردوا على أعقابهم جيئة وذهابا عبر المحيطات فى سفن مكتظة بالمسافرين طوال زمن الحرب والى ما بعد انتهائها بقرابة ثلاث سنوات • فهؤلاء اللاجئون مثلهم فى ذلك مثل المسافرين على ظهر السفينة الأسطورة الآن « أكسودس » ، أى الخروج ، والذين كانوا يسعون لان يجدوا ملاذا لهم فى فلسطين أصبحوا رمزا حيا فى ضوء المطالب الصهيونية • فقد نظروا بنوع خاص الى رفض بريطانيا السماح بدخول مثل هؤلاء اللاجئين والى اعتقال ثم ترحيل غيرهم ممن دخلوا فلسطين بطريقة غير مشروعة على أنها تصرفات تتسم بالقسوة • وحقيقة الحال هى أن سلطات الانتداب فى فلسطين لم تكن أكثر ولا أقل قسوة من عدد ليس بالقليل من السلطات الوطنية التى كانت تحدد حصصا نسبية للمهاجرين فى مختلف بلاد العالم ••

فالولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وجنوب أفريقيا والمكسيك والهند واستراليا وشيلى وتركيا وكوبا كانت مجرد عدد قليل من الدول التى أقدمت على وضع قيود على الهجرة اليهودية بدرجة أكبر أو أقل اعتبارا من سنة ١٩٣٧ فصاعدا • وكل هذه الدول حكمت على اليهود بالاعدام بعد أن يكونوا قد لاذوا بالفرار نهائيا من حبل المشنقة • ولكن الحلم الصهيونى فى حد ذاته ، والوعد بوطن قومى لليهود ، وقد لاح انهما يهتزان فى الوقت الذى يحتاجون فيه اليهما أشد الحاجة هو الذى أضفى على الحصة النسبية للهجرة الى فلسطين طعما اضافيا بالمرارة ••

على أنه فى عالم السياسة لا توجد مصيبة يمكن أن تحول بين بعض الناس وبين الاستفادة منها مهما تكن درجة الكارثة • ولقد قيل دائما « ان هتلر هو الأب الحقيقى للدولة اليهودية » ، وهو كلام فيه من المنطق أكثر مما قد يبدو للعيان للوهلة الأولى • فقد استشهدت المؤسسة الصهيونية فى مؤتمر غير عادى عقد بفندق بلتيمور بنيويورك فى شهر مايو سنة ١٩٤٢ بالقرار الذى جاء فى برنامج أصيل وهو يحث

على « أن ينشأ فى فلسطين كومنولث يهودى يندمج فى هيكل العـالم الديمقراطى الجديد » ••

أن برنامج بلتيمور الذى كان اشارة الى أن الصهيونية قد حولت وجهها شطر الولايات المتحدة كان أول مطالبة رسمية علنية صريحة بأن تصبح فلسطين دولة يهودية • ولقد بانت جل أوراق اللعبة وصارت مكشـوفة الآن ، باستثناء ورقة واحدة ظلت مخبأة ولكنها كانت أهم أوراق اللعبة على وجه الاطلاق ، تلك الورقة هى التى كانت تكشـف القناع عما اذا كان الصهيونيون يهوشون أم لا • انها الورقة التى تقيم الدليل كل الدليل على وجود الدم الملكى من عدمه ، فعلى هذه الورقة كنت تستطيع أن تقرأ ما اذا كان الصهيونيون لديهم القوة العسكرية التى تدعم مطالبهم أم لا ••

قليل جدا من الناس ظنوا ان لديهم القوة اللازمة لدعم هذا المطلب فعلى الرغم من الهجمات الارهابية (التى عادت الارجون اليها من جديد فى سنة ١٩٤٤) وعلى الرغم من الثبات الصهيونى على مبدأ عدم التعاون مع سلطات الانتداب فان البريطانيين ظنوا أن جامعتهم العربية يمكنها أن تكسب اللعبة ، وذلك الاستقلال الوشيك لمستعمرة الهند نتج عنـه خلاف عملى بسيط بالنسبة للمصالح البريطانية فى الشرق الأوسط ، لان طرق التجـارة وامدادات الزيت كانت لا تزال شريان حياتهـا الاقتصـادى • وكانت بريطانيا تحارب النفوذ الصاعد لأمريكا والاتحاد السوفيتى ، وكانت كل من هاتين القوتين الكبيرتين الجديدتين ترى ان ثمة فائدة فى الصهيونية فالسوفييت فى عهد ستالين (وهو الذى لم يعرف عنه انسانيته ولا عطفه على اليهود) رأوا فى تأييد الدولة اليهـودية احتمالا قليلا لأن يكون فى ذلك موضع قدم لهم بالشرق الأوسط • وهم قد رأوا فى ذلك بالاكثر وسيلة لاخراج البريطانيين من المنطقة • وكان لدى الأمريكيين بالمثل دوافع ملتوية مثل هذه الدولة • فأمريكا أولا كان لديها جمهور كبير من الناخبين اليهود لا يمكن تجاهل قوتهم السياسية وكان الاضطهاد النازى قد جعل الصهيونية موضوعا سياسيا كبيرا فى الولايات المتحدة •• وثانيا فان « علاقة أمريكا الخاصة » ببريطانيا كانت مبنية على استمرار تدهور قوة بريطانيا ، فلما كانت بريطانيـا لا تزال تسيطر على الشرق الأوسط الغنى بالزيت فانها كانت تمثـل تهديدا للسيطرة الأمريكية ، وأما تأييد أمريكا قيام دولة يهودية فانه يوجد دولة موالية لها فى موقع حسن لمراقبة ولاء العرب والاشراف

عليه • ومن يدرى ، فلو ان دولة اسرائيل قد ولدت ضد رغبات العرب فان العرب قد يتخلون عن بريطانيا على أية حال ويضطرون الى الدخول فى المعسـكر الأمريكى ؟ ••

ان بريطانيا ، التى كانت أستاذة الدبلوماسية فيما مضى ، لابد وانها كانت متنبهة الى تلك الاعتبارات • وكذلك فان البريطانيين كانوا يعرفون انه لا الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفيتى سوف يقبل أيهما على حركة غير محسوبة خوفا من أن يثير ذلك استياء العرب ، ولكن أعظم ما كانوا يعلمونه هو أن فقدانهم لفلسطين فيه مخاطرة بأن يفقدوا ما لهم من قوة فى عالم ما بعد الحرب •• وفى الحقيقـة فان رئيس الوزراء آتلى لم يكن مقتنعا بحاجة بريطانيا للبقاء فى شرقى البحـر الأبيض المتوسـط ، أما وزير خارجيتـه ، ايرنست بيفن فكان له رأى مخالف وخاصة بالنظر الى الخطر السوفيتى ، فقام بيفن بارسال الفيلد مارشـال مونتجومرى الى مصر فى يونية سنة ١٩٤٦ لتقييم الموقفى العسكرى والسياسى ، فقوبل « مونتى » بقليل من الترحاب من جانب المصريين وانتهى فى تقريره الى أن قاعدة قناة السويس ينبغى الجلاء عنها وتركها تحت سيطرة مصر فى زمن السلم ، ورأى ان الأمر يستغرق خمس سنوات لتنفيذ ذلك وقال ان من رأيه ان ذلك يكون ممكنا فقط اذا ما احتفظت بريطانيا بقوات أو بقواعد عسكرية فى ليبيا وشرق الأردن ومالطة وقبرص وفلسطين • ثم أنه أيد القول بأن الوجود البريطانى فى السودان أمر حيوى بالنسبة لأمن المصالح البريطانية « وذلك حتى نكون قادرين على السيطرة على النيل الذى هو شريان حياة مصر » ••

كانت أفكار مونتجومرى تمثل وجهة نظر متطرفة ، وكانت وجهة النظر الأخرى التى تجذب اليها آتلى أكثر وأكثر هى وجهة النظر القائلة بأن الارتباط العسكرى على مثـل هذا النطاق الواسع يقصـم الظهر اقتصاديا وانه مسألة غير عملية ولا تناسب غلاة الاسـتعماريين الذين يدرعون ردهات وزارة المستعمرات متشامخين • وفى النهاية أمكن التوصل الى حل وسـط ـ بريطانى قح ـ ينص على انسـحاب فاتر تعوزه الحماسة من مصر ، الا أن هـذا الحل أخفق بسبب اصرار مصر على الاتحاد مع السـودان ـ ولكن شطرا من تلك التسـوية كان يقضى باستمرار الاحتلال البريطانى الفعال لفلسطين ••

وكما كانت عليه الأمور فان بريطانيا كانت قد وعدت بانهاء الانتداب فى سنة ١٩٤٩ •• وكان أمامها طريقتان لكى تغفل ذلك الى جنب الاحتفاظ بنفوذها فى المنطقة ، أما الطريقة الأولى فكانت تتطلب موقفا تبقى فيه درجة معينة من الصراع بين اليهودى والعربى بحيث ان ذلك الصراع يكون على درجة من الجدية والخطورة يستدعى معها الأمر أن تقوم هى بدور رجل الشرطة ولكنه لا يكون من القسوة التى تستتبع قيام أعمال العنف التى يصعب السيطرة عليها مثل ذلك النوع الذى خبرته بريطانيا فى الأيام الأخيرة للانتداب ، ولقد طرحت أفكار مختلفة للوصول الى حل كهذا الحل ــ وكان كل اقتراح ينطوى أما على قيام دولة ثنائية أو على شكل من أشكال التقسيم • وكانت المقترحات البريطانية كلهـا تعزف على وتر واحد وهو الاقتراح بأن يبقوا الدولة الثنائية كمحمية أو يحتلوا منطقة معينة فى الاقليم الذى يجرى تقسيمه ، وكانت تلك المقترحات تقضى فى العادة بأن تكون القدس ضمن الاقليم الذى تحتله بريطانيـا ••

لكن كل هذه الخطط رفضت رفضا عنيفا من جانب احدى الطائفتين المتحاربتين أو من جانبهما معا حيث أخذ صبر اليهود والعرب ينفـذ بصورة متزايدة ، ولاح ان حالة من الحرب العلنية قادمة لا محالة • فقد هرب اليهود الأسلحة والمهاجرين الى داخل البلاد وشنوا حـرب العصابات على العرب والبريطانيين وأما العرب ، فانهم تلقوا الأسلحة والأموال من جامعة الدول العربية وحاربوا اليهود • وعلى ذلك فان الجيش البريطانى المكون من مائة ألف جندى والمعسكر فى فلسطين لم يستطع ، بسهولة أن يخضع ثورة على نطاق واسع كهذا ومما زاد من مهمتهم صعوبة تأييد بريطانيا الضمنى للعرب • فتصاعد الضغط من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والرأى العام العالمى فى عطف بؤس اليهود والأوروبيين ، وأصبحت حكومة العمال البريطانية مهددة بالانقسام حول المسألة الفلسطينية • ومن ثم فان البريطانيين تراجعوا الى مشروعهم الثانى الأكثر خطورة ••

فلما كان قد بدأ انه لن يكون هناك حل يقبله العرب واليهـود فانه سيكون على هـذا الطرف أو ذاك أن يسيطر على الموقف فى نهاية الأمر أو أن يهلكا معا دون هذه المحاولة • وسيكون على بريطانيا أن تتخلى عن كل مسئولياتها فى تنفيذ شروط الانتداب وأن تطرح المشكلة

على منظمة الأمم المتحدة التى أنشئت حديثا (خلفا لعصابة الأمم المتحدة وهى السلطة التى خولتها الانتداب) وان تطلب منها حلها ، ولن تكون الأمم المتحدة بأسعد حظا من البريطانيين وسوف تصوغ حلا لا يكون مقبولا لا من هـذا ولا من ذاك ..

وكان مقدرا أن تنشب الحـرب ولكن البريطانيين كانوا سـوف يغادرون البلاد فى تاريخ سبق تحديده من قبل وسوف يتبع خروجهم غزو من جانب قوات الجامعة العربية التى ستحرز نصرا عسكريا مؤزرا على اليهود وتنشىء — كأمر واقع — دولة عربية فلسطينية تحت حماية جناح جامعة الدول العربية الموالية لبريطانيا ..

وكان مفتاح هذا المشروع هو الملك عبد الله ملك شرق الأردن التى منحت الاستقلال فى مارس سنة ١٩٤٦ ولكن مع التحالف رسميا مع بريطانيا . واذا نجح المشروع فان الفيلق العربى لشرق الأردن سـوف يدق اسفينا داخل فلسطين من نهر الأردن الى غزة وسيناء ، واما اذا لم يفتح القيلق العربى كل فلسطين فقد يتعين دعوة البريطانيين للعودة الى البلاد لتنفيذ تقسيم فعلى وليس تقسيما على الورق فى هذه المرة ، واذا حدث هذا فبها ونعمت . وعلى أى من الحالات فانه سيكون بوسع القوات البريطانية أن تجلو عن مصر للامن النسبى لفلسطين التى تحميها شرق الأردن وهو ما يلبى المطـالب المصرية وفى نفس الوقت يظـل البريطانيون على مقربة من قناة السويس ، وسيفتح ممر برى يصل مصر بشرق الأردن ويصل شرق الأردن بالبحر الابيض المتوسط . ونعم الحل ..

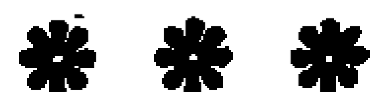
وحقا انه ليس لدينا طريقة لقياس مدى دقة هذه الصورة بالذات لصنع القرار البريطانى ، ولكن الشك ضئيل فى أن شيئا من هذا القبيل طاف بخلد صناع القرار . والفكرة ليست أن مثل هذا المشروع يتطلب تفكيرا ميكيا فيليا قاسيا أو أنها خيالية لدرجة لا تصدق ، بل ان حقيقة الأمر هى أن هذا المشروع كان الحلقة الأخيرة فى سلسـلة طويلة من الحلول الوسط التى تشـكل التاريخ المحزن للارتبـاط البريطانى فى فلسـطين ..

ولقد كان هـذا التفكير يتمشى تماما مع كل جهود بريطانيا للبقاء فى المنطقة وهو يفسر الانسحاب البريطانى المتسرع بصورة لا مثيل لها من فلسطين •• أنهم غادروا البلاد فى حقيقة الأمر لأنهم لم يفكروا على الاطلاق انهم بذلك يتخلون عنها •• ففى عالم ما بعد الحرب اضطرت القوى الاستعمارية الى أن تحول نفسها الى أشكال أكثر تأثيرا وأكثر ذكاء ، ولكن البريطانيين ، وهم ينشئون الكومنولث ومناطق النفوذ لم يكن العهد قد بعد بذاكرتهم كثيرا عن الأوقات التى لم يركبوا فيها الموجة وحسب بل انهم حكموهم أيضا ، ومجال النفوذ بالنسبة لمثل تلك الامبراطوريات الغارية ليس مجالا للنفوذ بدون امكانية الوجود العسكرى على الأقل ••

وان أحداث الحرب الفلسطينية التى رويناها فى فصل سابق تظهر كيف أن المشروع اقترب كثيرا من أن يكون حقيقة وتظهر لماذا فشل • فالبريطانيون لم يعيروا اهتمامهم لولاء الصهيونيين ووحدتهم وقوة تكريسهم لهذا الولاء ولهذه الوحدة فى سبيل « دولتهم » ، كما انهم أخفقوا فى أن يدركوا أن المصالح الذاتية قد تطوع الاتحاد المؤقت بين الحكومتين الأمريكية والسوفيتية بنفس السهولة التى خلقت بها الفرقة والعداء بين أعضاء الجامعة العربية • وهم حقا قد علموا العالم كيف يكون الحكم بالخديعة ولكن العالم قد خدعهم ••

وفى شهر ابريل سنة ١٩٤٧ طرحت بريطانيا مأزق القضية الفلسطينية المحزنة برمتها على الأمم المتحدة فكونت الجمعية العامة لجنة خاصة بها ممثلون من أستراليا وكندا وتشيكوسلوفاكيا وجواتيمالا والهند والعراق والأراضى الواطئة وبيرو والسويد وأورجواى ويوغسلافيا •• ولم تجمع اللجنة على قرار وانما أوصى تقرير الأغلبية بمشروع آخر للتقسيم فى حين أن الأقلية فضلت عليه قيام روابط وثيقة لدولة ثنائية فيدرالية ، ووافق الصهيونيون على التقسيم على الرغم من رفضهم الواضح لقبول اتحاد اقتصادى مقترح مع الدولة العربية مع علمهم — على وجه اليقين — ان التقسيم على هذا النسق الذى أوصت به اللجنة بدون اتحاد اقتصادى لن يفلح • وأما عن الفلسطينيين العرب فلانهم ظنوا ان الانسحاب البريطانى سوف يزول معه التحيز والمحاباة فانهم رفضوا كلا الاقترحين من فورهم ••

وفى اللحظة الأخيرة أدرك الفلسطينيون العرب أن الامم المتحدة على وشك أن تفرض عليهم مشروعا للتقسيم فحاولوا الحيلولة دون ذلك بالموافقة على الاتحاد الفيدرالى ولكن بعد فوات الأوان ، فقـــد خسروا التأييد فى الجمعية العامة بوقوفهم من الامم المتحـــدة ومن الاتفاقيات الدولية على وجه العموم موقفا ظهر أنه متعجرف ومتصلب .. أما وقد أدركت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تنفيذ التقسيم أسهل من وضع الاتحاد المقترح موضع التنفيذ فانها صوتت ، فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ بأغلبية الثلثين المطلوبة فى صالح التقسيم ، وصوتت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وفرنسا مع الأغلبية فى حين امتنعت بريطانيا عن التصويت ..



الفصـــل الرابع

الدولة اليهـــودية والعـــالم العربى

الصهيونية والقومية العربية حتى سنة ١٩٥٦

عقد المؤتمرات وأرفضاضها وتوجيه الانذارات ..
مواقف غير واقعيــة لا اســاس لهـــا ..
المعاهدات الملغـاة والديناميت الموضــوع تحت
نهاية سياسة عدم التدخل ..

عن لويس ماكنيسى فى « اوتمن جورنال » الجورنال العثمانى

ــ ١ ــ

احترسوا جدا ايها السادة الصهاينة ، فالحكومات
تجىء وتروح ولكن الشعوب تبقى ..

ناصف بك الخالدى سنة ١٩١٤

كانت الدولة اليهودية عنوانا لواحد من الأعمال « الأدبية » الاولى عن الصهيونية حيث كتبها الصحفى النمساوى تيودور هيرتزل ، وهو من أهالى فيينا فى سنة ١٨٩٦ . والعنوان فى حد ذاته يكشف عن أن هدف الدولة اليهودية كانت له أهمية بالنسبة الى الحركة الصـــهيونية قبل سنة ١٩٤٨ بزمن طويل ، وعلى الرغم من ذلك فان الصهيونية لم تكن أبدا حركة كلية منسجمة النغم ، وأكبر انجاز حققه هيرتزل لم يكن انه حدد هدفا وغاية قد أجمعت عليها كلمة الجميع لليهود المضطهدين فى

القرن التاسع عشر ، وانما كان عليه أن يطور التكتيك والتنظيم اللازمين للوصول بهم الى الحرية ..

ولقد كانت الصهيونية هى الابن غير الشرعى للقومية والتعاليم اليهودية فى القرن التاسع عشر، وهى ابن غير شرعى لان تلك القومية وتلك التعاليم متنافرتان تنافرا تاما . فقد ظل كثير من اليهود ينظرون الى فلسطين طوال قرون من الزمن على أساس أنها الارض المقدســة والديار القديمة للأمة اليهودية فى أيام مجدها الدينى والسياسى اذ عاشت الديانة اليهودية وكتبها المقدسة طوال سلسلة فريدة من الظروف والملابسات فى الوقت الذى اختفى فيه كل أثر للمعتقدات الاحرى السابقة على النصرانية من الشرق الاوسط — هــذا فى حين أن الامبراطورية اليهودية ، كان قد أفل نجمها قبل الفتح الرومانى لبريطانيا بزمن طويل وتفرق شمل اليهود فى بلاد الامبراطوريات التى أخضعتهم واستعبدتهم . وهذه الأمة المشتتة تعرف بالدياسبورا ..

كان يهود الدياسبورا ينتظرون حلول الوقت الذى تتدخل فيــه ارادة السماء لتعيد اليهم امبراطوريتهم الضائعة لانهم كانوا يعتقدون فى الوعد الالهى لهم بمملكة السماء على وجه الأرض ، وكانوا ينشأون على الارتباط العميق بالارض المقدسة حتى من كان منهم غير متدين الى أبعد حد أو ميالا لان يندمج فى ديانة غير ديانته اليهودية وكان ذلك مما دعم الرسالة الثقافية لليهودية وهى أن اليهودى هو ، فى المقــام الاول يهودى وانه ليس ألمانيا أو روسيا أو أسبانيا الا بشهادة الميلاد ، وحتى الاندماجيون مثل « هيرتزل شخصــيا » بملابسهم وأخلاقهم الاوربية كانوا أندماجيين يهودا ..

وفى بواكير القرن التاسع عشر وفى منتصفه توجه عدد قليــل من اليهود الى فلسطين كمستوطنين زراعيين لاسباب عملية أو روحية .. وحدث أن عددا من الحكومات الاوربية انتهجت سياسة معادية للسامية فى السبعينات من القرن التاسع عشر وذلك كسلاح فى وجه الثورة الاجتماعية ، وقد تميزت حكومات روسيا وألمانيا وبولندة بنوع خاص بهذه السياسة وهى الحكومات التى كان يوجد فى بلادها جاليات يهودية كبيرة (تتكون من عدة ملايين) ومن السهل التعرف عليها .. لقد اعتبرهم المسيحيون الارثوذكس زمنا طويلا مسئولين عن موت المسيح وانهم

مذنبون فى هذا الصدد وها هم الآن يحملون على عاتقهم رسميا مسئولية أخرى اضافية عن الليبرالية أو التحـرر والعلمانية والعداء للأنظمـة الملكية • وحقيقة فان كثير منهم صاروا ثوريين فى مطلع المذابح الآثمـة المنظمة والاضطهاد والذى أقرته الدولة ــ كما أن بعضا من اليهود فى دول أوربا الغربية والاكثر ديمقراطية حثوا الهمم على بذل مجهودات أكثر قوة لفهم حقائق الامور فهما جيدا ، كما أن غيرهم لم يجدوا التفسير الشافى لدروس الثورة الفرنسية ••

فاذا علمنا أن غالبية اليهود الروس فى شرق أوربا (وهم الغالبية الساحقة من سكان العالم من اليهود فى ذلك الوقت) ، حرموا تماما من الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية لمجتمعاتهم وانهم كانوا يعيشون فى قرى خاصة بهم وغالبا ما يتكلمون لغتهم الخاصة وهى لغة الييدش ويحتفظون بتقاليدهم الدينية والشعبية الفولكلورية الخاصة بهم كذلك فكيف كان يمكن لهم أن يأملوا فى أن يمتصهم المجتمع فى بنائه ؟ لقد كانوا بارزين وحدهم كما لو كانوا أصبعا خامسة فوق الجسـم الاجتماعى ــ وكان أفضل ما يأملون فيه هو أن يبتروا من الجسم ثم يتلاشوا أو أن يقطعوا قطعة قطعة وفى كل مرة يكوى موضع الجرح بالنار ــ وبالنهب والاغتصاب •

والذين أدركوا بؤس أولئك المقهورين حقا رأوا بديلا هناك وهو أن هذا الطرف يمكن زرعه فى جسم آخر خاصة وأن اليهود لهم ديانتهم ولهم لغتهم (وهى اللغة العبرية فى هذه الحالة ــ لغة الطقوس الدينية) ، ثم أن لهم شخصيتهم الثقافية القوية ــ التى هى شرط جوهرى من شروط القومية ، وكل ما ينقصهم هو الأرض ، أى الشخصية الجغرافية التى هى الشرط الجوهرى الآخر للحركات القومية • ثم بدا لهم أن التوراة تشهد ، فيما يظنون ، بأن فلسطين من حقهم شرعا ، وكان كل ما يلزم لليهود هو أن يحتلوا الارض ليكون لهـم كل المؤهلات اللازمة لاعلان وجود جمهوريتهم الخاصة بهم ••

وهكذا ولدت الصهيونية الشاذة فكانت حركة قومية بدون قاعدة فلا أرض يهودية ولا اقتصادا يهوديا ولا تنظيما سياسيا يهوديا وانمـا هى من قبيل خفة اليد فى أعمال الشعوذة •• فالشخصية القومية اليهودية قد استحضروا روحها من الماضى السحيق عندما وجدت مثل هـذه

الأشياء واستخدمت لتبرير احتلال فلسطين •• وهذه الشخصية القومية القديمة المهجورة ، سوف تتحول حينئذ ، وبطريقة سحرية ، الى شخصية قومية عصرية بحقيقة الاحتلال •• ولقد بدا كل شيء مقنعا تماما اذ لم يدرك أحد طريقة للتفاضل بين الآراء المتصارعة وسط اللعبة لقيام أمة لهم ••

والحق يقال فان فلسطين لم تكن على الدوام هدفا لتطلعات الصهيونية ، فقد كتب يهودا بنسكر وهو واحد من الذين كان لهم تأثيرهم على تشكيل الصهيونية يقول « ان الهدف من جهودنا يجب ألا يكون الارض المقدسة ولكن أرضا من صنعنا نحن » •• ومع ذلك فان فلسطين كان لها مزايا غير مشكوك فيها على غيرها من البلاد المقترحة •• فاسمها وحده سيكون صيحة قوية لتجميع شعبنا ، هكذا كتب يقول هيرتزل ، وفى حقيقة الامر فان البرنامج أو المنهاج الذى اتخذه المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل عام ١٨٩٧ والذى نظمه هيرتزل حدد فلسطين باعتبارها موقع الدولة اليهودية المستقبلة ••

ومن الواضح أن اليهود المضطهدين فى روسيا أو بولنده لم يكونوا يستطيعون تنظيم أنفسهم فى دولة على بعد آلاف الاميال من الاماكن التى يعيشون فيها ، فكتب بنسكر يقول : « ان انشاء وطن يهودى لا يمكن أبدا أن يحدث بدون معاونة الحكومات •• » واعترفت منظمة هيرتزل الصهيونية بالحاجة لان تولى وجهها شطر أى قوة سيطرت « أو كان يحتمل أن تسيطر » على فلسطين وصاغت بذلك التكتيك الاساسى « للصهيونية السياسية » ••

وسوء الحظ فانه ما من حكومة ، وحتى سنة ١٩١٧ ، قد اهتمت كثيرا بعروض هيرتزل أن تساعد على استعمار فلسطين من أجلهم فالسلطان العثمانى على الرغم من الاغراءات الكبيرة للعمالة اليهودية والمال والتأييد السياسى اليهوديين فانه رفضها بحزم فى وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٩٦ ، فقد كان هناك عقبة كبرى هى أن فلسطين كانت يشغلها السكان بالفعل وهم يتكونون فى غالبيتهم من المسلمين العرب الذين لهم تطلعاتهم القومية الخاصة بهم ، وهذا هو ما جعل السلطان عبد الحميد يكتب الى هيرتزل قائلا له : « ان الامبراطورية التركية ليست ملكا لى ولكنها بالأحرى ملك للشعب التركى ، ولا يمكننى أن

آوزع قطعة واحدة منها ، فليوفر اليهود بلايينهم على أنفسهم ، وعندما تقسم امبراطوريتى فسيتطيعون الحصـــول على فلسطين بلا مقابل ، ولكن الذى يقسم لن يكون غير جثثنا ، فأنا لن أسمح بتشريح الأحيـــاء لأغراض علمية » ••

ان الصهيونية السياسية حينما قبلت القيود التى فرضت عليهـــا قسرا أصبحت « صهيونية عملية » ، توقعا منها لهذا الوقت ، فقد كتب هيرتزل فى يومياته قائلا : « وحينما تحتل الارض فسوف نجلب منافع فورية على الولاية التى تستقبلنا ، ويجب علينا أن ننزع برفق الملكية الخاصة للاقطاعيات التى تستقبلنا •• وسنحاول أن نخطف الســكان المفلسين بطريقة خفية الى خارج الحدود وذلك بايجاد العمل لهم فى الاقطار التى ننقلهم اليها فى حين لا نعطيهم أى عمل فى قطرنا نحن •• وسيقف أصحاب الملكية الى جانبنا ، ويجب أن ننفذ كلتا العمليتين ، نزع الملكية وأزاحة الفقراء بفطنة واحتراس ، ولنترك ملاك العقارات يعتقدون أنهم يغشوننا ويبيعونها لنا بأكثر مما تستحق هذه العقارات فليكن هذا ولكننا لن نبيع لهم أى شىء من جديد » ••

فهذا هو ما حدث بالضبط حيث قامت المنظمة الصهيونية بجمــع الاموال من اليهود المتعاطفين معها ودفعت الاثمان المرتفعة للغاية للراغبين فى البيع من ملاك الاراضى الغائبين الذين يعيشون فى بيروت أو دمشق وفعلت المستحيل لجذب المهاجرين اليهود كمستوطنين بهدف مجابهة أى حكومة عساها تكون مسيطرة على فلسطين بالأمر الواقع ــ آلا وهو الاحتلال اليهودى لمناطق شاسعة من البلاد ••

على أنهم لم يحرزوا نجاحا ساحقا فى جهودهم ، وعلى ســبيل المثال فانه قد فر من روسيا وشرقى ووسط أوروبا ما يقدر بخمســة ملايينيهودى فى أثناء الاضطرابات الثورية التى وقعت بين عامى ١٩٠٤ ١٩٠٦ ولم يتجه منهم الى فلسطين سوى آلاف قليلة (كان من بينهم رجل شاب يدعى دافيد جرين ، من بلونسك فى بولنده) وانما اتجهت غالبيتهم الى بريطانيا أو أمريكا ، وكان عددهم من الكثرة بحيث أن حكومة المحافظين برئاسة آرثر بالفور فرضت قيدا للحد من الهجرة اليهودية الى بريطانيا ، أما أمريكا فرحبت بقبول العمالة الثمينة التى استطاعت الحصول عليها • ولقد كان عدد السكان اليهود بفلسطين فى سنة ١٨٨٢

حوالى ٢٤٠٠٠ وازداد عددهم بصفة غير منتظمة فوصل الى حوالى ٨٤٠٠٠ فى سنة ١٩٢٢ . وعلى النقيض من ذلك فان عدد سكان فلسطين المسلمين العرب فى سنة ١٩٢٢ كان قرابة ٥٩٠٠٠٠ كما كان يوجد ما يربو على ٧١٠٠٠ مسيحى ، و ٥٠٠٠ من الدروز وعدد من البــدو الرحل يقدر بـــ ٣٠٠٠٠

ولم تتحسن الهجرة تحسنا بينا حتى الثلاثينيات ولكن الصهيونيين واصلوا احتلالهم غير الرسمى لفلسطين ، وواصلوا مناوراتهم الدبلوماسية فى انتظار وصول البريطانيين المحتوم ..

وكان مؤتمر سنة ١٨٩٧ قد اتخذ قرارا فى برنامجه يحدد سلسلة من الخطوات التدريجية التى يتعين اتخاذها تجاه « استيطان » فلسطين وتنظيم وتوحيد صفوف كل الشعب اليهودى ، وتقوية الشعور والوعى القومى اليهودى وكذا اتخاذ تحركات تمهيدية فى سبيل الحصول على تأييد ورضاء الحكومات ..

وبالاضافة الى ذلك فان المؤتمر صوت الى جانب انشاء شركة خاصة لشراء وتمويل تنمية الاراضى فى فلسطين ، وكانت تلك الشركة هى « الصندوق القومى اليهودى » « كيرن كايمت » فتأسس الصـــندوق رسميا فى سنة ١٩٠١ وقام بأول مشتريات للأراضى فى سنة ١٩٠٤ / ٥ فكان ذلك أول قطعة ملموسة من الدولة اليهودية المستقبلة ..

وعلى الرغم من الخلافات التى ظلت قائمـــة فى جسم المنظمـــة الصهيونية حتى سنة ١٩٤٨ حول الطبيعة السياسية الحقيقية للوطن القومى اليهودى فان الصهيونية بدون الهدف النهائى للدولة اليهودية كانت ستكون ولا معنى لها . فيهودية الصهيونية كانت أمرا أساسيا اتفقت عليه كلمة الجميع ما فى ذلك من شك بغض النظر عن التطلعات السياسية للجالية اليهودية فى فلسطين ، فقد ولدت الصهيونية من خلال معاداة السامية وبقيت موجودة من خلال العقيدة العضوية لليهود بكل مكان فى وجود أمة لهم ، ولكن الامة فى القرن التاسع عشر كانت تعنى الدولة ، ولـــا كان اليهود يعتقدون فى أنهم جماعة منفصلة بالفطرة عن الانسانية فان وجود الدولة كان معناه وجود دولة لهم كيهود . وفى الوقت الذى كان كثير من بقية العالم يكافح فيه من أجل السياسة للطبقـــات المحرومة اقتصاديا ، أو يناضل من أجل الاستقلال عن القوى الاستعمارية

أو فى سبيل صور وأشكال جديدة للاتحاد السياسى تلائم الأزمة الحديثة كانت الصهيونية تكافح من أجل الاتحاد السياسى مع نفسها اتحادا يكون مبنيا على تفوق يهوديتهم ، وكانوا يرون أن وجود دولة يهودية ذات سيادة هو وحده الذى يمكن أن يحل مشكلة معاداة السامية وأما أى نوع آخر من الاتحاد السياسى فانه سوف لا يفعل أكثر من تغيير مكانها ..

ولقد بدا أن هذا الفرض الجدلى أخذ يزداد وضوحا فى حد ذاته عندما بدأ الفلسطينيون العرب النضال من أجل تحرير وعتق أنفسهم وذلك لأن أولئك اليهود الذين ربما كانوا لم يتقبلوه فى المقام الأول — وهم الذين طالبوا بالاشتراكية الحقة ، أو بدولة علمانية حقيقية تضم اليهود والعرب على قدم المساواة — سرعان ما وجدوا أنفسهم فى الأقلية. فاحتلال فلسطين بواسطة الصهيونيين أذكى نار العداء والعنف العربيين وأصبح العداء للصهيونية مرادفا للعداء للسامية فى عقول كثير من اليهود والعرب لا لشىء الا لان الصهيونية كانت مصرة على أن تكون يهودية . ولما ازداد العداء للصهيونية على هذا النحو أمست الحاجة للصهيونية ظاهرة فى عين كثير من اليهود ، وهكذا وجدت حلقة شريرة ورث الصهيونيون من خلالها ميراثا لاطفال المستقبل فى اسرائيل يحتاج لأن تحميه الى الابد قوة السلاح ولتدفع أرواح كثيرة الثمن ..

وباعتبار دولة اسرائيل الابن الحقيقى للصهيونية فان أمنها الوحيد هو فى قوتها ، لان اسرائيل ما كان يمكن أن تولد على الرغم من الاحتجاجات المناهضة ، الا على حساب سكان فلسطين العرب ، وهم الذين يشكل مجرد وجودهم خطرا على يهودية الدولة اليهودية . وطالما عاشت اسرائيل كدولة وكدولة يهودية فانها لا يمكنها أن تحيا الا بانتهاج نهج لا يلين للتفوق العسكرى . وانها لمفارقة محزنة ان هذه الدولة اليهودية التى فكروا فيها خلال سفك الدماء المعادى للسامية فى القرن التاسع عشر قد ولدت بسفك الدماء،ولم يستمر بقاؤها الا من خلال مزيد من سفك الدماء ..

— ٢ —

« ان الأمان الوحيد للمهزوم هو الا يأمل فى الأمان »..

من فرجيل فى كتابه « ذا اينايد » Virgil, "The Aeneid"

كان الاستيلاء على ايلات فى شهر مارس سنة ١٩٤٩ ، وهو الفتح اليهودى الاخير فى حرب طويلة ودموية ، أمارة على نهاية آلام وضع

اسرائيل • ولم يكن بوسع أحد أن يدعى أنه كان ميلادا نظيفا أو سهلا ، كما أنه لم يبد على اسرائيل أنها وليد صحيح الجسم ، ولكنها كانت حية ، وكان هذا هو الشيء المهم بالنسبة للصهيونيين ••

واذا نحن افترضنا أن هيرتزل كان أب الدولة وأن البريطانيين كانوا الام التي حملت بها فلا شك حينئذ فى أن دافيد بن جوريون كان القابلة والمرضعة ، ولد دافيد بن جوريون فى بولندة سنة ١٨٨٦ وكان يعرف فيما مضى بدافيد جوبين المخلص ، ولما وصل فلسطين سنة ١٩٠٦ فانه مثل كثير من شباب جيله ، جمع بين الرؤية السياسية الحادة والارتباط الصوفى باليهودية ، وان لم يكن فى جوهره ارتباطا دينيا ••

وفى سنة ١٩٢٠ صار أول سكرتير عام للهستدورت •• وفى سنة ١٩٣٠ كان واحدا من منشئى حزب الماباى وهو حزب العمل الاسرائيلى الذى كان القوة المسيطرة فى السياسة الاسرائيلية فى الثلاثين سنة الأولى لقيام الدولة ، ولعبت دورا بارزا فى صياغة برنامج بلتمور ، وأرسى دعائم الاتجاه الصهيونى الى أمريكا ، وفيما بعد ، اتجاه اسرائيل الى فرنسا • وفى سنة ١٩٤٨ أصبح رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع فى حكومة اسرائيل المؤقتة وأخذ على عاتقه مهمة نشأة الدولة فى خضم الصراع من أجل البقاء ••

وطوال ١٩٤٨ كان مطلب بن جوريون الذى نادى به هو القول بأن هناك أمرين حاسمين للكيان الاسرائيلى ، أولهما توحيد قوات اسرائيل العسكرية تحت قيادة واحدة ، وقد ساعد على تحقيق هذه الغاية بانشاء قوات الدفاع الاسرائيلى حول نواة من الهاجاناة القديمة ••

وفى سبتمبر ١٩٤٨ ألغى بن جوريون القوة اليمنية المستقلة المعروفة باسم الارجون ، وفى نفس هذا الشهر اغتال أعضاء من ليهى ، الاكثر تطرفا ، الكونت برنادوت وسيطر الأمم المتحدة فى القدس ولم يصدر حكم بالاعدام على أحد أبدا فى جريمة القتل هذه ، ولكنها أعطت ابن جوريون الفرصة لقمع ليهى هى الاخرى ، وفى أكتوبر تم تسريح قوات الكوماندوز المعروفة بالبالماخ والتى كانت تتمركز فى قرى الكيبوتز وبذلك تم التخلص من آخر أثر للقيادات المستقلة داخل القوات الاسرائيلية المسلحة ، وكانت القرارات قرارات سياسية وليست عسكرية ، وهو ما يمكن الحكم عليه فى المرحلة الاخيرة التى نفذت فيها

تلك القرارات ومن الحقيقة الواقعة وهى أن قيادة الهاجاناة كانت قد أصبحت قيادة مركزية فعلا قبل ذلك بحوالى ثمانية عشرة سنة ..

وأما المطلب الثانى وربما الاقل قيمة من حيث أنه انجاز مشرف لبن جوريون خلال سنة ١٩٤٨ فهو تدعيم الادارة الحكومية ، وهو الأمر الذى وضع موضع التنفيذ على حساب خلق مشكلة ذات أبعاد مأساوية للاجئين .. وذلك أنه حتى أبريل – مايو سنة ١٩٤٨ ربما كان اليهود أكثر اهتماما بأن يروا الفلسطينيين العرب بين ظهرانيهم من أن يلقوا بهم خارج الاراضى التى يحتلونها ، فحقيقة الامر انه كلما استطاعوا اغراء عدد أكبر من العرب على البقاء فى المناطق ذات الغالبية اليهودية كلما كان ذلك أفضل لصورتهم العامة باعتبارهم حكاما محسنين .. ومع كل فانه قد فر ما يقدر بـ ٢٠٠٫٠٠٠ – ٢٥٠٫٠٠٠ فلسطينى عربى من ديارهم فى خلال تلك الفترة ، ولا شك فى أن كثيرا منهم انما فعلوا ذلك استجابة لنداءات جامعة الدول العربية الموجهة اليهم بأن يغادروها كيما يعودوا اليها فاتحين فيما بعد ، وبعضهم لابد وأن يكون قد فر بدافع من الخوف بينما فر آخرون لمجرد أنهم وجدوا أنفسهم فى طريق الرصاص المنطلق . على أن اعلان قيام دولة اسرائيل والغنيمة الكبيرة من الارض والممتلكات التى غنمتها غير من الصورة ، ففى شهر مايو سنة ١٩٤٨ كان أقل من سبعة فى المائة من المساحة الكلية لاراضى فلسطين تحت السيطرة اليهودية . وحتى بغض النظر عما يقدر بـ ٤٠٠٫٠٠٠ عربى كانوا يعيشون فى الضفة الغربية وشرق الاردن ، وعن ١٥٠٫٠٠٠ كانوا يعيشون فى قطاع غزة وعن ٢٥٠٫٠٠٠ كانوا يبحثون لهم من قبل عن مأوى يلجأون اليه فانه كان لا يزال هناك قرابة ٥٠٠ ر ٠٠٠ عربى موجودين فى الأراضى التى كان الاسرائيليون يسعون الى احتلالها . وأقل ما يمكن أن يقال هو أنه كان من الصعب أن نتأكد من أن أولئك الـ ٥٠٠٫٠٠٠ عربى قد قبلوا سلطة ادارة مدينة تمثل ما لا يربو على ٦٠٠ ر٠٠٠ يهودى بكثير . ومن ناحية أخرى فلو صح ما يرويه الأسرائيليون أن أولئك الـ ٥٠٠٫٠٠٠ عربى قد ابلغوا انهم سيكونون موضع الترحيب لأن يبقوا فى ديارهم تحت حكم اليهود لما كان مما يحتمل التصديق ان حفنة منهم فقط هى التى بقيت فعلا . فالتاريخ ، ان لم يكن العقل ، يشهد على أن الناس ليسوا على استعداد لأن يتركوا منازلهم وأعمالهم فى سهولة لكى يصبحوا لاجئين حتى ولو افترضنا انهم سرعان ما سوف يعودون اليها ، وانها لشهادة صدق ، شهادة التاريخ . ثم ان أرقام الامم المتحدة تقدر أن

العدد الكلى للفلسطينيين العرب « الذين اخرجوا من بلادهم » ما بين اعلان مشروع الأمم المتحدة للتقسيم فى سنة ١٩٤٧ وتوقف الاعمال العدائية سنة ١٩٤٩ هو ما بين ٧٠٠٫٠٠٠ — ٧٥٠٫٠٠٠ ، وهذا معناه أن كل الفلسطينيين العرب تقريبا جدا الذين لم يكونوا فروا من ديارهم بحلول ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ صاروا لاجئين فيما بعد • فاما انهم كانوا يكنون روحا عدائية شديدة حيال الحكم الاسرائيلى — وفى هذه الحالة فمن المؤكد أن الاسرائيليين ساعدوهم على الرحيل — واما أن الاسرائيليين فى سعيهم للسيطرة على مناطق بها جاليات عربية كبيرة ذات عداء احتمالى كامن فى النفوس هم الذين أغروهم بالرحيل •

ومهما يكن الأمر فانهم رحلوا فعلا — فرارا بالالوف الى غزة والى الضفة الغربية والدول العربية المحيطة • فانشاء حكومة مدنية قوية فى سائر أنحاء البلاد التى كانت تسيطر عليها اسرائيل فى سنة ١٩٤٩ كان يتطلب أصغر عدد ممكن من السكان المعادين ، فمشكلة اللاجئين كانت « ولا تزال » تنسجم انسجاما كليا وهدف انشاء وتأمين دولة يهودية على وجه التحديد — وسواء أكان ذلك الهدف هو السبب الحقيقى للمشكلة أم لم يكن كذلك ••

وفى خلال الاشهر التى أعقبت هزيمة دول الجامعة العربية أصدرت حكومة بن جوريون سلسلة من القوانين الاساسية التى حددت بوضوح ، واذا لم يكن هنـــاك دستور رســـمى ، دعائم اسرائيل فى يهــودية سكانها(*) ••

فقانون العودة يمنح كل المهاجرين اليهود الحق فى أن يصبحوا مواطنين على الفور ، ويستثنى من ذلك أى شخص « يعمل ضد الأمــة اليهودية » وأى شخص « قد يهدد الصحة العامة أو حالة الأمن العام » ،

(*) بالنسبة للاغراض القانونية الاسرائيلية فانه ليس من الضرورى ان يمارس المرء الوحيدة المقبولة لكلمتى يهودى (Jew), (Jewish) ويهودى هى تعريفات دينية فان هذا او حتى يعتقد فى الديانة اليهودية لكى يعتبر او يصنف يهوديا .. ولكن بما ان التعريفات كثيرا ما ادى الى النزاع داخل صفوف الحكومة الاسرائيلية التى تسيطر عليها دواما احزاب ســياسية ذات اتجاهات علمانية ، وفى الحقيقة فان القــانون الاسرائيلى ومعظم الكتابات الصهيونية صريحة فى رفضها لفكرة الدولة الدينية .. فهناك اذن تناقض كبير بين اصرار اسرائيل على طابعها اليهــودى الذى تمتد جذوره فى الــكتاب المقدس وفى التعــاليم الدينية وبين رفضها فى الوقت نفسه . ان تمنح السلطة الدينية اليهودية اى حقوق مدنية او ادارية . والازمات السياسية ، التى غالبا ما تاخذ صورة المنازعات داخل صفوف حكومات الائتلاف الذى يضم احزاب الاقلية الدينية ، دائما ما تنشا بسبب هذا الموقف التقليدى الاسرائيلى ذى الوجهين من اليهودية .

وأى شخص له تاريخ اجرامى ، « وعرضه لان يعرض الصالح العام للخطر» ، وبطبيعة الحال أى انسان ليس يهوديا • وقد وصف بن جوريون قانون العودة بقوله « ان قانون العودة قد عرف المصير التاريخى لدولة اسرائيل باعتبارها مجمع المنفيين » • وقانون الجنسية الاسرائيلى (١٩٥٢) يشتمل على نصوص قانون العودة فى الوقت الذى وضع فيه عددا من الشروط المتشددة لمنح صفة المواطن لغير اليهود • كما أن القانون الشرعى للمؤسسة الصهيونية الصادر فى سنة ١٩٥٢ يعترف رسميا باعتماد الدولة والحركة الصهيونية كل منهما على الأخرى ويعلن أن « اسرائيل تعتبر نفسها من صنع كل الشعب اليهودى وأبوابها مفتوحة لكل يهودى يريد أن يحضر اليها » ، وكذلك فان قانون الأحوال الشخصية الاسرائيلى يمنع الزواج بين الناس من ذوى الديانة المختلفة ••

ولقد كان الهدف من هذه القوانين هو ببساطة المحافظة على الطابع اليهودى للدولة وضمان استمرار تدفق المهاجرين اليهود لايجاد قوة العمل الضرورية • وفى مختلف الاوقات كان بن جوريون يشجع ارتفاع معدل المواليد لمواجهة اتجاه العرب للتكاثر أسرع من اليهود • ومن ذلك انه كتب فى سنة ١٩٧١ يقول : « ان أى امرأة يهودية لا تأتى الى العالم بأربعة أطفال أصحاء على الأقل ، وطالما كان الأمر متوقفا عليها ، فانها تتراجع عن واجبها حيال الامة مثلها فى ذلك كمثل الجندى الذى يتهرب من الخدمة العسكرية » • وان الجمع بين الامومة والخدمة العسكرية أمر له مغزاه ، وهو يكشف عن الايمان بأن المجتمع الاسرائيلى مجتمع عسكرى الجوهر • فاسرائيل بلد « كل مواطن فيه جندى فى أجازة سنوية قدرها احدى عشر شهرا » كما قال ايجال يادين ذات مرة • ولكن مجرد وجود جيش من الاحتياط ليس هو الامر المهم • فلقد اضطرت دولة اسرائيل المحاصرة أن تفكر وتخطط بلغة عسكرية — اذ كان عليها أن تصبح من نواح كثيرة ، مثل قلة ضخمة تحيط بها المعسكرات المسلحة ويحكمها نظام محوره الامر العسكرى • فتلك كانت على وجه اليقين نظرة بن جوريون للأمور • فهو قد كان الاول من بين كثيرين من رؤساء الوزارات الاسرائيلية الذى جمع بين هذا المنصب وبين منصب وزير الدفاع • ففى خلال السنوات التى أعقبت سنة ١٩٤٨ سعى لأن يفرض قدرا أعظم من المركزية واشراف الدولة وسيطرتها على المجتمع الاسرائيلى ونهض بانشاء المستعمرات أو المستوطنات الزراعية المسلحة « لتحمى » حدود اسرائيل ••

لكن أول مشكلة واجهتهم كانت مشكلة نضوب الموارد والقوة البشرية الاسرائيلية ، فكان من الضرورى عمل التعزيزات اللازمة ولكن حصة الامهات اليهوديات ، مهما بلغ قدره ، فانه لم يكن ليساعدهن على الانجاب بأسرع مما تسمح به الطبيعة • وكان أهم قرار وحيد يتخذه أول برلمان (الكنيست) هو مضاعفة السكان فى أربعة أعوام • فالانتاج الزراعى كان قد هبط هبوطا شديدا نتيجة لفرار الفلاحين • وصـــارت المناطق الزراعية القديمة فى حاجة لان يعاد تنميتها وصار واجبا انشاء مستوطنات جديدة (وبخاصة فى الجليل والنقب) •

ولقـــد اتخذت عـــدة اجراءات للحصـــول على أراضى العرب للمستوطنين اليهود ، فاستخدموا لهذا الغرض مراسيم معينة ترجع الى عهد الانتداب ، وبخاصة مراســيم « الطوارىء » لوزارة المستعمرات الصادرة فى سنة ١٩٤٥ ، وفى السنوات التى تلت وافق الكنيست على اجراءات أكثر تحديدا لنزع ملكية أراضى العرب أو للسيطرة العسكرية عليها ، وذلك مثل قانون ملكية الغائبين (١٩٥٠) ومثل مراسيم الطوارىء (مناطق الأمن) الصادرة فى سنة ١٩٤٩ ••

ولقد زاد تدفق المهاجرين فعـــلا فى السنوات الأولى للدولة وفاق ما كان متوقعا حيث وصل اسرائيل قرابة ٠٠٠ر ٧٠٠ يهودى فى الفترة الواقعة ما بين ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ونهاية سنة ١٩٥١ فتضاعف بذلك عدد السكان من الناحية الفعلية فى خلال ثلاث سنوات • ولكن بعد ســـنة ١٩٥١ هبط هذا الفيضان المبكر ولم تنشط الهجرة نشاطا فعليا منذ ذلك الوقت الا بانتصارات اسرائيل العسكرية(*) •

ان الغالبية الساحقة من المهاجرين اليهود حتى سنة ١٩٥٤ جاءت من الدول الافريقية والآسيوية (ومن بينها عدد من الدول العربية ـــ وبشكل خاص اليمن) ، وكانوا مصدرا غير قيم للعمالة الرخيصة فى حال عـــدم وجود العدد الكافى من العرب • وأما اليهود الآتين من الغرب • والذين كانوا يشكلون الغالبية للمجتمع الاسرائيلى فى تلك الايام الاولى فانهم

(*) تعكس مشكلة الهجرة العلاقات السيئة بين الاتحاد السوفيتى واسرائيل • فرفض الاتحاد الســـوفييتى السماح بحرية هجرة اليهـــود » والذى يرجع الى ســـنة ١٩٦٧ « فيه تهديد فعلى لاسرائيل لان اليهـــود السوفييت يمثلون اكبر مستودع متاح للهجرة المحتملة الى اسرائيل ، فى حين ان معظم اليهود الغربيين على احسن ما يكونون فى بلادهم بحيث انهم لا يرغبون فى تركها ، ومعين اليهـــود الآسيويين والافارقة محدود ••

ما كانوا ليظهروا حسن الاستعداد لقبول اقتصاد منخفض الأجور •
لكن اسرائيل بدأت حياتها كدولة من دول العالم الثالث ، معتمدة على المعونة والقروض والاحسان من الغرب ، وكان اقتصاد البلاد يرتكز لدرجة كبيرة على القاعدة الزراعية وحتى هذا الانتاج الزراعى كان فى مأزق وكان على اسرائيل أن تتخذ اجراءات حازمة لو أنها أرادت تنميته بأية حال • واذ كانت الدولة الاسرائيلية قد قبلت وضعها فى السنوات الأولى لقيامها « كمحطة للتصدير » للغرب ، فان الحكومة الاسرائيلية اتخذت اجراءات تقشف قاسية ، وقرنت ذلك بسياسة الهجرة مما أوجد العمالة اللازمة الرخيصة ••

ولقد أنشىء ما يربو على ٢٥٠ مستوطنة زراعية فى السنوات الأربع حتى ١٩٥٢ بالمقارنة بما يزيد قليلا على ٣٠٠ مستعمرة فى السنوات الواقعة بين سنة ١٨٧٠ — ١٩٤٨ وكانت غالبية هذه المستعمرات فى النقب والجليل الاعلى تمشيا مع سياسة الحكومة فى استيطان مناطق الحدود وتأمين وجود الطرق فى ثنايا النقب حتى ايلات، فقد كانت النقب وايلات هامتين بنوع خاص بالنسبة لتخطيط اسرائيل فى الأمد البعيد لان المناطق الصحراوية كانت تمثل ستين فى المائة من الاراضى التى تسيطر عليها اسرائيل قبل سنة ١٩٦٧ • ولما كانت الملاحة الاسرائيلية محظورا عليها استخدام قناة السويس فان خليج العقبة كان يمثل الطريق الوحيد القابل لسلوكه أمام اسرائيل وهى فى طريقها الى مجال نفوذها الاقتصادى « الطبيعى » — ألا وهو شرق وجنوب افريقيا وآسيا • ولقد كان تطوير ميناء ايلات (التى تصرف اليوم من عشرة الى خمسة عشر فى المائة من تجارة اسرائيل الخارجية ويمر عن طريقها معظم وارداتها من الزيت) جوهريا من حيث تحقيق حلم الصهيونية بالكامل فى أن تصبح اسرائيل الامة المسيطرة فى منطقتها ، أمة متحررة من الاعتماد على أى قوة كبرى ، دولة نامية بالفعل قد تم نماؤها استوردت الى ما يسمى بالمنطقة « الآخذة فى النمو » • ولهذا السبب فان منطقة النقب بأسرها كانت الطريق لمستقبل اسرائيل كما كانت مستودعا زراعيا معدنيا ذاخرا ••

وأما عن مصر فقد كان لديها ، بطبيعة الحال ، خطط أخرى بالنسبة الى صحراء النقب • فقد كانت لا تزال تتوق بنوع خاص الى تحقيق حلمها فى وجود قنطرة برية تربطها بالمشرق العربى • وبصرف النظر عن

ذلك فان بناء ايلات أو تطويرها جعل اغلاق قناة السويس حركة لا معنى لها • وكانت مصر قد زعمت أن اسرائيل استولت على ايلات بطريقة غير مشروعة بعد التوقيع على اتفاقية الهدنة فى سنة ١٩٤٩ ، وادعت اسرائيل أنها استولت عليها من الاردن قبل التوقيع على اتفاقية الهدنة تلك بنوع خاص ، ووقفت الأمم المتحدة بجانب وجهة النظر الاسرائيلية • الا أن ذلك لم يمنع المصريين من تحصين مدخل خليج العقبة وفرضت حصارا على الملاحة الاسرائيلية ، ولكن ليس على البضـائع فى سنة ١٩٥١ • واستمرت اسرائيل بالمثل ، غير عابئة بشىء ، فى بنـاء ايلات وتطوير النقب ••

وغالبا ما كان التعمير يجرى فى أعقابه قيام المستوطنين المسلحين ، وبينهم فى بعض الاحيان أعضاء نظاميون من قوات الدفاع الاسرائيلية ، باحتـلال مناطق على الحدود • ففى الجليـل أدى مشروع اسرائيلى لتجفيف مستنقع الحولة الى هجوم سورى فى سنة ١٩٥١ بعد أن توغلت اسرائيل فى مناطق تعلن اتفاقية الهدنة السورية ــ الاسرائيلية المعقودة فى سنة ١٩٤٩ انها مناطق منزوعة السـلاح • فقامت اسرائيل بدورها باتخـاذ اجراءات انتقامية ازاء القرى السـورية ، وتسبب مشروع اسرائيلى لتحويل منابع مياه نهر الاردن لرى صحرء النقب فى سنة ١٩٥٣ فى تصاعد جديد للنزاع • وتوقف المشروع فى خلال بضعة أسابيع بعد أن أوقفت الولايات المتحدة المعونة الاقتصادية والعسكرية لاسرائيل ، ولكن اسرائيل شرعت فيه من جديد بعد ذلك ببضع سنوات ••

كما وأن المستعمرات التى انشئت فى صحراء النقب ، وخاصـة تلك التى انشئت على طول الحدود مع قطاع غزة وفى منطقة العوجة أو نيتزانا المنزوعة السلاح قد تسببت فى حدوث احتكاك آخر بين اسرائيل ومصر • على أن تلك الاحتكاكات ظلت محصورة فى نطاق ضيق لبضع سنين اذ اقتصرت فى أغلب الحالات على الهجمات التى يشنها جماعات الفلسطينيين المغيرين العرب والجنود المستوطنون اليهود •

على أن الآثار المشتركة والمجتمعة للبيان الثلاثى لأمريكا وفرنسـا وبريطانيا الصادرة فى سنة ١٩٥٠ بالحد من مبيعات السلاح فى الشرق الأوسط ، والوضع الاقتصادى العام لاسرائيل والدول العربية كذلك ، وكذا نفوذ الدول الغربية (خاصة أمريكا وبريطانيا) الذى نجح فى

احتواء القومية العربية ، والسيطرة على الاقتصاد الاسرائيلى ، نقول ان الآثار المجتمعة لهذه الأمور تكفلت بأن يكون مستوى النزاع منخفضا فى المنطقة ..

لكن الحرب ليست مقصورة على الصراع على أوسع نطاق ، بل انها النزاع على مستوى من التنظيم الاجتماعى . ففى مطلع الحرب الفلسطينية أو فى بدايتها كانت مجتمعات اسرائيل ومصر والاردن وسوريا فى حالة من التشوش والفوضى ، غير أنه بحلول سنة ١٩٥٣ كانت قد طرأت تغيرات كيفية فى الشرق الاوسط جعلت احتمال الحرب الشاملة النطاق احتمالا متزايدا ..

ومن الغريب حقا أن نجاح برنامج الهجرة الاسرائيلى كانت له آثار خاسرة ، لان نفقات استيعاب المهاجرين مضافا اليها ميزانية الدفاع الضخمة الاسرائيلية ، كانا عبئا ثقيلا على الاقتصاد الاسرائيلى المجهد من قبل . فالاسكان والتعليم كانا المجالين اللذين يلقيان أعظم الاهتمام ، فكان المهاجرون مزدحمين فى الخيام ، حيث أصبحت المراحل الاولى لاستيعابهم (من خلال التعليم) موضع تنافس مختلف الجماعات السياسية داخل البلاد فى الاهتمام بهم ..

ولقد أوجد قانون التعليم الاجبارى لسنة ١٩٤٩ ، الصادر فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٩ نظام للتعليم العام تنظمه الدولة . وكان هناك عدد من « الاتجاهات » المختلفة ــ يتعاطف كل اتجاه منها مع حزب سياسى . وتنافست هذه الاتجاهات تنافسا شديدا على الحق فى تعليم أطفال المهاجرين الذى كان يجرى مؤقتا فى معسكرات التوزيع ، وكانت الاحزاب الدينية بنوع خاص ذات صوت عال فى هذا الصراع وهى التى لعنت « المعلمين والكتبة الأشرار » و « حياة اسرائيل غير النظيفة » . وأصرت الحكومة الائتلافية برئاسة بن جوريون على حقها فى الاشراف على تعليم المهاجرين ، غير أن أوجه النزاع السياسى حول الموضوع أجبر الحكومة على الاستقالة فى النهاية ، ورأس بن جوريون الحكومة الائتلافية الثالثة مرة أخرى مع اشتمالها على مزيد من التمثيل للأحزاب الدينية . وثبت أن هذه الحكومة الائتلافية غير مستقرة بالمثل كسابقتها ولاح على بن جوريون أنه قد يئس من توحيد اسرائيل فى يوم من الايام من أجل المهام التى كان يرى أنها هى المهام الجوهرية ــ ألا وهى اجتذاب

المهاجرين واستيعابهم فاستقال فى سنة ١٩٥٣ تاركا منصبى رئاسة الوزراء ووزير الدفاع فى يدى موسى شاريت وبنحاس لافون بالتعاقب ، وهى أكثر اعتدالا •

كان هذا التحول تجاه الاعتدال ممكنا — جزئيا — بسبب الضعف الداخلى للدول العربية والصراعات المتبادلة بينها • وفى خلال عامى ١٩٥٣—١٩٥٤ بدا أن العلاقات العربية — الاسرائيلية آخذة فى التحسن، غير أن عدم وجود زعيم قوى مثل بن جوريون ساعد كذلك على صعوبة حل الزعامة العسكرية الاسرائيلية التى أخذت تتباعد تباعدا متزايدا عن المناورات الدبلوماسية للحكومة الائتلافية ، وبينما كانت هذه الفجوة بين السياسات المدنية والسياسات العسكرية الاسرائيلية آخذة فى الاتساع أخذ العالم العربى يمر بتغيرات عميقة وبعيدة المدى ••

— ٣ —

انى لاتساءل عما اذا كان يوجد شىء آخر كان بوسعى ان افعله لامنع وقوع هذا ..

انطونى ايدن ١٩٣٩

لقد سقط الحكم المتداعى الفاسد للملك المصرى فاروق سنة ١٩٥٢ أثر انقلاب قام به عدد من صغار ضباط الجيش المصرى ، وكان أولئك الضباط قد نظموا منظمة تمتعت بحرية الحركة أطلقوا عليها اسم « حركة الضباط الأحرار » قبل ذلك بعدة سنوات ، وهم رجال من أمثال عبد الناصر وأنور السادات وعبد الحكيم عامر الذين ما كان هدفهم ليتعدى كثيرا جعل عملية ترقية الضباط للمراكز ذات السلطة الحقيقية عملية ديموقراطية ، ولكن الحرب الفلسطينية كانت قد حولت قدرا معينا من الاهتمام بالدور الذى يلعبه فاروق فى المجتمع المصرى حيث كان سلوكه فى أواخر الأربعينات قد صار سلوكا فاضحا بصورة متزايدة • ولقد كانت سلطته مغلولة على الدوام على أيدى البريطانيين الذين كانوا يحتلون البلاد بالقوة على الرغم من معاهدة سنة ١٩٣٦ وكانوا لا يزالون يحكمون مصر من الناحية الفعلية • فألحقوا به العار والصغار وبدا أنه يستفيد من كونه لا سلطة لديه ولا مسئولية عليه ••

وفى أثناء الحرب الفلسطينية وكان فاروق قد طلق زوجته

المحبوبة من الشعب ، فانه جعل القوات المصرية ترتب له مقرا صيفيا وسط قطاع غزة المعد للمعارك وذاع عنه انه اشترى أسلحة متخلفة وحصل على الأرباح من ورائها لجيبه الخاص ، وهذه الفضائح لم يكن يبزها أو يتفوق عليها غير الاسلوب العام لحياته والذى كان واضحا انه أسلوب منحط ، فاختلال غدده الجسدية وشهوته الضاربة قد حولته الى صورة شهوانية مهولة • فكان عاجزا عن السيطرة على شهوته الجسدية كما كان عاجزا عن أن يحكم مصر ، ففقد كل احترام له وفقد شعبيته اللذين كانا له عند ارتقائه العرش وسعى للتشبث بالحكم والثروة حفاظا وابقاء على رغباته الجامحة ••

وأما محاولاته التفاوض من أجل جلاء القوات البريطانية فقد عاقها باستمرار اصرار بريطانيا على أن تبقى فى السودان والفساد المتزايد لأحزاب مصر السياسية • وأما عن اقتصاد مصر فقد كان خربا ولم تكن نفقات الدفاع تشكل الا جانبا واحدا من المشكلة ، فالحرب الكورية كانت قد رفعت أسعار القطن المصرى الى مستوى مرتفع غير طبيعى ، وعلى الرغم من الفوائد قصيرة الأمد لهذا الارتفاع فى أسعار القطن فانه لم يمض غير وقت قصير قبل أن يدفع بمصر الى الديون لانه كان عليها أن تستورد المزيد والمزيد من القمح لمواجهة الاستثمار الخيالى فى انتاج القطن والزيادة الدائمة لعدد السكان (مضافا اليهم تدفق اللاجئين الفلسطينيين) ، وعالجت الزعامة المصرية مشكلاتها الداخلية باتخاذها موقفا متزايد العداء للبريطانيين ••

على أن التقدم فى سبيل الجلاء عن منطقة قناة السويس عاقه أكثر وأكثر استعادة المحافظين الحكم بزعامة ونستون تشيرشل فى الانتخابات البريطانية التى جرت سنة ١٩٥١ لان تشيرشل ووزير خارجيته أنطونى ايدن كانا أقل استعدادا للوصول الى تسوية مع مصر عن طريق المفاوضات مما كانت عليه حكومة العمال من قبل • وفى خلال ذلك الوقت حاولت الحكومة الأمريكية أن تجر مصر الى نوع من الاحلاف الموالية للامريكان فعرضت على مصر المعونة الاقتصادية والتأييد لها فى نضالها ضد البريطانيين اذا ما انضمت مصر للمنظمة الدفاعية عن الشرق الأوسط المشكلة حديثا فى ذلك الوقت « ميدو » Middle East Defence Organisation (M.E.D.O.) مع تركيا وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة ، ولكن لان الدول الثلاث الأولى من الحلف كانت

هى عين الدول المسئولة عن شقاء مصر الراهن فان المصريين لم يكونوا فى منتهى السعادة لهذا الاقتراح ، فرفضوه ونشطوا فى القتال ضد الوجود البريطانى ••

ودعا الحزب السياسى الوطنى الحاكم فى مصر ، وهو حزب الوفد، الى تكوين « فرق للتحرير » لمهاجمة المواقع البريطانية فى منطقة القناة ، وقام البريطانيون بالرد على تلك الهجمات ، وعلى أثر هجومهم الدموى على مركز للشرطة المصرية أشعل أهل القاهرة النار فى حوالى أربعمائة مبنى فى وسط المدينة ، وكان بين أهدافهم التى استهدفوها الممتلكات والمبانى التى على صلة بالحكم الأجنبى ومنها نادى سباق الخيل الشهير ، وفندق « شبرد » وكثير غيرها من الحوانيت والمحلات والمطاعم التى يملكها الايطاليون واليونانيون واليهود • ولقد أحدث الحريق خسائر فادحة ـ قدرت بحوالى ٢٣ مليون جنيه استرلينى • وكان الوفد قد ترك العنان للقوات تتحرك بعيدا عن سيطرته عليها ، بينما الملك ناعم البال فى قصره أثناء تلك الاضطرابات ولا يبدى أى اهتمام ظاهر بل يضيع الوقت فى حين ان القاهرة تحترق ••

وبعد أن هدأت الاضطرابات تقدم فاروق وحل البرلمان الذى يسيطر عليه الوفد ، ولكن بعد فوات الأوان • ان ما فعله هو مجرد اعتداله فى كرسيه والرجوع به الى الوراء ليشاهد نفس البرنامج القديم•

وبطبيعة الحال فان أكبر خطر كان يتهدد فاروق كان مصدره شعبه هو وليس البريطانيين الذين كانوا على ثقة تقريبا من أن قاعدة القناة لا يمكن الحفاظ عليها الا بغزو شامل لمصر ، وهو شىء لم يكن باستطاعتهم • ولو لم تكن مشكلة السودان الشائكة لكان البريطانيون قد حزموا أمتعتهم ولا شك وغادروا البلاد فى اليوم التالى لحوادث الشغب التى حدثت فى القاهرة • لكن المطالب البريطانية والمصرية فى السودان كانت متنافرة تنافرا كليا اذ بينما كان المصريون يطالبون « بوحدة وادى النيل » كان البريطانيون ينشدون قيام رابطة بين مجالات النفوذ فى الشرق الأوسط وشرقى أفريقيا • ولا شك فى أن فاروق كان سوف يقبل وجودا بريطانيا ليحمى عرشه ، ولكنه كان يواجه قيام عصيان مسلح فيما لو رفض البريطانيون مغادرة البلاد • فسعى الى قمع غالبية المؤسسات السياسية التى تهدده فى مصر ، لكنه حينما اكتشف وجود الضباط الأحرار كانوا هم على استعداد للتحرك ••

وعندما تحركوا بالفعل ، فى يولية سنة ١٩٥٢ انهار حكم فاروق كبيت من ورق ولم يأخذ الأمر منهم غير أيسر الجهد ليهزوا صرح الحكم المصرى المزعزع من قواعده ..

وكان على رأس الضباط الاحرار من الناحية الاسمية رجل له مكانته هو اللواء نجيب ، ولكن العضو الذى كان له أعظم النفوذ فى هذه الجماعة الصغيرة من الجنود هو فى الحقيقة جمال عبد الناصر الذى نادى منذ البداية بعودة سريعة للديمقراطية البرلمانية فى مصر ولكن أحدا لم يكن مستعدا لذلك بسبب الطريقة التى انهار بها المحافظون القدامى انهيارا سريعا تاما . وكما لاحظ ناصر فى سنة ١٩٥٣ فان الضباط الاحرار لم يكونوا يبغون أكثر من « تطهير الجيش وتخليص البلاد من الاحتلال الاجنبى واقامة حكومة نظيفة عادلة تعمل باخلاص من أجل صالح الشعب » .. ولكن ما أن وجدنا أنفسنا فى السلطة « هكذا يمضى عبد الناصر قائلا « فاننا وجدنا أنفسنا نواجه مشكلة صعبة هى مشكلة تأسيس برنامج سياسى واجتماعى واقتصادى » . وفى خلال بضعة أشهر كان الضباط الاحرار قد صاروا أداة الحكم الوحيد بعد الغاء الملكية ، وقمع الاحزاب السياسية ، وحيث صار ناصر شخصيا رئيسا للوزراء ثم رئيسا للجمهورية فى ١٩٥٤ ..

كانوا زعماء لا تلمس مظهرهم الثورى الا بصعوبة . فلقد صنعوا بعض قوانين الاصلاح الزراعى المعتدلة ، وتصرفوا بحزم ازاء العمال المضربين ، واتفقوا مع البريطانيين حول السودان وبدا عليهم العزم على التوصل الى اتفاقية مقبولة عن الجلاء عن قاعدة قناة السويس ، ووجدت الحكومات الغربية فى حكم نجيب ــ ناصر تغييرا يستحق الترحيب فاستجاب البريطانيون استجابة طيبة نحو الزعامة المصرية الجديدة على الرغم من قدر معين من روح الأبوة التى كانت لهم . ومع أن الضباط الاحرار كانوا عديمى الخبرة فى أساليب السياسة الا أنهم كانوا متحفزين على الأقل لانجاز الامور . وما أقصر اللحظة التاريخية التى بدا فيها كما لو أن مصرا جديدة ، قوية ومستقلة قد تدخل أو تدلف بقدميها فى سعادة داخل المعسكر الغربى ، حتى ان موسى شاريت رأى أن الحكام الجدد لمصر أقرب الى المنطق الاسرائيلى ، وعقدت محادثات السلام خلال عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ..

ولقد اتخذ الاردن تحت حكم حسين حفيد الملك عبد الله ، ومصر تحت حكم عبد الناصر اجراءات الهدف منها الحد من اختراق الفلسطينيين للحدود قادمين من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعملت كلتا الدولتين على تطبيع علاقاتها مع اسرائيل ، وفى باكورة سنة ١٩٥٤ أرسل شاريت وعبد الناصر ممثليهما الى باريس لاجراء محادثات سرية القصد منهـا جلب أو احلال السلام على حدودهما وفتح قناة السويس لمرور البضائع الاسرائيلية (دون السفن الاسرائيلية) • وفى أثناء تلك السنة صـار واضحا أن البريطانيين سرعان ما سوف يوافقون على الجلاء عن قاعدة قناة السويس • ونظرت الحكومة الأمريكية بزعامة ايزنهاور الى أهداف القوميين العرب نظرة افضل من نظرة حكومة ترومان الديمقراطية ولما كانت السياسة الأمريكية يسطر عليها آنذاك وزير الخارجية جون فوستر دالاس المتطرف فى عدائه للشيوعية فقد سيطرت عليها فى صورة متزايدة فكرة انشاء ستار حديدى حول الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتى • وبدون أن يتخلى الأمريكيون عن ارتباطاتهم حيال اسرائيل فانهم ظلوا — وعن عمد — بمنأى عن المفاوضات البريطانية مع مصر ، ووعدوا فقط بالبدء فى برنامج للمعونة المصرية اذا (وعندما) يتم التوصل الى اتفاقية مع البريطانيين ••

وكان أول ما أقدم عليه دالاس فى سبيل خلق مجال للنفوذ الأمريكى بالشرق الأوسط هو أنه قام برحلة فى المنطقة فى شهر مايو سنه ١٩٥٣ — بعد تنصيب أيزنهاور بأربعة أشهر وبعد أكثر من شهرين بقليل على وفاة ستالين وحدث أن أستاء رئيس الوزراء تشيرتشـل كثيرا من حركات أمريكا لدرجة أنه فسرها أو حملها على أنها تشجيع ايجابى لموقف مصر المعادى لبريطانيا فكتب الى ايزنهاور بذلك ومهددا بأن « بريطانيا ستكون غير مسئولة عن أى اراقة للدماء قد تنتج عن تأييد أمريكا لمطالب مصر » •

وعلى الرغم من كراهية تشيرتشل الشديدة (للديكتاتورية المصرية) فقد استمرت المفاوضات فى السر حول الجلاء عن السويس • ولما كانت المؤسسةالدفاعيةالاسرائيلية قد شاركت تشيرتشل تخوفه (وبخاصة جناح المخابرات فى تلك المؤسسة) فانه حدث أن وضع عدد من القنابل الحارقة بالدور العامة وبمكاتب مكتبالاستعلاماتالامريكى بالاسكندرية والقاهرة فى شهر يولية سنة ١٩٥٤ ، وقد نفذ هذه الحملة اليهود المصريين وعملاء المخابرات الاسرائيلية بغية خلق شعور سيىء بين أمريكا ومصر ولاعاقة

الجلاء عن قاعدة قناة السويس • وكانت السلطات الاسرائيلية المسئولة ترى أن فى وجود القوات الأجنبية بمنطقة القناة مانعا من العمل العسكرى المصرىضد اسرائيل ، كما وانهم حسبوا أن فى سيطرة مصر على القناة مايهدد حتى هذا الاتصال المحدود الذى كان لا يزال متاحا لاسرائيل بالممر المائى • ومهما يكن الأمر فان المصريين انسحبوا من محادثاتهم السرية مع اسرائيل على الفور واعتقلوا أحد عشر يهوديا بسبب أعمال التخريب ، وتم شنق اثنين منهم وسجن ستة آخرين مددا طويلة ، وقبل تنفيذ حكم الاعدام فى هذين الاثنين بعدة أسابيع قليلة كان قد تم اعدام ستة مصريين أعضاء فى جماعة الاخوان المسلمين لمحاولة جرت لاغتيال عبد الناصر فى أعقاب التوقيع على اتفاقية الجلاء عن قاعدة قناة السويس التى طال انتظارها • فلم يكن الطريق أمام عبد الناصر سهلا فى الحقيقة ••

واذ لم يكن لدى شاريت علم مسبق بعملية التخريب فانه شكل لجنة على الفور لاجراء التحقيق فى المسألة • وانه يبدو أنه بعد فشل العملية تآمر الكولونيل جفلى رئيس المخابرات الاسرائيلية مع موسى ديان رئيس الأركان الاسرائيلى للتخلص من لافون المعتدل نسبيا كوزير للدفاع • وربما كان هذا هو الهدف الأصلى من العملية ، فنحن لا ندرى — ولكن هذا هو ما نتج عنها بكل تأكيد — حيث أجبر لافون على تقديم استقالته ليعود بن جوريون من عزلته وليملأ الوزارة الشاغرة ، وفى خلال أيام قليلة من عودته فى شهر فبراير سنة ١٩٥٥ تصاعدت أول عملية عسكرية واسعة النطاق ضد الجيش المصرى منذ سنة ١٩٤٨ عندما دخلت القوات الاسرائيلية قطاع غزة تحت جنح الظلام وهاجمت معسكرا للجيش المصرى فى ضواحى مدينة غزة نفسها وسوت به الأرض ••

فمهما كانت الفرص التى لاحت للسلام فى بداية سنة ١٩٥٤ — ويقول كثيرون أنها كانت فرصا كبيرة — فان تخبط اسرائيل فى تعاملها مع مصر واستعمالها لقبضة اليد جعل تلك الفرص تولى بحلول بداية العام التالى ١٩٥٥ ••

وكان من الواضح اذن أن الاتجاه العسكرى فى اسرائيل أخذ يكسب الجولة • ففى شهر أغسطس سنة ١٩٥٤ أبرمت اسرائيل أول صفقة

للاسلحة من بين عدة صفقات كثيرة مع فرنسا • والولايات المتحـدة هى التى مولت الصفقة بالفعل ، وربما كان ذلك قد تم كنتيجة لصفقة سبق أن عقدتها أمريكا مع العراق ، الا أن الاتجاه نحو فرنسا قد أيده على أى حال بن جوريون الذى كان منزعجا من موقف الاسترضاء الذى تقفه أمريكا من العرب • وظلت اسرائيل تتلقى معظم سلاحها لعـدة سنوات تالية من فرنسا • وبعد التوقيع على الصفقة مع فرنسا بعـدة أسابيع قليلة وفى الوقت الذى أوشكت فيه بريطانيا ومصر أن تتوصلا الى اتفاقية حول قناة السويس دفع الاسرائيليون بسفينة لهم داخـل القناة هى السفينة « بات جاليم » فاعتقلت السفينة واحتجز البحـارة لمدة ثلاثة أشهر ، ولمـا كانت النوايا البريطانية لترك قاعدة القنـاة لم تتزعزع فقد اكتشف الاسرائيليون ان حصار القناة سوف لا ينتهى بل ويحتمل أن يتضاعف مع السيطرة المصرية عليها • وكان الاغلاق الكامل للقناة ولخليج العقبة سببا كافيا بالنسبة لاسرائيل لكى تلجأ الى الحرب ، ومع التعثر التدريجى للبيان الثلاثى ، فان وسائل شن مثـل هـذه الحرب صارت على وشك أن تكون متاحة ••

ولقـد تم التوقيع على اتفاقية الجلاء عن قاعدة السويس يوم ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٤ • وبعد ذلك بأسبوعين أعلنت الولايات المتحدة برنامجا لمعونة مصر مقداره أربعين مليون دولار واستأنفت بريطانيا مدها بالأسلحة ، ولكن التخلف العسكرى لمصر عن اسرائيل كان لا يزال باديا • وغارة غزة انما حملت هذه الرسالة لأرض الوطن حينما قضت القوات الاسرائيلية على التعزيزات المصرية وهى فى طريقها لاغاثة حامية غزة ولكن أمريكا رفضت أن تمد مصر بالأسلحة الحديثة والطائرات التى طلبتها ما لم تدخل مصر شكلا من أشكال التحالف الموالى لامريكا ••

وكان هـذا هو لب الموضوع ، وهو العقدة فى المسألة ، فقد تساءل ناصر بقوله « كيف يمكن لدولة عظمى أن تجعل من نفسها حليفا لدولة صغيرة مثلنا ؟ ان هـذا لن يكون تحالفا وانما هو مجرد تبعية » وكان ناصر على حـق ••

كانت الولايات المتحدة ترى فى انشاء اتحاد موالى لها بين ما يسمى بدول الحزام الشمالى أهم ما تعنى به كامتداد طبيعى وجغرافى لمبـدأ ترومان الذى كان يضمن لليونان وتركيا عـدم التدخل السـوفيتى فى

شئونهما ، فأقيم ، لهذا الهدف عدد من الأحلاف التى تضم هذه الدول ــ تركيا وايران وباكستان ــ خلال عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ •

وفى سنة ١٩٥٥ وقعت العراق وتركيا على حلف بغداد وما لبث هــذا الاتفاق للدفاع المتبادل تحت اشراف الولايات المتحدة أن اجتذب اليه فيما بعد دول الحزام الشمالى الأخرى « التى هى دول غير عربية مثــل تركيا » وبريطانيا • وأصبحت العراق الآن بما لديها من الزيت وبوجود رئيس وزرائها نورى السعيد شديدة الموالاة للبريطانيين ، أصبحت الدولة العربية ذات الأهمية الرئيسية بالنسبة الى بريطانيا ••

فلقد كتب أنطونى ايدن بعد ذلك بعدة سنوات بقوله « ان سياستنا العامة فى الشرق الاوسط كانت مبنية على الحاجة الى حماية المصالح البريطانية فى العراق والخليج الفارسى • وأدى الجلاء عن السويس ــ الذى كان مقررا له أن يستكمل فى شهر يونية سنة ١٩٥٦ ــ وصفقة الأسلحة العراقية ــ الامريكية الى دفع بريطانيــا أكثر داخل الفلك الامريكى • لكن الامريكيين كانــوا متنبهين لارتباطاتهم فى العربيــة السعودية لأن زيت الشرق الأوسط كان معناه بالنسبة اليهم استثمار اقتصادى والرفاهية الصناعية لحلفائها الاوربيين ، وان لم تكن طرق الزيت بمثابة شريان للحياة بالنسبة لامريكا لانها كانت فى ذلك الوقت من الدول المصدرة للزيت « وكذلك كان الاتحاد السوفيتى » • ولذلك فان الامريكيين كانوا ، على خلاف البريطانيين ، قادرين على أن ينظروا الى الشرق الأوسط نظرة غير عاطفية فاذا كانت مصر قد رفضت الانضمام لحلف موال لامريكا فلا ضير فى ذلك فقد كان الحزام الشمالى حاجزا مناسبا ضد التوسع السوفيتى فى المنطقة ، وأما القومية العربية فكانت موجهة ، فى تلك المرحلة ضد بريطانيا وفرنسا ، ومصالح الزيت الامريكية لم تستفد فى الماضى الا من الشعور المعادى لبريطانيا • هذا فى حين أن بريطانيا كانت لا تزال تترنح من أثر تأميم مصــدق لصــناعة الزيت الايرانية • وكان مصدق أطاحت به المخابرات المركزية فى سنة ١٩٥٣ وأخذت أمريكا تخطو بقدميها داخل ايران • فلو انتصرت القوميــة العربية فما أسهل أن يسقط نورى السعيد فى العراق ، وقد تسقط على أثره دول الخليج الفارسى ، ولا يكون أمام بريطانيا فى هذه الحالة الا أن تودع مالها من نفوذ ، وامداداتها من الزيت ، ورفاهيتها الاقتصادية ••

مهما يكن الأمر فان عبد الناصر عارض ، فى صخب شديد ، أى محاولة لاقناع مصر بالانضمام لحلف بغداد واستنكر استنكارا شديدا موقف العراق لعضويتها فى هــذا الحلف ، وبسبب صفقة الأســلحة السابقة مع الولايات المتحدة • ولم يكن بوسع البريطانيين أن يفعلوا الشىء الكثير لتغيير أفكاره بدون تأييد أمريكا ، ولكنه كان باستطاعتهم تهدئته ، فوعد ايدن عبد الناصر فى شهر ابريل سنة ١٩٥٥ بالتخلى عن الضغط أكثر من ذلك على الدول العربية للانضمام للحلف فى مقابل وقف الدعاية المناهضة لبريطانيا • وبعد أن وافق الرجلان على ذلك سارع ايدن وصرف نظره عن الاهتمام باقناع الأردن بالانضمام للحلف ••

غير أن بيت عنكبوت التآمر كان يجرى نسجه باحكام بالغ ، فها هو ذا عبد الناصر يعلن ان سياسته هى « عدم الانحياز ويحضر مؤتمر باندونج مع غيره من الزعماء الآسيويين والافريقيين الذين عملوا على الاستقلال عن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة كليهما ، ولم يلبث أن اتصل بالاتحاد السوفيتى فى وقت ما خلال سنة ١٩٥٥ طلبا للســلاح وأبلغ ممثلى أمريكا ان سياسة حكومتهم ربما دفعته الى شراء الأسلحة السوفيتية وفى شهر أكتوبر أعلن عن صفقة للاسلحة مع تشيكوسلوفاكيا • وفى أثناء ذلك كله فان حوادث الحدود فى الضفة الغربية وفى سيناء وغزة تزايدت بصورة مزعجة • وبدا ان الاحتلال الاسرائيلى الشامل لمنطقة العوجة المنزوعة السلاح على الحدود المصرية الاسرائيلية ينذر بحرب وشيكة الوقوع • وكان رد مصر على محاولات بريطانيا الدائبة ادخال الاردن فى عضوية حلف بغداد ، هو التوقيع على ميثاق دفاعى متبادل مع سوريا ، وشرع السوريون هم أيضا فى شراء الأسلحة من الاتحـــاد الســـوفيتى ••

كان البريطانيون يهتمون بالأردن أكثر من أى شىء آخر • وقد ذكر ايدن فيما بعد أن « هدفى الاكبر جذب العراق والاردن ليكونا أكثر قربا من بعضهما » •• لكن المشكلة هى أن غالبية الشعب الاردنى ، وخاصة الفلسطينيين الذين يبلغون نصف مليون نسمة أو نحوها ، لم يكن لديهم أى رغبة فى التقارب من العراق • وكان حسين شخصيا مستعدا للنزول على رغبات البريطانيين والانضمام لحلف بغداد ، فلا ننسى أن جيشه وسلاح طيرانه كان يجرى تدريبهما وتسليحهما والاشراف الفنى عليهما على أيدى البريطانيين — بل ان عرشه هو شخصيا كان يسنده

أموال البريطانيين ورجالهم وســـلاحهم ، وكانت تربطه روابط عائلية بالأسرة الملكية العراقية • لكنه كان كلما اقترب من التوقيع على الحلف الضرورى كلما ازدادت حدة أعمال الشغب والاضطرابات الناجمة عن ذلك • وكانت القومية قد صارت قوة لا تقاوم فى الاردن وكان حسين مجبرا على أن ينحنى لها ـ على الرغم منه ولكن لينقذ نفسه ••

وأما ايدن الذى صار رئيسا للوزراء فى ابريل سنة ١٩٥٥ فانه رأى يد عبد الناصر النشطة فى العمل ، وتأكدت ظنونه المتشائمة حينما طرد حسين جلوب باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش الاردنى البريطانى فى شهر مارس سنة ١٩٥٦ ، وكان جلوب قد اتهم بأنه هو الذى أسكت الاضطرابات المعادية لحلف بغداد التى كانت قد اجتاحت الأردن ، وجاء طرده فى نفس وقت زيارة وزير الخارجية سلوين لويد للقاهرة • فلما طار جلوب باشا الى لندن أبلغ ايدن أن أموال السعودية والحركات المصرية كانا وراء القوة المتزايدة للقومية الاردنيـــة ، ولاح فى الأفق نتيجتان محتملتان غير مرضيتين على قدم المســـاواة ، فاما أن يضطر البريطانيون الى مغادرة الاردن نتيجة للضغط الشعبى ، واما أن تتصاعد متاعب الحدود الاردنية ـ الاسرائيلية الى حرب يمكن جيدا أن تجـــر البريطانيين على كلا الجانبين • وما كان أسعد ايدن وهو يغتنم الفرصة ليوجه اللوم الى عبد الناصر على هذا الوضع السيىء للاحوال • وكان ايدن قد رأى فيه مرة كما لو كان كرومويل المصرى ـ وها هو الآن يتحدث عن الزعيم العربى واصفا اياه بأنه هتلر المصرى ، حتى انه صاح مرة فى واحد من موظفيه المدنيين قائلا : « ما هــذا الكلام الفارغ عن عزلة عبد الناصر أو « تحييده » اننى أريد تدميره ، « ألا تفهم ؟ » ••

وكان بالامكان سماع صيحات مماثلة وهى تجلجل فى ردهـــات السلطة الفرنسية والاسرائيلية • فقد كان عبد الناصر يؤيد علانية الثورة الوطنية فى الجزائر الفرنسية ، فى حين ان اكتشاف مستودعات كبيرة للزيت والغاز بالجزائر فى سنة ١٩٥٥ كان قد جعل فرنسا أكثر تصميما على ألا تفقد هـــذه المستعمرة الثمينة • هذا فى حين أن الاسرائيليين ـ فى ظل رئاسة بن جوريون للوزارة مرة ثانية ـ كانوا يحسبون حساب صفقة الأسلحة التشيكية والاحتمال المتزايد لقيام نوع من الاتحـــاد السياسى بزعامة عبد الناصر بين مصر وســوريا والأردن • وكان رد بن جوريون على ذلك معروفا ، اذ أنه زاد ببساطة فى حجم الاغارات

الانتقامية وعددها داخل الأراضى العربية • وفى سبتمبر سنة ١٩٥٥ أغلق عبد الناصر خليج العقبة فى وجه البضائع والسفن الاسرائيلية ، وعلى الأثر شرع بن جوريون وديان فى التخطيط لمـا يسمى « بضربة الاجهاض » فى سـيناء ••

وافتتح الفصـل الأخير من هـذه الدراما الخسيسة مع جـون فوستر دالاس وهو يسحب نهائيا فى حزم وعد الولايات المتحدة والبنك الدولى بتقديم المعونة للمساعدة فى بناء سد ضخم للرى وتوليد الكهرباء من الميـاه المتدفقـة عنـد أسوان فى أعلى النيـل • ذلك ان دالاس وأيزنهاور كانا ، على خلاف مع بن جوريون أو ايدن ، سعيدين لان يجعلا عبد الناصر « فى عزلة » ، لأن انهماكهم فى الخصومة كان من شأنه أن يزعزع الثقة بهم بين العرب « وبخاصة فى أعين الزعامة السعودية » ، ورأيا أن سحب المعونة سوف يعيد عبد الناصر الى صوابه أو يجعله يركع على ركبتيه • وعلى الرغم من تشخيص ايدن لعبد الناصر بأنه موال للسوفييت فان الامريكيين كانوا يوقنون ان هذا التشخيص بعيد عن الحقيقة لان عبد الناصر كان قد عمل فى الحقيقة ضد الحزب الشيوعى المصرى وظل يعرب عن معارضته لأى صورة من صور الوقوف فى صف القوى الكبرى ، ولكنهم لم يدركوا ان عبد الناصر كان مع ذلك أكثر تصميما على أن يحيا (فى السلطة) من تصميمه على تجنب الانحياز ، كما انهم أخفقوا فى أن يقدروا أن وفاة ستالين قد أطلقت العنان للقوى فى الاتحاد السوفيتى التى كان طموحها يكمن فى اتجاه زيادة التجـارة مع العالم غير الشيوعى حتى ان رجالا من أمثال خروشتشيف وبلجانين كانوا فى سعيهم لزيادة الروابط السوفيتية مع بقية العالم على استعداد لان يتجاهلوا الشئون الداخلية لنظم حكم أمثال عبد الناصر •

وفى بحر سبعة أيام من اهانة دالاس للمصريين ، أمم عبد الناصر قناة السويس التى تدر أرباحا كبيرة والتى كانت حينئذ تحت الادارة المصرية فقر عزم بريطانيا وفرنسا ــ وكلتاهما من حملة الأسهم ــ على الحرب • وكانت اسرائيل مصرة على أن تفتح أما القناة أو خليج العقبة للملاحة الاسرائيلية • فاستقر العزم على تلقين « الرجل المجنون » عبد الناصر درسا عسكريا قصيرا وقاسـيا • وفى الايـام الاولى من أغسطس سنة ١٩٥٦ أكدت الحكومة الاسرائيلية لفرنسا تأييدها لها فى الحرب المقبلة ، لكن أمريكا كانت تبذل كل جهد لها للحيلولة دون حدوث

صراع واسع النطاق مع مصر ، واما عن الروس فانهم واذ لم يكونوا مشغولين بقمع الثورة فى بولنده أو المجر فانهم هددوا بالتدخل اذا هاجمت بريطانيا وفرنسا مصر ..

وتمخض فكر الفرنسيين عن خطة خبيثة تدعو لغزو اسرائيل لسيناء ، ويتبع ذلك هجوم انجلو ـ فرنسى مشترك على منطقة القناة بعد بضعة أيام تحت قناع القيام بعمل بوليسى ، وعلى أن يقسم البريطانيون والفرنسيون جهد ايمانهم على أنهم ما جاءوا الى مصر الا لكى يفصلوا بين القوات المصرية والقوات الاسرائيلية . ولكن يبقون فى مصر مع ذلك ..

وفى الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٦ وقعت بريطانيا وفرنسا واسرائيل على اتفاق سيفر الذى يرسم تفاصيل هجومهم المرسوم على مصر . وكان البريطانيون والفرنسيون على استعداد لأن يكتفوا بكلمة الشرف ، غير ان بن جوريون لم يكن ليثق فى أحد لان اسرائيل كانت محاطة بالأعداء فطلب أن تعطى له الوعود الخائنة كتابة . وفى سيفر حصل على تلك الوعود ..

* * *

الفصـــل الخامس

حرب بن جوريون

حملة سيناء أكتوبر ، نوفمبر عـــام ١٩٥٦

« عليكم باغرائها ، ولتقطعوا رقبتها بعد ذلك ، ولكن عليكم باغرائها أولا » ..

عن جو أورتون فى كتابه « استضافة مستر سلون »

— ١ —

فى أوائل الخمسينات كانت الدول العربية منغمسة فى المقام الأول فى تحرير نفســها من قبضة الاستعمار التى استمرت طويلا ، غير ان ذلك لم ينسها اسرائيل . فمن ناحية كانوا يعتبرون القضيتين مرتبطتين ، ومن ناحية أخرى فان الجرح الذى ترتب على عامى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كان لا يمكن ازالته من النفس العربية مجتمعة الا من خلال نجاح عسكرى . فعاجلا أو آجلا سيكون على الجيوش أن تتقابل مرة أخرى ..

ولقى هذا التوتر الذى تميز به الموقف تعزيزا دائما على طول الحدود المتوترة بين الدول العربية المختلفة وبين اسرائيل . ولقد لاحظ الساخرون انه تم رسم الخطوط الخاصة بالحدود بقلم رصاص كثيف على خريطة صغيرة ومن المؤكد ان الطريقة العشوائية التى اندفعوا بها فى المزارع والقرى قدمت تدعيما لمثل هذا الزعم . وسواء كانت هــذه الحدود مرسومة بقلم رصاص أم بغيره ، فهى حدود ما أصعب الدفاع عنهــا وما أيسر عبورها ..

بعد انتهاء حرب عام ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ مباشرة ، بدأ العرب فى عبورها وفى أول الأمر كان معظم هؤلاء العرب من الفلسطينيين الذين يقومون بزيارات للعـودة الى أراضيهم السابقة • وكانوا يعتقدون ، ولديهم بعض العذر فيما يعتقدون ، ان هذه الأراضى من المحتمل أن تكون مصادر للتغذية أكثر من التلال والوديان القاحلة فى منطقة السامرا ، التى تم ابعادهم اليها بسرعة كبيرة وجاء فى أعقابهم مجموعة من المتسللين الذين هم أقل عذرا وهم جماعات اللصوص الذين كانوا يتوقون الى الاستفادة من أن الموقف الرسمى على الجانب العربى للحدود يغمض عينيه عنهم ، كما أدت الاجراءات الانتقامية الاسرائيلية غير الفعالة الى تشجيع هذه العملية ، وسرعان ما بدأت فى الازدهار تجارة كبيرة فى النهب والقتل • وتصاعدت على نحو مضطرد الخسائر الاسرائيلية فى الأرواح ، وكان معظمهـا من المدنيين • وفى الاعوام الثلاثة من ١٩٥١ الى ١٩٥٣ بلغ اجمالى هذه الخسائر ٤٦٤ أى انها نسبة تزيد عن نصف ما كانت اسرائيل سوف تتكبده فى حرب يونيو كلها ••

ولم تحظ هـذه الغارات العربية بأية موافقة رسمية ، كما لم يكن لهـا هدف سياسى مباشر ، لكن كان من المحتم أن ينظر الاسرائيليون اليها على انها تعبير عن العداء العربى العام • ومن ثم غانهم انتقموا بفعالية ووحشية متصاعدة ضـد الاردن التى تعتبر مصـدر الاغلبية الكبيرة من الغـارات ••

ومع ان الحدود المصرية كانت هادئة بصورة عامة فى ذلك الوقت الا ان بن جوريون ، الذى كان يتوق لاظهار القوة الاسرائيلية لحكومة ناصر الجديدة ، أراد أن يقوم بعمل هنـاك أيضا • وكانت النتيجة هى الغارة التى تعرضت لها غزة فى فبراير عام ١٩٥٥ • وهذه العملية التى أسىء تصورها والتى لم تحقق لا أهدافها المعلنة أو غير المعلنة الا وهى انهاء غارات العرب وارهاب عبد الناصر على التوالى لم تؤد الا الى اثارة رد مصرى من نفس النوع • وبمرور فاصل زمنى قصير كان الفدائيون « المناضـلون من أجل الحرية » يقومون بغـارات فى داخل اسرائيل بتشجيع رسمى وبهدف سياسى مباشر أيضا ••

ولم يحققوا الكثير باللغة العسـكرية ، الا أنهم أبقوا حقا على الاحزان الفلسطينية فى الصحف ، ولـكن الذى كان له مغزى أكبر هو

أن عمليات استغلالهم المبالغ فيها كانت بمثابة وميض عن كبرياء العرب ما كان أحوجهم اليه ، كما انها كانت ترفع من معنويات الجيش المصرى وهو ما كان فى أمس الحاجة اليه ، وكان المفكرون الذين تحدو نفوسهم الأمانى يستطيعون الاشارة للفدائيين على أنهم يقدمون دليلا قويا على ان الجيوش العربية فى عامى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كانت انعكاسا لحكومات فاسدة كانت فى السلطة فى ذلك الحين وليست انعكاسا للطبيعة العسكرية العربية ، واذا كان الفدائيون يمثلون الطليعة المتقدمة للعرب الجدد فيما بعد ثورة عام ١٩٥٢ فمن المؤكد اذن أن الجيش المصرى ، وبحيوية ديناميكية مماثلة سوف يكمل المهمة لا جدال ..

كانت تلك هى أمانيهم المشوبة بطابع الانتقام . ومن المؤكد ان الجيش كان أفضل تسليحا مما كان عليه فى عامى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ اذ أن صفقة الأسلحة « التشيكية » قد زودته بقوة مجدية من السلاح (حوالى ١٥٠ ت ـ ٣٤ أس وحوالى ١٠٠ مدفع آلى من طراز سو ـ ١٠٠) كما زودته بقاعدة لسلاح جوى حديث . وكذلك فان الطبقة العليا من السلطة العسكرية كانت أكثر معرفة وأكثر احتمالا ان يتم اختيارها وفقا لكفاءة أعضائها بدلا ما كان عليه الحال فى عهد فاروق ..

غير ان الذين يلون هذه الطبقة من صغار الضباط وضباط الصف كانوا يفتقرون بصورة عامة للتدريب الفنى الضرورى ، وكذلك فان المشاة الفلاحين كان جلهم يعتبر الخدمة العسكرية بمثابة جزء شاق للغاية من تكاليف الحياة . وقد انعكست الانقسامات العميقة فى المجتمع المصرى على صفوف الجيش المصرى .. واذ لم يكن للتعاون والتواصل فى حياة المجتمع سوى واقع قليل فانه لم يكن لهما سوى هذا الواقع القليل أيضا فى حياة العسكرية وكان التصور الخاص بالحياة السياسية لا يزال امتيازا قاصرا على القلة كما كان الجندى المصرى يقاتل لانه اديه تعليمات بأن يفعل ذلك . وهكذا فان الجيش المصرى « الجديد » كان خرافة وليس لآخر مرة ..

ـ ٢ ـ

لم تكن اسرائيل عاقدة العزم على استعادة الأرض السليبة أو الشعور الوطنى باحترام الذات ولكنها كانت عازمة على ما هو أهم الا وهو البقاء . فتوقفت الانقسامات الاجتماعية ، السائدة فى اسرائيل

كما هو فى غيرها ازاء الخطر الخارجى ، فالدولة والجيش قد تأسسوا وسط شعور شامل بالوحدة الاجتماعية والوطنية . وبطبيعة الحال فان النتائج السياسية لوحدة يدعمها العداء الخارجى وتزود الجماعة الحاكمة فى اسرائيل بجنون العظمة الراسخ من شأنهما المساهمة فى عدم الاستقرار بالشرق الاوسط ، وبالتالى تبرهن على انها تبرر نفسها بنفسها وتجدد نفسها بنفسها كذلك ، الا وأنه فى الوقت نفسه فان النتائج العسكرية لهذه الوحدة وخلق جيش ذى روح عسكرية فريدة بالفعل سوف يوفر على اسرائيل وقتها كما ينقذها من نتائج عدم الاستقرار هذا .. وان قوات الدفاع الاسرائيلى لن تعانى أبدا مثل أعدائها من عدم التماسك الاجتماعى أو من الافتقار للحافز ..

ومع ذلك كانت توجد مشاكل ، وأكثرها وضوحا هى تلك الخاصة بالقوة البشرية . فلقد كسبت اسرائيل « حرب الاستقلال » لان الأمة كلها كانت تحمل السلاح ، ولكن ليس هناك أبدا بلد يستطيع أن يبقى الى الأبد حاملا السلاح . ولقد سرحوا غالبية الجيش المنتصر فى عامى ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ ، وعاد أعضاؤه الى تلك المهن المدنية التى تبنى المجتمع . ولكن الخطر ظل قائما ، وما زالت اسرائيل يحيط بها أعداء يصممون على ازالتها من الخريطة ، وليس لديهم استعداد للاعتراف بها أو اقامة سلام معهـــا فكان لابد من ايجاد سبيل لوجود أمة على أهبة الاستعداد للقتال بمجرد الاشـــارة ..

وتمثل الأسلوب الذى تم اتباعه فى انتهاج نظام من ثلاثة صفوف وهى الجنود النظاميون والمجندون واحتياطى كبير من المدنيين ، وكانت القوة النظامية صغيرة وشملت فقط الضباط وضباط الصف المتخصصين . وكانت تتلقى كل عام نسبة جديدة من المجندين لتقوم بتدريبهم وبعد أن يؤدوا مدة خدمتهم يتم احالتهم الى الاحتياطى المدنى بدون أن يتخلوا عن عضويتهم فى وحداتهم المحددة . وفى كل عام يعودون لتجديد برامج التدريب ودراسة برامج أحدث . وبهذه الطريقة يشكل الجيش النظامى على الدوام ، بما لديه من مجندين حاضرين ، هيكلا مستعدا لاستقبال كل الاحتياطى المدنى عند أول اشارة . وبذلك تستطيع قوات الدفاع الاسرائيلى مناغسة القوة البشرية العربية فى غضون عدة ساعات فقط ..

ويوجز هـــذا الاسلوب العقلانى ، بعكس الاسلوب التقليدى ، التفكير العسكرى الاسرائيلى الذى كان سائدا فى تلكم السنوات الأولى .

فلقد كان جيشا حديثا لم تقيده التقاليد ، قادرا على معالجة المشاكل بالعبقرية البسيطة للعقل البشرى • ولقد علم البريطانيون المصريين كيف يوقفوا روميل والآن كان السوفييت يعلمونهم كيف يحاربون فى السهل الأوربى الشمالى ، وكان الاسرائيليون يعلمون أنفسهم كيف يحاربون فى المناطق المحلية التى تهمهم وفى مجال الاسلحة ، ثم تطبيق نفس هذه المبادىء ، فاشترى الاسرائيليون ما يحتاجون اليه ، مع تعديله اذا استلزم الأمر ، ليتناسب مع حاجاتهم الخاصة ، بينما كانت الدول العربية تميل لأخذ ما يعطى اليها حتى ولو كان ذلك الدبابات البرمائية لاستخدامها فى سيناء ••

وتم ترسيخ البراجمانية « المنهج العلمى » فى قلب الجهاز العسكرى الاسرائيلى ، وعلى الرغم من جهود بن جوريون المصممة لبناء جيش تقليدى لا تلوثه روح المساواة الخاصة بالبالماخ ، برهن الجهاز على أنه لا يتزحزح • ومن المؤكد ان النظام كان أكثر دقة مما كان عليه أثناء حرب عام ١٩٤٨ وعام ١٩٤٩ فاستخدام وصيانة الأسلحة الحديثة تستلزم الكثير من النظام ولكن النظام الرسمى للجيوش الأوربية لم يكن أبدا ملحوظا لدرجة كبيرة فى قوات الدفاع الاسرائيلى • فالتماسك الاجتماعى الفريد من نوعه للمجتمع الاسرائيلى جعل ذلك النظام غير ضرورى ، وكان البديل هو « النظام الداخلى » أو « الذى فرض نفسه » يؤدى بصورة أكبر الى نشر روح المبادرة بين مختلف الرتب العسكرية ••

وتجلى الأسلوب العملى فى مولد « الوحدة رقم ١٠١ » ومهمتها ففى السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة ، وكما شهدنا ، كانت المشكلة الرئيسية التى واجهت سلاح الدفاع الاسرائيلى هى التسلل عبر الحدود • وثبت أن المحاولات التى تم القيام بها لردع هذه الغارات بهجمات انتقامية على القرى العربية ، كما ثبت أن مراكز البوليس ومنشآت الجيش غير ناجحة بالمرة • ذلك ان الدول العربية لم تكن سريعة التأثر بالاجراءات المحلية الخاصة بالردع كما ان الجنود النظاميين الاسرائيليين برهنوا على أنهم لا يتقنون الاجراءات نفسها • واذا كان جيش عامى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ لم ينس مهاراته العسكرية فان ما كان يفعله فى هذه الحالة هو مجرد محاكاة غير بارعة ••

وما كان لجيش غير قوات الدفاع الاسرائيلى أن يأتى بحل مثل حل « الوحدة رقم ١٠١ » • فعندما أحست القيادة باليأس من القوة النظامية التى تحت قيادتها ، قامت باستدعاء آريل شارون ، وهو قائد كتيبة احتياط ، ليقوم بتجنيد جيش صغير خاص ، وطوال عدة شـــهور فى آخريات عام ١٩٥٣ ــ قامت « الوحدة رقم ١٠١ » التى أعدها شارون بسلسلة ناجحة من الغارات الليلية فى الأرض العربية • وفى نهاية السنة اندمجت الوحدة فى كتيبة مظلات ، تحت قيادة شارون أيضا ، وصار اسمها كتيبة المظلات رقم ٢٠٢ ، حيث قامت فى عام ١٩٥٤ بمزيد من العمليات الناجحة • وكان السبب الرئيسى وراء هــذه العمليات الأولية الناجحة هو قدرة ملحوظة على الارتجال ••

فبدلا من استخدام القيادة الديناميكية والروح العسكرية لقوات المظلات لتدعيم قيمة التكتيكات التقليدية ، تم استخدامها لأقصى درجة بانتهــاج تكتيكات جريئة تنطوى على مخاطرة كبيرة ســاعد التفوق الاسرائيلى فى الروح المعنوية على جعلها أمرا ممكنا •• وبعبارة أخرى كانت تكتيكات شارون « اتصالية » تمتــد جذورها فى مواطن القــوة ومواطن الضعف للاعداء • فلما كان الجنود المصريون والأردنيون جنودا نظاميين مدربين يقاتلون باصرار ومهارة طالما انهم يمســكون بمواقع محصنة طبقا لخطط معدة من قبل • فان شارون استغل عدم قدرة العدو على التصرف وسط الاضطرابات الذى يلحق به عندما يلجأ هو الى أسلوب الصدمة المفاجأة بدلا من الاعتماد على التكتيكات التقليدية ••

وأصبحت هــذه التكتيكات الاتصالية أو الارتباطية ، أى التى تقوم على صلة ورابطة بين التكتيك والظرف الذى يواجهه ، نقول أصبحت الى جانب غيرها من الخصائص والسمات التى تميزت بها الوحدة « ٢٠٢ » الا وهى الروح المعنــوية العالية ، وعــدم اتباع منهــج تقليــدى ، والديمقراطية التى لا تقوم على الشكليات والرسميات نموذجا لسلاح الدفاع الاسرائيلى خلال الفترة التى شغل فيها موشى ديان منصــب رئيس الأركان ••

على انه كانت لا تزال هناك أمام قوات الدفاع الاسرائيلى وأمام موشى ديان نقاط معينة غير واضحة • وبحلول عام ١٩٥٥ كان قد تم الى حد كبير حل كافة المشاكل الخاصة بالتجنيد ، والتعبئــة والروح

المعنوية والتنظيم ، والخصائص القتالية للمشاة • وبالنسبة لديان ، وهو رجل مشاة صميم ، ولو أنه مشاة ميكانيكية ، كان ذلك يعنى أنه تم حل جميع المشاكل • الا أنه بالنسبة لأى دارس للحرب العالميـة الاخيرة ، فان هـذه القائمة كان ينقصها عنصران أكثر أهمية الا وهما الدبابات والطائرات ••

ففى عام ١٩٥٥ ، كان السلاح الجوى الاسرائيلى وفيلق المدرعات ما زالا يعانيان من جراء فشلهما النسبى فى حرب ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ففى هـذه الحرب كان سلاح المدرعات الاسرائيلى يتألف من ثلاثة عشرة دبابة كثيرا ما كانت تتحطم ، وكانت أطقمها تتحدث عددا محيرا من اللغات • ولم يتدعم الايمان بالدبابات نتيجة لأداء هذه الوحدة •• وعلى الرغم من حصول قوات الدفاع الاسرائيلى على عدد كبير منهـا فى السنوات التى أعقبت الحرب فان قيادة هذه القوات ظلت على رأيها فى الاعتقاد بأن الدبابات هى سلاح لا يمكن الاعتماد عليه للغاية وبطىء للغاية بالنسبة لوحدات المشاة الاسرائيلية الميكانيكية والآلية وان هذا السلاح سوف يستخدم للقيام بدور مؤيد للمشاة ليس الا ••

وبالطبع فان الأطقم هى التى كانت تعرف أفضل • وكانت دباباتهم أكثر سرعة على أرض المعركة لانها استطاعت التقدم وسط نيران العدو • ولذلك فانهم كانوا يعلمون ان هـذه الحقيقة سوف تفرض على كبار القادة فى نهاية الأمر أن يتفهموها • وفى الوقت نفسه قام الاعضـاء المتحمسون فى سلاح المدرعات بفك أجزاء دباباتهم ، وأعادوا تركيبهـا مرة أخرى ، وقادوها فوق كل نوع متصـور من الأرض ، وناقشـوا ومارسوا وعدلوا فى التكتيكات لتلائم كل جديد طارىء مهما يكن أمر ذلك الجديد الطارىء يسيرا فى عالم المدرعات • وهنا ومرة أخرى كان الاسرائيليون يستفيدون من جهلهم ، ويقومون ببناء نظرية تكتيكية من الألف الى الياء ونظرية « ارتباطية » معدلة ومكيفة وفق أوضاعهم هم أنفسهم ، وفق معداتهم ووفق أرضهم • وفى المناورات الحربيـة عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ ، وضع سلاح المدرعات كلتا النظريتين عمليا موضـع التنفيذ ، ونجحت كل نظرية فى مجالها نجاحا فعالا لكن السلطة العسكرية، شأنها فى ذلك شأن رؤساء جودريان فى الثلاثينيات ألقت اللوم على رجال الدبابات لافسادهم المناورات • غير أن ذلك لم يفت فى عضـد سـلاح المدرعات • واذا كانت خطة حملة سيناء سوف لا تفسح الطريق

أمامهم الا بقدر محدود لاثبات الذات ، فسيكون عليهم حينئذ أن يتجاهلوا الخطة ..

ولم يكن سلاح الطيران الاسرائيلى ناجحا بصفة خاصة فى عامى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ هو الآخر ، الا أنه تأكد ان دوره فى المستقبل سيكون دورا حاسما لانه كان من المحتمل أن الحروب فى الشرق الاوسط ستكون قصيرة الأمد ، والطائرات سريعة ، وهى أسلحة معقدة تعطى الافضلية فى المعركة الجوية للثقافة الاكثر تقدما . وبما أن الجغرافيا العسكرية لاسرائيل ستضطر قوات الدفاع الاسرائيلى الى قبول الدور المكشوف الذى يتعرض له المهاجم ، فسيكون على السلاح الجوى الاسرائيلى أن يقدم هذا الغطاء الذى لن تقدمه الصحراء .

فما هو نوع الطائرات التى كانت مطلوبة اذن ؟ ان النجاح الوحيد الكبير الذى حققه السلاح الجوى الاسرائيلى فى عامى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ هو أنه شل قدرة السلاح الجوى المصرى على الحركة وهو على الأرض فى بداية عملية « يواف » . ولتكرار هذا العمل البطولى فان السلاح الجوى الاسرائيلى كان يحتاج الى طائرات مقاتلة تحمل شحنة متفجرة « ملموسة » . ولن تكفى المقاتلات لهذا الغرض ، ولكن بما أن الدور الأساسى للسلاح الجوى الاسرائيلى بعد مثل هذه الضربة سيكون دور المساندة البرية ، فان امتلاكه الطائرات ذات قدرة كبيرة على الحركة سيكون أمرا حيويا ولن تكفى القاذفات . واذ لم يكن بوسع اسرائيل أن تحوز المقاتلات والقاذفات كلتيهما فعليهم أن يبنوا السلاح الجوى الاسرائيلى اذن على أساس القاذفات المقاتلة ، وهى أكثر الطائرات المتاحة تقدما ابتداء من طائرات ميستير الى الميراج الى الفانتوم ..

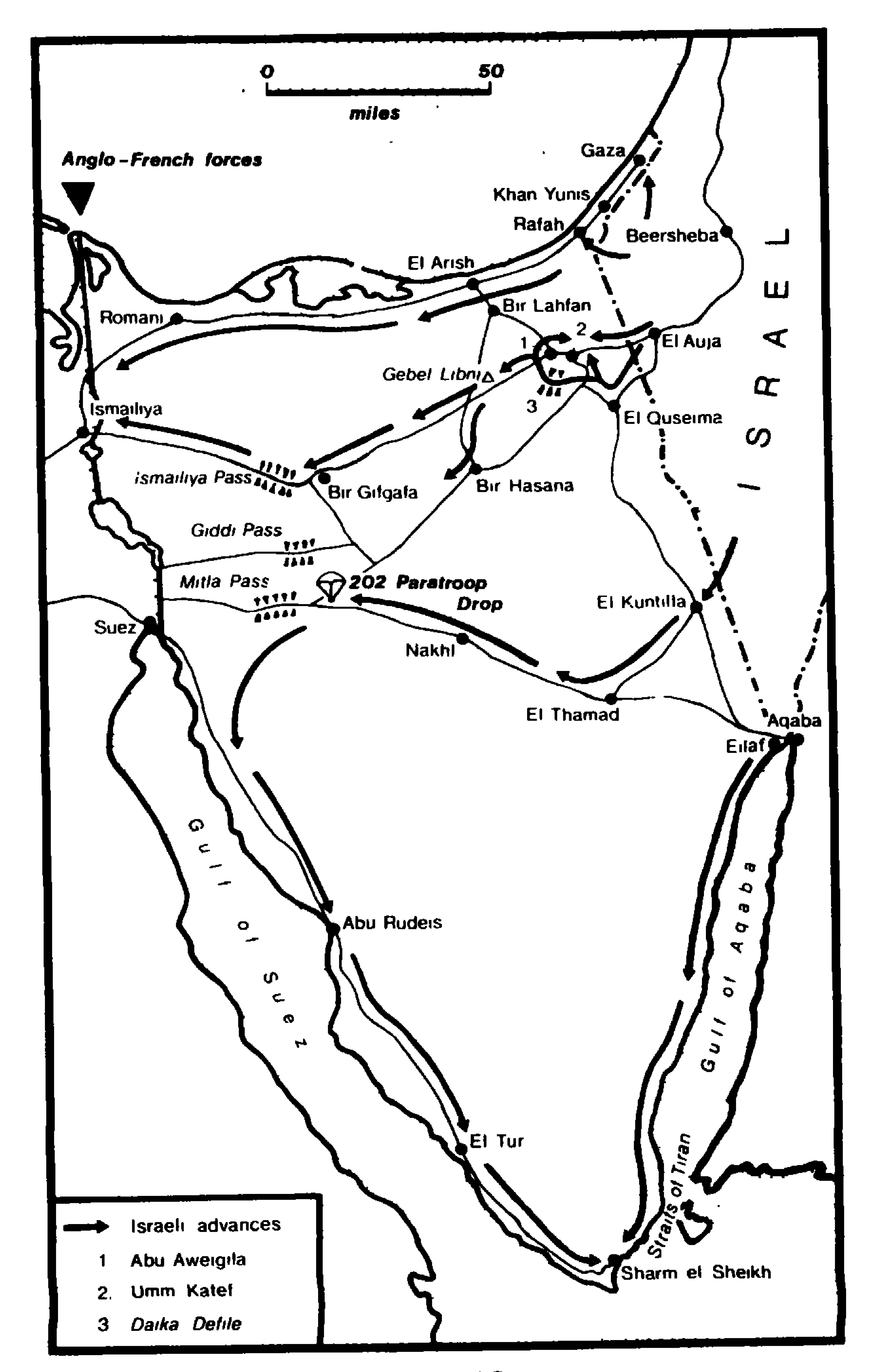
وعلى خلاف الجيش فان السلاح الجوى الاسرائيلى كان على الدوام قوة نظامية ، وفى الاعوام السابقة على حملة سيناء كان الاهتمام الاكبر موجها الى الكمال الفنى وتفريخ طيارين من أفضل النوعيات . ولما حل عام ١٩٥٦ ، كان السلاح الجوى الاسرائيلى ، مثله فى ذلك مثل سلاح المدرعات ، يعتقد أنه أهل لمواجهة أى تحد عربى لكنه وجد أن هذا الاعتقاد لم يكن متبادلا بينه وبين أعلى المستويات .. لكن البرهان على صحة وجهتى النظر كان سيأتى — بسرعة ..

وقاطعت حملة سيناء عملية اعادة تنظيم القوات المسلحة الاسرائيلية والمصرية • وسبق لنا أن ناقشنا الخلفية السياسية لهذا التحالف الغريب بين اسرائيل التى هى فى طور الرجولة بين اليأس الفرنسى الدافع الى التهور وبين الشيخوخة البريطانية المخرفة وهنا لابد من أن نلاحظ أن المنطق العسكرى كان وراء القرار الاسرائيلى بالسعى الى اشتباك مسلح مع مصر فى صحراء سيناء ••

فحالة الحرب كانت ما تزال قائمة بين الدولتين مشكلة بذلك ، هكذا شعر الاسرائيليون ، تهديدا خطيرا لا من دولتهم • وفى صيف عام ١٩٥٦ اتخذ هذا التهديد ثلاثة أشكال هى : غارات الفدائيين ، والقبضة المصرية الخانقة على مضايق تيران ، ونمو الامكانيات العسكرية المصرية فى أعقاب صفقة الأسلحة « التشيكية » ولقد ثبت أن غارات شارون الانتقامية ، وبالرغم من انها كانت ناجحة عادة على المستوى المحلى ، غير رادعة أمام المستوى الشامل لنشاط الفدائيين •• وعلاوة على ذلك فان العدو أخذ يفهم تكتيكات الوحدة « ٢٠٢ » شيئا فشيئا ، وأخذت الخسائر التى تتكبدها الوحدة فى التصاعد وكان فشل عملية قلقيليا الذى كان أقرب الى الكارثة فى بداية شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ بمثابة تحذير لا يمكن تجاهله • وكتب ديان فى مذكراته يقول : « انه من الواضح بالنسبة لنا جميعا أننا وصلنا الى نهاية الفصل الخاص بالأعمال الانتقامية الليلية » • وكان التصرف البديل الذى تم الاتفاق عليه بالفعل فى سيفر هو الحرب الشاملة ••

ولاح أيضا أن مشكلات المضايق ليس لها سوى حل واحد • واذا أخذنا فى الاعتبار شكل شبكة الطرق الخاصة بسيناء وهى الطريق الوحيد الصالح لشرم الشيخ والمؤدى الى ساحل خليج السويس فان فتح خليج العقبة بالقوة كان معناه غزو سيناء كلها أولا وينطوى ذلك بطبيعة الحال على فحص دقيق للتصورات المصرية للقوة العسكرية ••

وهكذا فان هدف الحرب الاسرائيلية كان « مجابهة المؤسسة العسكرية المصرية فى سيناء وتحقيق انهيارها » •• وكانت الوسيلة تتكون من هجمات على طول الطرق الرئيسية الثلاثة التى تخترق سيناء • وفى اليوم الاول يوم ٢٩ أكتوبر سيتم انزال ٣٩٥ جنديا مظليا من الوحدة



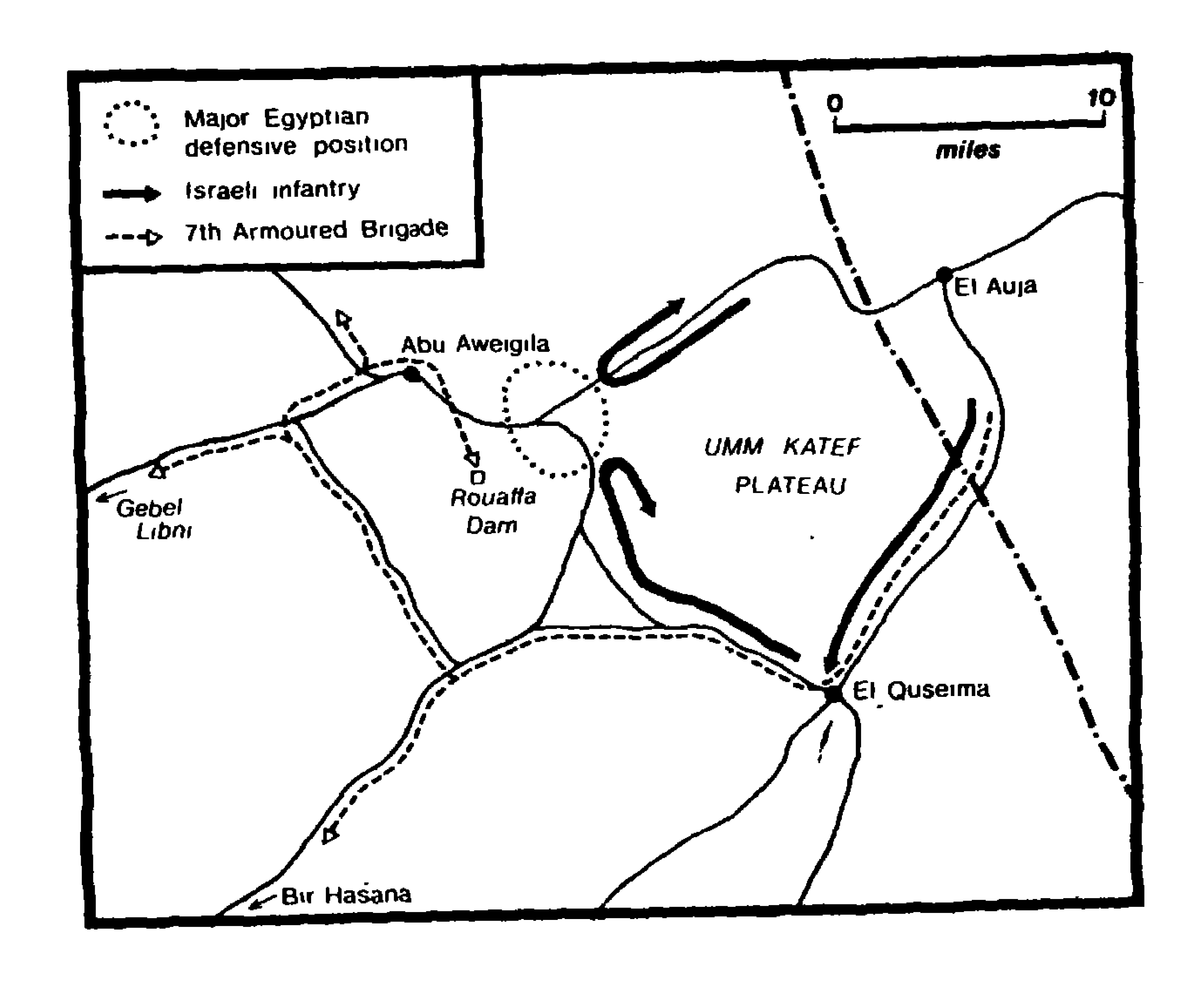
The Sinai campaign, 1956

رقم ٢٠٢ عند مدخل ممر متلا ، وذلك بهدف مزدوج وهو تهديد قناة السويس (وتلك هى المساهمة الاسرائيلية فى النفاق الانجلو فرنسى) ، واحداث أقصى حد ممكن من الاضطراب النفسى فى القيادة المصرية العليا . وقبل أن تفيق القيادة المصرية العليا يقوم شارون بقيادة بقية فرقته عن طريق الكونتيلا والتمد ونخل لتلتحم بقوة ممر متلاء وفى مساء يوم ٣٠ أكتوبر شتت البريطانيون والفرنسيون انتباه المصريين بانذارهم الزائف واستطاعت المشاة الميكانيكية الاسرائيلية أن تشق طريقها خلال موقعى الدفاع الرئيسيين رفح وأم قاطف على الممرات الشمالية والوسطى . وفى أول الأمر لم يعطوا أى دور بالمرة للفرقة المدرعة الوحيدة وهى فرقة بن آرى السابقة المدرعة وانما كان عليها أن تقوم بدور خادع على الحدود الاردنية . الا أن ديان اقتنع فى نهاية الأمر بالسماح لها بدور بالتقدم المفاجىء بعد أن كان المشاة قد قاموا بتطهير أم قاطف . وتم اعطاء السلاح الجوى الاسرائيلى واجبات تتعلق فقط بالمساندة البرية . ولم يعهد اليه بن جوريون بالدفاع عن المجال الجوى الاسرائيلى وفضل عمل ترتيب مع الفرنسيين فى هذا الشأن . .

ولقد كان رد الفعل الاستراتيجى المصرى على هذا الهجوم محدودا بعامل الوقت ، فلم تمر سوى اثنتا عشر ساعة فقط بين التحقق من أن هذا أكبر من مجرد غارة انتقامية كبيرة وبين التأثير الذى أحدثه الانذار الانجلو فرنسى . وفى الأغلب كان رد الفعل تكتيكيا وهو أن تقوم القوات المصرية فى سيناء بالدفاع عن نفسها عندما تتعرض للهجوم . وفى لحظة الغزو كانت تتألف من قوات مشاة قوية تشرف على المواقع الحصينة فى شرق سيناء وتساندها عدد ٥٠ دبابة شيرمان على محور العريش رفح و ٧٠ دبابة ت ٣٤ أ س عند بير جفجافه ..

وبعد ظهر يوم ٢٩ أكتوبر هبطت قوات المظلات التابعة لشارون فى الوقت المحدود بالقرب من ممر متلا ، بينما تقدمت بقية الفرقة على الحدود بالقرب من الكونتيلا . وكان الممر يحظى بدفاع أقوى مما كان متوقعا ، وتقدمت مركبات شارون بانتظام مخيف ومع أن سلاحى النقل والامدادات والمهندسين لم يكونا يحظيان باهتمام أعظم أثناء شغل ديان منصب رئيس الاركان الا أنه فى وقت متأخر من اليوم الثانى نجح هذان السلاحان فى تحقيق لقائهما المقرر عند مدخل الممر ، وتقدما للاستعداد للدفاع ضد أى هجوم مضاد محتمل ..

وفى نفس اليوم ، يوم ٣٠ أكتوبر سقطت القسية بصعوبة فى أيد المشاة وبدأت الملحمة الشهيرة الخاصة بالفرقة المدرعة السابقة ، ولانها كانت ممنوعة من التقدم فى سيناء الى حين أن تسقط أم قاطف ، قرر بن آرى التعجيل بالعملية بهجوم يتم ليلا من خلال ممر دايكا ويتجه الى مؤخرة المواقع المصرية وعلى الرغم من هـذه المساعدة برهن المشـاة الاسرائيليين على أنهم غير قادرين على الاستيلاء على الدفاعات المصرية يوم ٣١ أكتوبر ، وكما يقول ديان الذى يغلب عليه الشعور بالازدراء فان قلوبهم خانتهم وقرر بن آرى استخدام الوقت المتاح والقيام بتوغل مدرع فى سيناء • وفى الوقت الذى أخذت فيه وحدة واحدة الموقع الخاص بخزان روافا خلف أم قاطف ، اتجهت بقية الفرقة المدرعة السابقة غربا الى بير الحسنة ومفارق طرق جبل ليبنى ••



ولم يكن بن آرى هو القائد الاسرائيلى الوحيد الذى عصى الاوامر فى ذلك اليوم • فقد كان شارون لديه تعليمات تمنعه من الهجوم على ممر متلا الذى يسيطر عليه المصريون ، الا أن الشجاعة برهنت على أنها أقوى من الحذر والطاعة ، وتحت ستار تصريح حصل عليه من أجـل « الاستطلاع » قام بارسال قوة كبيرة لتتصدى للمدافعين المصريين • ونجحت قوات المظلات فى الاستيلاء على الممر من العدو بعد قتال مرير ، الا أن مقتـل ثمانية وثلاثين جنديا اسرائيليا كان يعتبر ثمنـا باهظا تم دفعه من أجل تحقيق هدف غير وارد وغير ضرورى فى الخطة الاسرائيلية ••

وفى ذلك المساء ، يوم ٣١ أكتوبر قام الاسرائيليون أيضا بهجومهم على مواقع رفح ، وبدأت الهجمات الجوية الانجلو فرنسية على مصر • وفى صباح اليوم التالى أصدر ناصر تعليماته لكافة الوحدات غير الملتزمة فى سيناء بالانسحاب غربا عبر القناة للعمل ضد الهبوط الانجلو فرنسى المتوقع •وكان القتال فىسيناء قد انتهى ، بالرغم من أن الوحدات المصرية الملتزمة فى مناطق رفح والعريش وأم قاطف استمرت فى القتال طول النهار • وعلى الطريق الاوسط اشتبكت دبابات بن آرى مع الدبابات المصرية من طرازات ـــ ٣٤ أ س فى معركة الدبابات الرئيسية فى الحرب وأجبرتها على التراجع ••

وقام الاسرائيليون بعملية تطهير من بقايا جيش العدو • وسقطت غزة والعريش فى ٢ نوفمبر بينما سقطت خان يونس فى اليوم التالى • وأخذ السلاح الجوى الاسرائيلى نصيبا مخيفا من المصريين المنسحبين ، حيث كان سلاحهم الجوى مشغولا تماما على الجانب الآخر للقناة • وتحركت القوات الاسرائيلية فى اتجاه الخطوط الساحلية لخليج السويس وخليج العقبة تجاه شرم الشيخ وفى يوم ٥ نوفمبر سقطت شرم الشيخ بعد هجوم حدث عند الفجر وكان ذلك قبل هبوط قوات المظلات الفرنسية والبريطانية حول بور سعيد بساعات قليلة من أجل احتلالهم القصـير الأمد ، وأمست سيناء كلها ، باستثناء حزام عرضه عشرة أميال شرقى قناة السويس فى أيد اسرائيلية ••

ـ ٤ ـ

كان لحملة سيناء نتائج عسكرية غير عادية • وعادة يؤدى النصر الى الرضاء ويقضى على أى اسـتعداد جديد للتعلم ، لكن فى هـذه الحال كان العكس هو الذى حدث ••

فلم يستطع المصريون أن يتجاهلوا أنهم أجبروا على الانسحاب من سيناء الا أنه كان بوسعهم أن يخلطوا بين الاسباب وقد خلطوا بالفعل • فحدث اهتمام كثير للغاية بعملية صرف الانتباه التى ترتبت على التهديد الانجلو فرنسى بينما لم يكن هناك سوى اهتمام قليل بالمجرى الحقيقى للأحداث فى سيناء • ووجدت القيادة المصرية من عسكرية وسياسية ، انه من السهل التركيز على الحقيقة المتمثلة فى أن السلاح الجوى المصرى كان يواجه ثلاثة أسلحة جوية أخرى ، بدلا من التركيز على الأداء الهزيل للأسراب كل على حـدة ، فى المعركة الجوية ضـد السلاح الجـوى الاسرائيلى • وفضلوا الاستمتاع بعمليات الفشل الاسرائيلية المتكررة فى الاستيلاء على أم قاطف ، بدلا من أن تعتبر بالسهولة التى تخطتها بها قوات بن آرى المدرعة وتدرس نتائجها • وبالطبع أدت الهجمـات الاسرائيلية غير القوية الى تشجيع ايمان المصريين فى قوة تحصيناتهم على طول الحدود ، ولكن السرعة التى تم بهـا التغلب على جميع تلك التحصينات باستثناء أم قاطف كان يجب أن توجههم الى انتهاج خطة الدفاع التى قدمها المستشارون العسكريون الالمان لدى الحكومة المصرية فى عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ • وكان من رأيهم أن الدفاعات الرئيسية يجب اقامتها على خط الجبـال الوسـطى لانها فى مواقعها هناك يسـهل الدفاع عنها أكثر ، وليس على الحدود • فلمجرد الوصول الى مثـل هذا الخط سيكون على الاسرائيليين أن يجتازوا ثمانين ميلا من الصحراء فتطول خطوط امداداتهم وتبلى مركباتهم نتيجة « للطرق » المرعبة وليس على أيدى المصريين • الا أنهم تجاهلوا هذه النصيحة المعقولة التى جرحت الكبرياء المصرى الذى كان يستبعد احتمالات الهجوم • واستمر المصريون يوافقون مستشاريهم السوفييت الجدد على أن اقامة تحصينات أكثر وأفضل على الحدود ستثبت الايام أنها دفاع مناسب •

وأما الاسرائيليون فانهم على العكس تعلموا الكثير من جوانب نجاحهم وجوانب فشلهم على حد سـواء • وخضعت كافة المشـاكل الميكانيكية ، والخاصة بالامدادات وبالقيادة التى تعرضوا لها أثنـاء الحملة لدراسة جادة للتغلب عليها • كما أن قدرة السلاح الجوى وسلاح المدرعات الاسرائيليين التى اكتشفت حديثا كانت النواة لقوة اسرائيل الضاربة •• فى السنوات القادمة فصارت قوة أكثر سرعة وأكثر تدميرا من تلك التى سبق لها أن اخترقت « مرتين » الدفاعات المصرية التى تقوم بحماية مداخل سيناء ••

الفصـــل السادس

ســـلام ناصر

آثار الخيانة ١٩٥٦ ـــ ١٩٥٨

اقول لكم أنه ليس بوسعكم التأكد من ان الحرب سوف تنتهى فى يوم من الأيام ، وربما تتوقف بالطبع بين الحين والحين لالتقاط الانفاس بل وقـــد تواجه حادثا مفاجئا يعطل اندفاعها فليس هناك شيء كامل على هذه الأرض ان الحرب التى نستطيع ان نقول عنها انها أرضت كل الرغبات قد لا تقوم ابدا ..

عن بر تولت بريخت فى « شجاعة أم »

اننا لسنا فى حرب مع مصر ولكننا فقط فى نزاع مسلح ..

انطونى ايدن ، سنة ١٩٥٦

على الرغم من الهزيمة العسكرية التى تكبدها المصريون فى حملتى السويس وسيناء ، فان الدعاية عن الانتصار كانت من نصيبهم وحدهم . وزاد رصيد ناصر الشخصى والسياسى أهمية نتيجة للتحالف الانجلو فرنسى الاسرائيلى ، والذى أخذ رجال الدعاية العرب يذكرونه منـــذ ذلك الحين على أنه العدوان الثلاثى ، ووجدت القومية العربية نفسها بطلا غير ملوث . وأدى تصميمه والمساندة غير المشروطة التى تلقاها من الاتحاد السوفيتى ، ومقدرته الخـــارقة على الصـــمود أمام الضربات العسكرية والتهديدات الدبلوماسية الى اذكاء روح النضال من أجـــل

تقرير المصير فى سائر أنحاء العالم العربى • وشهدت الجماعات الحاكمة الواحدة منها تلو الأخرى ، فى كل من الاردن وسوريا ولبنان والعراق القلق الاجتماعى وهو يتحول الى تمرد علنى صريح ولم يستطع أحد أن يمر بهذه الحالة بدون أن يمسه شىء غير الملك حسين • وذلك بفضل مساعدة المملكة العربية السعودية والاسطول الامريكى السادس الذى أبحر الى شرقى البحر الابيض المتوسط عند أول بادرة تدل على الاضطراب فى عام ١٩٥٧ ، ولكن حسينا نفسه اضطر للاعتراف بأقل ما كان يطالب به شعبه وهو قيام حكومة أكثر ديمقراطية •

وفى سوريا سقطت حكومة أديب الشيشكلى الموالية للغرب فى عام ١٩٥٤ • وأدى الاهتمام باحتمال حدوث تدخل غربى وبالقوة المتزايدة للحزب الشيوعى السورى الى خلق الظروف التى استطاع فى ظلها حزب البعث السورى أن يقدم مطالبه من أجل مزيد من الوحدة العربية • وكان ناصر أيضا يشعر بقلق تجاه امكانية قيام حكومة فى سوريا موالية للسوفييت أو للغرب • وفى عام ١٩٥٨ ، دخل البلدان ، وكان كلاهما يتلقى المعونة من الاتحاد السوفيتى ، فى وحدة غريبة تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة • وكانت الجمهورية العربية المتحدة التى اتخذت من القاهرة عاصمة لها وكان لها وزارة تضم سبعة وزراء مصريين ووزيرا سوريا واحدا أداة فعالة لحماية مصر لسوريا • « وانضمت اليمن فى وقت لاحق من سنة ١٩٥٨ لاسباب مماثلة » • وعلى الرغم من ذلك فانه فى ظل الجمهورية العربية المتحدة ، زاد حزب البعث العربى الشامل من نفوذه بشكل ملحوظ ••

وطالبت المجموعة الناصرية فى لبنان أو بمساندة سوريا على الأرجح ، بأن تتقارب حكومتهم من الجمهورية العربية المتحدة ، واندلع العنف لمساندة هذه المطالب • وتم قمع التمرد اللبنانى ، الذى وصل الى الذروة فى منتصف عام ١٩٥٨ ، بمساعدة القوات البريطانية والامريكية • « وقد اعترض الاتحاد السوفيتى على استخدام قوات الامم المتحدة » • ولكن منذ ذلك الحين فصاعدا ، أعيد تنظيم الحكومة اللبنانية لتكون بمثابة ائتلاف غير مستقر لليسار العربى المؤمن بالقومية العربية واليمين الموالى للغرب ••

ومن ثم فان الحكومة العراقية الهاشمية ، التى كان يسيطر عليها رئيس الوزراء نورى السعيد تعرضت الى تهديد متزايد بسبب موقفها

الموالى للغرب فى صلابة . وفيما يتعلق بمصر وسوريا وكثير من العراقيين فان عضوية العراق لحلف بغداد وضعته دون هوادة فى معسكر الاعداء ..

ولقد سارعت حكومة نورى السعيد الى اقامة اتحاد فيدرالى مع الاردن على عجل كحركة مضادة لقيام الجمهورية العربية المتحدة وللنفوذ. غير أن جماعة من ضباط الجيش بقيادة اللواء قاسم والعقيد عارف انتهزوا فرصة أمر صدر اليهم بدخول الاردن أثناء الازمة اللبنانية ، وعادوا بقواتهم الى مهاجمة بغداد . وعلى الرغم من أن قاسم كان يبدو ناصرا آخر ، الا أنه ، على خلاف معلمه ، كانت أطماعه شخصية الى حد كبير . وأطاح به فى نهاية الامر انقلاب تزعمه حزب البعث العراقى فى عام ١٩٦٣ ، لكن ذلك لم يحدث الا بعد أن كانت العراق قد تبعت مصر وسوريا بعض الطريق الى داخل المعسكر السوفيتى ..

ولقد سارعت حرب سيناء الأطماع الروسية والأمريكية فى الشرق الأوسط . فلما كانت كل من بريطانيا وفرنسا عضوين دائمين فى مجلس الأمن كان بمقدورهما فى الجزء الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٥٦ الاعتراض بحق الفيتو على أية قرارات من جانب مجلس الأمن تستهدف وقف الأعمال العدائية فى سيناء وفى منطقة القنـــاة . وحتى الجمعية العـــامة لم يكن بمقدورها أن تفعل شيئا سوى اصدار قرارات غامضة تطالب بوقف اطلاق النار على الفور أو بانسحاب عاجل . وكانت تلك القرارات تنطوى على نوايا طيبة لكن فعاليتها كانت ضئيلة . وشعرت الولايات المتحـــدة والاتحاد السوفيتى بأن عليهما اتخاذ اجراء خاص بهما من أجل وقف القتـــال حيث كانت الدولتان العظميان كلتاهما تتوق لفرض ســـلام على المتحاربين الاربعة وكان مرجع ذلك بالنسبة للولايات المتحدة هو أنها أدركت أنه من المحتمل أن ينتشر النفوذ المصرى فى الشرق الأوسط بسرعة أكبر اذا استمر القتـــال ، أما مرجع ذلك بالنسبة للاتحـــاد السوفيتى فهو لانه كان فى حاجة لان يساند ناصر بدون أن يصبح متورطا بالفعل فى الحرب .

واستخدمت الولايات المتحدة شتى أساليب الضغط المتاحة لديها ومن ذلك سحب المعونة عن اسرائيل وسحب امدادات البترول التى تقدمها لبريطانيا وفرنسا . وأما الروس فقد قنعوا بما كان بشكل أو بآخر عملا دعائيا فقد أعلنوا مساندتهم التامة لمصر ، وهددوا بالتدخل

بعد أن كان قد تم خوض كافة المعارك الرئيسية وكان وقف اطلاق النار على وشك التوقيع عليه . وفى الحقيقة فان أمريكا كانت تمسك بكافة الاوراق الرابحة . ولما لم يكن بمقدور الاسرائيليين أن يأملوا فى الابقاء على جيوشهم بدون المساندة الامريكية وكانوا على أية حال قد حققوا كل أهدافهم بحلول الخامس من شهر نوفمبر وكانت بريطانيا وفرنسا اللتان تحملتا وطأة القتال بعد يوم ٥ نوفمبر ، تعتمدان اعتمادا كليا على البترول الامريكى بعد أن تم اغلاق القناة بالسفن الغارقة ونسف السوريون خطوط الانابيب التى تعبر أراضيهم وحتى بلاد حلف بغداد وافقت على مقاطعة بريطانيا ، وظل الزيت والبترول يوزعان توزيعا قاسيا فيها بالبطاقات طوال فترة ما عقب حرب السويس حتى أن الكثيرين من الناس يرون أن الاقتصاد البريطانى لم يعد الى حالته الطبيعية بعد من هذه الضربة ..

ولقد عزز من رأى الولايات المتحدة أنه حدث تصدع مذهل فى صفوف حزب المحافظين الحاكم فى بريطانيا . وكان ايدن ، فى محاولة خاطئة لتجنب تكرار الاخطاء التى ارتكبوها بتأييد سياسة الاسترضاء حيال هتلر ، قد أقحم بريطانيا فى أزمة لم يحدث لها مثيل فى ربع القرن الذى تلا الحرب العالمية الثانية . فأدانه الرأى العام وادانه رفاقه وتعرض لهجوم من اليسار واليمين والوسط . وقدم كبار الموظفين المدنيين استقالتهم احتجاجا . وأصبحت قدرته على الزعامة موضع شك علنى ، فحتى لو استطاعت الحكومة أن تعيش بعد الازمة وتجتازها لما كان بمقدور ايدن أن يجتازها ويعيش بعدها قائدا للبلاد ..

وأدت مغامرة قناة السويس الى القضاء تماما على أى آمال ربما كان البريطانيون لا يزالون يعلقونها على الاحتفاظ بنفوذهم فى الشرق الأوسط . وفى الوقت الذى كان فيه البيان الثلاثى قد صار فى طى النسيان ، وفى الوقت الذى كانت فيه جهود مجلس الأمن محبطة بسبب استعمال بريطانيا وفرنسا لحق الفيتو ، وفى أوائل شهر مارس عام ١٩٥٧ أقر مجلس الشيوخ الامريكى « مبدأ ايزنهاور » . وبموجب نصوصه تكفلت الولايات المتحدة بحماية الاستقلال السياسى لكافة دول الشرق الاوسط بالقوة اذا استلزم الامر . وكان ذلك المبدأ .. « وليد مبدأ ترومان » ..

فعارض من معظم العرب معارضة عنيفة فى أغلب الأحيان • ومما لا شك فيه أن مبدأ أيزنهاور شجع موجة التردد التى اكتسحت منطقة الشرق الأوسط فى الأشهر القليلة التالية بالقدر الذى شجعها به ناصر ان لم يكن أكثر ••

ان محاولات أمريكا الدائبة لعزل عبد الناصر قد حدت بها لان تزيد ـ بصورة فعالة من مساندتها لاسرائيل • والنتيجة التى تعتبر على نفس القدر من الأهمية التى ترتبت على السياسة الامريكية هى أن الزعماء العرب الذين ظهروا حديثا ، « سواء كانوا ناصريين أو وطنيين أو اشتراكيين أو مؤمنين بسيطرة الشعب فقط » ، والذين كانوا يسعون للتحرر من سيطرة الدول الكبرى رفضوا كافة المحاولات الامريكية التى استهدفت تقديم المساعدة اليهم مقابل وعود بالولاء أو معاهدات للصداقة ••

ومن ناحية أخرى فان الاتحاد السوفيتى جنى كثير من الثقة لدى الحركات « المناهضة للامبريالية » « فى شىء من التجاوز » وهى الحركات التى اجتاحت العالم العربى •• فلم يكن الروس يسعون للحصول على أية تعهدات أو أية صفقات ، وأدركوا أن قبول المساعدة فى حد ذاته يعتبر ضمانا كافيا لاعتماد العرب المستمر عليهم • بل انهم تجاهلوا المعادات الشديدة للشيوعية التى أبداها معظم الزعماء الناشئين • وفى نهاية الخمسينات كان الاتحاد السوفيتى متورطا فى مصر وسوريا والعراق ، وكانت المملكة العربية السعودية والاردن ولبنان فقط هى الدول الموالية للأمريكان من بين دول الجامعة العربية الاصلية السبع ، كما كان اتجاهها الموالى للأمريكان هذا اتجاها واهنا ••

— ٢ —

هناك شىء واحد يتعلق بك اذا كنت رئيسا وهو
انه ليس بوسع احد ان يقول لك متى تجلس ..

دوايت .. د. ايزنهاور

كانت حرب سيناء بداية لمرحلة جديدة أكثر حرجا فى تاريخ الشرق الأوسط • وبدلا من أن يضع النصر الاسرائيلى حدا لعداء العرب لاسرائيل فانه عجل بزيادة الاستقطاب فى المنطقة ••

وذلك لأن التسوية النهائية لم تترك شكا فى أذهـان العرب بأن الاستقلال الحقيقى يمكن أن يتحقق مع وجود دولة اسرائيل • وعلى الرغم من الحذر الشديد ، ولا نقول النفاق الشديد ، الذى تعامل به ايزنهاور ودالاس مـع اسرائيل ، فان حكومة بن جوريون نجحت فى الحصول على تأكيدات من أمريكا ومن الأمم المتحدة ، وصلت الى حـد احتلال أرض مصرية وضمان بالحماية الأمريكية لاسرائيل ••

ولم تصادف المفاوضات التى جرت من أجل تحقيق انسـحاب أنجلو فرنسى من مصر سوى صعوبة يسيرة • لكن الامر مع اسرائيل كان شيئا مختلفا • ففى الوقت الذى وافق فيه بن جوريون وجلودا مائير وزيرة خارجيته ، من حيث المبدأ على الانسحاب الكامل من سيناء ؛ الا أنهمـا أبديا اهتماما بمسألة قطـاع غزة وخليج العقبة • وطالب الاسرائيليون بضمانات من جانب الامم المتحدة لحماية حقهم فى المرور بالخليج ولضمان وقف غارات الفلسطينيين العرب التى تحدث من قطاع غزة • وكان الموقف الامريكى استرضائيا الى أقصى درجة حيث سعت أمريكا الى استرضاء هذا وذاك ، وبعد أن أكدت لاسرائيل فى الجمعية العامة للأمم المتحدة مساندتها لها ، مضى دالاس وايزنهاور فى مطالبة اسرائيل بالانسحاب الكامل غير المشروط من سيناء وغزة ••

وفى الواقع فانه لم يكن بمقدور اسرائيل أن تتحمل نفقات استمرار الاحتلال • كمـا ان انسحاب القوة الانجلو فرنسية فى أواخر شهر ديسمبر من عام ١٩٥٦ ترك القوات الاسرائيلية عرضة للهجوم • وبدون التأييد الامريكى « وقد توقفت المساعدة فى شهر أكتوبر » فان فرص احراز نصر اسرائيلى فى حـالة حدوث مثل هـذا الهجوم ما كانت الا لتتدهور بمرور الوقت • وما أن انتهى شـهر يناير عـام ١٩٥٧ الا وكانت اسرائيل قد انسحبت من سيناء كلها باستثناء قطاع غزة وشرم الشيخ • « التى تطل على المدخل الوحيد الصالح للملاحة والمؤدى الى خليج العقبة من خلال مضايق تيران الضيقة » ••

ظن الاسرائيليون انهم بالجلاء عن معظم سيناء ، فانهم يقدمون تنازلا سوف يكافئهم الامريكيون عليه بتخفيف موقفهم منهم • وكانوا مخطئين فى ذلك ، فأمريكا كان لديها الكثير الذى يمكن أن تفقده فى العالم العربى اذا أظهرت انها تحابى اسرائيل • ومن الجائز التعبير عن التأييد الأمريكى لاسرائيل خلف الأبواب المغلقـة ، الا أنه فى مجالس الأمم

المتحدة أو علانية أمام الرأى العام كان من الاهمية بمكان بالنسبة لامريكا « وما زال » الا تظهر أى تحيز • فأصر دالاس وايزنهاور على أن تقبل اسرائيل قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الذى طالب بانسحاب كافة القوات الاسرائيلية العاجل من شبه جزيرة سيناء ، وفى الوقت الذى وجدت فيه الامم المتحدة نفسها غير قادرة على ضمان أمن الحدود الاسرائيلية أو حق اسرائيل فى « المرور الحر والبرىء » فى خليج العقبة، رفضت أمريكا تقديم ضمانات مشابهة خارج نطاق قرارات الأمم المتحدة • وكانت الامم المتحدة قد صارت الى حد كبير أداة لرغبة أمريكا ، الا أن مظهر عدم التحيز الذى يضفى القدسية على قانونية قرارات الامم المتحدة كان لابد من الحفاظ عليه • ولن يكون مجديا حقيقة بالنسبة لامريكا ان تقوم بتوزيع قواتها فى هذا الموقف على سبيل المثال • فمثل هذا الحل لم يكن مقبولا الا فى مواجهة التهديد بعملية استيلاء سوفيتية على السلطة أو السقوط الوشيك الحدوث لحكومة موالية لامريكا • أما المواجهة العربية الاسرائيلية فانها كانت بالغة الحساسية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانها لم تكن على درجة من الحرج تستدعى التدخل الامريكى المباشر ••

وأكد دالاس لجولدا مائير ان الامم المتحدة ستعالج المشكلة الخاصة بقطاع غزة • وأبلغها انه يمكن الاعتماد على المصريين لرفع حصارهم عن خليج العقبة • بل انه أبدى رأيا رسميا بأنه خليج العقبة « يعد مياها دولية » • وكتب يقول : « بما أنه لا يوجد قرار قاطع عكس ذلك من محكمة العدل الدولية » فان الولايات المتحدة مستعدة باسم السفن المسجلة على أنها سفن أمريكية ، لان تمارس حق المرور الحر والبرىء ولأن تنضم للآخرين للحصول على اعتراف عام بهذا الحق » ••

الا أن ذلك كله كان مشروطا بانسحاب اسرائيل المسبق انسحاب لا يتصل به أى « تعهدات أو تنازلات من أى نوع من جانب الولايات المتحدة لاسرائيل » • فلو أراد الاسرائيليون ضمانات أقوى (وقد كانوا يريدون) لما أمكن احراز أى تقدم • وطالما انه كانت هناك أسباب ملحة تدعو لجلاء اسرائيل عن قطاع غزة وعن شرم الشيخ فانه كان عليهم أن يأخذوا التأييد الامريكى على أنه موضوع ثقة • وهذا

هو ما فعله الاسرائيليون فى النهاية تماما ولكنهم ندموا فيما بعد على هذه الثقة ، ولم يرتكبوا نفس هـذا الخطأ فى عام ١٩٦٧ ..

وبعد أن انسحبت اسرائيل من معظم سيناء ، كانت لا تزال فى حاجة الى تدعيم نصرها . وبدا ان الانسحاب يوضح قبول اسرائيل لموقف الامم المتحدة من حيث المبدأ على الاقل . وكان معنى ذلك رفض الفكرة القائلة بأن الاحتلال العسكرى هو السبيل الوحيد للحيلولة دون حدوث غارات الفدائيين من قطاع غزة أو لضمان حرية اسرائيل فى المرور بخليج العقبة . وحتى بصرف النظر عن الضغط الأمريكى فان احتـلال اسرائيل لغزة ، وهو ما كان ممكنا ، الا أنه كان من شأنه أن يثير مشاكل ضخمة . وكانت اسرائيل سوف تواجه مشكلات ادارية لا يمكن التغلب عليها مع وجود ما يربو على مائتى ألف فلسطينى عربى يعيشـون فى القطاع لو انها واصلت احتلالها له ..

وفى عام ١٩٥٧ لم تكن البلاد قوية اقتصاديا لدرجة تمكنها من أن تتحمل عبء الاشراف على غزة تحت الادارة العسكرية ، كما لم يكن بها كثافة سكانية تكفى لاستيعاب ٢٠٠٫٠٠٠ عربى فلسطينى صالحين لاكتساب صفة الجنسية الكاملة . ونظرا للحالة النفسية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت فان أى حل أكثر تطرفا لوجود عدد كبير من العرب فى الأراضى الاسرائيلية كان أمرا لا يمكن التفكير فيه . ثم ان مشكلة الفدائيين كان من الممكن على الدوام معالجتهـا بعمليات عسـكرية محدودة من الأراضى الاسرائيلية لا سيما اذا بقيت اسرائيل فى منطقة العوجة ، وهو ما فعلته ، التى تتحكم فى الطريق الغربى المؤدى الى قطاع غـزة ..

كانت قدرة اسرائيل على المساومة ضعيفة . فلم تتحسن الامور برفض بن جوريون الصريح قبول قوات الامم المتحدة على الاراضى الاسرائيلية حيث أصر على أنه اذا كانت هناك حاجة للاشراف على وقف اطلاق النار ، فيجب أن يتم هـذا الاشراف من الجانب المصرى من الحدود . وكان داج همرشولد السكرتير العام للامم المتحدة قد سـبق له أن اتفق مع ناصر حول الشروط التى ستحتل بموجبها قوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة مواقع على الحدود فى سيناء . فقد توصل الاثنان الى « اتفاق ودى » عرف على وجه العموم بأنه « اتفاق النوايا الطيبة » .

ووافق ناصر بصورة غير رسمية على أن «يسترشد وبحسن نية ، بقبول قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الصادر فى نوفمبر عام ١٩٥٦ الذى أنشأ قوة الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة » وذلك على الرغم من أنه لم يعترف بأى قيود على حق مصر فى سحب موافقتها . وطبقا لذلك سلمت اسرائيل قطاع غزة لقوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة يوم ٦ مارس عام ١٩٥٧ ..

وفى اليوم التالى وصلت قوات الطوارىء الى شرم الشيخ . وكان الموقف هناك أكثر الحاحا وأكثر تعقيدا مما كان عليه فى غزة . وكان بن جوريون قد أوضح منذ بداية المفاوضات ان اسرائيل ستلجأ الى الحرب لتبقى على خليج العقبة مفتوحا أمام سفنها وبضائعها . كما أن انسحاب القوات الاسرائيلية من بقية سيناء أدى الى ترك شرم الشيخ معزولة وعرضة للهجوم . الا أنها لم تكن منطقة حدود وذلك جعل من الصعب على أى شخص أن يصر على أن توافق مصر على احتلال قوات أجنبية لها . ولم يكن بمقدور الاسرائيليين البقاء فى شرم الشيخ ، الا أنهم لم يكونوا يريدون تركها أيضا ، خشية من أن يتقدم المصريون ببساطة اليها ويعيدوا فرض الحصار . بل وحتى تأكد دالاس بأن الخليج ، فى رأيه كان يعتبر ممرا مائيا دوليا لم يساعد الأمور . وكان ذلك مجرد رأى لا أكثر ، ولم يتم اختبار مدى صحته أبدا فى أية محكمة قانونية . وكانت مضايق تيران لا تزال مياها مصرية اقليمية ، وأصر المصريون على أنه مهما يكن وضع الخليج فان لهم الحق فى الحيلولة دون مرور المواد الاستراتيجية لدولة معادية فى وقت الحرب . ولم تكن هناك أبدا معاهدة سلام بين مصر واسرائيل « أو أى دولة عربية فى هذا الخصوص » ، وكانت مصر تشعر من وقت لآخر بأن لديها ما يبرر استخدامها لهـذا الحق ..

وأيا ما يكن الأمر فان عبد الناصر وهمرشولد توصلا الى اتفاق نحو قرب نهاية شهر مارس على أن يتم تسليم قطـاع غزة للادارة المصرية ، تمشيا مع مطالب السكان الفلسطينيين فى القطاع ..

ومقابل ذلك ، أعطى ناصر موافقته على بقاء قوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة فى شرم الشيخ . ومرة أخرى لم يقبل ناصر أى قيـود على حقه فى سحب هذه الموافقة ، ونتيجة لذلك ، لم يكن هناك ضمان

محدد بأن مضايق تيران ستبقى مفتوحة • وأقصى ما كان يمكن قوله هو انه طالما بقيت قوات الطوارىء فى شرم الشيخ فانه سوف يسمح للملاحة الاسرائيلية بالدخول فى خليج العقبة والخروج منه ••

كانت نتيجة المفاوضات التى استمرت أربعة أو خمسة شهور من التفاوض المحموم سلاما غير سوى ، عبارة عن خليط من الاتفاقيات المعقدة ، التى سيتم تفسيرها فى المستقبل ، مثلها فى ذلك مثل اتفاقيات الهدنة ، التى عقدت عام ١٩٤٩ ، ثم يعاد تفسيرها من جديد ، ويعمل بموجبها مرة وتنتهك مرة أخرى ، والحق بطبيعة الحال ان هذه الاتفاقيات لم تكن الضمانات الحقيقية للسلام فى المنطقة بأكثر مما كانت عليه اتفاقيات الهدنة • فلو ان هدف الامم المتحدة كان فرض سلام من خلال التفاوض يكون متمشيا مع كافة القرارات التى صدرت فى مجلس الامن والجمعية العامة ، فان ما أنجزته وحقيقة فعلا هو انها أوجدت من الثقوب والفجوات ما يكفى لكى تمر خلاله عدة جيوش • وكون هذه الجيوش التقطت أنفاسها من وقت لآخر فى تقدمها الذى لا يقاوم فان ذلك كان ببساطة مسألة تتعلق بالامداد والتموين ، لان تلك الجيوش كانت فى حاجة الى الراحة وفى حاجة الى امدادات جديدة وتعزيزات ولم تهاجم لا الدبلوماسية ولا الضغط الذى تمارسه الدول الكبرى المنطق السياسى الذى كان يوجه هذه الجيوش فى تقدمها • وعلى أفضل الفروض فان تلك الدبلوماسية وذلك الضغط قد سد الطرق ، مما تطلب من الجيوش اللجوء الى عمليات التضليل • وكل الذى فعلوه عادة هو مجرد اقامة نظام اجتهادى من المبررات لعدم القتال وهى مبررات كانت مجدية فقط طالما لم يرغب أحد فى القتال • ولقد تبين لاشخاص كثيرين بعد مرور عدة أعوام انه حتى قوات الطوارىء الدولية لم تكن أكثر من مجرد وجود رمزى • فمع وجود أقل من ٤٠٠٠ جندى على الأرض المصرية ، لم يكن ممكنا الا أن تكون كذلك خاصة وان الامم المتحدة نفسها لم يكن لديها أبدا القدرة على تعبئة قوات وفقا لاتفاقها الخاص وتعتمد على حسن نية الدول الاعضاء فيها لتقديم القوات اللازمة ••

ولحسن الحظ فانه فى الشهور التى أعقبت حرب سيناء أحس كل من اسرائيل والدول العربية بأنها راغبة فى الابقاء على سلام متبادل • حيث كانت هناك مشاكل ملحة لابد من مواجهتها فى الداخل • الا أنه

كان سلاما غير ثابت الأركان • فالاسس المزعزعة لوجود اسرائيل كانت لا تزال قائمة • وأطراف النزاع الاساسيون وهم الفلسطينيون والعرب الاوصياء عليهم من ناحية والاسرائيليون واليهود من الناحية الاخرى رفضوا الاعتراف كل بمطالب الاخر • والعرب كانوا ما يزالون يرفضون حق دولة اسرائيل فى الوجود واسرائيل ترفض قبول ادعاء الفلسطينيين بأن لهم حقا فى أن تكون لهم دولة • ومع عدم حل هذه المشكلة الاساسية، كان تجدد النزاع أمر حتميا • وطالما أن الدول العربية كانت ما تزال تتبنى القضية الفلسطينية ، فان النزاع كان سيشمل بالضرورة عاجلا أو آجلا دول المواجهة وبعبارة أخرى فان الحرب التالية كانت هى مسألة وقت فقط ••

وعندما اندلعت الحرب فى صيف عام ١٩٦٧ بينت اسرائيل انها تعلمت أكثر من درس عسكرى من حرب سيناء ، لقد بينت انها تعلمت درس السلام المزعزع ••

* * *

الفصـل السـابع

انقسـام الأسر
تطورات الشرق الأوسط من عام ١٩٥٧ ــ ١٩٦٧

يتمثل فن القيادة .. فى تركيز انتباه الشعب على عدو واحد والحرص على الا يبدد شيء من هـذا الانتباه ..

عن أدولف هيتلر ، من كتاب « كفاحى »

— ١ —

ان المشاكل التى تواجه العـالم اليوم غير قابلة لحل عسكرى ..

جون كينـدى ــ عـام ١٩٦٣

أعطى موقف ناصر كزعيم ملهم العرب فرصة لم يسبق لها مثيـل لحجب خلافاتهم تحت ظل راية مشتركة • ولو كانت مصر قوية بدرجة كافية ، ولو انه كان لديها مخزون ضخم من الزيت مثلما لديها من الأيدى العـاملة ، لكان من الجائز تحقيق وحدة عربية : الا أنه بسبب واحدة من هذه السخريات التى تصنع على الدوام المأساة الكبرى ، كان مطلب عبد الناصر الخاص بالزعامة المعنوية وبدون أن يسانده اقتصاد مستقل أو قوة عسكرية ، هو أحد العوامل المؤثرة التى أدت الى الانقسام فى صفوف العالم العربى بعد عام ١٩٥٦ ..

ولم يكن حتى بمقدور الاشراف السوفيتى أن يصهر الدول العربية فى جبهة موحدة ، وفى الوقت الذى بدأت الانقسامات تطفو فيه على

سطح الوحدة ، أنحى الزعماء العرب مرة أخرى باللائمة على اسرائيل تفسيرا لهذا الأمر أو تبرير ذلك . كما ان اسرائيل أيضا ، الدولة الصغيرة المحاصرة ، لم تجد حلا مجديا لأزماتها الداخلية أكثر من الاشارة الى عدو مشترك ، ويتمثل الدرس الذى أسفرت عنه عشرة أعوام تتسم بالسلام بشكل أو بآخر فى أعقاب حرب سيناء فى ان السلام يعتبر أمرا سيئا بشكل واضح فى الامور العملية . وكان ذلك درسا تذكروه جيدا ..

ولم يكن المصريون يريدون فى الحقيقة الحرب فى عام ١٩٥٦ ، بل وحتى الاسرائيليين أنفسهم عالجوا الامر كله بعدم اقتناع كامل . لكن بمجرد أن تبدأ الحرب يكون من العسير شطبها من السجل أو تستطيع الدولتان الأعظم كبح تطرف كل من العرب والاسرائيليين ، لكن ذكريات الهزيمة والانتصار يظل مفعولها قائما فى النفوس ..

واتسمت سيطرة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على سياسات الشرق الأوسط بالجو السريالى الذى تتسم به حلبة الملاكمة ، وكان هناك عملاقان يتقدمان على أطراف أصابع القدم نحو الحلبة ويقيم كل منهما نقاط الضعف ونقاط القوة لدى الآخر ، ويتظاهر من حين لآخر بلكمة يمينية من أسفل الى أعلى أو بلكمة شمالية مباشرة ولكنه لا يهاجمه أبدا بمنتهى القوة . وهو شىء أشبه بالحلم أو بمسرحية يتم تمثيلها بالقاء ظل الممثلين على الشاشة . وطوال الوقت يسابقون الثوانى بقفازات وتروس صمغية ، بينما تظهر الثوانى الكراهية المتبادلة بينهما فى الوقت الذى يتشبثون فيه بأركان الحبال . ومرة أخرى لا يريد أحد حقيقة بدء جولة جديدة ، لكن ليس بوسع أحد أن يفعل الجولة الأخيرة ..

ولقد أغدق الاتحاد السوفيتى المساعدة العسكرية والاقتصادية على الدول المتعاملة معه ، وبدأ وجه العالم العربى يتغير بصورة مذهلة وتم فى مصر بناء سد أسوان ومجمع الحديد والصلب الكبير ، وتم التخطيط لخزان على نهر الفرات من أجل سوريا . وقدم الاتحاد السوفيتى الأسلحة والآلات الميكانيكية والفنيين وكافة أوجه المساعدة الفنية . وكان كثير من المساعدة التى يقدمها يتم على شكل صفقات للمقايضة ، أى تقديم المساعدة مقابل البترول والفوسفات أو القطن . ومع ان هذا النظام لم يشكل ضغطا على الاقتصاد العربى المزعزع لكنه

اتجه بالفعل الى زيادة اعتماد العرب على السوفيتبما انهم سيرتبطون على الدوام بتصدير انتاجهم لعدة سنوات من أجل الحصول على مساعدة عاجلة • وفى الحقيقة ، كان الروس يتوقون للدخول فى هذا النوع من الصفقات ، وعندما رفض الأمريكيون فى عام ١٩٦٧ تزويد مصر بالقمح الذى يعتبر ضروريا بالنسبة لها للعام الثانى على التوالى ، تقدم الاتحاد السوفيتى على وجه السرعة بعرض لمقايضة القطن المصرى مقابل القمح اللازم ••

ومن الواضح أن المصالح السوفيتية كانت استراتيجية واقتصادية وليست أيديولوجية • وأصبح حرصهم التقليدى على فتح طرق تؤدى الى شرق البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الاحمر والخليج الفارسى ، أكثر الحاحا نتيجة للطلب السوفيتى المتزايد على البترول • فعندما تجاوزت حقول البترول الموجودة فى غرب روسيا نقطة الذروة فى الانتاج، اتجهت البلاد للشرق الاوسط من أجل الامدادات • ومن هذه الزاوية وحدها أصبح من الاهمية بمكان بالنسبة للاتحاد السوفيتى أن يقوم بتنمية علاقات طيبة مع الدول المنتجة للبترول كالعراق ، وايران وأن يبقى أيضا على الاستقرار فى أنحاء الشرق الأوسط ، وأن يقوم أيضا ببناء محطات بحرية وطرق بحرية وبرية ، وأن يساعد مساعدة فعالة بلادا أخرى فى الشرق الأوسط كمصر ، وسوريا فى عملياتها الاستكشافية الخاصة بالبترول • وكان عدم المبالاة النسبية من جانب الاتحاد السوفيتى ازاء السياسات التى تنتهجها الانظمة الحاكمة فى الشرق الاوسط نتيجة مباشرة لسعيه الدائب من أجل تحقيق هذه الاهداف ••

وبالطبع يفضل الروس على الدوام زعامة متعاطفة ، وهم لم يسحبوا بالفعل أبدا اعترافهم بأى حزب عربى شيوعى موال للسوفييت ، لكن عندما كان من المناسب بالنسبة لأهدافهم الواسعة أن يغمضوا عيونهم عن القمع الذى تعرضت له تلك الأحزاب فانهم كانوا على استعداد لأن يفعلوا ذلك • بل انهم فى بداية الستينات وجدوا انه من الممكن اقامة روابط وثيقة حتى مع تركيا وايران وكليهما أعضاء فى منظمة الحلف المركزى « هو الاسم الذى أصبح حلف بغداد معروفا به بعد الانقلاب العراقى » ، كما أنهما أيضا من أكثر البلاد الموالية بقوة لامريكا فى الشرق الاوسط • وفى أواخر الستينات دخلت روسيا فى عدد من الصفقات التجارية الكبيرة مع ايران ، وكانت منهمكة بشدة فى تبادل

المعدات الرأسمالية مقابل البترول والغاز •• وبدأت تركيا وباكستان أيضـــا فى التعامل مع الاتحاد السوفيتى ••

وثمة ثلاثة أشياء هى التى جذبت بلاد الشرق الأوسط للاتحاد السوفيتى فأولها وأقلها أهمية هو القرب الجغرافى الذى جعل الروابط التجارية أسهل والصلات التجارية الموسعة أكثر تمشيا مع المنطق وأعطى الاتحاد السوفيتى وجودا عسكريا كان من الصعب تجاهله ••

والأمر الثانى هو مرونة الاتحاد السوفيتى فيمـــا يتعلق بالأمور الداخلية لأتباعه وعملائه • وأما الأمر الثالث فهو استقرار النظام السياسى الخاص بالاتحاد السوفيتى الذى جعل منه شريكا يمكن الاعتماد عليه أكثر بكثير مما يمكن الاعتماد على أمريكا • وفى الأعوام الأخيرة حاولت الولايات المتحدة تقويض هذا الاستقرار من الداخل ، على ما كانت عليه ، بتقديم مساندة علنية للحركة السوفيتية المنشقة ، ويخدم ذلك التأكيـــد على •• «حقوق الانسان» هدف آخر ، فيما يتعلق بالشرق الأوسط ، الا وهو كبح هذه الانظمـــة الديكتاتوريه « مثل الـــحكومة القائمة فى ايران » التى استخدمت المساندة الأمريكيه ، « وليس هذا القول مبعثه جنون الشك » لتدعيم حكمها الخاص فى الوقت الذى قامت فيه بتطوير علاقات اقتصادية أكبر على نحو مضطرد مع منافسى أمريكا فى المنطقة ••

وفى أول الأمر بدا أن الطبيعة الخاصة التى اتسمت بها علاقات الاتحاد السوفيتى مع الدول التى تتعامل معه فى الشرق الأوسط تنطوى على كثير مما يستحق الثناء فمصر وسوريا ظهر عليهما أنهما يتجهان اتجاها حثيثا نحو عهد من النمو الملحوظ •

وقيام الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٥٨ كان المفروض فيـــه أملا جديدا لحركة القومية العربية • وبما أن السوفييت لم يسعوا الى فرض أى نظام سياسى معين على البلاد الواقعة فى مجال نفوذهم هناك، فقد بدا أنه سيتم على الأرجح السماح للعرب بانتهاج سياسة لتقرير المصير تؤدى الى اتحاد حقيقى مقبول للدول العربية ، غير أن موقف روسيا الاسترضائى كان ينطوى فى الحقيقة على قبول ضمنى لناصر باعتباره •• « الرجل القوى » لأى وحدة عربية • فهو كان خير الزعماء العرب الجدد تعليما واكثرهم نشاطا وفعالية وقدرة سياسية • وكان خروشوف يشعر باعجاب بنوع خاص بقوة عزيمته والتزامه بالسياسات المعادية للغرب •

وكانت مصر هى أكثر الدول العربية التقدمية تقدما وتطورا وأكبرهم عددا من حيث السكان وبدت بمثابة زعيمهم الطبيعى • واغدق الروس على مصر اهتمامهم ، الا أنه فى الوقت الذى كانوا مستعدين لدفع عبد الناصر الى صفوف الطليعة الشيوعية السوفيتية فى منتصف الستينات كان الوقت قد فات بالفعل • •

وعلى الرغم من ملكات ناصر الكثيرة والواضحة ، ظل التنافس على زعامة العالم العربى على أشده • ولم تؤد الرعاية السوفيتية الا الى تأكيد المطالب المتعارضة • وعلى نحو خاص وجد عبد الناصر نفسه يسير فى مواجهة أحزاب البعث القومية فى كل من سوريا والعراق وفى مواجهة حكومة قاسم فى العراق • وعلى الرغم من أن حزب البعث لم يحقق زعامة فى كل من سوريا والعراق حتى عام ١٩٦٣ الا أنه كان قد لعب دورا أساسيا فى الحياة السياسية لكلا البلدين •• وكان له نفوذه بنوع خاص فى الجيشين السورى والعراقى • ولقد ظهر حزب البعث فى سوريا فى الأربعينات وكان أول تنظيم سياسى غير شرعى فى العالم العربى يعتنق على وجه التحديد مبادىء الاشتراكية والقومية العربية • وفى الحقيقة فان حزب البعث كان مناهضا للشيوعية بقوة وأعلن أنه يؤيد •• «الاشتراكية العربية» •• وهى نظرية مهجنة تحمل صفات مشابهة لصفات الصهيونية اليسارية ، كما انها انطوت على كثير من ذات نفس التناقضات • وحقيقة فان خوف حزب البعث السورى من استيلاء شيوعى وشيك على السلطة فى عام ١٩٥٨ قد دفعه الى الالحاح على اقامة وحدة مع مصر الا أن ذلك لم يقلل لا من مطلبه الخاص بزعامة حركة القومية العربية ولا من تشككه تجاه الأطماع السوفيتية •

وأما ناصر فوجد نفسه منجذبا بالضرورة الى الفلك السوفيتى • ولم تكن محـاولاته من أجل اسـتخلاص شكل مسـتقل ومحـايد « واشتراكى » للقومية العربية ، أكثر من مجرد سلسلة من العمليات الارتجالية فى سلسلة من الموضوعات التى لن يتم استيعابها • ودفعه طموحه من أجل مصر لان يصبح أكثر اعتمادا على المساعدة السوفيتية ، وكلما زادت استفادة مصر من سخاء الاتحاد السوفيتى ، كلما شهد ناصر بوضوح أكثر دور مصر القيادى فى العالم العربى • وتعرضت المطالب المشروعة لحزب البعث للتجاهل فى الوقت الذى نمت فيه الناصرية وأصبحت صفة ملازمة لعبد الناصر ومرتبطة بصورة متزايدة بالاطماع

المصرية فى السيطرة على العالم العربى . وفى عام ١٩٦٣ تمزقت الجمهورية العربية المتحدة اربا فى الوقت الذى تتابعت فيه الانقلابات فى سوريا ، وقامت الجماعات المتنافسة فى الجيش وبين صفوف السكان ككل بالاستيلاء على السلطة أولا فى عام ١٩٦١ ، ثم فى عام ١٩٦٢ وبحلول شهر مارس عام ١٩٦٣ كان قد حدث ذلك مرتين أخريين . وظلت مصر تطلق على نفسها أسم الجمهورية العربية المتحدة ، على الرغم من انفصال سوريا ، وواصل ناصر سعيه لفرض وحدة يسيطر عليها المصريون فى العالم العربى . وبدأ يضمر شعورا عميقا بعدم الثقة تجاه حزب البعث للدور الذى قام به فى انهيار الوحدة بين مصر وسوريا ..

وكان قاسم من ناحيته يقوم بتغذية شعور مماثل بالكراهية للفرع العراقى من حزب البعث ، الا انه لديه هو الآخر أطماع لأن تصبح العراق زعيمة للعالم العربى ، ورفض القيام بدور ثانوى الى جانب عبد الناصر . فلم يكن أمامه من بديل ، والحال هذه ، غير اقامة تحالف مع الحزب الشيوعى العراقى وكان تحالفا دبر له ورتب فى حرص من خلال حل الحزب أولا وارهاقه ، وعندما تم تقليم أظافره ، أضفى عليه صبغة شرعية تحت رئاسة شخص قام هو نفسه بتعيينه وكان طبيعيا أن يذعن الشيوعيون لهذه المعاملة ، بما أن أية معارضة كان من شأنها أن تتعارض مع الأهداف السوفيتية ..

وفى بداية عام ١٩٦٣ كانت المقاومة لحكم قاسم الذى يتزايد استبدادا وعدم صلاحية قد أصبحت على درجة من القوة باتت العراق معها فى حالة فوضى حقيقية . فقد كان قاسم فى نزاع مع بقية العالم العربى حول مطالبه المتعلقة بالكويت الحديثة الاستقلال . وكان فى نزاع مع الاتحاد السوفيتى بسبب معاملته للأقلية الكردية فى العراق « كان هناك أكراد فى تركيا وفى ايران أيضا وكان الاتحاد السوفيتى يقدم لهم العون أملا فى أن يقوموا بتمزيق منظمة « الحلف المركزى » كما كان قد نفر الغرب منه بتذبذبه وبالطريقة التى أنهى بها من جانب واحد اتفاقيات قائمة منذ أمد طويل حول امتيازات خاصة بالبترول العراقى . وبالطبع كان قد قمع النشاط السياسى فى البلاد ونكث بتعهداته السابقة الخاصة بالاصلاح الداخلى . وفى شهر فبراير عام ١٩٦٣ أطاح به تحالف من الجيش ، والبعث يرجع تنظيمه جزئيا الى عدد كبير من نفس الضباط الذين اشتركوا فى انقلاب عام ١٩٥٨ . وجاءت الحكومة الجديدة معادية

بشدة للشيوعية وللسوفييت الا أنها لم تمكث فى السلطة سوى أقل من عام وحلت محلها حكومة عسكرية أخرى عادت الى الصف السوفيتى ••

ولفترة قصيرة أثناء سطوة حزب البعث فى سوريا والعراق ، بدا كمـا لو كان وعد الوحدة العربية ، الذى تبدد بتمزق الجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦١ قد عادت اليه الحياة حيث اقترح اقامة اتحـاد فيدرالى بين مصر والبلدين البعثيين ، ومضت المناقشات قدما وأدلوا بتصريحات رنانة فى ابريل عام ١٩٦٣ • الا أن هذه التصريحات لم يكن لها من نتيجة ، كمـا ان الانقلاب العراقى الذى حدث فى أواخر عام ١٩٦٣ كان واضحا انه يجىء من منطلق ناصرى ، وعلى أية حال فان دواعى المنافسة من أجل زعامة حركة القومية العربية والتناحر الحزبى داخل البعث سرعان ما قضى على أى آمال فى قيام اتحاد عراقى سورى حول قضايا عربية شاملة محددة • ولقى الاتحاد المصرى العراقى الذى أعلن قيامه عام ١٩٦٤ نفس المصير • وبدا أن النزاع بين صفوف الدول العربيـة « التقدمية » لا يمكن التغلب عليه ، على الرغم من تكريس الجهـود الواضح لتحقيق أهـداف مشتركة وانتهاج سـبل متماثلة لتحقيقها ••

وكانت المشكلة بطبيعة الحال هى عدم وجـود أساس حقيقى للوحدة • فالمشكلات الداخلية للدول العربية لا يمكن للوحدة أن تحلها وانما على العكس فان الوحدة لابد أن تنطلق من أنظمة سياسية مبنية على أسس اقتصادية متينة ومزدهرة • هذا فى حين أن التنظيم السياسى والتنمية الاقتصادية كانا على وجه التحديد هما المجالان اللذان لم يكن للحكومات العربية سيطرة عليهما •

ان الانظمة السياسية التى ورثها عبد الناصر والزعماء العـرب الآخرون قد نشأت فى الجو المخدر للحكم الاستعمارى • فكانت أنظمة فاسدة يسعى واضعوها لتحقيق مصالحهم الذاتية وعاجزة وغير ملائمة • وكانت المجتمعات العربية مجتمعات شبه اقطاعية حيث لم تكن اقطاعية تماما ، وكانت مهمة خلق أى نوع من الديمقراطية بدون اشتراك طبقـة متوسطة نشطة سياسيا والطبقة العاملة أو الفلاحين مهمة مستحيلة • وكان الحكم الاستعمارى قد أبقى على المجتمعات العربية فى مرحـلة متأخرة من التطور تأخرا مصطنعا • وعندما انسحبت الامبراطوريات

الكبيرة ، وجدت الدول العربية نفسها ملقاه عارية فى العالم الحـديث تعوزها وسـائل العيش فيه ••

وفى ظل تلك الظروف ، لم يكن مفاجأة ان نجد العسكريين يقومون بادارة دفة الشئون السياسية كلهـا • فهم كانوا أقرب شىء لطبقـة متوسـطة منظمة فى معظم البلاد العربيـة • وبما انهم كانوا متعلمين وطموحين ، كان بمقدورهم استخدام القوة المسلحة والنظام العسكرى لتهديد النظام الفاسد الذى حصل على زمام السلطة من أيدى البريطانيين والفرنسيين • ولكنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا ولو صورة لحكم برلمانى على بلدان تم فيها خنق المؤسسات السياسية والاقتصادية الحديثة عن عمد عند مولدها • اذ لم يكن هناك مفر من أن نجد الحكومات العسكرية الجديدة ، وبعد أن تخلصت من الحكام الاستعماريين وعملائهم الملكيين ، ان الديكتاتورية هى البديل الوحيد لانهيار مجتعاتهم ••

فالرجال من أمثال عبد الناصر لم يكن بمقدورهم أن يتجنبوا فرض ارادتهم على الشـعب الذى يحـكمونه الا بالتضـحية بالاصلاحات الاجتماعية والتقدم الذى كانوا يسعون اليه فى حماس بالغ • لكن المؤسف هو انهم لكى ينفذوا تلك الاصلاحات ويحققوا ذلك التقدم ، فانهم خلقوا حول أنفسهم ، طبقة حاكمة هى عبارة عن زمرة من الحكام لم يكن بمقدورها البقاء الا اذا كانت هذه الاصلاحات يعوزها الحماس وكان التقـدم فى أدنى صـورة له • وكان جهـاز الدولة الذى أقامه عبد الناصر وآخرون فى حد ذاته أداة لمزيد من الظلم للجماهير العربية • كمـا أن البيروقراطيين والمسئولين الذين عملوا فى هـذا الجهاز بأعداد متزايدة صاروا هدفا للانقلاب ومحاولات الانقلاب التى قام بها أولئك الذين ساروا فى الطريق الوحيد الى السلطة فى المجتمعات الاستبدادية والمتخلفة •

فمن الواضح تماما لماذا لم يكن عبد الناصر وزعامة حزب البعث وقاسم ليقبلوا الوحدة العربية الا بشروطهم الخاصة • فالسبب ببساطة هو أن فكرة قيام ديمقراطية تتكون من جماعات استبدادية منفصـلة ، هى شىء مناف للعقل • وأى وحدة عربية كان لابد أن تكون اما استبدادية، أو ديمقراطية بشـكل أو بآخر • وكان قيام وحدة عملية من حكومات ديكتاتورية أمرا لا يمكن تصوره ••

وكان التخلف الاقتصادى للبلاد العربية سببا جذريا لهذه الحالة المؤسفة للامور • فمصر على سبيل المثال لديها فائض كبير من القـوة العاملة الا أن مصادرها الأخرى كانت ولا تزال محدودة على نحـو يدعو للرثاء كما أن قرونا من الحكم الاستعمارى قد شوهت اقتصادها • ولو أنه كان على مصر أن تصنع نفسها فى الخمسينات والستينات فانه لم يكن بمقدورها أن تحقق ذلك الا من خلال تلقى المساعدة • لكن كلما زاد حجم المساعدة التى تتلقاها ، كلما أصبح اقتصادها مرتبطا بمطالب « الطرف الذى يحسن اليها » ، ولم يكن أمر ضروريا أن تضاعف مصر من ديونها المـالية ••

وعلى سـبيل المثال فانه عنـدما قامت مصر بمقايضـة الأدوات الميكانيكية بالقطن ، أصبح المصريون معتمدين بصورة متزايدة على انتاج القطن • وعلى الرغم من خصوبة وادى النيل ، كان من المستحيل زيادة محصول القطن بالفعل زيادة محسوسة • فطوال عدة قرون لم يكن يزرع غير محصولين أو ثلاثة محاصيل فى وادى النيل • وحتى الأراضى التى أخصبها خزان أسوان لم تعوض عن النمو فى السكان وناهيك عن فاتورة مصر المتصاعدة للاستيراد • وفى الخمسين عاما التى سبقت عام ١٩٦٨ ، زاد انتاج القطن السنوى بحوالى عشرة فى المائة • وفى الفترة ما بين حرب سيناء عام ١٩٥٦ وبين حزب يونيو عام ١٩٦٧ زادت واردات القمح وحدها بنسبة ألف فى المائة • وعلى رأس النظام الاجتماعى العتيق والانتاج الزراعى المتسم بالفوضى والمحدود بشدة والانفاق المتزايد على الطعـام والواردات الصناعية ، كان هناك نفقات مصر الخاصـة بالأسلحة • وفى الاعوام السابقة على حرب يونيو • وصـل متوسط واردات مصر من الاسلحة الرئيسية الى حـوالى مائة مليون دولار سنويا وهو خمسة أضعاف الرقم الذى كانت عليه فى السنوات ما بين ١٩٥٠ ـــ ١٩٥٥ فلا عجب اذن فى أن الاقتصاد المصرى كان فى مأزق ••

وفى بداية الستينات كانت الامور على درجة من السوء مما أدى الى اندلاع أعمال الشغب بالمدن الكبرى فى مصر • واضطر ناصر لاتخاذ اجراءات صارمة فى محاولة غير مجدية للحد من التضخم وتلبية بعض المطالب المعقولة للعمال والفلاحين المصريين • لكن لم يكن بمقدوره أن يفعل الا القليل • فقد زاد العجز فى القمح حدة لدرجة أنه وصل الى ما يشبه المجاعة • واعتقد الامريكيون أنهم يستطيعون منع امدادات

القمح لمصر فى محاولة لاجباره على العودة الى المعسكر الغربى • (وكانوا قد أصبحوا يهتمون بنوع خاص بتورط مصر فى حرب اليمن) •• لكنهم لم ينجحوا الا فى دفع مصر أكثر الى مجال النفوذ السوفيتى • ولم يتمكن ناصر من أن يجد أى بديل غير أن يرفع راية الوحدة العربية مرة أخرى ، لانه أدرك أنه لا يمكن تحقيق الوحدة العربية الا فى وجـه التهديد الاجنبى •

وفى مايو عام ١٩٦٢ كتب ناصر مشروع ميثاق الجمهورية العربية المتحدة ممجدا فيه الشعب المصرى منشىء الحضارة ومعلنا دور مصر القيادى فى حركة القومية العربية • ولكى يميـز فلسفته عن فلسـفة السوريين أو العراقيين فانه وصفها لاول مرة ، بأنها « اشـتراكية علمية » •• وهو تعبير يذكرنا بألمانيا الشرقية • وأرجع جزءا كبيرا من المسئولية عن مشاكل مصر الى فشل القومية العربية ، وأعلن أن اسرائيل أداة « للامبريالية » الذين أرادوا بها أن تكون حاجزا يفصل المشرق العربى عن المغرب العربى ، وأن تمثل أيضا استنزافا دائما لطاقة الامة العربية ، وأن تحولها عن البنـاء الايجابى وهكذا فانه أخيرا وجـد عبد الناصر سببا مناسبا يبرر به ورطته ••

وفى نفس الوقت تقريبا أصبحت مصر متورطة فى الصراع الجارى فى اليمن • ويرجع ذلك التورط جزئيـا لعضوية اليمن فى الجمهورية العربية المتحدة وجزئيا للرغبـة فى تدريب الجيش المصرى الذى كان مسلحا تسليحا جيدا فى ذلك الحين ولكنه لم يكن قد تدرب على استخدام ذلك السلاح • ولكن أهم ما فى ذلك التورط انه كان اعلانا عن عداء مصر تجاه المملكة العربية السعودية وهى بلد كان كثير من العرب يصفونها وهم على حق فى ذلك بأنها أول المتعاملين مع أمريكا فى العالم العربى ••

وكانت المملكة العربية السعودية لديها مطلب حقيقى فى الزعامة العربية ، وكان ذلك تهديدا أكبر لحملة ناصر الجديدة • وفى حين أن السعودية كان عدد سكانها صغيرا نسبيا « ربما خمس سكان مصر — اذ لم يجروا احصاء أبدا فى البلاد » • الا أنها كانت تملك ثروة هائلة من أموال البترول • وكان من المحتمل أن يكون للسعوديين نفوذ بالغ ولكنهم كانوا ينفرون من مجرد سماع كلمة « تقدمى » وكانت الاشتراكية شيئا بغيضا تماما بالنسبة لهم • فقاموا بتأييد المؤسسة الملكية فى اليمن ،

بينما حاربت مصر فى جانب المتمردين الجمهوريين • وطال أجل الحرب وكلفت مصر مبالغ ضخمة من الأموال لم يكن بمقدورها تحملها ، ولكنها كانت اختبارا حاسما للقوة لم يكن بمقدور ناصر أن يرتد عنه • فلو أن الحظ حالفه لكانت معارضة ناصر العلنية للمملكة العربية السـعودية واسرائيل قد حققت له ثمار الوحدة التى حرمه السلام منها حتى ذلك الحين •

— ٢ —

السياسة هى التى تسبب الحرب ، وتمثل السياسة العقل المفكر والحرب هى مجرد اداة لهـا ، وليس العكس بصحيح ، والسبيل الوحيد الممكن فى الحرب هو اخضاع وجهة النظـر العسكرية لوجهة النظـر السياسية ..

من فون كلاوس فيز ، فى كتابه « عن الحرب »

كانت اسرائيل أيضا لها مشاكلها الخاصة ، ولبعض الوقت بعـد حرب سيناء كان كل شىء آمنا على حدودها • وسرعان ما أصبحت الغارة التى يتم القيام بها من حين لآخر على غزة غير ضرورية عندما أدرك الاسرائيليون ان قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة تؤدى واجبها وان الغارات المسلحة التى يقوم بها الفدائيون المسـلحون قد توقفت طواعية واختيارا • وما من شك فى أن ناصر رأى فى وجود الأمم المتحدة مبررا كافيا لعدم الهجوم على اسرائيل بأى سلاح أكثر قوة من الخطابة • وكانت الحدود الأردنية والسورية واللبنانية هادئة ان لم تكن آمنة تمـاما وحاولت اسرائيل أن تكرس نفسـها لمهام التنميـة الاقتصادية وعلى الرغم من الخلافات الكثيرة التى كانت قائمـة بين اسرائيل وجيرانها العرب الا أنهم كانوا يشتركون فى شىء آخـر هو وجود اتجاه بينهم جميعا نحو الأزمة الاقتصادية والانهيار السياسى ••

وكانت المهمة الكبيرة التى تواجه اسرائيل فى أعقاب حربها الكبيرة الثانية هى تنمية صحراء النقب • وتطلب ذلك مثله مثل مشاريع اسرائيلية أخرى انفاقا رأسماليا ضخما تمر عدة سنوات قبل أن تعود التنمية بعائد يعوضـه • وعلاوة على ذلك ظلت ميزانية الدفاع تشـكل البند الرئيسى فى انفاق الحكومة ويليها فى ذلك ميزانية التعليم ، وكان الانفاق فى أى من هذين المجالين لا يبشر بعائد سريع لموازنة الاستثمار الواسع

النطاق • ونتيجة لذلك عانت اسرائيل من عجز تجارى مستمر وحــاد ولم تتم مواجهته الا عن طريق برامج ملموسة للمعونة الخارجية ، والتعويضات الالمانية لضحايا الاضطهاد النازى والمساعدات الخيرية التى تأتى من قبل الصهيونيين والمتعاطفين مع الصهيونيين فى الخارج ••

وعلى الرغم من ذلك ، كان الموقف فى عام ١٩٦٢ سيئا لدرجة استوجبت اجراء تخفيض ملموس فى قيمة العملة • فتحسنت الأمــور لبعض الوقت حيث زاد احتياطى العملة الاجنبية ، وانخفض العجز التجارى انخفاضا ملموسا وارتفعت الأجور بدون أن يؤثر ذلك على مستوى العمالة • وحققت صناعة التشييد والانشاء والتعمير الحيوية ازدهارا طفيفا نتيجة للنمو الذى حدث فى المشروعات الصناعية ، ويرجع ذلك أيضا الى ــ حد ما ــ لارتفاع قصير الأمد فى الهجرة من عــام ١٩٦١ الى عــام ١٩٦٣ ••

وكان من بين مشاريع التعمير الكبرى مشروع مياه نهر الأردن الذى انبعث من جديد ، وميناء ايلات ، وخط السكة الحديد بين بير سبع وديمونا • والمفاعل النووى فى ديدونا وجميعها تعتبر جزءا من التنمية الشاملة لصحراء النقب • غير أن تخفيض قيمة العملة الاسرائيلية أدى الى رفع أسعار الواردات اللازمة لاستكمال هذه المشروعات ومشروعات كبيرة أخرى • وبدأ يحدث ارتفاع حلزونى تضخمى فى السعر • وفى عام ١٩٦٥ انتهى دفع التعويضات الالمانية الكبيرة ، وباستكمال مشروعات التعمير الرئيسية أصبح هناك عدد كبير من الأشخاص بدون عمل • ولم يتحسن الموقف نتيجة لانخفاض عام فى الاهتمام العالمى باسرائيل ونتيجة لانخفاض مفاجىء فى الهجرة فى عام ١٩٦٥ • وبحلول عام ١٩٦٦ كان ما يزيد عن ١٠٪ من قوة العمالة بدون عمل • وبلغ هذا الرقم قرابة ٢٠٪ فى مناطق التنميــة وبين العدد الملموس من اليهــود الآسيويين والأفريقيين الذين قدموا الى اسرائيل ، واستمرت الاسعار فى الارتفاع الصاروخى وتبعتها فى ذلك الاجور بزيادات وصلت الى ٢٥٪ ••

وكان طبيعيا أن تتعرض الحكومة « التى كان يرأسها فى ذلك الحين ليفى أشكول » لنقد شديد • وقرابة انتهاء عام ١٩٦٦ ، قدمت الحكومة خطة اقتصادية مدتها ثلاثة أعوام اقترحت فيها فرض اجراءات تقشفية فى محاولة لوضع الاقتصاد فى المسار الصحيح • وقال أشكول فى شرحه

للخطة ان « الانكماش له تأثير الهواء الطلق على ايقاظ الشعوب وجعله ينظر للاشياء بعيون مفتوحة » •• وفى غضون ستة أشهر من اعلان الخطة قام العمال العاطلون بأعمال شغب فى تل أبيب وحاصروا مبنى البلدية وقصفوه بالحجارة وغيرها من القذائف وفى غضون ثلاثة أشهر أخرى كانت اسرائيل مشتبكة فى الحرب ••

وبالطبع لا توجد صـــلة بسيطة أو مباشرة بين الأزمات الاقتصادية والحروب ولكن فى هـــذه الحالة كان هناك صـــلة فلقد خدمت حروب اسرائيل على الدوام عرضا نافعا هو مضاعفة اهتمام يهود الشتات وتأييدهم ، فاسرائيل لا يمكنها أن تعتمد على التأييد القلبى لليهود فى سائر أنحاء العالم الا عندما تكون على وشك أن يقضى عليها ••

انهم ، اذا شئت ، أصدقاء اسرائيل فى وقت الشدة • على أنه هناك صلة أكثر أهمية بين الأزمة الاقتصادية الخاصة بعام ١٩٦٦ — ١٩٦٧ وبين اندلاع حرب يونيو •• فالاعمال العدائية والنزاع المحدود يتحولان فى سهولة الى حرب عندما تتعرض الزعامة السياسية للخطر ، والشبه الكبير بين الطريق التى أحيا بها ناصر نجمه الآفل بالخطـــابة بالمناهضة لاسرائيل وبين أشكول والزعامة السياسية لاسرائيل حين وجدوا انه يمكن التخفيف من حدة التذمر الداخلى اذا تمت مواجهـــة العداء الخارجى بقوة وفى وحدة •

والشىء الغريب حقا ، ان الأزمة السياسية التى واجهها أشكول فى ربيع وصيف عام ١٩٦٧ كانت جذورها تمتد الى « فضيحة لافون » التى سبقت حرب سيناء بما يزيد عن عشرة أعوام • وكانت استقالة لافون الاجبارية فى عام ١٩٥٥ مؤشرا بعودة بن جوريون للحكومة • وكان لافون هو وزير الدفاع الذى اعتبر مسئولا عن عملية التخريب الفاشلة التى قام بها عملاء الجاسوسية الاسرائيلية فى مصر • وكانت هناك بعض الشكوك حول ما اذا كان يعرف حقيقة هذا الموضوع وبدا من المحتمل أن يكون مرتكبو الجريمة الحقيقيون رجال بن جوريون فى مؤسسة الدفاع الاسرائيلية قد جعلوا ضحية لهم ••

وفى آخر عام ١٩٦٠ ، زعم لافون انه اكتشف دليلا جديدا • يبرهن على براءته فى تلك المسألة • وربط استقالته السابقة باقتراحات كان قد قدمها لاعادة تشـــكيل قوات الدفاع الاسرائيلى ووزارتى الدفـــاع

والخارجية • وزعم لافون بنوع خاص كشف عن خلية من الفساد فى صفوف الرتب العالية لمؤسسة الدفاع الاسرائيلية وقال انه عندما سعى الى تدمير هـذه الخلية ، تم اصطناع الدليل لزعزعة الثقة فيه وابعاده عن منصبه ••

وفى نهاية الأمر شكلت لجنة من الوزراء للتحقيق فى مزاعم لافون• واستبعد بن جوريون قصة لافون وعارض بشدة تشكيل هذه اللجنة المسماه «باللجنةالسباعية» • وعندما وجدت اللجنة مايؤيد موقف لافون استقالبن جوريون مدعيا أن الحكومة التى صدقت على قرار اللجنة لم تكن كفئا لتقييم المسألة • وتمت الدعوة لانتخابات جديدة للكنيست فى عام ١٩٦١ • •

وفى أول الأمر بدت المسألة كما لو كانت أزمة حكومية أخرى لا أكثر • وعندما استبعدت اللجنة المركزية لحزب الماباى لافون من منصبه كسكرتير عام للهستدورت حتى يمكن أن يعود بن جوريون كرئيس للوزراء ، بدا ان هذا الشك قد تأكد • فالمسألة كانت مجرد تشاحن داخلى • وكان لافون على حق ، كان من المتعينتنحيته جانبا لضمان عدم مضايقة الحكم الاوتوقراطى الفعلى لبن جوريون وأنصاره قدر الامكان وتستمر الأمور بعد ذلك كما لو ان شيئا لم يحدث ويقرأ المواطنون الاسرائيليون صحفهم ، ويتمتمون بشىء عن السياسيين المنحرفين ويعودون بعد ذلك الى قراءة صفحة الرياضة •

وكان ذلك هو ما حدث بالضبط طوال عدة شهور قليلة • ولكن بما أن اسرائيل بدأت تغرق أولا فى المصاعب ثم فى الأزمات فان الثقة فى الحكومة بدأت تتضاءل • وفى عام ١٩٦٣ ، استقال بن جوريون مرة أخرى مشيرا « لأسباب شخصية » مثلما فعل فى عام ١٩٥٣ • وأوصى بن جوريون بأن يحل ليفى أشكول محله • وكان أشكول مستوطنا صهيونيا آخر قديما ذا معرفة واسعة — كالمعتاد — بحركة العمل الصهيونية ومنظماتها السياسية والدفاعية • الا أنه بالمقارنة ببن جوريون كان معتدلا • وخلال السنوات الأولى من قيام الدولة كان مسئولا عن انشاء صناعة الأسلحة فى اسرائيل ، الا أنه طوال احدى عشر عاما وحتى عام ١٩٦٣ كان وزيرا للمالية مختصا بالجوانب الايجابية لتنمية اسرائيل وليس بالجوانب السلبية لموقف البلاد تجاه جيرانها العرب •

وعندما واجه أشكول أكثر الفترات اضطرابا فى تطور اسرائيل منذ قيامها فانه لجـأ على نحو متزايد الى الحل الوسط ••

وأصـبحت شهرته باللجوء الى الطريق الوسـط شيئا أسطوريا تقريبا • وأصبحت القصص التى تهجو أشكول عملة شائعة • وعلى سبيل المثال ، قيل انه عندما ذهب أشكول الى مقهى وسئل عما اذا كان يريد احتساء شاى أم قهوة ، بأنه فكر قليلا ثم أجاب قائلا « نصف نصف » ••

وكان أسلوب قيادة أشكول بعيدا جدا عن أسلوب بن جوريون ، فقد كان بن جوريون رجلا عسكريا مؤمنا بالحكومة القوية • أما أشكول فلم ير مزية فى اخضاع متطلبات الحكومة المدنية لمطالب رجال الجيش • وكان يشعر بأنه اذا كان هناك فساد بين صفوف الذين يحتلون مناصب كبيرة فلابد من كشف ذلك علانية ولايجب التمويه عليه بهدف الحفاظ على مظهر التضامن والقوة•ولم يكن اهتمام بن جوريون بقضية لافون يتعلق بما هو صواب وماهو خطأ • فى تلك القضية ، ولكن على العكس فقد كان يحرص على أن يتم تجاوز أى انشقاق يحدث فى قوات الدفاع الاسرائيلى أو فى الحكومة ، أو كان يفضل رأب الصدع بالحماس العسكرى • ولم يكن يرى أن هناك ما يدعو لأن تكون قوات الدفاع الاسرائيلى مسئولة أمام الحكومة المدنية ، وفى الحقيقة فانه كان يعتبر ان مثل هـذا الموقف خطير لأنه كان ينظر للمؤسسة العسكرية على انها العمود الفقرى الحقيقى للمجتمع الاسرائيلى ••

ولهذا قام بن جوريون عام ١٩٦٤ بشن هجوم على أسـلوب معالجة أشكول لشئون الحكومة • وطالب بنوع خاص بأن يقوم أشكول بصـفته رئيسـا للوزراء ووزير الدفاع بتشـكيل لجنـة للتحقيق فى المعالجة الأخيرة لقضية لافون • ورفض أشكول ذلك قائلا بأن لجنة السبعة الاصلية والحكومة كانوا كفؤا تماما للحكم على سلوك أعضـاء مؤسسة الدفاع الاسرائيلى ، وطرح بن جوريون القضية على مؤتمر حزب الماباى عام ١٩٦٥ حيث فشل فى الفوز بأغلبية تدعم موقفـه • ولمـا كان موشى ديان رئيس الأركان السابق ووزير الزراعة يقف بجانبه ، دفع بن جوريون أنصاره للخروج من حزب الماباى ، وأقام حزب رافى المنافس « قائمة عمال اسرائيل » • فما كان من حزب الماباى الا أن امتزج حينئذ بيسار الوسط و « احـدوت هافودا » ليشـكل

ما يسمى « بتحالف » الحكومة فى عــام ١٩٦٥ • وسرعان ما جابهت التحالف المهام الصعبة الخاصة بوقف التدهور السريع لاقتصاد اسرائيل والتدهور السريع المماثل للامن على الحدود • وهى مجابهة كانت بمثابة اختيار حاسم لبراعة أشكول ونوعية زعامته •

وكان توتر العلاقات العربية الأسرائيليه قد ظهر مرة أخرى فى بداية عام ١٩٦٤ ، اذ أن مشروع مياه نهر الأردن الذى تم القيام به تحديا للدول العربية التى كانت مشتركة فى الاتصال بمنابع مياه النهر • قد أدى الى تعجيز قدر كبير من المعارضة الفعالة من جانب سوريا والأردن ولبنان • وفى شهر يناير من عام ١٩٦٤ انعقد فى القاهرة أول « مؤتمر قمة » لرؤساء الدول العربية • وكان البند الرئيسى فى المناقشة هو مشروع ميــاه نهر الاردن • وكانت اسرائيل قد استكملت بناء القناة الوطنية فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٣ • وفى ربيع عام ١٩٦٤ ، بدأت المياه فى التدفق من شمال البلاد لاستخدامها فى رى صحراء النقب ••

ولهذا المشروع تاريخ طويل صعب ، يعود الى عــام ١٩٥٣ • فبموجب مشروع أعده مبعوث أمريكى خاص فى عام ١٩٥٥ تم تخصيص نسبة معينة من المياه لكل من الاردن واسرائيل وسوريا ولبنان لاستخدامها فى أغراض الرى • ورفضت الدول العربية قبول هذا المشروع لانه كان ينطوى على اعتراف ضمنى باسرائيل غير أن اسرائيل مضت قدما فى تنفيذ برنامج للتعمير يستهدف تنفيذ المشروع من جانب واحد ••

واتفقت الدول العربيــة التى اجتمعت فى القــاهرة على اتخاذ اجراءات مضادة تستهدف تحويل منابع مياه نهر الاردن وبذلك تمنــع وصول الميــاه ذات الأهمية الحيوية الى اسرائيل • وبدأ العمل فى تحويل مياه النهر فى عام ١٩٦٥ ، فأخذت اسرائيل تنتهز فرصة زيادة الاحداث التى تقع على الحدود لتصعيد هجماتها المحمولة جدا على مواقع أعمال التحويل فى كل من سوريا ولبنــان ••

وفى الحقيقة فان الاشتباكات الخطيرة على الحدود كانت قد بدأت فى الزيادة بصورة مضطردة منذ بداية عام ١٩٦٠ عندما أحس اللاجئون الفلسطينيون بخيبة أمل نتيجة لفشل خطوات السلام • خاصة وان الضغط العربى الموحد ثبت ضعف فعاليته ••

وفى عام ١٩٦٠ قامت حملة الانتخابات الأمريكية « بين كينيدى ونيكسون » فى جو مشحون بالوعود الموالية للصهيونية بغية اجتذاب اصوات الناخبين • وبعد أن تقلد كينيدى السلطة مال الى استرضاء العرب لدرجة كبيرة • ومن المؤكد ، مع ذلك أن انعطاف أمريكا الأساسى تجاه اسرائيل « واتجاه الأنظمة العربية المحافظة فى الاردن والمملكة العربية السعودية » آخذ يزداد وضوحا • وفى عام ١٩٦٢ أصبحت أمريكا منغمسة ، على عكس تأكيداتها السابقة ، فى تزويد اسرائيل بأسلحة حديثة • ولم يكن لازمة الصواريخ الكوبية فى النصف الثانى من ذلك العام من أثر سوى تحديد وتأكيد مجالات النفوذ الأمريكية والسوفيتية • وفيما يتعلق بالعرب كان ذلك بمثابة دلالة أخرى على عدم رغبة أمريكا وعلى عدم قدرة روسيا على الضغط على اسرائيل واجبارها على تقديم أية تنازلات • وزاد اهتمام الفلسطينيين بدفع اسرائيل على قبول وضعهم « ككيان وطنى » ليس لهم الحق فى اعادة التوطين أو التعويض وحسب وانما لهم الحق أيضا فى أرض خاصة بهم ••

ومن الواضح ان اسرائيل لم تكن بمقدورها أبدا أن تقبل ذلك ، ففى ظل هذه الظروف ما كان يمكن أن يترتب على ذلك سوى خسارة أرض اسرائيلية • وبدأ الفلسطينيون يشعرون مرة أخرى بأن وسيلتهم الوحيدة الممكنة للاقناع هى الهجوم • فحتى لو لم يكونوا على درجة كافية من القوة لكى تذعن اسرائيل لمطلبهم ، فبمقدورهم على الأقل اجبار الدول العربية على التدخل نتيجة للانتقام الاسرائيلى الذى استفزوها اليه فقد كان أمرا حيويا ، كما أعلنت فيما بعد منظمة فتح لرجال المقاومة، تجسيد العدو « اسرائيل » أمام الجماهير •

وكانت سوريا محورا لجانب كبير من هذا النشاط • ووقع كثير من حوادث الحدود فى أشهر الربيع والصيف وعندما بدأ المستوطنون الاسرائيليون زراعتهم الموسمية للاراضى المحيطة بالجليل • وكان مثل هؤلاء المستوطنين يحملون فى العادة البنادق بصورة علنية على جراراتهم• وكثير ما كانت الجرارات تضل طريقها ، ومن الممكن أن يكون ذلك من قبيل الصدفة ، وتتوغل فى الأرض السورية • وعلى أية حال فان العرب كانوا لا يزالون يصرون على أن معظم المنطقة المحيطة بالشاطىء الشرقى لبحيرة الجليل والمنطقة الواقعة فى أقصى الشمال شرقى مدينة كريات

شـيمونة الجديدة « بالقـرب من أرض مستنقع الحـولة ، الذى تم استصلاحه » هى مناطق منزوعة السلاح • وحمل أسلحة فى هـذه المناطق يمكن تفسيره ببساطة على أنه استفزاز ••

وفى عام ١٩٦٥ ، فى أعقاب اجتماع قمة عربى آخر فى الاسكندرية انتقل الموقف الى مرحلة أخرى ، وأقيمت قيادة عسكرية عربية موحدة تحت قيادة المشير المصرى عبد الحكيم عامر • وألح المصريون أيضـا على تشكيل منظمة أم للفلسطينيين • وأسست هذه المنظمة ، وهى منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٦٤ ، وجعلوا مقر قيادتها فى غزة ، وكان الرئيس هو سفير المملكة العربية السعودية السابق لدى الأمم المتحدة ، أحمد الشقيرى المعروف ••

كان أهم ما تعنى به مصر فى تلك المرحلة هو اعادة بنـاء حركة القومية العربية تحت الزعامة المصرية • وكان الهدف من منظمة التحرير الفلسطينية أن تكون نواة لدولة عربية فلسطينية مستقلة • وتم تقسيم الجناح العسكرى ـ جيش التحرير الفلسطينى ـ الى وحدات تحت القيادة المستقلة للاركان العامة المصرية والسورية والعَراقية • وبالتالى ، لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية مشتركة بصورة فعالة فى عمليات لرجال المقاومة ضد اسرائيل ، وبقيت الحدود بين مصر واسرائيل هادئة حتى عـام ١٩٦٧ ••

وتحول الجانب العسكرى للنضال الفلسطينى الى جماعة فتـح ، وهى منظمة سرية تم تشكيلها فى عام ١٩٥٨ تحت زعامة ياسر عرفات • وفى أخريات عام ١٩٦٤ ، أجرى عرفات محادثات منفصلة مع حـكومة البعث فى سوريا وبمساعدتها بدأ فى تنظيم القتال ضد اسرائيل • وأدى النجاح النسبى الذى أحرزته العمليات التى قامت بها جماعة فتح الى دحض خطابة ناصر التى كانت تتجنب بحذر تحويل حربه الدعائية الى حرب سـاخنة ••

وقال عبد الناصر فى مارس عام ١٩٦٥ : « انهم يقولون اطردوا قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة ! » •• « فلنفترض اننا فعلنا ذلك ، أليس من الضرورى أن تكون لدينا خطة ؟ •• واذا حدث عدوان اسرائيلى ضد سوريا ، فهل سأهاجم اسرائيل ؟ •• حينـذاك تكون

اسرائيل هى التى تقرر المعركة بالنسبة الى • وما عليها الا أن تهاجم جرارا أو اثنين لاجبارى على التحرك •• فهل هذه طريقة حكيمة ؟ •• ان علينا أن نقرر المعركة » ••

على أن السوريين لم يكونوا ليتركوا حجج ناصر تثنيهم عن محاولتهم تزعم العالم العربى • وفى فبراير عام ١٩٦٦ حدث انقلاب بعثى موال للسوفييت ضد الحكومة البعثية اليمينية • وفى حين تمت بعض التغييرات الا أن حكومة البعث الجديدة ورثت رغبة سالفتها فى تبنى القضية الفلسطينية بصورة أكثر قوة عن أى دولة عربية أخرى • فشرع الرئيس السورى الجديد الدكتور نور الدين الأتاسى فى الدعوة على الفور تقريبا الى « حرب تحرير شعبية » ضد اسرائيل • وكانت هذه الصيحة ، سلاحا ذا حدين ففى حين أعلن الأتاسى المساندة الكاملة للنضال الفلسطينى ، الا أن الشكل الخاص لصياغته لم يلزمه بتقديم قوات سورية نظامية لقضية التحرير •

وفى الحقيقة ، فان علاقات سوريا التى تحسنت مع الاتحاد السوفيتى المؤيد لعبد الناصر ربما تكون قد أدت الى وضع قيد رادع لاطماعهم العسكرية ••

فمن المستبعد ان يكون الاتحاد السوفيتى قد سعى الى تفجير حرب فى الشرق الأوسط ، خاصة وان الانقلاب السورى كان يعنى أن موطىء قدمه فى المنطقة قد تحسن • الا ان محاولات السوفييت تحقيق مصالحة بين سوريا ومصر كان من شأنها دون شك أن تؤدى الى تضخيم فرص الحرب ••

وفى هذا الوقت كان ناصر مازال يحاول تجنب مسألة الحرب • فمن ناحية كان القتال فى اليمن يسير على غير ما تشتهيه نفسه ، وأصبح يشكل استنزافا حادا بالنسبة لاقتصاد مصر • وفشل بصورة واضحة فى تدعيم مطلب ناصر الخاص بالزعامة العربية • وكان من الممكن أن يؤدى عجزه عن الاتفاق مع السعوديين الى كارثة • فلم تكن لديه الرغبة أو الامكانيات التى تؤهله للتورط فى حرب أخرى • ومن ناحية أخرى ، بدأ السعوديون — من منطق التعامل مع ناصر بنفس لعبته — السعى الحثيث الى الزعامة فى المنطقة بالدعوة الى خلق حركة اسلامية جامعة • وكان ذلك من شأنه ان يشمل دولا اسلامية غير عربية مثل

ايران وتركيا ودولا اسلامية عربية مثل الأردن والمملكة العربية نفسها • ووجود هذه الدول الموالية لأمريكا كان من شأنه أن يفوق كثيرا نفوذ حفنة من الدول الضعيفة الموالية للسوفييت • وردا على الضغط المتزايد الذى تمارسه سوريا قال ناصر بأن العمل العسكرى سيكون غير فعال مالم تستطع جيوش دولة عربية ما عبور أراضى دول عربية أخرى • ورفض حسين حتى مجرد النظر فى منح مثل هذا التصريح ــ الذى كان يمكن أن يودى بنظام حكمه ــ فبدأ السوريون يثيرون ضجة عدائية ضد الأردن ، واما ناصر الذى وجد نفسه يعزف على نغمة الوحدة العربية فى مواجهة التفكك العربى لصلحته الشخصية ، فانه وافق على التوقيع على ميثاق للدفاع المتبادل مع سوريا ••

وبعد ذلك بتسعة أيام فى ١٣ نوفمبر من عام ١٩٦٦ ، قامت اسرائيل بتصعيد أكبر عملية انتقامية لها حتى الآن • ومن العجيب ان الهدف لم يكن فى سوريا وانما كان فى الضفة الغربية لنهر الأردن فى منطقة ليست بعيدة عن صحراء النقب حيث تم تدمير قرية الساهو فى حقيقة الأمر نتيجة لعملية برية جوية مشتركة اشتركت فيها الدبابات والطائرات • وفى ظاهر الأمر كان الهدف من هذه العملية هو تدمير قاعدة نشطة لرجال المقاومة ، وقد ساقوا الحجج مع ان اسرائيل لم تقم بتصعيد عملية مماثلة فى سوريا لانه كان من المحتمل ــ اذا ما وضعنا فى الاعتبار الأرض السورية ــ ان يقود مثل هذا الهجوم القوات الاسرائيلية الى مشارف دمشق • ولكن الأرجح هو ان اسرائيل أرادت ان تثنى عزم الأردن عن الدخول فى ميثاق الدفاع الذى كان قد تم التوقيع عليه مؤخرا بين سوريا ومصر • فعلى الرغم من عزم بن جوريون الذى أعلن عنه قبل ذلك بعدة سنوات وهو انه يتعين على اسرائيل ان يكون بمقدورها تحدى كافة جيرانها العرب مرة واحدة ، الا ان وقوع هجوم ذى ثلاث شعب على اسرائيل والاستفادة بالسلاح العربى الذى طرأ عليه تحسن شاسع المدى كان ما يزال تهديدا خطيرا لها ••

الا ان الغارة التى تم القيام بها على قرية الساهو ، جاءت أبعد ما تكون عن ارهاب حسين بل ودفعته الى التورط والتشدد فى موقفه ، وذلك ان ناصر وكما كان متوقعا سارع الى اثارة ذكريات حرب عام ١٩٤٨ « وطعنة عبد الله فى الظهر » • فدخل حسين معه فى مناظرة

وهاجم مصر هجوما واضحا لتخفيها وراء قوات الطوارىء الدولية ٠ فرد عليه عبد الناصر بالسخرية من « دمية الولايات المتحدة » ٠ وأعلن ان قوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة ليست الا قوة رمزية وليس بمقدورها أن تفعل شيئا لوقف تحركات القوات المصرية ٠ واستمرت حرب الكلمات ٠ وطلبت سوريا أن يبرهن عبد الناصر على تأكيداته بشأن قوة الطوارىء ٠ وتعرض ناصر لهجوم من قبل اليمين واليسار ٠ وبدأت تفلت آخر فرصة أمامه لتحقيق الحلم الذى كان يصبو اليه ألا وهو تحقيق وحدة عربية تحت الزعامة المصرية ٠٠

وفى بداية عام ١٩٦٧ كانت هناك حرب حدود فعليـــة دائرة بين سوريا واسرائيل ٠ ففى الربيع جاء المستوطنون الاسرائيليون كالعادة للزراعة وكانوا يحملون دون شـــك أسلحة صـــغيرة ضـــمن أدواتهم الزراعية ٠ ويبدو انه فى يوم ٧ ابريل فتحت احدى بطاريات المدفعية السورية النيران من مرتفعات الجولان على بعض الجرارات الاسرائيلية ٠ فكان ذلك نذيرا بنشوب معركة جوية كبيرة ٠ وحلقت طائرات الميراج الاسرائيلية فوق دمشق ، واعترف حتى السوريون أنفسهم بأنهم فقدوا أربع طائرات ميج ٠ فكان ذلك الاشتباك ووفقا لأية حسابات ، صداما هاما بين قوات الطرفين وأثارت سوريا ، ومعها الحق ، ميثاق الدفاع المتبـــادل مع مصر ٠٠

ويبدو أن الروس وجدوا ان الموقف قابل للغاية للانفجار ، ومع تصاعد النزاع زاد احتمال أن يفقدوا ماء وجههم شيئا فشيئا ، فأسلحتهم كانت تدمر فى سهولة مزعجة ٠ وتوترت علاقاتهم مع سوريا ومصر نتيجة لعجزهم الواضح عن توحيد البلدين ٠ وكانت سمعتهم كقوة عالمية فى خطر من أن تلحقها ضربة قاضية نتيجة لعجزهم عن حماية حلفائهم ٠ وكانت سوريا هى مصدر الازعاج الاكبر بالنسبة لهم ٠ وعلى الرغم من استعراض القوة العدوانى للزعامة السورية الا أن موقفهم لم يكن آمنا بالمرة ٠ فالشعور الشعبى كان آخذا فى الارتفاع ٠ وكان هناك خطر دائم من أن تقوم جماعات ساخطة بانتهاز فرصة الغارات العسكرية التى تقوم بها اسرائيل لاثارة تمرد علنى ٠ ثم ان مواقف حزب البعث كانت كلها تهتز نتيجة للطبيعة المعقدة والمتطرفة « لحرب الحدود » ٠٠ ولقـــد اندلعت بالفعل أعمال الشغب فى دمشق فى الأسبوع الاول من شهر مايو بايماء من تحالف شرير مكون من كبار التجار وملاك الأراضى والزعماء

الدينيين • ووجهت النداءات للقيام باضراب عام ، وقام الجنود والعمال المسلحون بدوريات فى شوارع العاصمة وغيرها من المدن السورية الكبيرة ••

فقرر الروس على ما يبدو أن لا خيار أمامهم ، باستثناء التدخل المباشر ، غير خلق ذريعة لمصر وسوريا لتسوية خلافاتهما • وذلك على أى حال يبدو أنه هو التفسير المنطقى الوحيد للدور الذى قام به الاتحاد السوفيتى فى حادث غريب وقع فى الاسبوع الثانى من شهر مايو عام ١٩٦٧ • ففى ذلك الوقت ، كان من الواضح انه تم ابلاغ ناصر بوجود احتشاد للقوات الاسرائيلية بالقرب من الحدود السورية بما ينطوى عليه ذلك من دلالة وهى ان اسرائيل كانت تستعد لغزو سوريا فى غضون عدة أيام قليلة • ويبدوا ان مصدر المعلومات كان هو المخابرات السوفيتية ، وذلك على الرغم من أنه ليس هناك دليل على أن تلك المعلومات كانت دقيقة • واتهم الاتحاد السوفيتى اسرائيل بحشد مثل تلك الحشود للقوات فى مناسبات أخرى فى الماضى القريب • وفى هذه المرة لم تؤخذ الاتهامات على انها مجرد دعاية وانما أخذت على انها بمثابة ضغط مباشر ••

ومهما يكن دور هذه المعلومات الزائفة فان عبد الناصر أصدر يوم ١٣ من مايو أول قرار له من بين عدة قرارات مصيرية وهو أن يرسل الى سيناء فى نفس يوم الاحتفال باستقلال اسرائيل كتيبة كبيرة من الجنود دونما سرية أو ذريعة اذ أن القوات ستسافر على مرأى العين فى الشوارع المكشوفة فى القاهرة • وهذا فى حد ذاته من شأنه أن يذكر تذكيرا قويا بالقوة المصرية • فلربما أعاد الاسرائيليون التفكير قبل أن يكرروا تهديداتهم التى أعربوا عنها مؤخرا بالانتقام من اغارات رجال المقاومة ، فقد كان من الواضح أن الغارات « ومعظمها من صنع قوات فتح » كانت تزعج الاسرائيليين • فأقل ما يحصل عليه عبد الناصر هو انه كان سيشترك فى بعض أمجاد الفلسطينيين • وغاية ما يتوصل اليه ، فهى أنه ربما يثير الفزع فى نفوس الاسرائيليين ويدفعهم الى الصمت ، ان لم يكن للاذعان الفعلى ••

وبمجرد أن وصلت القوات المصرية الى سيناء فانه كان عليها أن تقوم باحتلال مناطق الحدود وشرم الشيخ • ولم يكن هناك ما يدعو

لمثل هذه المناورة العلنية لو انها كانت ستتوقف قبل بلوغ المواقع التى تحتلها قوات الطوارىء الدولية ، متى احتلت القوات المصرية مواقع قوة الطوارىء فان تلك القوات نفسها كانت ستضطر للانسحاب كلية ، ولم يكن اتفاق عبد الناصر مع همرشولد يسمح بأى احتمال آخر ، ولابد ان ذلك كان واضحا تقريبا ، ولو لم تذهب المناورة الى ما هو أبعد من ذلك لأدت الى تحقيق أهداف ناصر المحدودة ، لكن الشىء الذى لم يضعه ناصر فى الاعتبار هو استجابة العالم العربى لهذه الاجراءات التجريبية ، فما كادت القوات المصرية تبدأ فى التحرك حتى بدأ التهليل والتكبير ، وفى غضون أيام كانت صيحة العرب بالموافقة تصم الآذان — فقد جاء الهتاف من جميع الجوانب ، ثم ان عبد الناصر وجد مبررا لان ينقل قواته المرهقة من الوضع المعقد فى اليمن ويرسلها الى سيناء كتعزيزات ، وكان الشعور بالقوة يبعث على الانتعاش والانطلاق ، وبدأت العقبات تذوب فى وجه المسيرة المصرية ، وفى يوم ٢٢ مايو قرر ناصر ، ولدهشة جميع أصدقائه ومستشاريه ، اعادة فرض الحصار على خليج العقبة ، فكان ذلك القرار مؤديا حتما الى نشوب الحرب ..

وفجأة أصبحت الوحدة العربية حقيقة ماثلة : فاعترفت حتى الأردن والمملكة العربية السعودية بزعامة ناصر .. وحقق ناصر نصرا شهيرا بمجرد ان رفع أصبعه .. وبدا كما لو كانت حرب سيناء لم تحدث أبدا ، وهرع الدبلوماسيون الأمريكيون والسوفييت كل الى تزويد حليفه بالتشجيع الممتزج بالحذر .. وكانت النصيحة التى يقدمها كل شخص هى « لا تكن البادىء بالقتال » لان أحدا لم يكن يريد الحرب .. حتى ولا عبد الناصر الا أنه فى الوقت الذى اقترب فيه شهر مايو من نهايته ، دون أن يتحرك الاسرائيليون اكتشف الرئيس المصرى ناصر الذى كان قد أسكرته نشوة ظهوره المفاجىء من أغوار اليأس ، حياة جديدة فى الخطابة البلاغية القديمة ، وقال فى حديث أدلى به يوم ٢٩ مايو من عام ١٩٦٧ « اننا على استعداد الان لمعالجة قضية فلسطين برمتها » كما لو كان يملى شروطا على اسرائيل التى هزمها بالفعل وكان فى قرارة نفسه يصلى لكيلا تحارب اسرائيل والا ينخسها أحد للقيام بتوجيه الضربة الأولى على الرغم من انه ينخسها هو باستمرار ..

ومضت الأيام ولم تحدث أى ضربة ، فاعلن عبد الناصر وهو

يشعر بالنصر قائلا « هذه هى القوة العربية » • لكن كان فى ذلك أيضا ألم الانتظار ، فاسرائيل لن تسلم بدون قتال ، وهو يعلم ذلك ••

وبدأ عبد الناصر يفكر مرة أخرى • وأرسل المبعوثين الى امريكا • وكان الروس يعانون من نوبة هيستيريا • وحتى الآن لم يقم الاسرائيليون بأى تحرك ••

وكان لابد ان ينفجر شىء ما فى القريب العاجل • وفى اسرائيل عقدت الوزارة اجتماعات تتسم بالارهاق والتشنج ، فالتهديد كان حقيقيا بدرجة كافية كما كان المبرر قويا بدرجة كافية وكانت البلاد المتحدة أيضا بدرجـــة كافية • الا ان القيادة السياسية كانت فى حالة فوضى • واتجهوا للولايات المتحدة عسى أن تقدم لهم مساعدة أو ربما حلا • وقام ابا ايبان وزير الخارجية المعتدل بزيارة كل من لندن وباريس وواشنطون لمناقشة قضية اسرائيل • الا انه فى الوقت الذى بدأت فيه حكومته فى الداخل تشعر بانزعاج تجاه احتمال حدوث غزو مصرى ، لم يؤكد ابا ايبان ، لعدة أسباب ، الا على الحصار المصرى ••

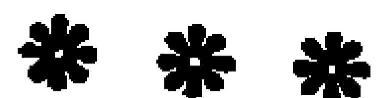
ورأى الامريكيون ان امامهم اختيارين : اما ان يطلقوا العنان لاسرائيل ، أو يقوموا بأنفسهم بفتح خليج العقبة باسم اسرائيل • ففضلوا الاختيار الثانى ، الا انهم طالبوا بوقت للتفاوض• وكان الوقت هو الشىء الوحيد غير المتاح للاسرائيليين فادراكهم لوجود العرب على حدودهم كان آخذا فى الازدياد ، لكن القيام بعملية تعبئة طويلة سيكون أمرا يؤدى الى الشلل اقتصاديا وهو هزيمة ثانية يتم اضافتها الى اعادة فرض الحصار • وبعض العرب ، مثل أحمد الشقيرى « وهو ابن داعرة حقيقى كما وصفه أحد الديبلوماسيين الروس فيما بعد » •• أخذوا يهرولون هنا وهناك وقد وانتهم القوة آخر الأمر وبذلوا الوعود باكتساح الدولة اليهودية وشعبها من المنطقة • فلو طال انتظـــار اسرائيل ربما أصبح صوت الشقيرى أكثر ارتفاعا ، وربما بدا أكثر اغراء ، وقد تزداد شجاعة ناصر ويزداد عزما وتصميما ، وهو يرقب اسرائيل تتردد وتتردد وتسلم فى نهاية الأمر • فلم يكن بوسع اسرائيل ان تسمح بضعف واحد • لكن حكومة اشكول لم تكن ثابتة العزم ، وقال بعض رفاق اشكول بان التحالف الحكومى لايحظى باحترام قوات الدفاع الاسرائيلى • وكان

من الممكن ان تؤدى النزاعات الطائفية الى تصدع صفوف الشعب فى حين ان اسرائيل كانت بحاجة لان تكون متحدة تماما فى تلك اللحظة من لحظات الاختيار الاسمى • وتصاعد الضغط الداخلى من أجل ان يتخلى اشكول عن منصبه كوزير الدفاع ويوافق على تشكيل حكومة وطنية تتصدى للتهديد بغزو البلاد وليس للحصار فقط ••

وبدا للكثيرين ان موشى ديان الذى حقق النصر فى عام ١٩٥٦ هو الاختيار المنطقى لمنصب وزير الدفاع ، ولكن اشكول رفض الفكرة رفضا مطلقا « وكذلك فعلت جولدا مائير » ، فهو كان مستعدا لان يوافق على حكومة وحدةقومية تضمأعضاء من رافى جحال «كتلة مناحمبيجيناليمينية المكونة من حيروت والأحرار » ، ومستعدا لان يعهد بوزارة الدفاع لمرشح تتفق عليه كلمة الجميع « وكان يفضل ايجال آلون » ، بل وكان مستعدا لقبول ديان فى الحكومة ولان يعطيه أى منصب أو يجعله رئيسا للاركان ولكن ليس وزارة الدفاع ورفض ديان ان يساومه أحد أو ان يقبل الحلول الوسط فازدادت الازمة عمقا وأخذ الرأى العام الاسرائيلى « الذى يمكن ان يقال عنه انه رأى عام معتدل » أخذ يزداد تحفزا ، ولكن اشكول لم يستطع ان يفعل شيئا ، فالازمة السياسية لم تكن تتيح له ايجاد حل للخطر العربى ، وخطر الحرب لم يكن يتيح له حلا مقبولا للأزمة السياسية • وهكذا فان الحلقة الضعيفة الوحيدة فى السلسلة التى كانت تربط الشعب الاسرائيلى بأساسه العسكرى كانت هى رفض أشكول العنيد اخضاع الأمور السياسية للارادة العسكرية ولكن الضغط ظل يتزايد ••

وأحسن العرب أيضا بهذا الضغط ، وكان الملك حسين ملك الأردن والعدو الرئيسى لسوريا ومصر ، هو الذى أحس به كثيرا • فلقد ظل ينتظر أسبوعا ان تهاجم اسرائيل مصر ، فلما يحدث هجوم شك فى ان اسرائيل ، ربما كانت أضعف مما يظن • وفى صبيحة الحادى والثلاثين من مارس استقل حسين الطائرة ، ولم يكن قد مضى على سحبه لسفيره فى القاهرة سوى بضعة أيام من المطار الملكى وغادر عمان متجها صوب الجنوب ثم الى الشرق ، وحال وصوله الى القاهرة شق طـريقه الى اجتماع مع عبد الناصر حيث وقع الرجلان ميثاقا للدفاع المتبادل وطار حسين عائدا الى الأردن بعد أن أقدم ، وهكذا كان يظن ، على حركة

لا معنى لها كمظهر من مظاهر التضامن العربى وعند هبوطه من الطائرة التفت الى أحد رجاله مبديا له ملاحظته قائلا « اننى اليوم انتهيت من التأمين على حياتى » ، ولقد كان قسط التأمين مرتفعا . فمصر وسوريا والأردن معا يمثلون خطرا كبيرا جدا على اسرائيل . ولذلك فان أشكول رضخ فى اليوم التالى وأصبح ديان وزيرا للدفاع حيث شرع من فوره فى خطط الحملة التى كانت قوات الدفـاع الاسرائيلية قد محصتهـا واتقنتها فيما يزيد على عشر سنوات من السـلام الذى لم يتعكر صفوه الا قليلا ..



الفصـــل الثامن

طائرات الميراج فوق بيت لحم

حرب الأيام الســـتة ـــ يونيو ١٩٦٧

انه باغلاق خليج العقبة ، أصبح امـــام اسرائيل اختياران سيؤدى أيهما الى تحطيمها ، فاما ان تؤدى بها المقاطعة العربية العسكرية والاقتصادية الى الموت أو انها ستهلك من جراء نيران القوات العربية التى تحيط بهـــا من الجنوب والشمال والشرق .

اذاعة القاهرة فى ٣٠ مايو ١٩٦٧

ويكمن وراء الصلف والغرور احساس مكتوم لدى اسرائيل بالذنب تجاه العرب وشعور بأن العرب لن ينسوا أو يصفحوا عن الضربات التى وجهتها اسرائيل اليهم والتى تتمثل فى الاستيلاء على أراضيهم وما آل اليه قدر مليون أو ما يزيد من اللاجئين ـــ والانتصارات وعمليات الاذلال العسكرية المتكررة ..

ان الغالبية العظمى من الاسرائيليين وقد دفعتهم حالة نصف الجنون التى أصـــابتهم نتيجة لخوفهم من انتقام العرب ، قد سلموا بالنظرية التى تستمد منها الحكومة سياستها ، وهى النظرية القـــائلة بأن أمن اسرائيل يتم بشن أعمال حربية من آن لآخر والتى من شأنها ان تعيد الدول العربية الى حالة من العجز كلما قضت عدة سنوات قليلة ..

اسحاق دوتيشر « حرب الأيام الستة »
نيويورك ســـنة ١٩٦٨

ولقد ظل عبد الناصر لعدة سنوات يحذر زماءه العرب بأنه ينبغى عليهم أن ينتظروا وأن مصر ليست بالقوة الكافية التى تمكنها من الانتقام

لهزيمة ١٩٥٦ — أو أن تقضى للعار الذى لحقها فى ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ولكن هذا التحذير قد خفت بعد تصاعد أزمة مايو ١٩٦٧ ، وسكت تماما نتيجة للصخب المتزايد الذى صاحب الآمال العربية • ويبدو أن عبدالناصر — وهو يرقب جيشه يتحرك عبر القنال وفى سيناء كان تحت تأثير مخدر من القوة الظاهرية الموجودة تحت امرته وتحت تصرف مصر • فلربما أن سنوات الانتصار قد انقضت وربما كانت هذه هى اللحظة الحاسمة •

ولا يبدو أنه كان يتوقع هزيمة عسكرية لاسرائيل وعلى الرغم من تصريحات الشقيرى الهمجية حول القاء اليهود فى البحر ، فقد توقع قلة من المسئولين والجنود العرب أن تقهر اسرائيل وتموت • ولكن عبدالناصر كان قد بدأ فى الاعتقاد بأن الجيش الاسرائيلى يمكن صده • وهذا فى حد ذاته طالما أنه يعنى استمرار اغلاق مضايق تيران الا أنه قد يعد بمثابة انتصار كاف • فقد اعتقد اعتقادا خاطئا ومصيريا بأن الجيش المصرى له القدرة الكافية على تحقيق مثل هذا الهدف المحدود •

وقد كانت هناك أسس لمثل ذلك الأمل فقد زادت القوة الرمزية للجيش بشكل كبير فى غضون احد عشر عاما منذ حملة سيناء • وهم قد تسلموا كل سنة ما يربو على بليون دولار من العتاد العسكرى من الاتحاد السوفيتى ، وتحقق مصر الآن مستوى عال من التفوق على العدو تصل نسبته فى مجال الدبابات (من ١٠٠ر١ دبابة — ٨٠٠ دبابة) وفى مجال الطائرات التى تفوق سرعتها سرعة الصوت سوبر سونتيك (من ٢٠٥ — ٩٢ طائرة) •

ولقد كان التفوق فى مجال المدفعية المقطورة وذاتية الحركة تفوقا أعظم • وأن ما يثير الدهشة هو تخلف المصريين فى القوى البشرية فقط • فان ٠٠٠ر١٠٠ شخص كانوا سيحاربون فى سيناء — يشكلون ٤٠٪ من العدد الاجمالى من العرب — وهذا العدد فى حد ذاته يناظره بالتقريب ربع مليون شخص من القوات فى اسرائيل • وكان الاعتقاد السائد المشوب بالأمل فى القاهرة أن وفرة العتاد الحربى الحديث المتوفر للجيش المصرى يضارعها بنهج حديث لاساليب الحرب • كما وأن كبار الضباط قد تمرسوا بالحروب التى دارت فى الاعوام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، ١٩٥٦ وفى حرب اليمن ، وتلقوا تعليما سوفيتيا على قدر كبير من الأهمية •

ومن المفروض أنهم قد تعلموا الكثير وفى حقيقة الأمر فان بعضهم قد تعلم الكثير بالفعل • ولكن لسوء الحظ كان كل ذلك فى المجال النظرى ولاحت علامة استفهام كبيرة عن قدرة الجيش المصرى على تحويل خبرته حديثة العهد بالتخطيط الى الناحية العملية فى ساحة المعركة وفى أيام الاندفاع من مايو ١٩٦٧ كان الاعتقاد السائد هو أن الجيش معظمه سيثبت عصريته وليس الخوف من ارتداد الطبقة المختارة من الضباط الى الاسلوب الاقطاعى • وحتى على أسوأ الفروض فان المهام غير الطموحة التى عهد بها الى الجيش كانت بالتأكيد فى متناول اليد • وقد كان هناك موقعان دفاعيان حصينان منيعان وهما (رفح ـ العريش) وأم قاطف وأبو عجيلة يسدان الطرق الرئيسية عبر سيناء بينما كان من المتوقع شن هجمة على جنوبى النقب التى ظلت بدون دفاع • فاذا استطاع الاسرائيليون التغلب على أحد المواقع الدفاعية ، أو كليهما فسيواجهون بسرعة بهجمة مضادة ويهزمون بواسطة النخبة الممتازة بين الجيش المصرى وهى الفرقة الرابعة المدرعة والسلاح الجوى المصرى القوى • وأما احتمال وقوع كارثة فكان غير وارد • على الاطلاق تقريبا ولقد كان كل ذلك ، كما أثبتت الاحداث فى سرعة ضربا من الوهم • وذلك لأن التحسن الذى طرأ على الجيش المصرى مثله فى ذلك مثل التحسن الذى طرأ على المجتمع المصرى الذى كان انعكاسا له ، هذا التحسن لم يكن قد بشر به السلم الاجتماعى بعد • وهذا ليس نقدا لعبد الناصر أو تقليلا من شأن الخطوات التى اتخذت منذ الاطاحة بالملك فاروق والبريطانيين • فلم يختفى الاقطاع والاستعمار بين عشية وضحاها ، فان مصر كانت ولا تزال مجتمعا ممزقا والاتصالات بين مختلف الطبقات، وفى الجيش كما فى المجتمع كانت ضعيفة للغاية •

وانه لم يتم اختبار الأسلحة رغم كونها فى الغالب أكثر تعقيدا من مثيلتها التى لدى الاسرائيليين ـ نظرا لسهولة استخدامها سواء فيما يتعلق بالرجال الذين يستخدمونها أو بالنسبة للأرض التى تستخدم فيها • وقد وصل معظمها خلال السنتين اللتين سبقتا الحرب مباشرة ، وبذلك لم يكن هناك فسحة من الوقت الا فسحة قليلة جدا للرجال الذين يتمتعون بحضارة ما قبل التكنولوجيا لكى يتعودوا على تشغيلها وصيانتها وبدون الصيانة المناسبة أصبحت المعدات أقل كفاءة ومن ثم أكثر صعوبة عند التشغيل • ويعد النقص فى الاتصال الاجتماعى أمرا أكثر حساسية

ويقبع وراء كافة مظاهر الاحباط التى أصابت الجيش المصرى عام ١٩٦٧ ولك أن تتصور جيشا مثله مثل عربة سكة حديد مقسمة الى أجزاء مستقلة بينما فى العربة التى يستقلها الاسرائيليون يتحرك الضباط والجنود بحرية من جزء الى آخر يتحدثون اللغة الاساسية نفسها ويقيمون فيما بينهم مناقشة مشاكل الاشتراك فى الحرب ، أما فى الجانب المصرى من العربة ، فينجو الضباط الى سجن أنفسهم فى القسم الخاص بهم والذى ينطق بالرفاهية نسبيا • وهناك كانوا يقومون برسم الخطط المفصلة التى يقومون بارسالها من خلال كوة مستطيلة فى الجدار الى القسم التالى حيث يتجمع الضباط الصغار من الطبقة ذات الوعى الطبقى المماثل وضباط الصف وهذه المجموعة تم تجنيدها من الطبقة المتوسطة الحضرية لدينا وينقصها التدريب والمهارة اللازمة لتغير الأوامر على نحو له مغزاه فما يكون منها الا أن تمررها ، بعد تقسيمها بشكل مناسب ، الى الأقسام الاخرى المليئة بالفلاحين الذين يرغبون فى العودة الى منازلهم• وفى الوقت الذى يستمر فيه هذا السيل من الاوامر يحمل الجيش شبها لمجموعة من المرؤوسين المطيعين دون خيال والذين يتحكم فيهم عقل موجه لا يبرح مقعده • ولكنه اذا توقف مستحدث خوض ـ وقد كانت روح المبادرة من جانب الجماعة منعدمة فى الجيش المصرى والوجود فقط للقيادة العليا والمبادرة الشخصية • وان انعدام التوجيه من أعلى من شأنه أن يحول أى جيش على وجه السرعة الى مجموعة من الافراد يهتمون بالبقاء على قيد الحياة بصفتهم الشخصية •

وكما لو كان من أجل تأكيد أن انقطاع الاوامر سيحدث حتما فان معدات الاتصال كانت اما عتيقة أو أسىء استخدامها ، أو كلا الأمرين • وقد استخدم سلاح المدرعات أجهزة بلورية تسمح بالاختيار بين أى أربع موجات من بين مائة موجة محتملة • وفى عام ١٩٦٧ اكتشف الاسرائيليون أن المصريين كانوا يستعملون نفس الموجات الاربعة التى كانوا يستخدمونها فى حرب ١٩٥٦ • وقد تم تزويد الجيش ككل بأجهزة تليفون لاسلكى حصل عليها كمنحة من الاتحاد السوفيتى من المخزون الذى استولى عليه من الألمان خلال الحرب العالمية الثانية وأن اعراض المصريين عن استخدام تلك المهمات القديمة أمر مفهوم ولكن غير المفهوم أن يعتمدوا بدلا من ذلك على أجهزة تليفونات ساحة المعركة ومن ثم حولوا سيناء الى بيت عنكبوت ضخم لخطوط التليفونات المكشوفة •

ويبدو أنه لم يخطر على بال أحد أن تلك الخطوط ستكون هدفا قائمـا للسلاح الجوى الاسرائيلى أن تلك المشاكل اتضحت فقط عندما دخل الجيش سيناء قبل وخلال المعركة • ولم يدرك عبد الناصر أن الجيش الذى عبر به القنال فى منتصف مايو كان جاثيا على ركبتيه تقريبا قبل أن يقوم الاسرائيليون بشن الهجوم • وأن ثلاثة أسابيع من الاحبـاط الذى أصاب وسائل الاتصال على كل المستويات قد أصابها الدمار •

ويـروى كيمش وبـادلى KIMCHE أحـد الامثلة على ذلك بقولهما : ـ مثل على أحد القضايا أن احدى الفرق من لواء الاحتياطى قد تحركت للعريش فى نهاية شهر مايو • وبعد وصولها بقليل صـدرت لها الأوامر بالتحرك الى بير حسنة رغم أن المركز الرئيسى للواء ظـل فى العريش • وقد عسكرت هذه الفرقة فى منطقة مجاورة لبير حسنة وهى منطقة مكشوفة ولم يكن لديها ماء أو طعام بغض النظر عن جراياتها الخاصة بالمعركة والتى كان من المحظور على أفرادها أن يقربوها • ولم تؤد وسائل الاتصال عملها ولم يكن لديهم ذخيرة ولكنهم أخبروا أن قيادة اللواء ستصل فى الحال وبذلك فسوف تستكملكافة أوجه النقص • وانتظر الرجال وصول قيادة اللواء ووصول الامدادات لمدة ٤٨ ساعة وقد نفذ صبرهم تحت لهيب الشمس المحرقة دون تلقى أية أوامر ولم يكن لديهم ما يفعلونه ، ولكن كانت أغلبية القوات فى ذلك الوقت تعتريها حالة قريبة من الانهيار ولم يكن هناك بعد أى كلمة أو اشارة من قيـادة اللواء وأصدر قائد الكتيبة الامر بفتح جرايات المعركة وأن يبدأوا فى الاكل • وفى اليوم التالى يوم ٥ يونيو هوجمت الكتيبة من الجو ولم تكن أعمال حفر الخنادق قد تمت بعد • وقتل الكثير من بينهم قائد الكتيبة نفسه • وكانوا على غير علم حتى بأن الحرب قد بدأت •

ولم يظهر أى شيء من ذلك على الخرائط المعلقة على الجدران فى القاهرة • فهناك يمكنك أن ترى فقط فرقا منتشرة طبقا للتخطيط : الفرقة الفلسطينية العشرين فى قطاع غزة والفرقة السابقة التى تستحوذ على محور رفح ـ العريش ـ الفرقة الثانية فى أبو عجيلة والعشيمة ـ الفرقة السادسة التى تستولى علىالمداخل الجنوبية فى الكونتيله ـ نخل والتمر والفرقة الثالثة الاحتياطية بين جبل لبنى وبير حسنة ـ والفرقة المدرعة الرابعة المتأخرة الى الخلف فى ظل السفح الرئيسى • وقد كانت تلك التشكيلات بالتأكيد فى المكان الذى ذكرت الخرائط أنها موجودة به •

ولكنها أيضا كان ينقصها الغذاء والذخيرة ومهمات الاتصال الصالحة للعمل • والعربات الصالحة للسير والحركة • وقد كانت القيادة العليا المصرية على الطرف البعيد من خطوط التليفون تعتريها الدهشة الشديدة •

— ٢ —

كان الاسرائيليون هم أيضا يستوعبون أسلحة جديدة أثناء الأحد عشر عاما من السلام النسبى • ولكن بينما استورد المصريون أسلحة وتكتيكات كجزء من الصفقة نفسها ، فقد انطلق الاسرائيليون يبحثون عن الاسلحة التى تناسب نواياهم الاستراتيجية • وكان لدى قيادة جيش الدفاع صورة واضحة عن الطريقة التى ينوون بها شن الحرب القادمة • بل انه كان من الصعب تفادى هذا الوضوح وذلك لأن الوضع العسكرى الجغرافى لم يدعا مجالا للاختيار • ان حجم البلاد المحدود والصورة العامة يعلنان أن قيام حرب دفاعية أمر غير وارد مطلقا •

ومع الموقف الدولى الموجود وقد ارتبط كلا الطرفين بشحنات أسلحة قادمة من قوة عظمى فانه كان من المستبعد تماما حدوث حرب طويلة • فكان على اسرائيل أن تهاجم ، وأن تهاجم بسرعة وجعلت احتياجات اسرائيل — القيام بضربة اجهاض لسلاح الطيران العربى أمرا جوهريا وانه مع توفر هذه النية الاستراتيجية ، فان سائر القرارات المعنية الاخرى أخذت مكانها الصحيح • فقرار توجيه ضربة اجهاض كان يتطلب نوعامعينا من سلاح الطيران وشن هجوم برى سريع خاطف كان يتطلب نوعا معينا من الجيوش ولقد بنيت حملة سيناء الطريق على الصعيدين — وفيما بين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ تم التطور الذى طرأ على الأطراف القاطعة لجيش الدفاع الاسرائيلى وأفراد سلاح المدرعات الى حالة نسبية من الكمال ••

ولقد كان من حسن الحظ أن جيش الدفاع قد تلقى خلال هذه الفترة أولوية الحصول على الاعتمادات ، لان كلا من قائديه تولكووسكى من عام (١٩٥٤ — ١٩٥٨) ووايزمان من (١٩٥٨ — ١٩٦٦) كانا مقتنعين انه فى الحرب الحديثة لا يوجد بديل لاحدث وأرفع مستوى من الطائرات • وبدا فى أول الأمر أن امكانية الحصول على تلك الطائرات يمثل مشكلة لان فرنسا هى الدولة الوحيدة التى ستقوم ببيع طائرات

السوبر سوتيك المقاتلة لاسرائيل • وأن الميراج الفرنسية تعد طائرة تقذف بالصواريخ بجانب المميزات القليلة • وأصر الاسرائيليون على ادخال تعديلات جوهرية عليها ، وكانت النسخة التى قاموا بشرائها قادرة على اطلاق المدافع والقنابل •

وظلت المشكلة التى لا يمكن التغلب عليها تتمثل فى ضعف التحميل بالقنابل لأن حمولتها مجرد طنين من المتفجرات • وان عدد الطائرات التى تستطيع اسرائيل الحصول عليها بالاضافة الى قدرتها الضعيفة على التحميل بالقنابل كانت غير كافية لتوجيه الضربة التى تصيب العدو بالعجز والتى تعتبر بمثابة الأولوية المطلقة لدى الجيش الاسرائيلى • وانه ليس بالامكان تعديل أى شىء فى الطائرة أكثر من ذلك وعليه فينبغى البحث فى مكان آخر •

وجاء ذلك ممثلا فى اختصار الفترة المسموح بها من أجل التموين بالوقود الى أقصى مداها ــ الى درجة غير عادية وكذلك اعادة التزود بالسلاح ورؤية الهدف • وبينما يستغرق السلاح الجوى المصرى مثله مثل سائر الاسلحة الجوية الاخرى ما يقرب من ساعتين بين الهبوط والاقلاع تفخر مجموعات الطاقم الارضى فى السلاح الجوى الاسرائيلى بأنه من خلال شن الحملات ذات المستوى المتميز والتدريب المكثف ــ استطاعت تحقيق ذلك فى سبع دقائق ، وبما أن الوقت الذى يستغرقه الطيران بين اسرائيل وأعماق مصر فى ٢٠ ــ ٢٥ دقيقة ، فان ذلك أدى الى مضاعفة سرعة سلاح الطيران الاسرائيلى بالمقارنة بسرعة السلاح الجوى المصرى بمقدار ثلاثة أضعاف •

ولم يكن قادة الاطقم فى حاجة الى القيام بحملات للاضافة الى مراكزهم ووضعهم • فمجرد جلوسهم أمام آلات التحكم فى طائرة اسرائيلية يؤكد بما يقطع مجالات الشك أنهم قد اجتازوا أكثر اختبارات اختيار قادة الطائرات حزما فى العالم • (ويبلغ معدل فشل المتقدمين للالتحاق بالسلاح الجوى الامريكى ٢٥٪ بينما تبلغ هذه النسبة فى جيش الدفاع ٩٠٪) • وكان كل طيار عهد اليه باحدى طائرات الميراج البالغ عددها فى الجبهة ٧٢ طائرة يعلم أن طريق أدائه فى ادارة تلك الآلات يعد أمرا حاسما بالنسبة لاسرائيل • ولقد كانوا نخبة مختارة صغيرة تلقت تدريبات قوية وأمضوا وقتا طويلا فى الجو مثلما قضوا على

الارض وهذا ما أثمر ثمرته ــ فلو أمكن اقتناص السلاح الجوى المصرى على الأرض فان الســلاح الجوى الاسرائيلى كان على يقين من أنه يستطيع تحطيمه وهو رابض على الارض ــ واذا لم يحدث ذلك فسيتم تدميره فى الجو ..

وقد شهد سلاح المدرعات أيضا تطورا عظيما منذ عام ١٩٥٦ رغم أنه لم يكن يتمتع به المميزات التى تمتع بها جيش الدفاع فلم يزل يحتاج الى دبابات جديدة ــ ولكن تم الحصول على أعداد كبيرة من دبابات السنتوريون البريطانية المستعملة من (بريطانيا) ودبابات باتون الامريكية من (ألمانيا الغربية) . وفى ظل القيادات القتالية لكل من بن آرى وبارليف واليعازار أصبح سلاح المدرعات جزءا متميزا من جيش الدفاع بزيه الخاص به وبالاحتفال الذى كان يقام للضباط كلف اليمن (على ضــوء الشموع على قمة جبل ماسادة وبذلك المســتوى الرفيع من النظــام الرسمى والتخصص أكثر من المعتاد فى الجيش الاسرائيلى وذلك نظرا للتكنولوجيا المعقدة التى ينطوى عليها عملهم وخلف اسرائيل بن طال اليعازار عام ١٩٦٤ . ويرجع اليه الفضــل فى احداث التجديدات فى العمليات . وقد عهد الجيش الى سلاح المدرعات بدور تدعيم قــوات المشاة وعمليات استغلال اختراق حصون العدو . وكان من المتوقع أن يشهد نجاح بن آرى تحولا تجاه المخطط المألوف للفرقة الالمانية المدرعة وللمدرعات المدعمة بالمشاة الآلية التى تضطلع بعمليات اختراق الحصون واستغلالها . ولكن « طال » ذهب الى أبعد من ذلك رافضا الحاجة الى المشاة الآلية . وذكر أن الدبابات هى التى تحتاج الى مثل هذا التدعيم عندما تواجه بأسلحة مضادة للدبابات يتحكم فيها قوات المشاة وطالمــا أن تلك الاسلحة لن تستخدم باعداد تذكر فى الصحراء المكشوفة فانه من الأفضل أن يتم انفاق موارد اسرائيل المحدودة على الدبابات دون حاملات الجنود المدرعة غير الضرورية . وقد أصبحت فكرة « كله دبابات » هى البند الاساسى للنظرية التى يسير عليها سلاح المدرعات ، وقد تكون مسئولة الى حــد كبير عن كل من نصر ١٩٦٧ والهزيمة النســبية فى عام ١٩٧٣ .

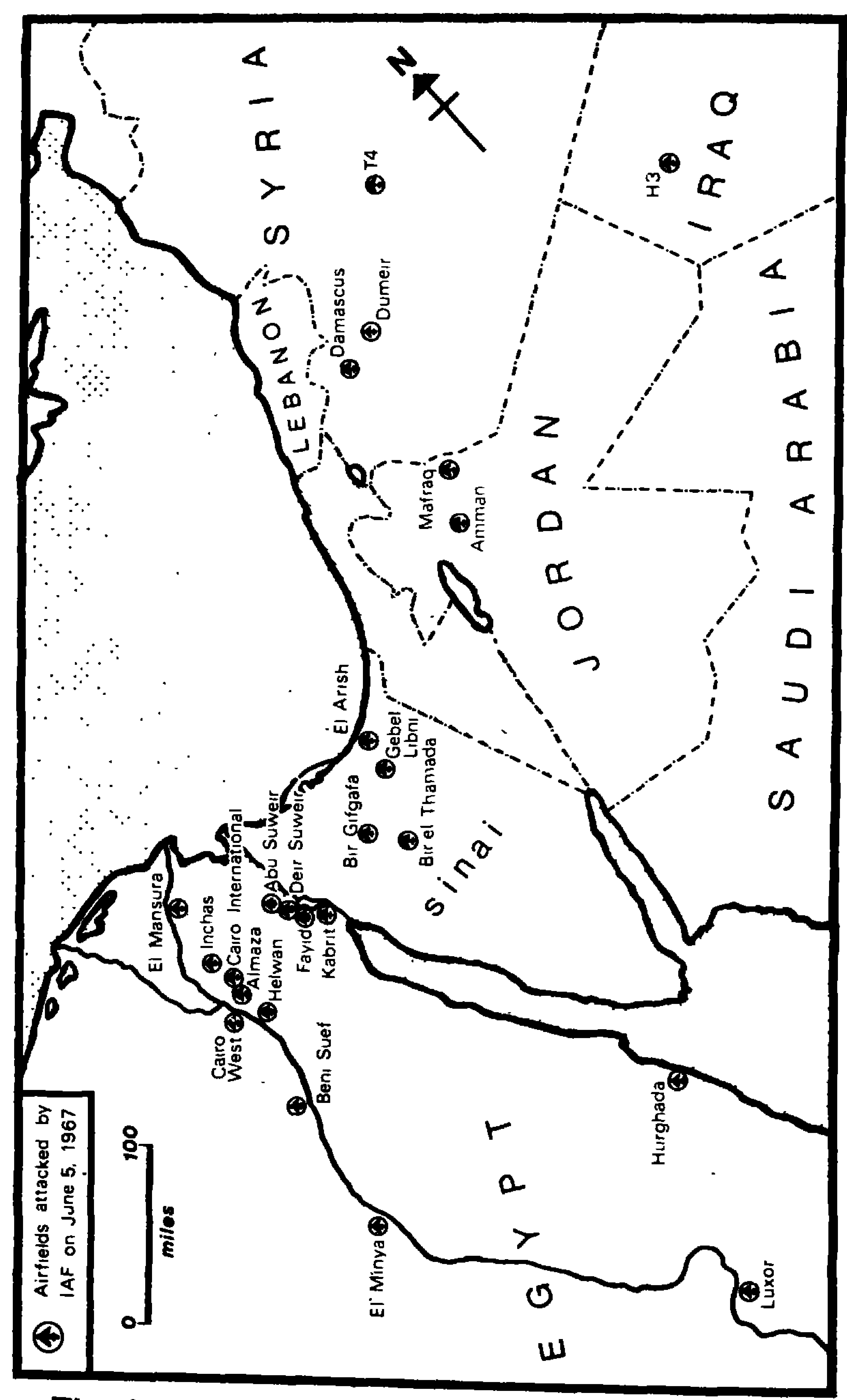
وقد ساعدت سائر التجديدات الأخرى وتبسيط الممارسات القديمة على احداث المرونة . ومن ثم التقدم الذى شهدته المدرعات . وقــد تؤمن المرونة فى الامدادات بواسطة تطبيق نظام « الدفع الى الامام »

حيث يدفع بالوقود والذخيرة الى الأمام للبحث عمن يكون فى حاجة اليها من نظام « الجذب » التقليدى حيث يضيع العملاء وقتهم الثمين فى البحث عن البضائع • وسوف تستمر المرونة فى التشكيل فى الارتكاز على تجمع الفرق على غرار نظام « أوجداه » تحت قيادات فرق حرة • وقامت مرونة القيادة على أساس التحكم الاختيارى وهو النظام الذى كان يتخذ على أساسه القادة فى ساحة المعركة قرارهم الشخصى وهم على ثقة من أن القيادة العليا ستمارس حقها فى التدخل اذا تطلب الوضع العام ذلك • ولقد كان لكل من نظامى « أوجداه » والتحطم الاختيارى جذورهما فى الحرب الفلسطينية وهو ما يمثل ممارسة الجيش الحديث للبديهية الفدائية القائلة بأنه ينبغى أن تكون المبادرة هى القاعدة لا الاستثناء • ولقد كانت الخطة الاستراتيجية الاسرائيلية التى تمت صياغتها فى عهد رئيس الأركان رابين ووافق عليها وزير الدفاع ديان فى أوائل يونيو خطة بسيطة أساسا فتقوم قوات سريعة الحركة باختراق المواقع المصرية الهامة على الطرق عبر سيناء وتنطلق القمة الرئيسية للممرات وهكذا نقطع الجزء الاعظم من الجيش المصرى عن قواعده ووطنه • وكان من المعتقد أن الاردن ستظل خارج نطاق الحرب • وكان هناك أمل ضئيل (أو قليل من الخوف) من تحفظ سورى ، ولكن الاسرائيليين كانوا يعتقدون أن باستطاعتهم القيام بصد السوريين فى الشمال الى حين تسوية الحساب مع مصر ــ ثم يأتى وقت الحساب مع الجولان ••

وكانت قوات الدفاع الاسرائيلية على عكس زميلتها العربية تمثل ارادة البقاء لدى حضارة متقدمة وهكذا كانت قواتها مهيأة من الوجهة الفنية وتعتريها روح معنوية عالية لا تتوفر الا نتيجة لمستوى عالى من الترابط الاجتماعى • وكانت اسرائيل تعتقد أنه ينبغى عليها أن تحارب واعتقدت أيضا أنها تستطيع أن تنتصر وفى صباح ٥ يونيو ، وفى الوقت الذى تجمعت فيه المدرعات على حدود قطاع غزة وسيناء انطلقت طائرات السلاح الجوى الاسرائيلى بسرعة فائقة على الممرات فى كل أنحاء اسرائيل وطارت فوق البحر المتوسط الى مصر •

— ٣ —

وعندما انقشع ضباب الصباح الباكر تكشف أن السلاح الجوى المصرى بدون دفاع • وقد كان جهاز الانذار العالمى التقليدى فى الساعة

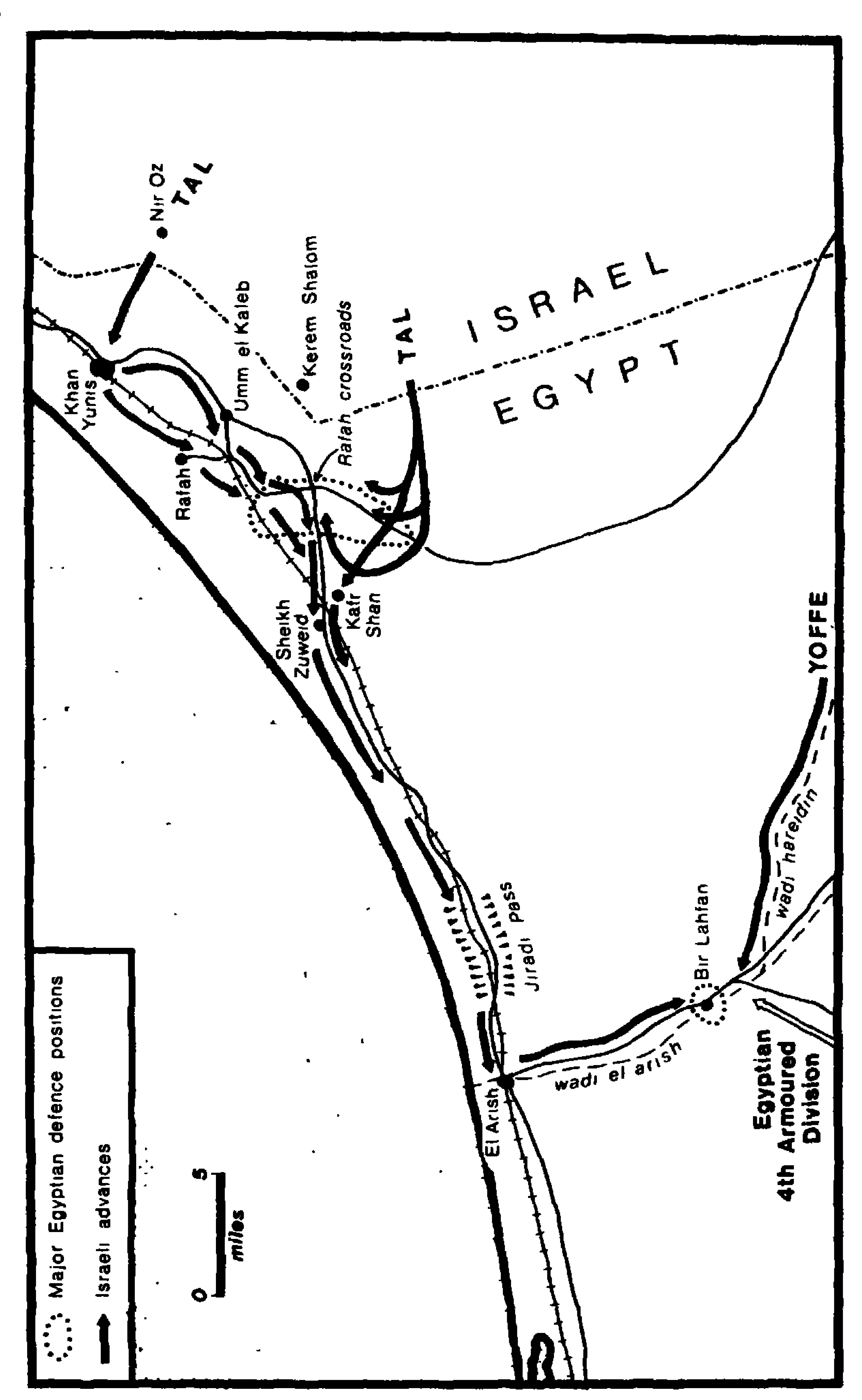


The Israeli air-strike, 5 June, 1967

التى تلت الفجر فى حالة من التراخى كما أن كثيرا من أجهزة الرادار ذات التكاليف الباهظة للتشغيل متوقفة عن العمل • وكان الكثير من الضباط فى طريقهم من منازلهم الى قواعدهم لا يمكن الاتصال بهم مؤقتا • وكان القائد العام المصرى المشير عبد الحكيم عامر فى الجو فى طريقه للتفتيش على القيادات فى سيناء وصدرت الاوامر لوحدات الدفاع الجوى المصرية بصفة خاصة بعدم فتح النيران دون الحصول على اذن خاص • وكان وزير الحربية قد أصدر قبل ذلك بثلاثة أيام قرارا جديدا بحظر الاتصال المباشر بين القيادات العربية العليا المختلفة ونتيجة لذلك ، فان ثمة تقريرا لمحطة الرادار الاردنية فى عجلون التى تمكنت من التقاط اقلاع حشود القوات الجوية الاسرائيلية ظل ملقى على مكتبه طوال اليوم ••

وكانت المخابرات الاسرائيلية قد وضعت معظم هذه الأشياء فى حسبانها وتم التخطيط للضربة الهجومية ليشمل كل التفاصيل وقام الطيارون الذين تولوا للهجوم على القواعد الجوية المصرية بالتدريب على المناورة مئات المرات على قواعد من الدمى فى النقب فأولا قاموا بأعطال الممرات • وتساقطت القنابل ذات التصميم الخاص من الطائرة لتوقفها فى الطريق جوا صواريخ ارتجاعية وبعد ذلك تسحب بشكل عمودى الى الهدف بواسطة صواريخ معززة • ثم تعود الطائرات الاسرائيلية وقد صوبت مدافعها الى صفوف الطائرات المصرية الاسرع من الصوت ، يلى ذلك الطائرات المقاتلة الاخرى وطائرات النقل وحظائر الطائرات والمنشآت • وبعد وصولها بعشر دقائق تعود الطائرات الى بلادها وتبرز من الجو موجة أخرى لتواصل عملية التدمير • وبحلول الساعة التاسعة والنصف كان قد تم اللازم بالنسبة لتسعة من المطارات وهى العريش والصير وبير خفجافةوبير تمادة وأبو صوير وفايد وكبريت وأنشاص وغرب القاهرة وبها معظم سلاح الطيران المصرى وامتدت الضربات الاسرائيلية الى أبعد من ذلك فى الصباح الى سبعة مطارات مصرية أخرى واثنين أردنيين وخمس مطارات سورية ومطار فى العراق • وقبيل العصر كان قد تم تحطيم الجزء الاكبر من القوات الجوية العربية وأصبحت القوات الجوية الاسرائيلية سيدة الجو ابتداء من النيل حتى الفرات ••

وبقى ممر واحد لم يصبه العدو بأذى وهو الممر الموجود فى العريش



Rafah – El Arish, 1967

وذلك لأن الاسرائيليين كانوا يأملون فى أن يستخدموه بأنفسهم قبل أن ينقضى الليل •

— ٤ —

كانت القوة الاسرائيلية المنوط بها عبور الحدود تتكون من ثلاث فرق (أوجداه) تحت قيادة طال ويوفى وأربيل شارون الشهير • وكان أقوى هذه الفرق فرقة طال التى عهد اليها باختراق الطريق الساحلى — رفح — العريش حيث كان بها لواءان (من بينهما اللواء السابع القوى تحت قيادة جونين) وقوة مشتركة من المدرعات والمظلات تحت قيادة راخول اتيان •

وكانت فرقته تتكون فى مجموعها من ٣٠٠ دبابة وكان على الجزء الجنوبى من فرقة يوفى التى تضم لواءين مدرعين (أى ٢٠٠ دبابة) أن يعبر بحر الرمال الذى لا يمكن عبوره والموجود بين الطرق عبر سيناء الشمالية والوسطى وأن يمركز قواه فى نطاق ملتقى طريق بير لهفان ومن هذا الموقع يمكن أن يقدم العون للوقتين الاخريين سواء بطريق مباشر أو باعتراض أى تحرك مصرى مضاد من داخل سيناء •

وتضم فرقة شارون لواء مدرعا فقط ولكنها كانت الأقوى من ناحية المشاة والمدفعية • وكان عليه القيام بعملية أسر للمواقع المصريةفى أبو عجيلة — أم قاطف وبذا يفتح الطريق الرئيسى الى سيناء عنوة •

وعبر اللواء المدرع السابع الحدود المقابلة خان يونس الساعة ٨ر١٥ قبل أن تعبرها القوة تحت قيادة ايتان جنوب كريم شالون بأربعين دقيقة • وكان هدف كلا القوتين بشكل غير مباشر مجمع الدفاع عند ملتقى الطرق عند رفح بحيث يكون جونيين فى الجناح الشمالى واتيان فى الجناح الجنوبى • أما بالنسبة للنهج الذى سيتبعه اللواء المدرع السابع فقد قرر طال استخدام الطريق الرئيسى غزة — رفح والذى اعتقد اعتقادا — ثبت أنه اعتقاد سليم — بأنه خال من الألغام • وانطلقت كتيبتان احداهما من دبابات الباتون والاخرى من دبابات السنتوريون عبر الخلاء والى خان يونس حيث تعرضتا لخسائر جسيمة وشىء من الاضطراب قبل أن تتجها نحو الجنوب الغربى على طول الخط الحديدى المتجه الى رفح • وفى الوقت نفسه تحرك اللواء الاحتياطى للمعركة (أربعين دبابة أو أكثر)

بناء على مبادرة من القائد نفسه فى اتجاه الجنوب نحو الموقع المصرى الصغير الموجود فى أم القالب • وبعد أن تم الاستيلاء عليه بسهولة اتجهت الدبابات نحو محطة رفح وبرج المياه وهنا تقابلنا مع العناصر القيادية للكتيبتين الرئيسيتين اللتين كانتا قد ضلتا طريقهما فعلا عبر منطقة معسكر رفح ذات الدفاع الخفيف • والآن كانت كل التشكيلات الثلاثة تتحرك نحو الزاوية الشمالية الشرقية للمنطقة الدفاعية الرئيسية •

وكانت النظم الدفاعية موضوعة طبقا للخطوط السوفيتيه الكلاسيكية فان المهاجمين سيحميهم كوبرى من المدفعية تستطيع الدبابات فقط أن تتحرك من خلاله بأمان نسبى ويقابلهم بعد ذلك حقول ألغام ممتدة وأن خبراء الالغام الذين يدعون لتطهير الممر سيهلك معظمهم بمدافع المورتار ونيران الرشاشات من الخنادق • فاذا حالف الحظ بعض الدبابات واستطاعت اختراق حقل الألغام دون أن يمسها ضرر فانها ستواجه مباشرة نيراننا مركزة مضادة للدبابات على غرار نظام (باكفرونت) (وهى مجموعات من المدافع تطلق نيرانها دفعة واحدة بشكل منسق) ومن الخلف توجد مدافع مضادة للدبابات — والدبابات والمدفعية ذاتية الحركة • وفى أقصى الخلف يوجد احتياطى المدرعات • ومما لا شك فيه أن يكون المستشارون السوفيت قد أخبروا من قاموا بتدريبهم من المصريين أن هجوما اسرائيليا سيكون بمثابة تكرار للهجمة الالمانية على كورسك أى بمثابة كارثة •

ولكننا لم نكبد فى عام ١٩٤٣ ، فلقد مضى زمانها ، ثم ان سيناء لم تكن تشبه السهل الروسى الاوسط • كما كان واضحا أن المصريين ليس لديهم مثل روكوف — وحقا فان حقول الالغام والمدفعية قد أوقعتى الخسائر بالمدرعات الاسرائيلية ولكنها لم تستطع ايقافها • لأن الدبابات الاسرائيلية كانت متى وجدت بين دفاعات العدو أثبتت نيران مدفعيتها بسرعة أن المدفعية المصرية لا طاقة لها باحتمالها • وعندما انتصف النهار كان احتياطى لواء المعركة وكتيبة دبابات السنتوريون قد اخترقا طريق العريش • وعلى بعد كيلو مترين الى الشمال كانت دبابات باتون تتحرك شرقا على طول الخط الحديدى •

أما هجمة ايتان فى الجنوب فقد كانت أكثر اضطرابا • وذلك لأن المظليين والدبابات المصاحبة والمدعمة لهم فقدوا الاتصال فيما بينهم •

وكذلك لعدم تمكنهم من جغرافية الأرض ولقد ضلت احدى مجموعات الدبابات طريقها عندما كانت تبحث عن كفر شان ووجدت نفسها فى الشيخ زويد فى وقت ملائم لتقابل اللواء المدرع السابع • ووقعت مجموعة أخرى فى كمين مصرى وتعرضت لخسائر جسيمة ووجد المظليون أنفسهم دون عون الدبابات فى ورطة وسط بحر من الدبابات والمدافع المصرية • ولكن بالرغم من كل تلك المشاكل المربكة والمعدل العالى للخسائر التى تكبدتها قوة اتيان ، فانها استطاعت كسب السيطرة على المنطقة بالتدرج من المدافعين المصريين • وبحلول الساعة الرابعة بعد الظهر تم تطهير مفترق طرق رفح وسمح لمرور صفوف الامدادات للواء المدرع السابع الذى كان لا يزال يتقدم وبعد الظهر مباشرة وصل احتياطى لواء المعركة الى مدخل ممر جيرادى وقد كان ذلك بمثابة عقبة مخيفة : فالدبابات المصرية بتركيز شـــديد على كلا جانبى الطريق فى الموضع المعد لهـــا ومدافعها موجهة الى المدخل الضيق للممر • وكان هناك أيضا بطاريات لمدافع مضادة للدبابات مغطاة تحت الشباك للتمويه ومدافع المورتار وقد أعد المجال من أجلها مسبقا على الطريق • ووضعت فى أماكن خفية ونشرت مواقع المدافع مع الأتوماتيكية والحفر الخاصة بالبنادق فى التلال والمرتفعات الحصينة بحيث لا ترى من الطريق • وثبت الالغام على طول الجانبين من الطريق على طول الممر الحصين(٢) •

وتحرك احتياطى لواء المعركة بسرعة يطلق النيران وفقا للنظـــام الذى اتبعه روميل الى اليمين والى اليسار • ومن الواضح أن أحدا لم يقم بابلاغ المدافعين المصريين بأن ثمة اختراق اسرائيل قد حدث فى رفح ، وعندما أفاقوا من الصدمة وعادوا الى أسلحتهم كانت كل دبابات السنتوريون عدا اثنين قد قامت بتطهير باب الخروج الغربى • وفى الواقع ان المجموعة قد وصلت مشارف العريش حوالى الســـاعة الرابعة بعد الظهر • وفى الوقت نفسه ، أغلق الممر فى خلفهم ومضت عدة ساعات قبل أن يتمكن باقى اللواء المدرع السابع تحت غطاء مكون من كوبرى من المدفعية وضربات من السلاح الجوى الاسرائيلى من القيام بعملية اختراق للحاق بالصفوف القيـــادية •

وعند هـــذه النقطة من المعركة وطبقا للنظرية المصرية / السوفيتية كان من المفروض أن تصل الفرقة المدرعة الرابعة للاطاحة برأس الحربة الاسرائيلية وكان الجزء الاعظم من الفرقة قد ترك فعلا قاعدة بير خفاجة

بعد الغسق واتجه شرقا وفى نيته أن يفعل ذلك • ولكن لسوء حظ الجيش المصرى فانه لم يصل مطلقا الى العريش • وعبر أحد الالوية المدرعة تحت قيادة يوفى الجبهة فى سيناء الساعة التاسعة واتجه غربا على طول وادى جرايدن الجاف • وبعد التقدم البطىء المرهق الذى استغرق تسع ساعات فى الرمال وتبادل قصير للنيران مع موقع مصرى منعزل وصل اللواء الى طريق العريش ـ أبو عجيلة على بعد ميلين جنوب الخطوط الدفاعية لبير كهفان وعلى بعد ميل جنوب مفترق الطرق • وقامت مبارزة طويلة المدى بالمدافع بين المدفعية المصرية والدبابات الاسرائيلية التى تسبب الظلام فقط فى وضع نهاية لها • وبعد ذلك سكت اللقاء فى حالة انتظار •

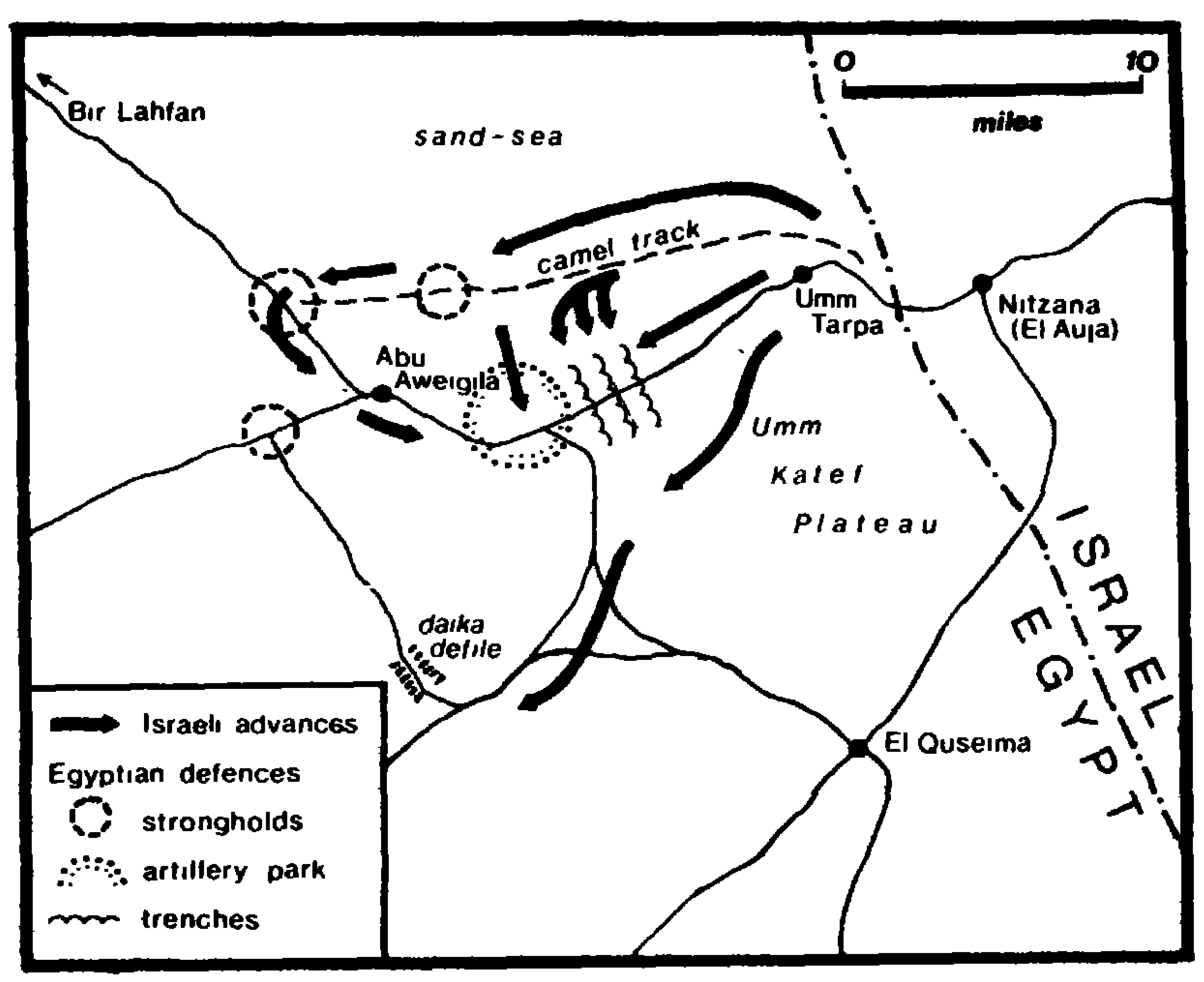
وفى الساعة الحادية عشر مساء تم ارسال واحدة من كتيبتى الدبابات الى الجنوب لمساعدة شارون فى الهجوم الذى يشنه على أم قاطف • وبعد ذلك مباشرة تسبب خط طويل من الاضواء كان يتحرك الى أعلى الطريق من جبل لبنى فى كشف القدوم المتوقع للفرقة المدرعة الرابعة • وفتحت الدبابات الاسرائيلية بذاتها وأعطبت ثلاث دبابات ـ ٥٥ ا س وأرغمت الطابور المصرى على اطفاء أنواره • وقام كلا الطرفين باطلاق النيران عشوائيا عبر الظلام حتى أصيبت عربة وقود ونتج عن الانفجار فيضان أغرق المواقع المصرية بالضوء • وتعثرت عرباتهم فى الظلام وصمتت كلتا القوتين عن اطلاق النيران بقية الليل •

وكان هذا الموقف لصالح الاسرائيليين تماما • فقد استطاعت كتيبة من الدبابات يعاونها الظلام والجبن المصرى صد لواءين مدرعين • وهذه الساعات ما كان يجب على المصريين أن يضيعوها • وفى الوقت الذى قاموا فيه بشن هجوم بعد الفجر مباشرة كانت الكتيبة التى قامت بمعاونة فرقة شارون قد عادت وأصبح السلاح الجوى الاسرائيلى مستعدا ولديه الرغبة فى التدخل • وحسم الموضوع نهائيا وصول اللواء الآخر تحت قيادة يوفى الى أعلى طريق أبو عجيلة •

أما الفرقة المدرعة الرابعة التى تحركت شرقا لمعاقبة رأس الحربة الاسرائيلية فقد وجدت نفسها رأس حربة لانسحاب مصرى •

وفى الوقت نفسه ، كانت دبابات طال تتحرك جنوبا من العريش فى مقابل الجانب الآخر من الخطوط الدفاعية لبير لهفان • وبحلول الساعة ١١

يوم ٦ يونيو تم الاتصـــال بين فرقته وفرقة يوفى • وأصبحت البوابة الشمالية لسيناء مفتوحة على مصراعيها •



Umm Katef, 1967

— ٥ —

يعتبر أريل أريك شارون أهم القادة الاسرائيليين على الاطلاق • أن وراء الغرور الطائش الذى يجعل من الصعب العمل معه تلوح فيه نزعة الى عدم التعصب لا مثيل لها فى التاريخ العسكرى الحديث • ويبدد أن شارون يعد تجسيدا للشزوفرانيا الاسرائيلية الأساسية ، وهى توأمه لصلابة الرأى التى تؤكد للأبد العداء العربى مع عبقرية خيالية تؤدى هذه العداوة الى أن تصبح عاجزة انه بطبعه لديه القدرة على اعداد خطة شاملة بدقة متناهية والانتظار لحدوث شىء خطأ وبعد ذلك يلقى بالخطة جانبا كلية من أجل تهمة عفا عليها الزمن وبما أن هذا التخطيط الشامل مثله مثل لوحات سلفادور دالى يحتوى على كل من الدقة التنظيمية وعنصر المفاجأة الاساسية فانها فى العادة تكون مؤثرة تأثيرا شـــديدا •

وكانت أوامر شارون عام ١٩٦٧ تقضى بالاستيلاء على موقع أم قاطف المنيع وهو يبعد ١٢ ميلا غربى نيتزانا على طريق سيناء الأوسط وبوقوعها بين صخور سهل ارتفاعه ٨٠ قدما وبحـــر رمال عظيم فان الخطوط الدفاعية لأم كاتف كانت مثلها مثل الخطوط الدفاعية فى رفح مصممة طبقا للخطوط السوفيتية الكلاسيكية حقل ألغام مساحة ٣٠٠ ياردة مقسم الى صفر ٢ ــ ٣ الى ٣ كل ميل يحرسها لواء من المشـــاة ومساحة كبيرة بها ٧٠ مدفعا يحيط بها خنادق خاصة بها وقوة تدعمها تتكون من ٦٦ دبابة و ٢٢ مدفعا ذاتى الحركة ، وقد اعتقد شارون أنه يمكنه الاستيلاء على الموقع بواسطة كتيبة واحدة ولذلك عكس خطته العادية ولجأ الى شن هجمة مباشرة على الجبهة فى صباح ٥ يونيو • ولكن ثبت أن حقول الالغام والنيران المصرية تفوق كثيرا قدرة الدبابات الاسرائيلية وحولت كتيبة دبابات السنتوريون على طول الطريق الخاص بالجمال شمال الطريق الى موقع على الأطراف • ونقلت مجموعة أخرى من الدبابات الى موقع مقابل جنوب الطريق حيث تتمكن من مراقبــة الطريق المؤدى جنوبا الى القسيمة •

ولم يكن مدى الخطوط الدفاعية المصرية واضحا وبدأ شـــارون للتخطيط لهجوم يشنه ليلا ويكون على قدر مذهل من التعقيد • وكان ينوى ضرب الخطوط الدفاعية المصرية من كل الجوانب فى نفس الوقت وهى خطة بسيطة أساسا ولكن تنفيذها كان يتطلب قدرا كبيرا من الحركة وحساب كل ثانية من التوقيت وكل ذلك يتم فى الظلام • وتم نقل لواء المشاة الى أم طربة بعربات الأتوبيس ومن هناك كافح عبر كيثان الرمال سيرا على الاقدام عدة ساعات ، حتى وصل الى موقع شـــمال خطوط الخنادق المصرية • وفى نفس الوقت نقلت قوة صغيرة من رجال المظلات بواسطة طائرات الهيلكوبتر الى موقع فى الصحراء شمالى حقل المدفعية• ونقلت قوتا الدبابات شمال وجنوبى الطريق الرئيسى فى اتجاه الغرب الى طريق أبو عجيلة ــ بير لهفان وممر دايكا الضيق على التوالى • وفى السـاعة ٢٢٫٣٠ مساء بدأ الهجوم بوابل من نيران المدفعية عيار ١٠٠ مم وتحركت الكتائب الثلاث التابعة للواء المشاة قادمة من الصحراء على طول الخنادق المصرية الثلاث ، وكانت كل كتيبة تحمل أنوارا من لون

معين•وفى الوقت الذى كانت تشق طريقها جنوبا صبت المدفعية الاسرائيلية نيرانها على الخنادق فوق رؤوسهم مباشرة • وكان ينبغى على رجال المدفعية المصريين أن يولوا قوات المشاة التابعة لهم دعما مشابها ولكن بدلا من ذلك وجدوا أنفسهم مشغولين تماما بالاشتباك مع رجال المظلات الاسرائيليين ـ أما سلاح المدرعات المصرى الذى كان ينبغى أن يقوم بتعزيز المدفعية فقد وجد نفسه مشغولا بالمدرعات الاسرائيلية التى كانت تدور لتصل الى خطوطه الخلفية •

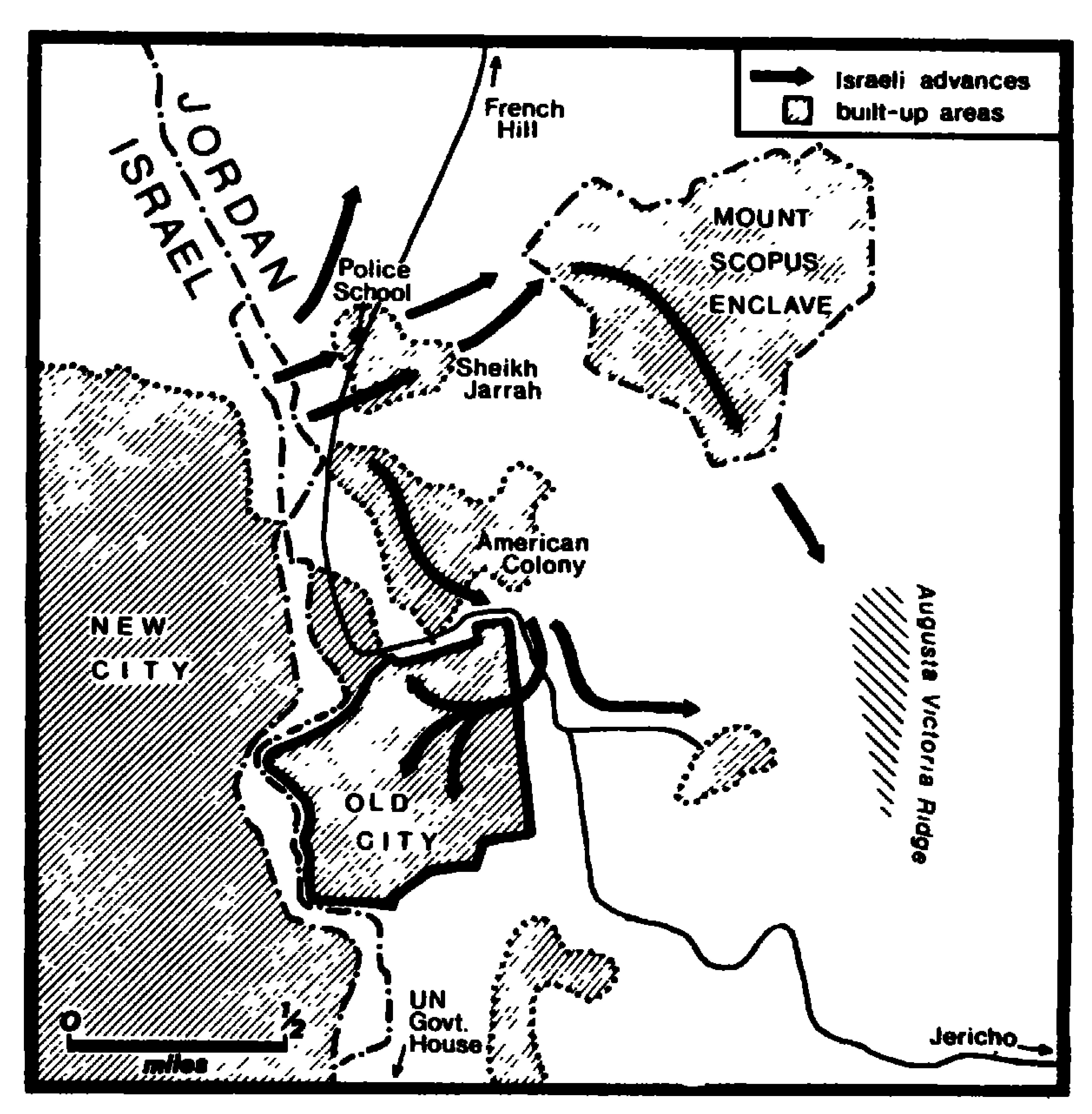
وعندما تم تطهير النصف الشمالى للخنادق تحرك خبراء الألغام الى الداخل لتطهير الالغام استعدادا لعملية الاختراق التى ستقوم بها كتيبة دبابات شيرمتان وقد تم انجاز ذلك قرب الفجر وتقابلت دبابات الشيرمان مع دبابات السنتوريون التى كانت تتحرك فى اتجاه الشرق فى منطقة خزان الرؤافة الساعة ٦ وفى ذلك الوقت تحول الموقع المصرى ليصبح سلسلة من جيوب المقاومة المنعزلة وأمكن للواء المدرع الآخر تحت قيادة يوفى أن يقوم بدوره على طول الطريق الرئيسى وهو فى طريقه للقاء الفرقة المدرعة المصرية الرابعة عند ملتقى الطرق فى بير لهفان •

وهكذا وفى منتصف نهار ٦ يونيو اخترق الاسرائيليون المدرعين الرئيسين المصريين وكانوا فى وضع يسمح لهم بالتقدم عبر سيناء • وكانت القوة المتماسكة الوحيدة التى تفصل بينهم وبين قناة السويس هى الفرقة المدرعة الرابعة المنسحبة • أما التشكيلات الأخرى التى كانت لم تذق طعم القتال بعد وخصوصا المجموعة المدرعة تحت قيادة الشاذلى وفرقة المشاة السادسة فقد كانت فى ذلك الوقت خلف الخطوط تماما وبذلك أجبرت على تكريس كل اهتمامها لموضوع الهروب • وأخذت الكارثة التى ينطوى عليها الموقف تتضح ببطء للزعامة المصرية • ومما زاد هذا الموقف سوءا ان السلاح الجوى الاسرائيلى الذى كان جل اهتمامه فى يوم ٥ يونيو موجها لعمليات الهجوم الموجه ضد سلاح الطيران قد أصبح الآن قادرا على القيام بدور الدعم البرى بقوة لا يمكن تخيلها • وبعد ظهر يوم ٦ يونيو أصدرت القيادة العليا المصرية

أمرا بالانسحاب الى خط سلسلة الجبال الرئيسية • ولم تتلق الكثير من الوحدات هذا الأمر نظرا للفوضى التى كانت سائدة فى وسائل الاتصال • أما هؤلاء الذين وصلهم هذا الامر ففى الغالب ان ذلك جاء متأخرا جدا •

— ٦ —

رغم الجوع الايديولوجى الكامن فى قلوب معظم الاسرائيليين نحو وجود قدس موحدة يتحكم فيها اليهود والجوع الأقل فى قلوب الكثير نحو منطقة الضفة الغربية للاردن فقد تميزت وجهات النظر الاسرائيلية تجاه الحرب مع الملك حسين بتكافؤ الضدين • وربما يتمثل أحد الاسباب فى احتمال انشغال السلاح الجوى الاسرائيلى بالكامل فى سيناء والجولان والسبب الآخر أن الاسرائيليين كانوا لا يريدون الاطاحة بعدو محبوب بقدر معقول فيجدون أنفسهم أمام عبد الناصر آخر • لقد انتظر اليهود دولتهم لمدة — ألفى عام — كما كان يحلو دائما لجولدا مائير أن تصرح — فبامكانهم أن ينتظروا وقتا أكثر من أجل القدس • والامر متروك للملك حسين لاتخاذ القرار • ولقد كان الملك حسين كعادته يتميز بالتكافؤ ولم يكن لديه الرغبة فى اتخاذ مثل تلك القرارات • ولكنه فى الحقيقة لم يكن أمامه اختيار • وباعتبار انه دائما ينظر اليه من جانب زملائه الحكام العرب فى دول المواجهة الاخرى بعين الشك العميق ، فلم يكن فى وسعه عند هذه النقطة الا أن يبدو مخلصا فى تكريس نفسه من أجل التضامن العربى • ولم تكن قواته تافهة أيضا • وقد تأثرت قوة وسمعة الفيلق العربى بعض الشىء بسبب الزمن ومشاغل الضفة الغربية الفلسطينية • وكانت قواته الجوية تتكون من ٢١ طائرة سوبر سوتيك فقط ولكن لديه ٥٥٫٠٠٠ رجل تحت السلاح • وكان اللواءان المدرعان المجهزان بدبابات الباتون والسنتوريون قادرين على القيام بأمثل قتال عربى • ولم يكن هناك ثمة تغيير جوهرى فى الخطة الاستراتيجية الاردنية — بل بعض الانتصارات القليلة فى القدس وحولها وفى وادى النطرون • وهجوم محدود فى مجال أقليم جلباو فى الشمال • وعند نشوب

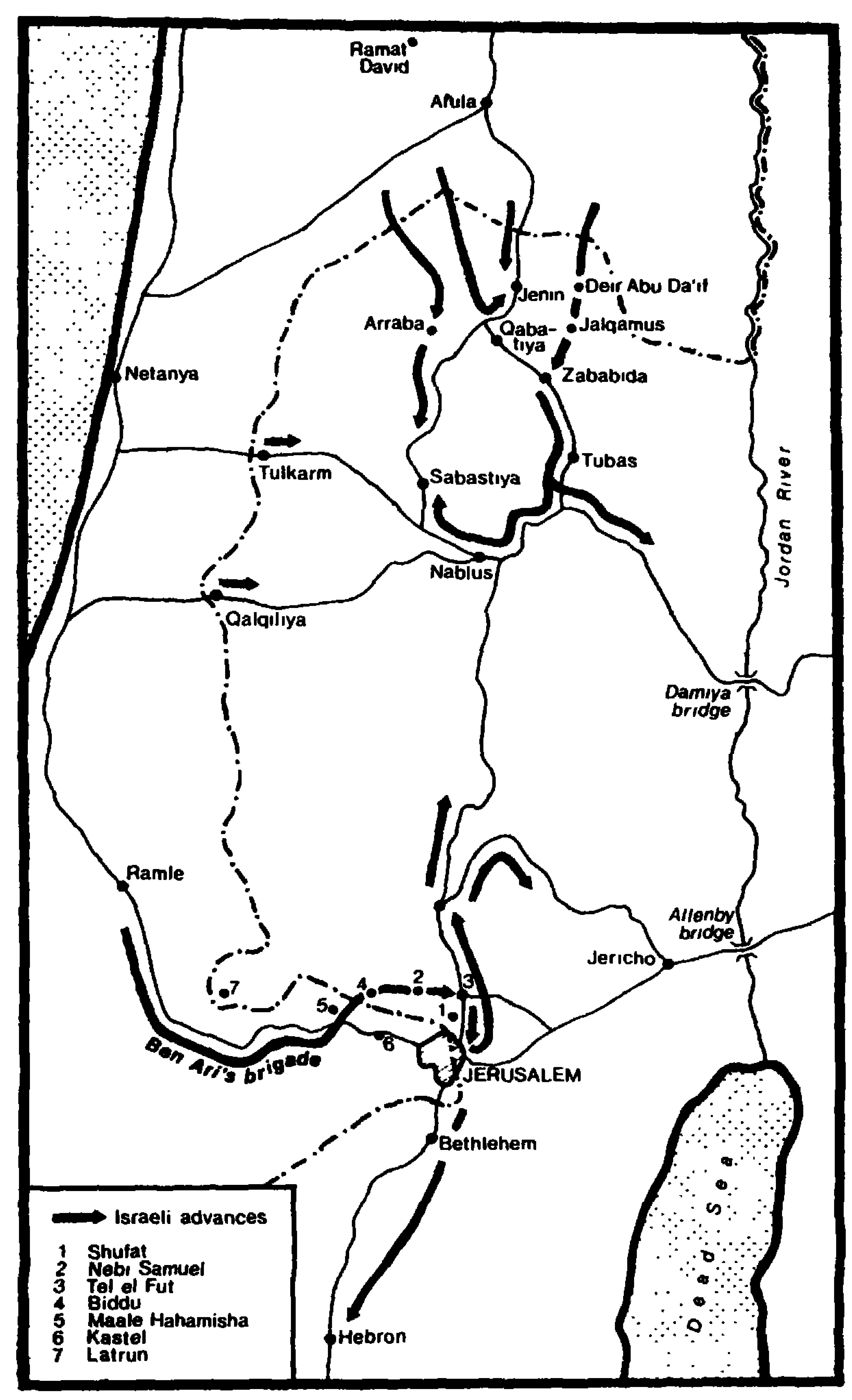


Jerusalem, 1967

القتال لجـأ الملك حسين الى أن تكون هذه الهجمات أيضا محدودة أكثر لتقتصر على مقاطعة جبل المكبر وموقع الامم المتحدة التى لا تعتبر ملكية أحد — وكلاهما فى القدس •

وكانت القوات الاسرائيلية أصغر كثيرا من العربية ، تتكون من لواءين للمشاة على سهل الجبهة الساحلية • وكان اللواء الاكبر هو لواء اتزيونى فى القدس ولواء هارل للآليات (به كتيبة شيرمان) تحت قيادة بطل عام ١٩٥٦ بين آرى • وسيجرى معظم القتال ضد الاردن بواسطة تعزيزات تتقدم فى اللحظة الأخيرة تتمثل فى فرقة تحت قيادة بيليد من الجبهة الشمالية ولواء للمظلات تحت قيادة موتاجور من سيناء • وبعد انزال الضربة الجوية ضد مباشرة أرسلت الحكومة الاسرائيلية مذكرة الى حسين عن طريق رئيس قوات الأمم المتحدة فى القدس تعده بأن الاردن لن تهاجم اذا امتنعت عن القيام بعمل هجومى • وكان رد حسين على ذلك ضرب مدينة القدس اليهودية وكذلك ضرب ضواحى تل أبيب وصب نيران المدفعية بعيدة المدى على مطار رامات دافيد • واستولت القوات الاردنية عند الظهر على مقر الحكومة فى منطقة الامم المتحدة وكانت تمثل تهديدا لجبل المكبر • وفتحت القوات الاردنية النيران على طول خط وقف اطلاق النيران •

وبينما كان لواءا المشاة الاسرائيليان متماسكين ويتبادلان النيران مع صدور الاوامر للواء الالى التابع لبن آرى بالتحرك شرقا من قاعدته فى الرملة • وكانت مهمته الاساسية التخفيف عن جبل المكبر ولكن هـذه المهمة اتسعت بعد ذلك مباشرة لتتضمن الاستيلاء على الاراضى المرتفعة التى تهيمن على المداخل الشمالية للقدس • وبين الساعة ٣٠ر٥ والساعة ٦ تقدمت الفرقة فى ثلاث مجموعات متتالية الى قمـة الجبال شـمالى طريق القدس — تل أبيب بين ماعال هميشا وكاستل وبحلول السـاعة الثامنة مساء يوم ٦ يونيو انتزعت بيدو من الاردنيين وبالتقدم شرقا استولت على قرية النبى صمويل بعد ذلك بساعتين • ولقد كانت هذه هى القرية التى ألقى منها ريتشارد قلب الاسد نظرة خاطفة على المدينة المقدسة ومن المؤكد انه كان فى ذهن الاسرائيليين أكثر من مجرد النظرات الخاطفة وبدون شك أن بن آرى كان يتصور فى مخيلته ألسنة نيران لمعركة فى المدينة البعيدة •



Jordan's West Bank, 1967

وكان لواء المظلات تحت قيادة جور قد وصل القدس فى وقت متأخرة الليلة السابقة واستمرت الهجمة التى قام بها الساعة ٢٠ ــ٢ يوم ٦ يونيو • أما الكتائب الثلاث التى عززت كل منها بمجموع من دبابات شيرمان من لواء اتريونى فقد عبرت حقول الالغــام المحاطة بالأسلاك فى الارض الحرام لتشبك مع الاردنيين فى قتال رجل لرجل • وكان هدفه العام هو سلسلة جبال المكبر وكان طريقــه الى ذلك عبر المنطقة المقامة فى شمال شرقى القدس • وكان أحد المعامل الرئيسية بسير الطريق ويتمثل فى مدرسة الشرطة • ولأن الفيلق العربى يدافع عنها دفاعا مستميتا فان الاستيلاء عليها كلف الاسرائيليين ٥٠ قتيــلا أو ٧٫٪ من خسائرهم فى الارواح بالنسبة للحرب التى دارت فى شهر يونيو بأكملها وبالرغم من ذلك أجرت القوات الاسرائيلية الساعة السابعة اتصالا بالمقاطعة التى تحيط بجبل المكبر واستولوا على حى الشــيخ جراح ومعظم ما يسمى بالمســتعمرة الامريكية ولم يبق من القــدس الاردنية سوى القليل فيما عدا المدينة القديمة المسورة وفى شــمالى السامرا أصبح دور الاسرائيليين دورا هجوميا أيضا ففىَ الليلة السابقة (مساء ٥ يونيو) دفع بيليد بلواء آلى عبر الحدود وبينما اتجهت جماعة صغيرة الى الجنوب متجهة الى طريق نابلس الرئيسى انجذت القــوة الرئيسية طريقها الى موقع جنــوب غرب جنين فى وادى الدوطان • وبالتغلب على المدرعات الأردنية المحلية تحركت الى داخل المدينة من الجنوب فى الوقت الذى قام فيه لواء للمشاة بالهجوم من الشمال • وبحلول الساعة ٧٫٣٠ أصبحت جنين فى أيدى الاسرائيليين تماما •

ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد تلقى بيليد أخبارا تفيد بأن ٦٠ دبابة أردنية من طراز باتويد تحركت شمالا على طريق طوباز اللولبى فسحب لواءه من جنين ليواجه هــذا الخطر ووصل الى مفترق طرق القبطية ليجد دبابات الباتون محتجبة جيدا وهو موقف لم تفلح الهجمات المدرعة وضربات السلاح الجوى الاسرائيلى فى تغييره • وفى الوقت نفسه أوقفت

القوات الاردنية المجموعة الصغرى من المدرعات فى العرابة • وبدا أن الهجمة الاسرائيلية قد توقفت •

وبالرغم من ذلك فان هـذا النجاح لم يسهل الامور كثيرا فى مقر القيادة الاردنية فهناك كان موقف حسين واللواء رياض القائد المصرى للجيش الاردنى يشوبه الخوف والتوجس أو الخوف ولتوجسى البالغ فمنذ الفجر أثبتت قوة السلاح الجوى الاسرائيلى وجودها فى كل أنحاء الاردن • وأوشكت مدينة القدس أن تسقط • وفى الساعة الخامسـة والنصف عرض رياض على حسين بديلين فأما الانسـحاب من الضفة الغربية أو طلب وقف اطلاق النار • ولكن كلا البديلين لم يرق لحسين كثيرا • فقد كان يشك كثيرا انه سوف يسترجع الضفة الغربية اذا هو تخلى عنها ، وكان يشك كثيرا فى أن أسرته الحاكمة ستستمر فى الحكم اذا هى طلبت وقفا منفردا لاطلاق النار وفى كلتا الحالتين فانه كان فى حاجة لأن يبقى جيشه سليما • فلم يستطع أن يصل الى قرار • وقد أصدر مرتين فى الاربعة وعشرين ساعة التالية أوامر بالانسحاب عبر نهر الأردن ثم تراجـع عنها مما سـبب خلطا فى الامور ـ ظـل طى الكتمان ـ فى صفوف جيشه المضغوط بشدة ولم تعد المشاكل الاردنية أكثر وضوحا بالنسبة للاسرائيليين عما كانت عليه مشاكل الاسرائيليين بالنسبة للاردنيين ، وكان التقدم بطيئا للغاية • وفى الشمال قام لواء آخر بعبور الحدود وهذه المرة شرق حنين ـ وتقدم جنوبا عن طريق دير أبو داعف جلكموس الى الطريق اللولبى فى طوباز قرب لزبابدة وهناك أوقفته المدرعات الاردنية مثلما حدث للقوة الآليـة فى ملتقى طرق القبطية ومن الظهيرة الى منتصف الليل خيم الجمود على الموقف رغم تدخل السلاح الجوى الاسرائيلى • وكانت هذه هى الصورة أيضا فى القدس فقد أحبط الاردنيون ثلاث محاولات للاغـارة على سلسلة جبال أوجستا وكان الاسرائيليون لا يستطيعون أن يأملون شن هجوم على المدينة القديمة الا بعد الاستيلاء على هذا الموقع الذى يسيطر على المكان شرقى المدينة وكان اللواء الذى يقوده بن آرى هو وحده الذى يدفع بالعدو الى الخلف وبحلول الساعة السادسة وعشرة دقائق وصل الى طريق ـ القدس / رام الله عند تل القوت وبعد ثلاثة اشتباكات عنيفة مع اللواء الاردنى الستين المدرع استطاع الاستيلاء على الموقع • ثم واصل اللواء التحرك جنوبا تجاه القدس واستولى بعد قتال عنيف

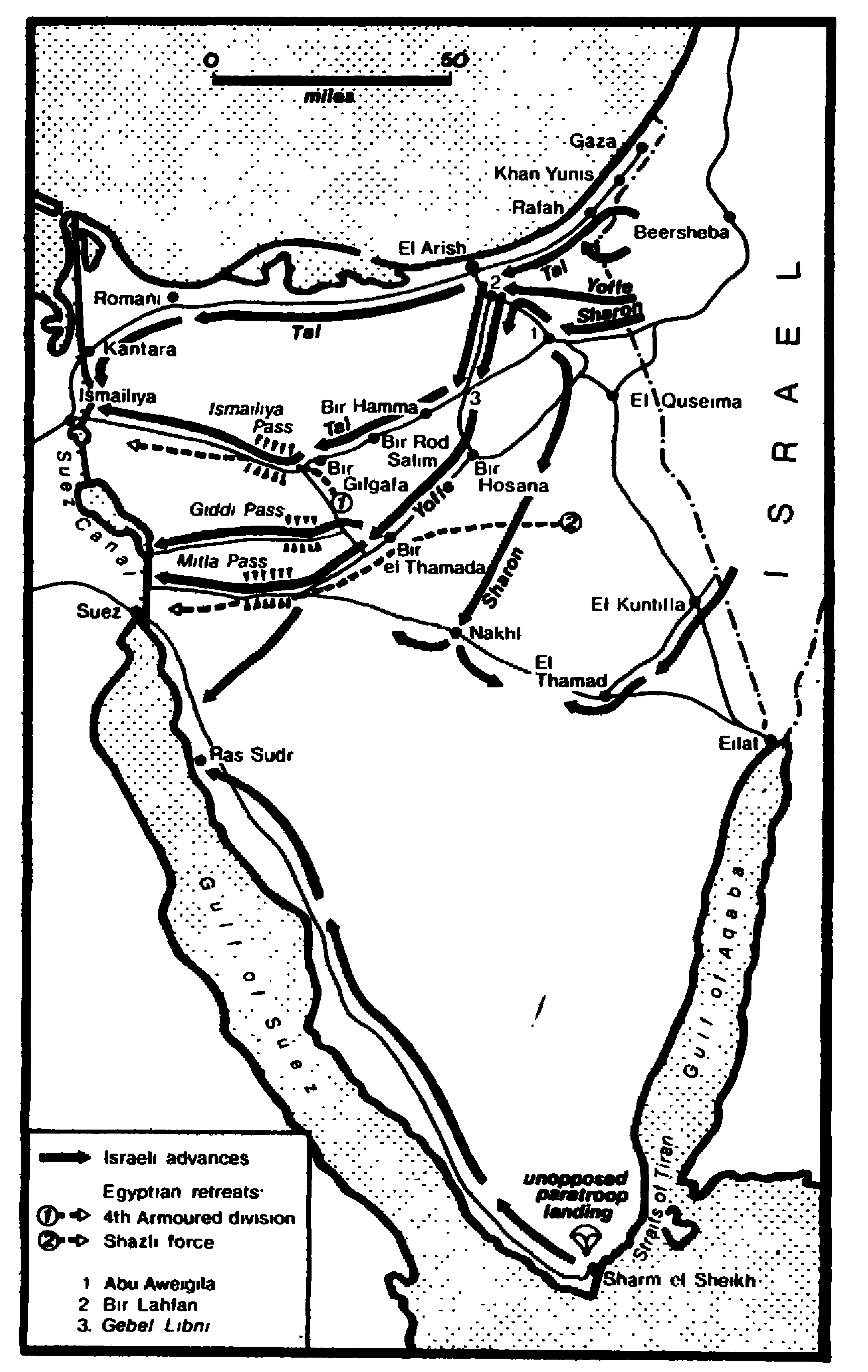
على الشفط والتل الفرنسى المنيعين خلال وقت متأخر من الصباح وفى ضحى اليوم التالى وانه بالاستيلاء على الموقع الأخير انضم لواء بن آرى الى قوات المظلات التابعة لجور ــ وبذلك استكملت حلقات السلسلة الاسرائيلية حول المحيط الشمالى للقدس • وفى الساعة ١٧ والدقيقة ١٥ اتجه آرى الى الشمال مرة أخرى تجاه رام الله • وأخذت الحلقة تضيق ببطء حول جيش الملك حسين •

وفى مساء ٦ يونيو لابد وأن الملك سيء الحظ قد سمع بوضوح باب الفخ يفتح تحت قدميه عندما اتصل به عبد الناصر بالتليفون ليخبره بأن السلاح الجوى المصرى قد دمر صباح اليوم السابق • وبعد ساعة أو نحوها استقر رأى الملك حسين على أمر ما ففى الساعة ٣٠ و ٢٢ صدرت الأوامر للجيش الاردنى بالعودة عبر نهر الأردن وقد قرر الملك انعقاد جيشه وعرشه على حساب الضفة الغربية •

ولقد كان ذلك قرارا حكيما ولكنه بعد ذلك بساعة أو نحوها غير رأيه مرة أخرى • وذلك أن امكانية حدوث وقف لاطلاق النار ــ وهو ما كانت تطالب به الأمم المتحدة ــ قد أغراه بترك الجيش حيث كان • لانه سيكون من دواعى السخط أن يضحى بالضفة الغربية دونما داع • ولكن هو ذا نداء الأمم المتحدة بوقف اطلاق النار يرفض والآن فان الجيش ، الذى ينسحب بعض والبعض لا ينسحب ، والضفة الغربية سوف يفقدهما كليهما وهناك عزاء واحد ، وهو أن تردد الملك العصبى قد أنقذه من انسحاب مكشوف ومن ثم ، من فقد عرشه أيضا •

وفى الوقت نفسه انهار جيشه فى حالة من الفوضى • وفى ليلة ٦ ــ ٧ يونيو قامت المدرعات الاسرائيلية على طريق طوباز اللولبى باختراق الطريق الاردنى وتقدمت بسرعة صوت الجنوب الى نابلس ــ وكان العامة الذين ظنوا أنهم عرايتون قد أصابهم الهياج الشديد • وتقدمت المدرعات الاسرائيلية أكثر وتحولت شمالا على طريق نابلس ــ جنين الرئيس وعند سباستيا لحقوا بقوات الصد الأردنية على ذلك الطريق من الخلف • وسقطت السامرا •

وعلاوة على ذلك ففى الجنوب شنت هجمة رابعة ضد سلسلة جبال أوجستا فيكتوريا الساعة الثامنة ولقد كانت خالية لان القوات الاردنية التى انسحبت ليلا لم تعد اليها مرة ثانية • وبعد ساعة أو أكثر لتدفع



0
50
miles
Gaza
Khan Yunis
Rafah
Beersheba
El Arish
Romani
Tal
Yoffe
Sharon
Kantara
Ismailiya
Ismailiya Pass
Bir Hamma
Tal
Bir Rod Salim
Bir Gifgafa
Bir Hosana
El Quseima
Yoffe
Giddi Pass
Mitla Pass
Bir el Thamada
Sharon
Suez Canal
Suez
Nakhl
El Kuntilla
El Thamad
Eilat
Ras Sudr
ISRAEL
Gulf of Suez
Gulf of Aqaba
Straits of Tiran
unopposed paratroop landing
Sharm el Sheikh
Israeli advances
Egyptian retreats:
4th Armoured division
Shazli force
1 Abu Aweigila
2 Bir Lahfan
3. Gebel Libni

Sinai, 1967

رجال المظلات التابعين لجور الى المدينة القديمة • ولقيت أقل مقاومة ممكنة واستردت مدينة الملك داوود ــ وفقدت بمدينة صلاح الدين مرة أخرى وعادت الى الخونة •

وعند منتصف نهار ٧ يونيو كانت الضفة الغربية تقريبا فى أيدى الاسرائيليين ووصلت القوات الى كوبرى الضــحية على نهر الاردن ودخلت أريحا وكانت عناصر من لواء اتزويونى تدخل بيت لحم والخليل فى أعقاب الاردنيين المنسحبين •

— ٧ —

وبحلول مساء السادس من يونيو كانت القيادة المصرية ، كالقيادة الاردنية تتنازعها الرغبة فى انقاذ جيشها والرغبة فى عدم التخلى عن أرض لها دون مقتض • وبدا للمشير عامر أن اختراق القوات الاسرائيلية للمواقع المصرية فى العريش وأم قاطف نذير باحتمال القضاء على القوات المصرية فما كان منه الا أن أمر بانسحاب شامل من سيناء • ولكن ناصر الذى كان أقل نزوعا الى الخوف والهلع وكان يعتقد ان خط الهضــبة الوسطى لا يزال ممكنا الصمود فيه ألغى أوامر المشير عامر الذى لم يملك الا أن يلغى الاوامر الصادرة بالغاء أوامره هو • ولم يكن لهذا التراشق المستمر من الأوامر المتعارضة من نتيجة ــ وقد تلقته بعض الوحدات دون البعض الآخر بالنظر الى تعطل وسائل الاتصال المصرية المعتــاد تقول لم يكن له من نتيجة ايجابية بالنسبة لرفع معنويات القوات المصرية وانما أدى فقط الى شيوع حالة من عدم التيقن أدت بدورها الى الذعر حول التقهقر غير المتماسك الى حالة من الفرار الصريح الذى لا يلوى على شىء • ولقد استولى الضباط على أول وسيلة من وسائل المواصلات استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليها تاركين الجنود ليتخلوا عن أسلحتهم وزيهم العسكرى من أجل المسيرة الطويلة بطيئة الحركة عبر الصحراء الى القناة • وهكذا تفكك الجيش المصرى فى بطء •

وفى جبل لبنى ، وذات نفس المساء ، تحدث قادة الفرق الاسرائيلية الى جافيش القائد العام للجبهة الجنوبية بينما كان الجنود يستريحون بعد ٣٦ ساعة من النشاط العسكرى المتصل واستقر رأيهم أن هدفهم ــ وهو تحطيم الجيش المصرى ــ يمكن تحقيقه انئذ على خير وجه بتقدم المدرعات بأقصى سرعة صوب ممرات الهضبة الوسطى • حيث يتخذون

مواقع يغلقون منها تلك الممرات فى وجـه القوات المصرية المنسـحبة انسحابا بطيئا ناحية الغرب • وخصصوا فرقة طال لممر الاسماعيلية ، وفرقة يوفى لممرى الجدى وميتلا •

وشرعت المدرعات فى التقدم غربا صباح يوم السابع من يونية حيث قابلتها مقاومة ضئيلة من آن لآخر من جانب المعسكرات المصرية المتناثرة هنا وهناك على طول الطرق الصحراوية • ولقد شقت دبابات طال طريقها عن طريق بير حما وبين روض سالم بمساعدة سلاح الطيران الاسرائيلى، وعند العصر استولت على مواقع تتحكم فى تقاطع بير خفجافة • وبعد وصولهم بوقت قصير أبصروا جل الفرقة الرابعة المدرعة تسير فى الطريق من بير التمادة وقد اعتزمت الفرار من ممر الاسماعيلية ، فدارت معركة بين الدبابات خلال فترة المساء أبلى فيها سلاح المدرعات المصرى ـــ وهو الذى كان قائد قد انسحب من قبل الى القاهرة ـــ بلاء حسنا ، حيث جاهدت غالبية الفرقة الرابعة المدرعة لكى تشق طريقها فى الممر من قبل أن تتمكن المدرعات الاسرائيلية من جلب قوة كافية لاغـلاق المدخـل الشرقى للممر •

والى الجنوب كان يوفى يواجه المشاكل هو الآخر • فبعد أن سار بقواته عن طريق بير الحسنة وبير التمادة لكى يصل على بعد ميل واحد من ممر ميتلا فى الساعة ١٧٫٠٠ اكتشف أن رأس حربته قد نقصـت حتى صارت تسع دبابات منها أربعة كان يجرى سحبها مقطورة • وليس غريبا اذن أن تجد هذه القوة الصغيرة أنه يستحيل عليها أن تغلق الممر بفاعلية ، ومرقت قوة مصرية من خلاله من قبل أن يعمل الاسرائيليون على تضييق الممر (والممر هنا بمعنى الطريق) بالسـيارات المحطمة • وبالليل أقدم يوفى على اتخاذ خطوة تنطوى على المخاطرة ولكنها نجحت حين بدل لوائيه فى خضم المعمعة (اللواء السليم الصحيح باللواء الذى أنهكته الحرب) وما أن حل الفجر حتى كان ممر ميتلا قد أغلق نهائيا •

لم يكن هناك ثمة أمل الآن بالنسـبة للقوات المصرية التى كانت لا تزال موجودة شرقى الهضبة الوسطى ، فبينما كان طال ويوفى يسيطران على الممرات كان السلاح الجوى الاسرائيلى يأخذ نصيبه من المصريين المنسحب فكانت كل هجمة مغيرة للطائرات تخلف وراءها صفا من السيارات المحطمة ، وكان لهذه الصفوف أثر بعاكس هو أنها كانت بمثابة عنـق للزجاجة هنا وهناك فتفوق الصفوف المتتابعة من السيارات التى كانت

لا تزال تتحرك عن الحركة وتجعلها هدفا سهلا للصواريخ وقذائف النابالم وغارات النسور الغضبة المنقضة من فوقها •

وبعيــدا الى الشرق كانت القوات البرية الاسرائيلية مشبـغولة بعمليات التطهير ففى صباح اليوم السابع من يونية سقط قطاع غزة بعد قتال عنيف بمدينة خان يونس • وأما شرم الشيخ فوجدت مهجورة • وأمضت فرقة شارون يوم السادس فى تصفية أم قاطف • وفى اليــوم السابع اتجهت جنوبا عبر الفياف تجاه نخل بحثا عن قوة الشاذلى والفرقة السادسة مشاة • فأما القوة الأولى فانها تقهقرت عبر مؤخرة شارون بينما كانت الفرقة نائمة ليلة ٧ ــ ٨ يونية ولكن الفرقة السادسة المشاة لم تكن محظوظة مثلها ، لأنها بينما كانت تتقهقر غربا عن طريق الحجاج صوب نخل وجدت نفسها فى مصيدة يصدق عليها وصف شارون بأنهــا « وادى الموت » حيث وجدت القوات الاسرائيلية فى مؤخرتها وفرقة شارون أمامها •

وقبــل ذلك بيومين كانت قوة صــغيرة من فرقة طال قد غادرت العريش فى الساعة ٣٠ر٢٢ من يوم السادس متجهة على الطريق غربا شمالى سيناء وفى تلك الليلة وفى اليوم التالى استمرت القوة فى مسيرها مواجهة أقل مقاومة ممكنة • وأمضت الليلة التالية بالقرب من رمانة وبات من المتوقع أن تندفع اندفاعا سهلا الى القناة فى اليوم التالى • غير أن المقاومة المصرية تزايدت فى صباح يوم الثامن ، مما اضطر الوحدة لأن تشق طريقها بالدخول فى اشتباكين شديدين ظل سلاح الطيران المصرى خلالهما ساكتا قبل أن تصل آخر الأمر الى ضفة القناة بالقرب من القنطرة فى الساعة ٠٠ر٢٠ •

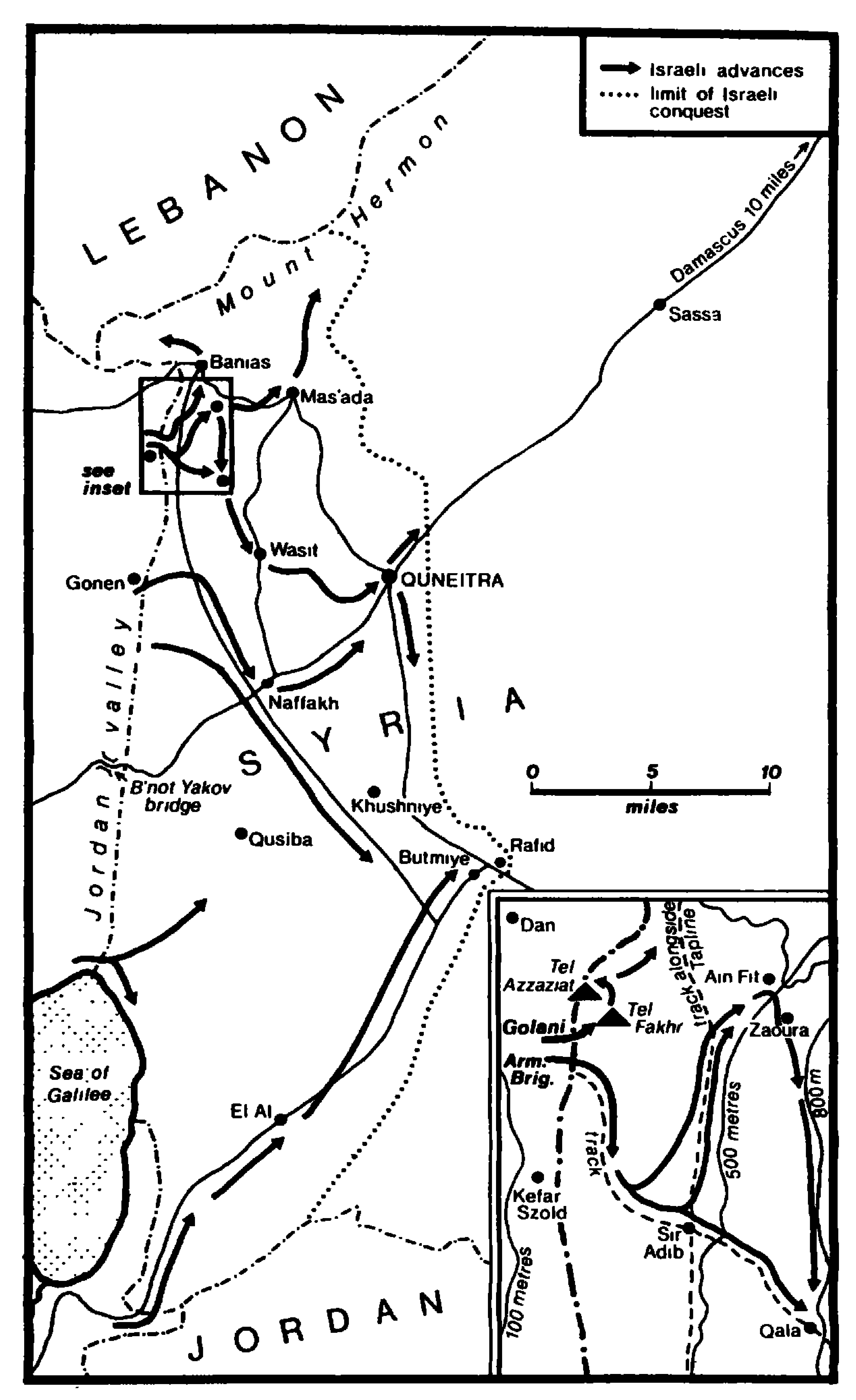
وأما فى الداخل فان فرقتى طال ويوف كليتهما أمضت النهــار فى السعى ، للسيطرة على ممرات متلا والجدى والاسماعيلية ونجحت فى ذلك بمساعدة سلاح الطيران الاسرائيلى • وما أن هبط الليل ــ وسمعوا أن وقف اطلاق النار يوشك أن يحدث الا وأرسلت الفرقتان قواتهما للرقعة المتبقية من الصحراء قبيل القناة التى وصلوا اليها فى الساعات الأولى من صباح يوم التاسع من يونية ، مخلفين بذلك غالبية الجيش المصرى خلفهم مبعثرة فى سيناء ، بينما أسلحتها ووسائل مواصلاتها ما بين محطم ومهجور وقد استسلمت حشودهم للصحراء التى لا ترحم •

— ٨ —

الآن وقد تحطم اثنان من جيوش خطر المواجهة العربية الثلاثة ولم يبق سليما غير الجيش السورى وأخذ الضغط الدولى يتزايد من أجل وقف اطلاق النار فان قوات الدفاع الاسرائيلية استعدت لكى تهاجم مرتفعـــات الجولان •

ولقد كان الجيش السورى الذى يسيطر على تلك المرتفعات يشبه الجيش المصرى كثيرا جدا • لأنه تلقى ، مثله ، معونة عسكرية من الاتحاد السوفيتى خلال السنتين السابقتين على القتال مما ضاعف قوة دباباته من الناحية الفعلية وحاملات جنوده المدرعة ، وكان لديه ٦٠٫٠٠٠ رجل تقريبا تحت السلاح بصفة دائمة بالاضافة الى ٤٠٫٠٠٠ من جنـــود الاحتياط المدربين كانوا فى الانتظار • ولكن تلك الأسلحة لم يكن قد تم استيعابها استيعابا صحيحا ، مثلما حدث للجيش المصرى ، فى الزمن القصير منذ وصولها وكانت الأسلحة تعانى من عدم كفاءة الصيانة ، وكان الجيش على وجه العموم يعكس الانقسامات العميقة للمجتمع السورى • وهى تلك الانقسامات التى زادت من حدتها الانقسامات المزمنة للفرق السياسية السورية •

على أن السوريين كانوا يتمتعون فعلا بميزة كبرى وهىأن الجدار الغربى لهضبة الجولان يشكل عقبة طبيعية من الطراز الأول بامتداده المباشر على طول الحدود من مركز جبل الشيخ الى وادى اليرموك ، وهو يبدو للناظر من اسرائيل كصخرة جرداء صلدة ، والحكم بحسب ظواهر الحال لايمكن أن يكون خادعا جدا فى هذه الحالة وأما فى القطاع الأوسط ما بين قنطرة بناتيعقوب وكرسى فان المنحدر أقل تحدرا بعض الشىء ،



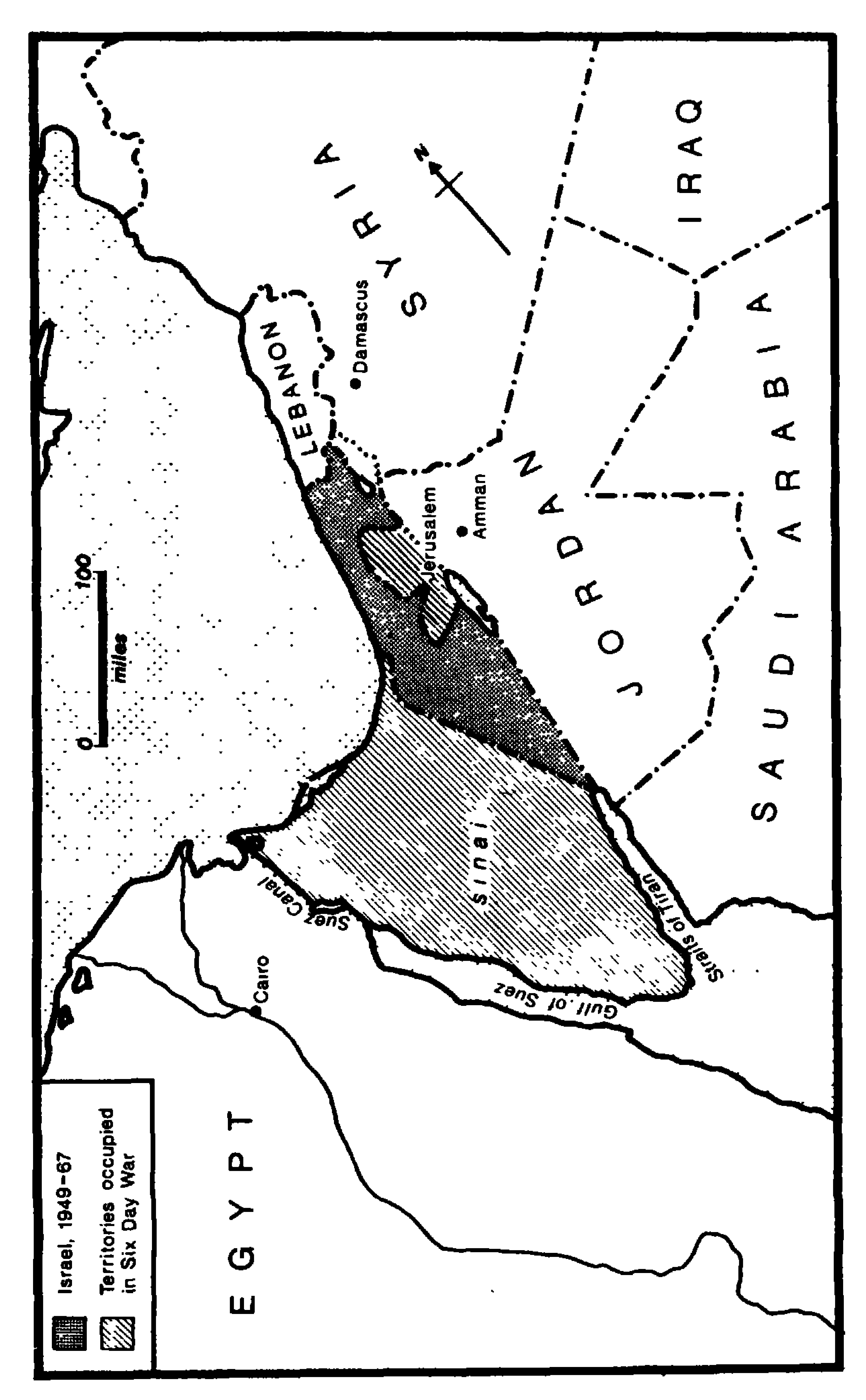
Israeli advances
limit of Israeli conquest
LEBANON
Mount Hermon
Damascus 10 miles
Sassa
Banias
Mas'ada
see inset
Wasit
QUNEITRA
Gonen
Jordan valley
Naffakh
SYRIA
B'not Yakov bridge
Khushniye
Qusiba
Rafid
Butmiye
0 5 10
miles
Sea of Galilee
El Al
JORDAN
Dan
Tel Azzaziat
Tel Fakhr
track alongside Tapline
Ain Fit
Zaoura
Golani
Arm. Brig.
track
500 metres
800 m
Kefar Szold
Sir Adib
100 metres
Qala

Golan, 1967

والى الشمال والجنوب من هذا القطاع تبدو الهضبة متعذرا دخولها وحصينة بما فيه الكفاية ، فالمرتفعات ليس بها سوى القليل من الفتحات ، والموجود منهاعبارة عن طولية فى الأودية المنحدرة تؤدى الى القمم العالية وحتى الأجزاء التى تنحدر انحدارا تدريجيا فانه تكتنفها كتل ضخمة من البازلت • ومن هـذه المرتفعات كثيرا ما أمطر السوريون المستعمرات الاسرائيلية أسفل الوادى بالقنابل • وعلى طول امتدادها والى الخلف مسافة عشرة أميال بعمق الهضبة فان السوريين جاهدوا ليضيفوا الى عمل الطبيعة نظاما من الدفاعات التى يعتمد بعضها على البعض الآخر • فأنماط الدفاع السوفيتية المألوفة قد طعموا بها الطبوغرافيا ، ومنشآت الخرسانة المسلحة طعموا بها الصخور • وكانت مواضع المدافع الكثيرة تطل من فوق على الاسرائيليين • فلم يكن هناك من سبيل حول خط ماجينو هـذا • فاذا أراد الاسرائيليون أن يلتحموا بالجيش السورى فعليهم أن يصعدوا اليه •

وذلك لأن السوريين لم يظهروا رغبة فى النزول الى الاسرائيليين ولديهم هذا الموقع الذى وهبهم الله اياه • ففى الوقت الذى احترق فيه الأردن وسيناء كان الجيش السورى تافها يشن هجمات تبعث على السخرية على مستعمرتين قريبتين (تنزلا بهما خسائر جسيمة) • ومن آن لآخر يشن هجوما جويا وحيدا أو هجومين على بعثات كاميكاز التبشيرية داخل الفضاء الجوى الاسرائيلى • وكان لديهم بالفعل خطة استراتيجية لغزو اسرائيل • ولكن كان لديهم خطة أخرى لاحتلال شمالى الأردن ، ويبدو أن الحكومة السورية وقد أحنقها احتضان ناصر لحسين ، كانت تفضل تنفيذ الخطة الأخيرة • غير أن التضامن العربى كان هو الأمر اليومى مما لا يمكن معه تنفيذها • وظل الجيش السورى يمارس هوايتـه التى ألفها زمن السـلم وهى أن يمطر المستعمرات الاسرائيلية بالقـذائف ثم ينتظر وقف اطلاق النـار أو أن تحـل بالاسرائيليين اللعنة •

ولقد التزمت القيادة الاسرائيلية العليا وضعا دفاعيا فى الشمال عندما كانت قواتها منمهكة فى القتال تماما فى الأردن وسيناء • ولقـد كان دافيد اليعازر قائد الجبهة الشمالية ورئيس الأركان العامة مستقبلا يريد أن يهاجم بالقوات التى تحت تصرفه غير أن رؤساءه وبخاصـة وزير الدفاع ديان كرهوا أن يخاطروا بهجوم ليس على درجة كافية



SYRIA
IRAQ
N
LEBANON
Damascus
Jerusalem
Amman
JORDAN
SAUDI ARABIA
0
100
miles
Sinai
Suez Canal
Straits of Tiran
Gulf of Suez
Cairo
EGYPT
Israel, 1949-67
Territories occupied in Six Day War

10 June, 1967

من القوة ضد العمق المعروف للدفاعات السورية • وبحلول مساء اليوم السابع أتاح النجاح فى الجبهات الاخرى للاسرائيليين أن يرسلوا بعض احداث لتتخذ أماكنها فى الشمال ، لكن الضباب أخفى الرؤية وهضبة الجولان صباح يوم الثامن وجعل القيام بهجوم أمرا غير ممكن التفكير فيه • وبعـــد الظهر اذ لاح فى الأفق وقف عام لاطلاق النـــار وظهرت تلميحات قوية بتدخل سوفيتى فان ذلك أغرى الاسرائيليين بالانتظـــار برهة أخرى • فلم يكونوا يرغبون فى أن يتكبدوا خسائر جسيمة ، ولا يصلون الا الى منتصف الطريق حول هذا الموقع الدفاعى ثم يوقفهم ضغط الدول العظمى • وخلال ذلك الوقت كان سلاح الطيران الاسرائيلى يقصف المواقع السورية ، وأعطيت الوحدات التى أرسلت الى الشمال على عجل بعد عدة أيام من النشاط العسكرى المكثف الفرصـــة لكى تستريح وتستجم • وأما السوريون الذين كانوا حتى الآن بعيدين من الناحية الفعلية عن متناول اليد فانهم اذا رفضوا وقف اطلاق النار ، فعلى الاسرائيليين حينئذ أن يشنوا هجومهم صباح اليوم التالى •

وفى الساعة ٣٫٢٠ من صباح اليوم التاسع من يونية • قبلت سوريا نداء الأمم المتحدة لوقف اطلاق النار ، ولكن سرعان ما تكشف أن أيا من الجانبين لم يكن يراعى وقف اطلاق النار • ويبدو ، فى هذه الحالة ، أن الاسرائيليين ،وقد كانوا يرغبون فى ألا يفهم شىء من تصفية حسابهم مع عدوهم اللدود ، كانوا هم المواتين • وسواء كان هذا أو ذاك فانهم بدأوا هجومهم عندما انتصف الصباح بعد عدة طلقات تمهيدية لسلاح الطيران الاسرائيلى • وقد اختار اليعازر قطاعا ضيقا فى أقصى الشمال لاقتحام الموقع منه • وهنا كانت حافة الهضبة شديدة الانحدار غير أن وسائل الدفاع كانت أقل كثافة نسبيا وأقل عمقا لدرجة كبيرة • فمتى استطاع الاسرائيليون أن يصعدوا الى القمة فى هذا القطاع فانهم سيكونون فى موقع مثالى للسير منه جنوبا فى طريق بانياس ـــ بوطمية ، وبذلك يزعزعون الصفوف السورية كلها ويضطرونها الى انسحاب عام •

ولقد كانت القوتان اللتان وقع عليهما الاختيار لتقودا هذا الهجوم الكبير هما لواء احتياطيا مدرعا ولواء جولانى للمشاة الميكانيكية ، وكان على أولاهما أن يصل الى قرية القلعة المحنة حول القمة ، وكان على الثانية أن تطهر الجناح الشمالى بالاستيلاء على تل عزازيات ذى الموقع الممتـــاز •

عمل خبراء الألغام الاسرائيليون جاهدين لشق طريق وسط حقول الالغام على جانبى الحدود بينما كانت نار المدفعية السورية تدوى فوقهم ومن حولهم (ولقد ظل بعض رجال المدفعية السورية يصوبون نيرانهم الى المستعمرات الاسرائيلية فى الوقت الذى كان الهجوم يحرز تقدما فيه مما أحزن مستشاريهم السوفييت) • وفى الساعة ١١٫٣٠ عبرت الدبابات التى فى المقدمة وشرعت فى الصعود ، وسرعان ما كانت تدق الطريق صاعدة المسالك المنعرجة وسط ستارة من نار المدفعية والمدافع المضادة للدبابات والدبابات المتمركزة وقام سلاح الطيران الاسرائيلى بالمساعدة التكتيكية ضاربا المواقع السورية فى الخط الامامى بالنابالم والمواد شديدة الانفجار • ثم عملت المدرعات مقتحمة موقعين دفاعيين بحثا عن منعطف زاؤورا الواقع الى اليسار على الطريق المراد المؤدى الى القلعة • ولكن الفريق الاول من المقاتلين أخطأ الهدف وسار فى طريق اكثر استقامة أدى به الى أن صعد الى ساحة قتال فى موقع السير آديب ، فحمل الاسرائيليون وهاجموا مرة أخرى واجتاحوا الموقع • ومن هنا انحدر الطريق الى أسفل التل ثم دار دورة حادة صاعدا من جديد ناحية القلعة • وكان يوجد فى أحد الجناحين موقع دفاعى قوى تملؤه المدفعية والدبابات ، وعلى الجناح الآخر كانت ثمة هضبة مليئة بالمدافع المضادة للدبابات فلا عجب اذن فى أن الوحدة الاسرائيلية كانت قد خسرت ،عندما وصلت القلعة كل شيء فيما عدا دبابتين وثلاثة من الضباط المتعاقبين على القيادة • وفى القرية نفسها قضى على الباقين نيران المدافع الرشاشة ووصـــول وحدة سورية مدرعة •

ولقد اشتبك لواء جولانى هو الآخر فى صراع مرير • فعنـــدما اخترق الحدود فى الساعة ١٤٫٠٠ حاول أن يدور حول تل عزازيات للقيام بهجوم أكثر سهولة على المنحدر الشرقى ، ولكن أوقفه وهو فى الطريق موقع دفاعى شامل قوى فى تل فخر ، وكان القتال باهظ التكاليف كذلك القتال الذى دار فى سبيل مدرسة الشرطة بالقدس • فمات سبعة وثلاثون اسرائيليا عندما اخترق المشاة حقول الالغام والاسلاك الشائكة والخنادق للالتحام بالمدافعين الســوريين والاشــتباك معهم بالايدى والسكاكين والاسنان وأعقاب البنادق • وبعد ذلك بساعة ، أى حوالى الساعة ١٩٫٠٠ استولوا على تل عزازيات دون كثير عناء •

وفى أثناء ذلك وصل الفريقان الآخران من المقاتلين التابعين للواء

المدرع الى زاؤوا – سالكين طرقا مختلفة وقت العصر بعد أن تغلبوا على الدفاعات التى صادفوها فى الجنوب تجاه القلعة ليصلوا القرية فى الساعة ١٨٫٣٠ وينجدوا حرس الطليعة الاسرائيلى ٠

وتم للاسرائيليين فتح ثغرات أخرى أصغر من ذلك فى صفوف السوريين فى مساء التاسع من يونية ، وفى صباح اليوم التالى شرع الاسرائيليون فى شن الهجوم على طول معظم جبهة الجولان حيث قام لواء جولانى ، الذى تعرض لقصف القذائف من هضبة بانياس طوال الليل بتطهير كل المنطقة الواقعة الى الشمال من موضع اختراقه الأصلى بين الزاؤوه والحدود اللبنانية ٠ وشق اللواء المدرع طريقه الى الجنوب من القلعة مارا بالواسط الى المنصورة فى الساعات الأولى من الصباح (أى بعد الفجر) ٠

وفى دمشق كان هناك جو من الذعر المتزايد ٠ ولما كان فى نية الحكومة أن تعجل بوقف اطلاق النار وبذلك تحتفظ بمساحة أكبر من الأراضى التى تحت يدها فانها أعلنت عن طريق الاذاعة السورية أن القنيطرة قد سقطت فى الساعة ٨٫٤٥ ٠ أى قبل أن تصلها القوات الاسرائيلية لتجدها خالية بحوالى ست ساعات ٠ ونتج عن هذه الاذاعة المتسرعة عكس ما كان مقصورا منها اذ انهارت المقاومة السورية فى الميدان فجأة لان الجيش ، وكان يقوده ضباطه هذه المرة ، عمل على شق طريقه فى اتجاه الشرق من خلال تطويق اسرائيلى غير قائم ، وحينئذ تقدم الاسرائيليون فى وجه مقاومة لا تذكر الى خط بانياس – رافد على طول وسط الهضبة ٠ وفى وقت مبكر من المساء كانت حرب يونية قد انتهت ٠

– ٩ –

لقد عبرت القوات الاسرائيلية قناة السويس الى داخل الأراضى المصرية ، وعبرت نهر الاردن عند الجبال المرتفعة فى اتجاه عمان ، وهبطت الطريق المتجه الى دمشق من فوق قمة هضبة الجولان ، وفى خلال ستة أيام أحرزت انتصارا رائعا ، وقضوا على جيوش الدول العربية الثلاث فى مقابل خسارة ٧٠٠ رجل ٠

ولكنه لم يكن نصرا شاملا ، ولا كان من الممكن أن يكون كذلك ٠ فلم تكن هناك قوات اسرائيلية فى القاهرة أو فى دمشق أو فى عمان ٠ فلقد كان

بوسع قوات الدفاع الاسرائيلية أن تدفع العربى بعيــدا عن فلسطين على الدوام ولكنها لم تكن لتستطيع أن تمسك بناصيتها ويجبرها على التخلى عن مطالبتها بالأرض . وحتى لو لم يكن هناك ضغط دولى ولا دول عظمى حريصة على بقاء ميزان الرعب بالشرق الأوسط فى أصغر حالاته فان الاسرائيليين لم يكن باستطاعتهم أن يحتلوا الدول العربية ويفرضوا عليها السلام الذى يروق لهم .

ان اخضاع الدول التى تغلب عليها صفة الدول غير الصناعية ليس سهلا سهولة اخضاع جيوشها . ولقد كان المغول هم أول من مارس هذا الفن القديم ، حيث كانت وسائلهم تعتمد على ابادة الشعوب والجماعات ونهب وتخريب الممتلكات بما لا يدانيهم فيه أحد ولكن اسرائيل ما كانت لتستطيع ، ولن تستطيع التفكير فى مثل هذه الوسائل خدمة لأهدافها .

ومع كل فما هى البدائل ؟ لقد كان هناك بديل واحد هو أن تستقبل حقيقة واقعة وهى أن العرب لم يتخلوا عن مطالبتهم بفلسطين ، وأن حرب يونية بالنسبة اليهم كانت ، كما قال عبد الناصر « نكسة » أكثر من كونها قرارا مصيريا ، وأن تنتظر الجولة التالية فى الوقت الذى أخذت الأسلحة السوفيتية والمستشارون السوفييت يتدفقون فيه لكى يعيدوا تنظيم الجيوش التى تفككت ولكى يعيدوا تسلحها بالســلاح والعتــاد .

فمن الناحية السياسية لم يتغير شىء اذن سوى القليل ، وبطبيعة الحال فسوف تحدث تحركات دبلوماسية ولكن لن يحملها أحد على محمل الجدية البالغة . ولربما تحرك العرب على مستويات أخرى من الصراع — كحرب رجال العصابات فى الأراضى المحتلة حديثا ، ومثل دبلوماسية البترول والارهاب الدولى — فى حين تتأهب جيوشهم لخوض غمار الحرب التقليدية التالية . واذن فهذه الحرب لم تحل شيئا . والنصر الاسرائيلى الذى بدأ بقوة الميراج واستمر ساعتين فوق مصر لم يزد فى حــد ذاته الا قليلا عن كونه ميراج (أى لم يزد عن كونه شيئا وهميــا) .

* * *

الجـزء الثـانى

الفصـل التاسـع

فى بـلاد أخـرى

النضـال من أجل السلام ٦٧ ــ ٦٩

هـذا هو فليبـاس الفينيقى ، وقـد مضى على موته
أسبوعان لقـد نسى صيحـة طيـور النـورس ،
والأمواج العالية فى عرض البحر ، ونسى الربح والخسارة
ولـكن تيـارا من الماء تحت سـطح البحـر يلتقط
ما بقى من عظـامه ، وهـو حيث نهض وحيث كبـا
فانه من خـلال ذلك بمراحـل عمـره وبمراحـل
شـبابه ليدخـل الدوامة .

فسـواء اكـان مسـيحيا أو يهـوديا
فيـا من تـدير عجـلة القيـادة فى السـفينة
وتنظـر الى مهـب الـريح ، تـذكر فليبـاس
الذى كان ذات يوم فى مثل هندامك وفى مثل طولك

(تى.اس.اليوت. « الموت فى المياه » ، الأرض اليباب)

ــ ١ ــ

تسالوننى عن سـياستى الداخلية ؟ ان سـياستى الداخلية هى أن أخوض غمار الحرب . وتسالوننى عن سياستى الخارجية ؟ أن سياستى الخارجية هى أن أخوض الحرب . فدائما أخوض الحرب فى كل مكان ــ وسأظل أخوض الحرب حتى اللحظة الأخيرة .

جورج كليمانصو سنة ١٩١٨

وقفت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى بمنأى عن حـرب سيناء ، وهما ترقبان الاستعمار من النوع العتيق يقاوم بعنف المد التاريخى الذى لا يقاوم . وقبل حرب الأيام الستة وجدت الدولتان نفسهما متورطتين ضد مشيئتهما ، فحاولت تهدئة كل انسان له صلة بالموقف ، وهما

فى حالة عزوف عن القيام باجراء ، ولكنهما وجدتا نفسهما،وبالتدريج،يدفع بهما ـ الى وسط خشـبة المسرح على الرغم من محاولاتهما البطولية التشبث بالمدخل المؤدى اليها • وأن تقفا على الجانبين ترقبان التمثيل ولا تخطوان على خشبة المسرح الا حينما يتصايح جمهور النظـارة « يحيا المؤلف ، يحيا المؤلف » • ولكن للأسف فان ذلك لم يكن ممكنا • فالعرب لم يرتاحوا للأدوار التى أسندت اليهم • وكذلك لم يحب الاسرائيليون أدوارهم وقاموا ،كما كانوا ليبرهنوا على ذلك ، بشق طريقهم حسبما اتفق فى كل اتجاه بمصر والأردن وسوريا • وهكذا فقـد هدد الممثلون بأن ينقلبوا على المؤلفين وهدد جمهور المشاهدين من الأمم المختلفة بالانضمام اليهم منحازين الى هذا الطرف أو ذاك من فوق منصة الأمم المتحدة • واذن فقد كان من المتعين أن يفعلوا شيئا وكان على المؤلفين أن يتدارسوا الأمر معا ويأتوا بحكاية مسرحية مختلفة اختلافا كليا •

فللمرة الأولى فى عشرين عاما تقريبا يتغير الموقف فى الشرق الأوسط تغيرا عنيفا عندما أحرزت اسرائيل نصرا لم يدهش بقية العالم فحسب ولكنه أدهش وهز المنتصرين والمنهزمين على السواء هزا عنيفا ، ولـم يستغرق الأمر وقتا طويلا لكى يفيق الاسرائيليون من دهشتهم• فتحولت التوكيدات التى أعلنوها قبل الخامس من يونية بأن اسرائيل لا تسعى من التوسع الاقليمى الى مطالبات بأنه لا ينبغى لها أبدا أن تنسحب والسبب فى ذلك هو حجم الفتح فى حد ذاته • وفى حين أن ديان كان يسوق الحجج قبل نشوب الحرب على أنه من المستحيل الاستيلاء على شرم الشيخ • بدون غزو سيناء فان الساسة والعسكريين ، والمعقبين على الأنباء من معقبين سياسيين وعسكريين والمواطنين العاديين تحولوا الى القول ، بعد أيام قليلة فقط من وقف اطلاق النار ، بأنه يستحيل وضع يدهم على شرم الشيخ بدون احتلال سيناء • وكانوا قد ذكروا للجمهور الاسرائيلى فى الأيام الاولى من شهر يونية بأن أرواحهم ، وليس الدولة وحدها ، فى خطر • ولم يكن هناك بد من أن يحيق الخطر ببعض الأرواح ومن أن يخسروا بعض الأرواح الاخرى • ولكن الاضطلاع بحملة ناجحة لنزع سلاح العدو لم يكن كافيا ، فمضت المؤسسة العسكرية والسياسية تلتقط الأسلحة المنزوعة وتوجهها ضد ملاكها السابقين •

وكانت اسرائيل ، فى عهد حكومة أشكول ، قد ابتعدت عن اتجاهها العسكرى الصهيونى ، ولم تكن هزيمة أشكول السياسية فى الأول من

يونية فى حد ذاتها عودة للنظرية العسكرية لاسرائيل ، بل على العكس فان قبول اشكول لديان كان الاجراء الأخير اليائس الذى اتخذه لتحقيق وحدة الحكومة ولربما تكون اسرائيل قد حاربت وانتصرت فى ظل حكومة تعانى من نزاع مزمن بين أعضائها ، ولكن أشكول كان يشـك فى أن الديموقراطية الاسرائيلية ، كما كان يراها أيمكن أن تعيش مع هـذه الحالة من التقيح ، فالحكومة كانت عاجزة عن منع الروح العسكرية من أن تزداد قربا على الدوام من الحكم الاستبدادى المطلق ومع هذا فان حجم الانتصار الفعلى لاسرائيل بدا أنه لا يعجل بأى مستقبل منعـم بالأمل • فبعد حرب الأيام الستة كان ثلاثة أرباع الأرض التى تسيطر عليها اسرائيل موضوعا تحت الادارة العسكرية ـ كما لو كانت هنـاك دولة تحيط بالدولة • وبالتالى فان نفوذ العسكريين والجناح اليمينى الذى وقف خلفهم بكل ثقله قد ازداد •

وليس هناك ما هو أسهل مما يريد رجال الدعاية أن يصوروه • فاسرائيل ليست دولة توسعية ـ هكذا يقولون على الرغم من أن النتيجة الصافية لحربى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ كانت توسعا غير منكور فى أراضيها ولقد كان الدافع الوحيد الأكبر للاستيلاء فى سنة ١٩٤٨ على الأراضى المخصصة للعرب بموجب مشروع الأمم المتحدة للتقسيم هو أن تقسيم فلسطين الى منطقتين عربية ويهودية حسبما ارتأته الامم المتحدة ما كان ليمكن الأخذ به الا فى حالة استعداد العرب واليهود لقبول شكل من أشكال الاتحاد أو قبول اتحاد اقتصادى كما ارتأته الامم المتحدة كذلك • ولكن كان من الواضح أنه لا العرب ولا اليهود بقادر أيهما على تقبل مثل هذه الدرجة العالية من الاندماج ، فالشعبان ظلا فى حال عراك طوال عشرات السنين، وكان الفلسيطنيون العرب والفلسطينيون اليهود يطالب كلاهمـا بحكم ذاتى ، ولم يكن أيهما سيتخلى عن شبر واحد من الارض • فبالنسبة لليهود الأعلى والتنظيم نسبيا كان الاستيلاء على الاراضى التى تكفى لتحويل المناطق المخصصة لهم الى وحدة جغرافية قابلة للحياة ضرورة لا قميص عنها ـ وبدون ذلك ما كانت لتقوم دولة اسرائيل المستقلة •

وفى سنة ١٩٦٧ أوجد النصر ضرورة اقليمية ملحة أخرى • وذلك أن كثيرا من الاسرائيليين كانوا يرون أن التسوية التى حققتها الامم المتحدة فى سنة ١٩٥٦ هى السبب المباشر لعدوان العرب • وأن حدود ما بعد سنة ١٩٤٩ هى التى شجعت على استمرار الغارات المزعجة لرجال حرب العصابات وغيرهم من جنود الدول العربية والشعب الفلسطينى غير

النظاميين• وأجرى الاسرائيليون حساباتهم ، وكتب شيمون بيريز العضو المؤسس فى حزب رافى الذى أسسه بن جوريون قائلا : « ان الاراضى الواقعة تحت سيطرة اسرائيل منذ العاشر من يونيه سنة ١٩٦٧ ضعف أراضيها السابقة أربع مرات ، فى حين أن طول حدودها البرية قد انكمش الى الربع مما كانت عليه — ٢٥٤ كم (و ١٠٠٠ كم من الحدود البحرية)، هذا بينما أن فرنسا ، كما أوضح بيريز ، عندها أربعة أمتار من الحدود البرية فى مقابل كل كيلو متر مربع من الارض • أما النسبة فكانت ٥٠ : ١ بالنسبة لاسرائيل قبل يونيه ١٩٦٧ و ٧ : ١ بعده • فقد احتلت اسرائيل مرتفعات الجولان ذات الموقع المسيطر ، والضفة الغربية الخصبة حتى خط التقسيم الطبيعى لنهر الاردن وشبه جزيرة سيناء ذات الأهمية الاستراتيجية والفنية بمخزون المعادن حتى مرمى الحجر من قناة السويس • ومثل هذه المميزات الايجابية كانت مغنما بما أن اسرائيل كانت تحس بأنها فى حاجة ماسة لمناطق عازلة فشلت الامم المتحدة فشلا ذريعا فى أن تزودها بها • وكانت الغنيمة جذابة للغاية • وبعد أن احتلت القوات الاسرائيلية هذه الاقاليم فان كل الاعتبارات التى من هذا القبيل صارت مبررات لاستمرار الاحتلال •

فاذا سلمنا بأن اسرائيل كانت تحس بأنها مهددة ، بل وسلمنا بأن الشعب الاسرائيلى وجد أن من الصعب عليه أن يفصل بين مصيره هو وبين مصير الدولة التى ترعى أرواحهم ، فقد كان هناك مع ذلك قدر معين من الشعور بالصحة والاعتداد بالنفس ازاء كثير مما كتبه ومما قاله قادة الرأى العام الاسرائيلى فى أيام النشوة التى أعقبت الحرب • ولقد كتب المؤلف والكاتب المسرحى الاسرائيلى موشى شامير ولما يمض أسبوعان على وقف اطلاق النار رسميا قائلا : « ان المطالبة بألا نعيد لهم أى شىء •• هى أعظم موقف سلمى اليوم » • كما كتب يسوق الحجج فى جريدة معاريف المسائية الاسرائيلية فى شىء من المنطق المعكوس يقول : « ان هذا هو أوضح تعبير وأجلى بيان عن تطلعنا للسلام وهو ضمان السلام • بل وهو أكثر من ذلك : فالمطالبة بألا نتخلى عن شبر واحد من الارض تنطوى فى حد ذاتها على احساس سليم بالمحافظة على الذات وعلى النظرة السياسية السليمة لشعب سبق أن خدعته الأوهام ، وهذه المطالبة هى أيضا جوهر ما يشعر به الآلاف من

عدم الرغبة فى العودة الى الوراء الى الماضى القريب فى مجال وبأى معنى وفى أى صورة من الصور » •

على أن هذا الشعور لا يمثل السياسة الرسمية ، كما وأن كثيرا من الاسرائيليين لم ينظروا الى المسائل التى أوجدها انتصارهم نظرتهم الى صورة محددة الظلال واضحة القسمات بين الأبيض والاسود • ومع هذا فان مجرد اظهار مثل هذه الآراء واعطاءها ذلك المكان البارز يكشف كيف أن اسرائيل لم تبتعد الا قليلا عن الصهيونية المتشددة • فلقد كان شامير يمثل الحرب بأنها أمارة على « سقوط السيل الجارف •• الذى يكتسح كل شىء أمامه من جديد » ونحن لا يمكن أن نخطىء التماثل بين هذه اللغة ولغة هيرتزل الطنانة هنا أن أقول ان اسرائيل قد تكون معزولة عن بقية العالم — وسيكون عليها أن تواصل الحرب فى عالم السياسة ، فاسرائيل قد وحدها الشعور بأن وجودها ذاته مهدد وفى خطر • والأهم من ذلك كله ، كما يقول شامير وهو يلمح الى ما ورد بالتوراة عن «فأفأه» موسى أو تلعثمه فى الكلام أن « هذا السيل الجارف هو الذى أجبر القيادة على أن تكف عن التلعثم » •

وأنه لمن المؤسف أن نجد وجها للشبه بهذا الموقف فى التاريخ السياسى الحديث • فالأزمة التى واجهت الزعامة الاسرائيلية حلوها بتكوين «حكومة وحدة قومية» قوية تهتم اهتماما بالغا بالنواحى العسكرية والجدل الذى يقال عن المصير التاريخى ، وحق اسرائيل فى أن تفرض ما تراه هى من شروط على المناطق التى فتحتها ، بل والمنطق المعكوس الذى يوازن بين روح السلام أو النزعة السلمية والقوة العسكرية ، كل هذه أمور مألوفة ويالالأسى • وفى الاسابيع التى أعقبت انتهاء حرب الايام الستة لابد وأن يكون قد بدا للدول العربية المنهزمة أن الشىء الممكن جدا هو أن اسرائيل لم تعد هى الدولة التى تهتم فى المقام الأول بمجرد البقاء ولكنها دولة تسعى الى السيطرة على الشرق الأوسط بالقوة العسكرية •

واذا نظرنا الى وضع اسرائيل من أى اتجاه ، وسواء نظرنا من جانب قناة السويس (أو من جانب نهر الاردن) لوجدنا أن حرب الايام الستة قد غيرته تغييرا لا رجعة فيه • فلو تخلت اسرائيل عن الاراضى المحتلة كما سبق أن تخلت عن سيناء فى ١٩٥٦ — ١٩٥٧ لكان ذلك اعترافا

بالهزيمة أما اذا بقيت فيها فان ذلك هو اعلان الانتصار • ولكن النصر والهزيمة لم يكونا متصلين ، فى بساطة ، بوضع الدولة اليهودية فوق أرض فلسطين الانتداب السابقة المتنازع عليها ، فبعد ١٩٦٧ كان النصر أو الهزيمة مرتبطين بقدرة اسرائيل على السيطرة على مناطق من الارض بفضل حق الفتح ولا شىء آخر سواه ، وأما القانون الدولى ومشروعات التقسيم مرارات الأمم المتحدة فلم يكن لها شأن بهذا الموضوع — لان اسرائيل كانت موجودة فى الجولان وفى سيناء والضفة الغربية لأنهـا غنمت هذه الاراضى فى المعركة ولكون هذه الاراضى قد اكتسبتها اسرائيل بهذه الطريقة فلم يكن هناك أى قدر من الاقناع يمكن أن يؤدى بالمحتلين الى التخلى عنها •

ولقد صنع عقد واحد من الزمان كل هذا الاختلاف فى العالم • فبحلول سنة ١٩٦٧ كان واضحا أن أمريكا فى طريقها لأن تخسر حربها فى فيتنام وكانت مستعدة تماما لان تترك اسرائيل تقوم عنها بعملهـا العسكرى القذر • فالقوة الامريكية ، من خلال اسرائيل ، كانت مسـتعدة ولكنها عازفة عن مجابهة الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط •

ان انتصار سنة ١٩٦٧ كان حاسما أصاب كل الدول العربية التى تهدد اسرائيل بالشلل • فبفضل الاستيلاء على الضفة الغربية الى حد كبير أضحت الحدود الجديدة لاسرائيل أقصر من حدودها فى سنة ١٩٤٩ وأكثر سهولة من حيث الدفاع عنها ، ولم يكن الحال كذلك بعد حرب سيناء • ففى خلال السنوات العشر التى انتهت بـ ١٩٦٧ كانت اسرائيل قد أسست جيشا جيد التسليح عالى التدريب قادرا على السيطرة على مناطق واسعة بسهولة نسبية بل ان الاسرائيليين أنشأوا صناعة داخلية متطورة وعلى نطاق واسع نسبيا للسلاح ، وبذلك قللوا من اعتمادهم على المعونة العسكرية • ولكن أهم أوجه الخلاف بين الحقبتين اللتين أعقبتا حرب سيناء وحرب الايام الستة كانت تكمن فى التغييرات التى طرأت على المواقف الرسمية الاسرائيلية •

ففى سنة ١٩٥٧ ، واذ كانت اسرائيل ضعيفة وكثافة السـكان بها منخفضـة لدرجة كبيرة ، فانه كان لا يزال لديهـا بقية من الايمـان فى الديبلوماسية الدولية ، وبمرور السنين تضاءلت هذه البقية الباقية من الايمان بالديبلوماسية الدوليةحينما ازداد الأمر وضوحا بأن الديبلوماسية

والمفاوضات وكل أدوات الاتفاقيات الدولية كانت عاجزة عن أن تحمى اسرائيل من العداء الذى يولده وجودها فى حد ذاته فى الدولة العربية وبين اللاجئين الفلسطينيين • فلقد انتهجت الصهيونية ، منذ البداية ، نهجا عمليا تحاشت فيه مسائل العدالة والقانون والشكليات • وفى مولد دولة اسرائيل وبقائها حية خير برهان على أن جماعة صغيرة نسبيا من الناس تكرس جهدها فى سبيل غايتها يمكنها ، بالصراع العنيد ، أن تغير مسائل العدالة والشكليات تلك • فعندما كانت اسرائيل لا تزال فى دور الطفولة فانها طالبت بالاعتراف الرسمى والدولى مثلما يطالب الطفل بأمارات الحب والعطف المباشرة ولكن الاسرائيليين فى النهاية أدركوا أن الاعتراف والتسليم بوجودهم واحترام الهيئات الدولية كلها من المعوقات • فالمعاهدات قصاصات من الورق ، وقرارات الأمم المتحدة لم تزد عن كونها عبارات جوفاء ، تعوزها السلطة المادية اللازمة لغرض تنفيذها • ومن هنا كان ما اشتهرت به من الغطرسة والعناد — اذ يسود الاعتقاد الذى أثبتته التجارب بأن اسرائيل عاشت بمقدرتها على أن تنتصر ، وبمقدرتها على أن تفرض ارادتها على العالم ، أو كما قال بن جوريون « بتفوق صفات الأمة العبرية » •

وليس هناك ما يدعو الى الابتهاج لصحة هذا الرأى فى جوهره • فاسرائيل ليست بحال من الأحوال أول دولة ولن تكون الاخيرة ، تفهم قوتها على أنها تكشف عن قدرها التاريخى وعلى أنها تفوق لصيق بكيانها• واذا كان البريطانيون والفرنسيون والامريكيون ، والعرب بقدر ما يتعلق بهذا الموضوع قد شقوا طريقا لهم على صفحة البشرية تحت اسم المدنية والديموقراطية والحرية او الله سبحانه وتعالى ، فما الذى يمنع اسرائيل من أن تفعل نفس الشىء وهى لا تتصرف الا باسم البقاء ؟ لكنها مع ذلك حقيقة أبعد ما تكون عن الانسانية تلك التى كان الدرس الوحيد المستفاد منها هو الموت والبؤس الذى لا نهاية له • انه لا يوجد ثمة حل للنزاع العربى الاسرائيلى طالما أن الطرفين كليهما ينكر على الآخر انسانيته • ولكن الانسانية ليست واحدا من « مبررات الدولة » التى تفسر تصرفات الحكومات • وحقا فان القوة المسلحة قد تبقى على دولة من الدول اذا عجزت المعاهدات وقرارات الامم المتحدة عن ذلك ، بل ويمكن للقوة المسلحة أن تضمن بقاء حدود الدولة ، والا أن القوة المسلحة لم تكن أبدا حجة طيبة (بالمقابلة لكونها مجرد عنصرا اقناع) تساق من أجل أى شىء فيما خلا استمرار العداء •

لقد جابهت الدول العربية اسرائيل تلك التى توسعت وامتدت داخل أراضيهم ، واستمرار بقاء الجيوش الاسرائيلية فى تلك الاراضى كان عملا متكررا على وجه الدوام من أعمال العدوان بقدر ما يعنى الامر الدول العربية • على أن المسألة الفلسطينية لم يهمل شأنها ، وانما فقط تراجعت الى مكان قصى عما كانت عليه فى بيانات ناصر الحماسية قبل ذلك بعدة أيام فقط • لأن أهم ما كان يعنيهم الآن هو اخراج اسرائيل من الاراضى المحتلة •

فلقد عقب الزعيم الثورى الروسى والاستراتيجى العسكرى ليون تروتسكى ذات مرة بقوله : « ان الافكار التى تدخل العقول بقوة النيران تستقر فيها آمنة الى الابد » • ولقد جعلت نيران يونية العرب يتعلمون الدرس المرير عن عجز أحوالهم عجــزا يدعو الى الرثاء • ومن بين ما تعلموه زيادة الثقة فى عبد الناصر لأنه على أية حال ، كان قد حــذر زملاؤه العرب مغبة الاقدام على عمل متسرع ، واستطاع ، فى الاسابيع التى أعقبت الحرب ، أن يلجأ الى مهاجمة (الخيانة الاسرائيلية) ليغطى ما انطوت عليه تصرفاته هو من الطيش والتهور ، وعرض أن يستقيل من منصبه ولكن الشعب المصرى لم يفضــل زعيمــا ســواه فتظاهروا للوقوف الى جانبه وسحب استقالته ثم ان تحليله لدور اسرائيل المعاكس للوحدة العربية قد أيدته أحــداث يونيه وأدى الاثر الذى تركته تلك الاحداث ، من خلال نوع من الميكانيكية المنعكسة ،الى التقريب بين الدول العربية بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل • ولم تكن هذه هى المــرة الاولى التى تعلم الهزيمة العسكرية كثيرا من العرب ما للدبلوماســية والكياسة من فضل ، وليس غريبا أن هذا الدرس قد وعوه على خير وجه فى مصر والاردن ـــ وهما البلدان اللذان تحملا أكبر الخسائر • وفى النهاية مر ناصر وحسين من الأزمة بسلام فى حين حدثت الانتفاضات التى أمدت بالزعامات القائمة فى سوريا والعراق وفى منظمة التحرير الفلسطينية •

وفى مؤتمر القمة الذى دعا الى عقده الملك حسين بالخرطوم فى سبتمبر سنة ١٩٦٧ قاطع السوريون المؤتمر لأنهم كانوا يعارضون التسوية أى نوع كان عن طريق المفاوضات ، كما رفض الشقيرى الذى كان يمثل منظمة التحرير الفلسطينية حضور الجلسة الختامية لاسباب مشابهة • ولقد كرر المؤتمر المواقف العربية الاساسية : فلا سلام مع اسرائيل ،

ولا اعتراف بها وتأييد النضال « الوطنى » للفلسطينيين • ولكن بالنسبة لبعض النواحى ذات الاهمية الكبيرة فان قرارات مؤتمر القمة قد عكست تغيرا حقيقيا فى تفكير العرب • فالعرب كانوا لا يزالون يرفضون قبول امكانية اجراء مفاوضات مباشرة مع اسرائيل لان ذلك كان من شأنه أن ينطوى على الاعتراف بها • وهم قد أكدوا عزمهم على التوصل الى تسوية واحدة جماعية تشمل كل دول خط المواجهة ، ولكن قدرا كبيرا من الجهود الرامية الى التوفيق ظل يبذل •

فلقد دعا مؤتمر القمة الى « توحيد الجهود على المستويين الدولى والديبلوماسى » لازالة آثار العدوان (الاسرائيلى) ولضمان انسحاب القوات المعتدية من الاراضى العربية ، واتخذوا عددا من القــرارات للمساعدة فى تنفيذ هذه الجهود من بينها رفع الحظر البترولى قصــير الامد الذى فرض على الدول المشايعة لاسرائيل وانشاء صندوق تموله دول البترول لتعويض مصر والاردن وبما يسمح لمصر بالابقاء على قناة السويس مغلقة كعنصر من عناصر المساومة والمصالحة بين مصر والمملكة العربية السعودية حول اليمن • فليس هناك من شك فى أن مؤتمر القمة قد ســاده جــو من الاعتدال هذا ان لم نقل أنه كان جو مصالحة ، وعلى الرغم من الامدادات السوفييتية الضخمة لمصر فى الاسابيع التالية الحربفان ناصرا زاد تنبها للحاجة الىالتقارب من الأمريكان • فلقد أوحى المؤتمر بأن ناصر وحسينا سيكونان مستعدين لقبول تسوية مع أسرائيل تنطوى بالأقل على انسحاب جزئى واقامة مناطق منزوعة السلاح واجراء مناقشات تحت اشراف دولى حول القضية الفلسطينية •

ولقد سبق للاسرائيليين أن سمعوا كل هذا الكلام من قبــل • وهم اذ عادوا بالذاكرة الى سنة ١٩٥٦ ـــ ١٩٥٧ فانهم أصروا على ألا يحدث انسحاب قبل تسوية كاملة للسلام • واهتمامهم بمـــا يمكن أن تتمخض عنه الوحدة العربية حدا بهم الى رفض مفاوضات « الفريق الوحيد » مع العرب متصلين على ذلك اجراء محادثات منفصلة مع كل دولة يخصها الامر مثلما حدث فى سنة ١٩٤٩ • ولمـــا تذكروا تلك الايام أيضا فان الاسرائيليين أصروا على المفاوضات المباشرة التى تستهدف ، فى المقام الأول ، التوقيع على معاهدة للسلام ، فأنتصارهم فى يونية أظهر تفوق قوتهم من جديد ، وأحسوا بأنه لا يوجد ما يلزمهم بالاقدام على تنازلات من أى نوع كان ازاء المطالب العربية أو بالنســبة لكبريائهم

الجريمة • ورأوا أن الوساطة لن يكون لها من نتيجة سوى اضـــعاف مركز اسرائيل فى المساومة ، وأن قوتهم العسكرية ووجودهم فى الاراضى المحتلة هما ضمان أمنهم الوحيد • وما لم يحدث هجوم عسكرى ناجح على اسرائيل فلن يقنعهم شيء بالتضحية بأى من الامرين •

واذن فقد عدنا الى فلسفة الزرائع الصهيونية التقليدية القديمة مرة أخرى ، بعد أن ارتفعت هذه المرة الى مركز الضرورة الدبلوماسية التى لا محيص عنها • غير أن الحكومات التى توجهها الاعتبارات الزرائعية العملية تميل الى ارتكاب تصرفات طائشة • ولذلك فان اسرائيل لم تخدم قضية السلام بالشرق الاوسط حين ضمت اليها مدينة القدس القديمة (ليس بوصف كونها أثرا عاطفيا فحسب ، ولكن بوصف كونها المصـــدر الرئيسى لعائد العملة الاجنبية بالنسبة للأردن فى وقت من الاوقات) • ولا هى خدمت قضية السلام باتجاهها الى تسميته بعض المناطق المحتلة بأسماء جديدة عبرية مستمدة من الكتاب المقدس (ومثال ذلك تســميته الضفة الغربية بسماريا وجودايا) • فكأنها اعتبرت أن الزمان ســوف يبارك احتلالها مما جعل السلطات الاسرائيلية ــ تعجلا منها للأمور ــ تكشف عن الاسس القديمة لمطالبها المتنازع عليها •

وعلى الرغم من وقف اطلاق النار والحلول العربية الوسط فان القتال استمر على طول الحدود برا وبحرا فى الاسابيع التى تلت حــرب الايام الستة ، لانه لا العرب ولا الاسرائيليين كان أيهما مستعدا لان يقبل السلام وفقا لشروط الطرف الآخر وكان بوسعهم أن يصمدوا طالما أن دولا عظمى دأبت على مدهم بالاسلحة والمعونة • وكان مما يناســب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أن يروا أنه لا العرب ولا الاسرائيليين قد أحرزا أيهما السيطرة الكاملة فى الشرق الاوسط ، ولذلك فان الانتصار المطلق لم يكن فى الحسبان ، فاستمر تدفق المعونة والقتال ببساطة استمر دائرا • ولكم كان ما يسر الدول الكبرى أن ترى دول الشرق الأوســط تعيش معا فى سلام لو أن ذلك كان ممكنا ، ولكن تعايش تلك الدول لم يكن محتملا طالما أن العرب والاسرائيليين لم يكونوا قد انتهوا من تســوية حساباتهم بعضهم مع البعض الآخر • وفى ظل تلك الظروف كانت الغاية التى تأمل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فيها هى احتواء النزاع وهى حالة من الحرب المحدودة التى لا تتصاعد أعد مطلقا الى المستوى النووى ، ولا تجر اليها الدول الكبرى ذاتها أبدا ولا ينتج عنهـا أبدا

أية انتصارات أو هزائم كبرى — غير أن القتال تصاعد بالفعل ، بما أن القتال من شأنه أن يتصاعد ، وفى خلال أسابيع من انتهاء حرب الايام الستة صار من الواضح تماما أن وقف اطلاق النار كان موجودا بالاسم فقط • ولذلك فقد أخذت الحاجة تتزايد للتوصل الى نوع من التسوية التى يمكن على الاقل أن تحدد حدود النزاع • وعملت الامم المتحدة جاهدة لصياغة نصوص مثل تلك التسوية • ولكن لسوء الحظ فان تسوية مقترحة ما هى أيضا سبب من أسباب القتال — وبخاصة عندما يرفضها هذا الطرف أو ذاك • ولذلك فان فشل وقف اطلاق النار هو شىء ، وفشل التسوية المقترحة يضيف مزيدا من الزيت الى نار العداء المشتعل •

— ٢ —

أنه معاون عجوز دمث الاخلاق ، وابن أخ لاحد اللوردات . لكنه ظن ان البنك اقوى من السيف ، وأن المظلة قد يهدى البرابرة فى الخارج — انه مثل شخص ليبرالى عجوز بين الحروب ..

(وليم بلومو ، الاب وابنه)

كان قرار مجلس الامن التابع للأمم المتحدة رقم ٢٤٢ هو الأداة لتحقيق التسوية المقصودة ، والذى يحمل تلك الأداة هو الدبلوماسى السويدى والسفير السابق لدى الامم المتحدة ، الدكتور جونار يارنج •

والقرار ٢٤٢ كان نتيجة لحل وسط من صنع البريطانيين ، وكان المقصود منه هو كسر الجمود فى مجلس الأمن حيث سبق ذلك مشروعات قرارات تبنتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وعرضتها اما دول موالية لأمريكا واما دول موالية للسوفييت ، ونتيجة لذلك فان كل مشروع قرار منها قد اصطدم بالفيتو من الجانب الآخر •

وبطبيعة الحال فان وقف اطلاق النار كان قد خلع طابع الهدوء على الأشياء ، والشعور بالاستعجال الذى أجبر الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على التعاون فى يونيه قد ذبل فى بادىء الأمر الا أن استمرار تبادل أعمال العنف بين القوات العربية والاسرائيلية انطوى على المخاطرة بفتح فصل جديد فى هذه الدراما التى كانت قد طالت من قبل بالفعل

حتى سئمها النظارة • ولقد جاهد مؤتمر الخرطوم لكى يتوصل الى صيغة تكون مقبولة لدى أمريكا والأمم المتحدة اذا لاح الآن أن نوعا من تدخل الأمم المتحدة هو أمر عاجل وممكن معا •

وكانت العقبة الرئيسية أمام مثل هذا التدخل هى اتفاق أمريكا الأساسى مع اسرائيل على أن الشئون العربية الاسرائيلية ينبغى أن تبقى موضوعا اقليميا وحتى فى المستوى الدبلوماسى • وفى الحقيقة فان أمريكا كانت مستعدة لأن تتجنب ومهما يكن الثمن تقريبا ، تدخل الدول الكبرى فى المنطقة • ولما كان مبدأ ايزنهاور قد صار اثر من آثار الماضى ، وبغض النظر عن الانقلاب الحكومى الذى دبرته المخابرات المركزية الامريكية فى اليونان ، فان الادارة ـــ الامريكية تحت حكم جونسون لم تكن مستعدة لأن تتورط فى أى شىء فيه ولو رائحة خفيفة جدا من فيتنام• واذن فان أزمة الشرق الأوسط كانت آخذة فى التعقد بشكل مضحك • فالرأى العام العالمى كان يتزايد استعطافه وعلى سبيل المثال فان الدول الافريقية كانت تعارض بشدة العدوان الاسرائيلى ، والدول الكاثوليكية عارضت ضم اسرائيل للقدس ، ودول الغرب كانت منزعجة من تدفق العتاد العسكرى السوفيتى بصورة مكثفة على مصر • وكان هنـــاك انتخابات سوف تجرى فى سنة ١٩٦٨ وعلى جونسون أن يفكر فيهـــا مليا • ثم كانت هناك مشكلة امدادات البترول العربى وهى امدادات كانت حيوية لسلامة اقتصـــاد بريطانيا والسوق الاوربية المشـــتركة واليابان • وهكذا فانه كان يتعين على الأمريكيين أن ـــ ينظروا الى الأمر من خلال زوايا كثيرة ونجم على كل مداولاتهم مشروع قرار لا مثيـــل له فى غموضه والنقطة الوحيدة المحددة فيه هى اقتراح تعيين وســـيط تابع للأمم المتحدة • فاعترض على مشروع القرار بحق الفيتو •

حينئذ قام البريطانيون فى مهارة بوضع صياغة غامضة ذات معنى محدد وأتوا بمشروع قرار عملوا فيه على ادانة اسرائيل دون أن يلزموا أى أحد بأى شىء فيما خلا تعيين وسيط • وجدير بالقرار ٢٤٢ أن يكون خليفة لوعد بلفور ولمـــا كان ذلك القرار قد تركزت جولة المفاوضات منذ ١٩٦٧ فان الاجزاء المناسبة منه يجب أن يستعيدها ويتعرف على كنهها خبراء التشويش الدبلوماسى :

« أن مجلس الأمن اذ يعبر عن اهتمامه المتصل بالموقف الخطير فى الشرق الأوسط ، واذ يؤكد عدم شرعية اكتساب أراضى الغير عن طريق

الحرب والحاجة الى العمل من أجل سلام عادل دائم تستطيع كل دولة بالمنطقة أن تعيش آمنة •

١ ــ يؤكد أن الالتزام بمبادىء ميثاق (الأمم المتحدة) يتطلب قيام سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط ، سلام ينبغى أن يتضمن تطبيق المبدأين التاليين : ــ

(أ) انسحاب القوات الاسرائيلية المسلحة من مناطق النزاع الأخير •

(ب) وضع حد لكل الدعاوى أو حالات الاشتراك الفعلى فى الحرب مع وجوب الاحترام والاعتراف بسيادة كل دولة فى المنطقة ووحدة أراضيها واستقلالها السياسى وبحقها فى أن تعيش آمنة داخل حدود آمنة ومعترف بها متحررة من أعمال القوة أو التهديد بها •

٢ ــ ويؤكد المجلس علاوة على ذلك ضرورة :

(أ) أن تضمن حرية الملاحة فى الممرات المائية الدولية فى المنطقة •

(ب) وأن يتوصل الى تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين •

(جـ) وأن تضمن السلامة الاقليمية لكل دولة فى المنطقة ، فلا تنتهك حرمة أراضيها ، والاستقلال السياسى لها ، من خلال اجراءات من بينها انشاء مناطق منزوعة السلاح •

(وبعد ذلك يطالب القرار بتعيين ممثل خاص تكون مهمته التوسط بين اسرائيل والدول العربية على هذا الأساس) •

ولقد أقر مجلس الأمن القرار ٢٤٢ بالاجماع ، ورفضت سوريا من فورها أن تقبله غير أن يارنج طار فى باكورة عام ١٩٦٨ الى الشرق الأوسط ليبدأ محادثاته مع اسرائيل ومصر والأردن •

والمشكلة الاساسية التى صادفته ظلت تقف حائلا ، منذ ذلك الحين ، فى وجه السلام من خلال المفاوضات ، وذلك أنه لما كانت مصر والأردن تهتمان فى المقام الأول بعودة سيناء والضفة الغربية فانهما جادلتا بأن

الاحتلال الاسرائيلى يجب انهاؤه قبل أن يكون بامكانهما مناقشة أية اتفاقية • وبالنسبة لهذه النقطة فان يارنج علم من اتصالاته أنهما يعتبران القرار ٢٤٢ يضع خطوط محددة يستهدى بها للتوصل الى تسوية للسلام ، وبعبارة أخرى فهما تعتبران أن القرار غير قابل للتفاوض بشأنه وانه يجب — على الأقل — أن تقبله اسرائيل باعتبار أنه يضع أسس تسوية سلمية ، بما فى ذلك الانسحاب الكامل من كل الاراضى المحتلة •

ولكن المسئولين الاسرائيليين كان لديهم تفسير مغاير فقالوا ليارنج انهم يعتبرون أن القرار ٢٤٢ يضع الاشتراطات التى يمكن التفاوض داخل نطاقها من أجل تسوية مستقبلة وفى محادثات مباشرة بين اسرائيل والدول العربية ، وأن مثل تلك المحادثات لا يمكن أن تجرى الا بعد أن تكون الدول العربية قد وقعت على معاهدات سلام دون قيد أو شرط مع اسرائيل • وأن اسرائيل ستبقى فى الأراضى المحتلة •

كان جوهر المشكلة اذن هو هل يجىء قبول القرار ٢٤٢ — وبغض النظر عن تفسيره — قبل أو بعد التوقيع على معاهدة أو معاهدات للسلام ، وكانت تلك مشكلة لا يمكن التغلب عليها • فعلى الرغم من بيان وزير الخارجية المصرى فى ٣ يولية ١٩٦٨ « اننا نتقبل الحقائق وأحد هذه الحقائق هى اسرائيل » ، الا أنه لم يبد ثمة طريق لتخطى تلك العقبة ، فما كانت مصر ولا الاردن لتقبلا السلام قبل الانسحاب الاسرائيلى ، وما كانت اسرائيل لتفكر فى الانسحاب قبل السلام • ومن ثم فانه فى خلال بضعة أسابيع قليلة سلم يارنج بفشل مهمته •

وظلت مصر والأردن تتحادثان معا فى السر ، كانتا يائستين من زحزحة القوات الاسرائيلية من أراضيها لدرجة أنهما ، وشيئا فشيئا ، غيرتا من موقفهما بالنسبة لمسائل كانت تعتبر دائما انها من الأساسيات التى لا يحيدون عنها • فتخلت مصر عن حزرها الذى لا يلين تجاه أمريكا ، وبعد ذلك عن رفض الاعتراف باسرائيل ، وفى النهاية فانه بحلول سنة ١٩٦٩ بدا أن القضية الفلسطينية قد نسيت تماما • ومع ذلك فلم يحدث أى تقدم فى الموقف •

وعندما تولى ريتشارد نيكسون الرئاسة الامريكية فى ١٩٦٩ كان مستشاره الخاص للشئون الخارجية هو هنرى كيسنجر ، وهو أستاذ

بجامعة هارفارد على درجة من الاستعداد جعلته يجمع بين المعرفة التاريخية وأساليب هوليود الدعائية الصاخبة داخل اطارات غير معقولة، وهو فى سعيه للاعلان عن نفسه وقع فى فخ النظريات البالية التى أحاطت به مثل العنكبوت ، من مثل نظريات توازن القوى ، ومناطق النفوذ وضعف آمريكا باعتباره « عزلة اقتصادية » • وهو اذ انزعج من امكان حدوث مجابهة بين الدول الكبرى فى الشرق الأوسط (خاصة وأن اسرائيل كانت تسير فى الطريق الصحيح لانتاج سلاحها النووى الخاص بها هى) ، واذ أقلقته قوة الاتحاد السوفيتى فى المنطقة ، فانه انتهى الى أن تحسين العلاقات مع العرب فى حين تسلح اسرائيل لمواجهة الأعمال العدائية العربية الكامنة التى يغذيها السلاح السوفيتى الحديث أمر ذو أهمية حاسمة •

وفى محاولة من الامريكان لتجنب اشتراك السوفييت فى عملية المفاوضات فانهم أحيوا مهمة يارنج ، ولكن لا العرب ولا الاسرائيليون كانوا قد اقترب أيهم من التسوية ، مما اضطر الامريكيين الى التدخل المباشر ولكنهم أحسوا أنهم لا يستطيعون ذلك الا عن طريق المحادثات الثنائية مع الاتحاد السوفيتى أو من خلال اجتماعات « الدول الأربع الكبرى » مع الاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا • ولقد رحب العرب بامكانية حدوث ضغط مباشر من الدول الكبرى غير أن اسرائيل ظلت على معارضتها الكاملة تفرض عليها قسرا ، واذن فقد فشلت الدبلوماسية وانصرم عامان دون أن تبدو أى تسوية انها باتت قريبة المنال ، والمشكلة الفلسطينية لم تبتعد عن لب المشكلة أو مسرح الاحداث على الرغم من الرغبات المحمومة لكل انسان فى أن تبتعد ، وفى حقيقة الأمر فان الفلسطينيين كانوا قد أصبحوا قوة يحسب حسابها فى السياسة الدولية •

ولطالما أيدت سوريا نشاط الفدائيين ، وفى أواخر سنة ١٩٦٩ كان نضال الفدائيين قد بدأ يجتذب ، على الرغم من ضعفه عسكريا ، موافقة ومعونة غيرها من الدول « التقدمية » ، فلقد أعلن مؤتمر القمة

الاسلامى ، ومؤتمر دول عدم الانحياز ، وأعلنت روسيا والصين بل وأعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة عن تأييدها للنضال الفلسطينى واعترفوا بحق الفلسطينيين فى تقرير المصير • وفى الشرق الأوسط القابل للانفجار فان النشاط الذاتى للمنظمات الفدائية ، كان يعتبر الفتيل الذى يمكن أن يفجر الموقف • ولقد شجع هذا النشاط ناصر على أن يخلص نفسه من الايمان بالدبلوماسية ، ذلك الايمان الموهن للنفس ، وهدد اعتدال حسين القابض للصدر وأضاف قوة جديدة لتوازن القوى غير المستقر فى المنطقة على أنه اذ كانت مصر قد بدأت تفقد ايمانها والأردن بدأت تفقد ثقتها فان الاسرائيليين ، ببساطة كانوا قد نفد صبرهم •



الفصـــل العاشر

الســمك فوق أرض يابســة

حملة الفدائيين الفلسطينيين ٦٧ ــ ٧٢

انا نرفض نظرية الانتصار السريع ، التى هى كلام فارغ ومحاولة لأنجاز الأمور بأيسر الجهد .

عن ماوتسى تونج

ــ ١ ــ

لمـــا خسر العرب المرحلة التقليدية الثالثة من الصراع مع اسرائيل خسرانا مبينا وهو ما كان ممكنا أن يحدث • لم يكن هناك ثمة أمل فى مرحلة رابعة لعدة سنوات مقبلة ، ولكن لمـــا كانت اسرائيل لا تقدم تنازلات ذات مغزى بالنسبة للقضية الفلسطينية فان الصراع كان مقدرا له أن يستمر •

وكان هناك أكثر من طريقة يمكن التعبير بها عن هذا الصراع ، ومن الطبيعي أنهم حاولوا بالدبلوماسية وكان من الطبيعى أن تفشـــل الدبلوماسية فبالنسبة لمـــا يسمى بالجبهة الغربية • كان المصريون فى حاجة الى فسحة من الوقت كيما يجهزوا جيشهم « لحرب الاستنزاف » (انظر الفصل التالى) ، ومرور سنة أو نحوها من الدبلوماسية العقيمة لم يكن فيه نسبيا شىء من الضرر • ولكن فى الجبهة الشرقية فلم تكن ثمة حاجة للانتظار ، فهنا سيكون نضال الفدائيين هو المعول عليه • واذ لم يكن لدى الاردن وسوريا حماس لاستئناف الحرب فان الفلسطينيين

قد ساءهم على أى حال ما كانوا لا يعدونه عجزا أساسيا فى التزام الدول العربية • أما الفلسطينيون أنفسهم فقد قر قرارهم على أن يخوضوا « حرب التحرير الوطنية » مع درجات متفاوتة من المساعدة والتعويق من جانب دول خط المواجهة •

ويرجع تاريخ الحركات الفدائية الى أواخر الخمسينات حيث وجدت لها مرتعا فى مخيمات اللاجئين والجامعات الاوروبية ، ولكن حتى سنة ١٩٦٥ — لم تكن العمليات المنتظمة قد بدأت بعد فى اسرائيل ، وكانت منظمة فتح هى أكبر تلك المنظمات بكثير ، وفى تلك السنة قامت بواحدة وثلاثين اغارة من هذا القبيل ، منها سبعة وعشرون اغارة من الاراضى الأردنية وأربع من لبنان • وفى عام ١٩٦٦ تخطت هذا الرقم الاجمالى بمراحل ، وكانت غالبية الاهداف أهدافا غير عسكرية اذ كانت رغبة فتح فى الاشتباك مع الجيش الاسرائيلى رغبة ضئيلة ، وبالأحرى فانها كانت تقصد الى زيادة التوتر فى المنطقة بما يؤدى الى غارات انتقامية ضد دول المواجهة وبذلك تعجل من نشوب حرب تقليدية أخرى • ويمكن أن يقال ان فتح نجحت فيما سعت اليه اذ لا شك فى أن الغارة الاسرائيلية على سامو فى شهر أكتوبر ١٩٦٦ والمعركة الجوية مع سلاح الطيران السورى التى وقعت فى شهر أبريل سنة ١٩٦٧ — وقد كانت كلتا المعركتين أساسا اجراءات انتقامية من النشاط الفدائى — نقول ان هاتين المعركتين كانتا درجتين هامتين من درجات السلم المؤدية الى طريق حرب يونية •

على أن نتيجة الحرب لم تكن بالشىء الذى تهتم به فتح ، وانما على النقيض تماما فان الانتصار الاسرائيلى الكاسح كان فيه تعويض للفسلطينيين لأن الأراضى التى احتلت حديثا فى الضفة الغربية وقطاع غزة أوجدت على ما يظهر الحيز المناسب للعمل الفدائى الأمر الذى وافقت عليه الانظمة العربية الأكثر « تقدمية » • فقد أعلن حزب البعث السورى منذرا بأن « الحرب الثورية الشعبية كانت هى الطريق الوحيد لمجابهة الصهيونى •• لان الحروب التقليدية قد استنزفت الموارد المادية للعرب فى حين أن الحرب الشعبية تستنزف قوى العدو » • وتقدمت سوريا الصفوف فى تجنيد الفدائيين وتدريبهم ، على الرغم من أنها لم تكن تعتزم بطبيعة الحال أن تسمح لهم بأن يباشروا نشاطهم من الاراضى السورية ، وانما كان على المتحمسين أن يحملوا تلك

الفتيلة بنوع خاص على كتفيه وعليه ، فانه فى خلال شـــهر يولية بدأ الفدائيون التسلل الى الضفة الغربية عن طريق الاراضى الاردنية بهدف أولى هو تنظيم التأييد الشعبى الى شبكة من الخـــلايا فى القرى ، ثم تضطلع تلك الخلايا بمهمة تزويد وامداد الجماعات المحاربة الصـــغيرة المختبئة فى التلال بالامدادات والمعلومات • وبطبيعة الحال فأنه كان مقدرا أن يرد الاسرائيليون بأعمال انتقامية من السكان المحليين ممـــا يحول شعورهم بالولاء الى قضية العمل الفدائى ، ومع ازدياد سرعة هذه السلسلة الحلزونية المألوفة فان الفدائيين كانوا سيشبهون فى صـــورة متزايدة ، سمكة ماوتسى تونج فى بحر الشعب •

وفى خـــلال شـــهرى أغسطس وسبتمبر تزايد التسلل وانتظر الفدائيون فى شغف ما سوف يكون عليه رد الاسرائيليين • ولكن لدهشتهم فان الاسرائيليين رفضوا أن يكرروا الخطأ الامريكى فى فيتنام ، وذلك أن سياستهم فى الأراضى المحتلة كانت سياسة ليبرالية متعمدة ، فظـــل هيكل الحكومة المحلية على ما هو عليه لم يمسوه ، وسمح بحرية الخطابة، وشجع الاقتصاد بمقادير حكيمة من المعونة الفنية والمالية • وأما عن السكان المحليين فانه على الرغم من انهم لم يكونوا متشجعين للتعاون مع الفدائيين فانهم لم يجبروا على التعاون مع الاسرائيليين ، وانما شجعوا على أن يظلوا محايدين • وبالنسبة الى الفدائيين فان حيـــاد الســـكان كان مصيبة ، من حيث انه حرمهم من امدادات الطعام الضرورية ومن المعلومات • وفى أرض الضفة الغربية المكشوفة فان الحصـــول على هذه الأشياء الجوهرية هو فى حـــد ذاته عملية انتحارية • وبدلا أن يكون الفدائيين سمكة فى بحر فانهم بدأوا يشبهون السمك الذى خلفه المـــد على اليابسة •

ولسنا فى حاجة الى القول بأن الاسرائيليين لم يعتمدوا فقط على عنصر الحرية كعنصر له اغراؤه وانما هم أمسكوا فى أيديهم بعصـــا ذات فعالية بالغة كذلك حيث قامت الدوريات الاسرائيلية على الدوام بالطواف فى المنطقة مما صعب على الفدائيين تحركاتهم • ولم يوجـــه الاسرائيليون الحوادث بأعمال حانقة ضد السكان وانما بالبحث المكثف عن أولئك المسئولين عنها • ومما له مغزاه أن ادارة الأمن العـــام ، وليس الجيش ، هى التى كانت مسئولة أساسا عن النشاط المناهض للفدائيين • وربما أن الوسائل التى اتبعتها ، وهى تتعامل مع الافراد المشتبه فيهم ،

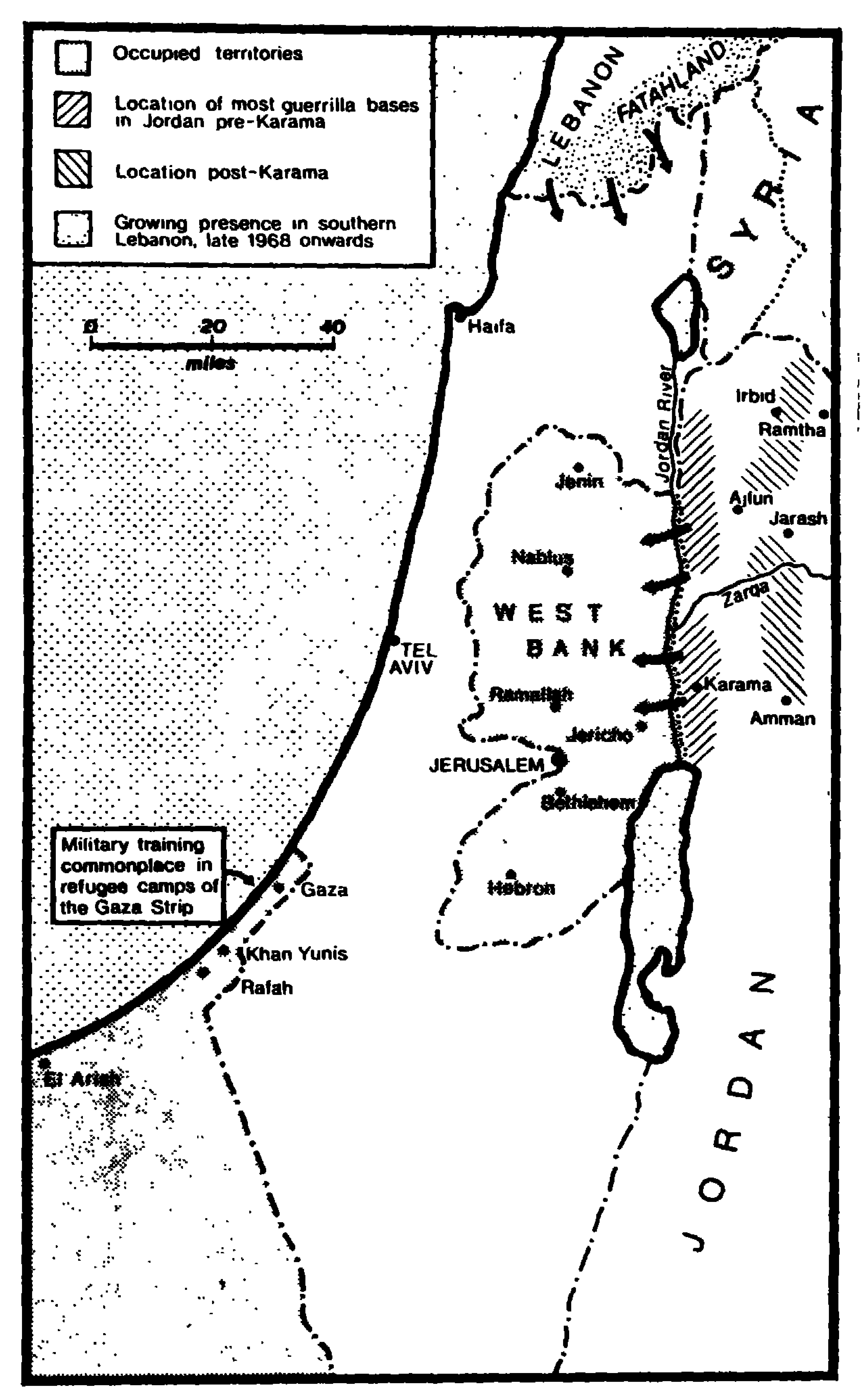
لم تكن مريحة ولكن ذلك لم يكن مهما من حيث وجهة النظر الاسرائيلية أو من حيث وجهة نظر الفدائيين ، وانما الذى كان مهما هو القرار الاسرائيلى بعدم الاقدام على اجراء ضد الطائفة بأسرها • فلما اقتصرت حلبة المنافسة على ادارة الامن الاسرائيلية والفدائيين وحدهما بات مصير الأخيرين مقضيا عليه • وبانتهاء شهر ديسمبر كان ثلاثة وستون فدائيا قد قتلوا واعتقل ما يربو على ٣٥٠ منهم • وبذلك دمر هيكل شبكة منظمة فتح • وانه وان كان بعض النشاط الارهابى ظل قائما الا أنه لم تصحبه مظاهرات تأييد شعبية • وهكذا فان المحاولة التى بذلت لتكوين قاعدة لأعمال التخريب فى الضفة الغربية فشلت فشلا نهائيا •

— ٢ —

لم تكن الظروف اللازمة لخلق قاعدة تخريبية أصيلة فى الضفة الغربية مواتية ، ولكنها كذلك لم تكن منعدمة تماما • ولقد كان ينبغى على الجماعات الفلسطينية الآن أن تتعرف على فشلها الذى منيت به أول الأمر وأن تحلل أسبابه وتغير من تكتيكاتها وأن تعمل على تحويل الفشل الى نجاح • ولكنها اختارت خلافا لذلك :

فبدلا من أن تحاكى منظمة فتح الفيتيكونج فى بناء الخلايا المحلية التى تعتمد على مقوماتها الذاتية فى العمل الارهابى والفدائى من خلال عملية تخريبية بطيئة ولكنها متماسكة فانها ضحت بمستقبلها استعجالا للنتائج • ولما يكن لديها قاعدة تجريبية أصيلة فأنها أرسلت الفدائيين المسلحين عبر نهر الأردن •

فهذه الاجابة الواهنة على سؤال صعب كان لها نتائج دائمة ، وهى انها اطلعت حركة تحولية يعتمد كل منهما على الآخر بالتبادل فى السياسة الفلسطينية ، أما التحول الأول فقد انطوى على تغيير فى طبيعة النضال من بناء معارضة سياسية ــ عسكرية داخل الأراضى المحتلة الفلسطينية • أما التحول الأول فقد انطوى على تغيير فى طبيعة النضال ، من بناء معارضة سياسية ــ عسكرية ، داخل الأراضى المحتلة الى القيام بعمليات عسكرية صرفة فى تلك الأراضى • وأدى فشل هذا التحول الأخير الى تقهقر آخر ، من العمل ضد اسرائيل الى العمل ضد الاسرائيليين • فمذبحة ميونخ التى وقعت فى سنة



The guerrilla/terrorist war, 1967-70

١٩٧٢ كان مضمونها هو الفشل فى ايجاد قاعدة شعبية بالضفة الغربية فى ١٩٦٧ — ١٩٦٨ •

وأما التحــول الثانى فقد انطوى على اعادة ترتيب الأولويات والهبوط بمرتبة الصراع مع اسرائيل خدمة لدور ثورى فى مواجهــة اخوانهم العرب •

ورغم كل شىء فان الفلسطينيين متى حرموا من القواعد فى فلسطين فانه كان خليقا بهم أن يصبحوا كطائر الوقواق فى الاعشاش العربية الأخــرى •

ولقد كانت أنظمة الحكم التقدمية فى مصر وسوريا ، وهى قوية بسبب كونها تقدمية نسبيا ، عازفة عن أن تسمح لقوى تقدمية منافسة بالوجود فى أراضيها كما كانت من القوة بحيث تفرض عدم رغبتها • وأما أنظمة الحكم الأضعف فى الاردن ولبنان ، وهى أضعف لكونها أكثر رجعية ، فانها لم تكن بغيضة وملعونة فى أعين الثوريين الفلسطينيين فحسب ، ولكنها كانت كذلك أضعف من أن تحول دون انشـــاء قواعد الفدائيين فى أراضيها • واذن فان المسرح كان يجرى اعداده لصراع بين العرب وبين أنفسهم ، وهو صراع قلل من الاهتمام الظاهر للجانبين بمشـــكلة فلســطين •

وعندما بدأت سنة ١٩٦٨ كانت ذروة هــذا الصراع لا يزال أمامها عامان والكثير من مراجعة النفس • فالفدائيون كانوا قد شرعوا الآن فى الاغارة عبر نهر الاردن فى حميه ، حيث يدلفون بأقدامهم ليلا وتحت جنح الظلام للقيام بصنوف شتى من أعمال الارهاب والتخريب • قرر الاسرائيليون على ذلك باطلاق نيران المدفعية على المخيمات الرئيسية القريبـــة من النهر ، ووجـــدوا أنفسهم بين الفينة والفينـــة يتبادلون اطلاق النــــار مع الجيش النظامى الاردنى ، ولم يكن لذلك من أثر يذكر فى روع الفدائيين ، ولمـــا استمرت الاغارات زاد الاسرائيليون من نطاق انتقامهم بقذائف المدفعية ومدافع الهاون وقذائف الدبابات عبر النهر الى الفدائيين والجيش الاردنى على حد سواء • وفى النهاية اتخذ الاسرائيليون قرارهم المميت بعبـــور النهــر وفى يوم الحــادى والعشرين من مارس ١٩٦٨ هاجمت قوة كبيرة من الدبابات والمشـــاة الميكانيكية المعسكر الفلسطينى الكبير فى الكرامة للمرة الثانية •

وكانت هـذه العملية كارثة لأن القوة الاسرائيلية وقد أربكها الفدائيون داخل المعسكر الممتدة نواحيه فى كل اتجاه ودون نظام فانها أوقفتها نيران الدبابات الاردنية بعيدة المدى ، وحالت الحدود المعينة الموضوعة للاسرائيليين من قبل لكى يعملوا فى نطاقها دون أن يصــلوا الى الدبابات الاردنيــة ويسكتوها ، واضطروا الى الانسحاب حاملين ثلاثة وعشرين من قتلاهم وما يربو على سبعين جريحا • وبالنسبة للعرب الذين كانوا لا يزالون فى شبه ذهول من هزيمة ١٩٦٧ فان هذا بدا لهم كمـا لو كان انتصارا مجيدا ، وأدعت منظمة فتح ، وهى غـير صـادقة الى حد ما ، أن الفضــل كله يرجع اليها ولكن كما قال رجل انجليزى فى دنكرك : « اذا كان هذا انتصارا فمن الصعب أن نتصور كيف تكون الهزيمة » • « فمعركة » الكرامة جرت حربها فوق الأراضى الأردنية • وهى لم تفعل شيئا يزعزع قبضة الاسرائيليين على الضفة الغربية ، والحصيلة العسكرية النهائية الرئيسية لهـا كانت زحزحة قواعد الفدائيين ماديا بعيدا نحو الشرق داخل الأراضى الاردنية ، وأما ميراثهـا الحقيقى فهو أنهـا زادت التحول السياسى لاهتمـام الفلسطينيين بعيدا عن اسرائيل حـدة •

ولم يظهر هـذا الأثر على الفـور • وتدفقت الامـوال على « المنتصرين » من منظمة فتح مما مكنهم من تدريب مزيد من الفدائيين وشراء مزيد من الأسلحة • وربمـا يكون قد بدا لأعين البعض أن من الواضح ان هؤلاء الرجال الجدد وتلك الأسلحة الجديدة لا يمكن أن يستخدموا بطريقة فعالة الا من الأراضى الاردنية • ويقـال ان الملك حسينا قد اضطر لأن يعترف ، فى صوت مبحوح ولا شك ، بأمجاد منظمة فتح قائلا : « اننا جميعا فدائيون الآن » • فبالنسبة اليه كان الصراع فى سبيل السيطرة على الدولة الآخذة فى النمو داخـل الدولة يزداد صـعوبة يوما بعد يوم •

وعبر نهر الأردن كان الاسرائيليون يزيدون من الصعوبات التى يواجهها الملك حسين • زادوا من صعوبة مغادرة الفدائيين للاردن بصورة مضطردة • فقد أنشأوا سورين على الضفة الغربية للنهر على ارتفاع ثمـانية أقـدام ، وبثوا الالغـام فى المسافة المتروكة بين السـورين وعرضها ثلاثون قدما ، ونصبوا فوقهما ، على فترات متقطعة ، أجهزة للمراقبة والأنوار الكاشفة وتركت الفجوات عن عمد فى هذا الحاجز •

وصباح كل يوم كانت الدوريات الاسرائيلية تغطيها باحثة عن آثار الأقدام فى الرمال ، وكان اكتشاف أى أثر من هذا القبيل تتبعه على وجه السرعة عمليات البحث بطائرات الهليكوبتر فى المنطقة المحيطة • وأدت فعالية هـذه الأساليب الى انقاص الاغارات التى تحـدث عبر النهر بحيث أصبحت نسخة عربية من الهجمات اليابانية الانتحـارية ، ولم يواصلوا اغاراتهم الا فى جماعات صغيرة فقـط • ولقـد كان التكتيك الرئيسى للفدائيين فى خلال ١٩٦٨ هو اطلاق قذائف « الكاتيوشـا » العقيم نسبيا على المناطق الخالية من السكان • فلو انه كان على جماعات الفدائيين الفلسطينيين أن يظهروا رجولتهم باستمرار ، فحينئذ كان عليهم أن يظهروها فى مـكان آخر •

— ٣ —

كانت الأهداف الثلاثة الواضحة للمنظمات الفلسطينية هى الملك حسين وبعضها بالنسبة الى البعض الآخر ، والرأى العـام العالمى • فبحلـول فصـل الخـريف فى سـنة ١٩٦٨ كانت سلطة الملك على ضيوفه الفدائيين لا تعدد كونها سـلطة اسمية ، فهم يمشون مختالين هنا وهناك فى تكبر ويحتكون بالجنود والشرطة الاردنية ، الذين كانوا أساسا من بدو الصحراء ، بدافع من التعاطف مع الفدائى المقـاتل المحنك من أبناء المـدن • ولما كانت المملكة الأردنية قائمة على أسس غير ثابتة الدعائم بين مملكة شرق الاردن الصحراوية الاصـلية وبين الضفة الغربية الفلسطينية فانها كانت تربة خصبة لهـذه المجابهة • وكذلك فان الجيش الاردنى الآن منقسما بما فيه الكفاية حتى أن الملك حسينا لم يكن متأكدا من ولائه له حال وقوع أزمة ، فحتى لو اختار الملك المخاطرة برد الفعل من جانب جيرانه العرب فانه لم يكن بوسـعه أن يتحرك ضـد الفدائيين وهو على أى قدر من الثقة فى النجاح •

ولقد كان أكبر خلاص محتمل له من الحرب الأهلية فى الاردن أن تزداد حدة الصراع بين مختلف جماعات الفدائيين • ففى أواخر سـنة ١٩٦٨ كان يوجد فى البلاد ما بين عشرين وخمسة وعشرين ألفـا من الفدائيين — يعيش قرابة النصف منهم فى القواعد المجمعة للفدائيين والضاربة على طول الجبال التى تحد وادى الاردن ، وأما بقيتهم فكانوا

مبعثرين فى المناطق الداخلية الآهلة بالسكان • وكانت أغلبية الفدائيين تنتمى الى منظمة فتح بقيـادة ياسر عرفات ــ ولكن كان يوجد ثلاث جماعات أخرى كبيرة هى ــ جيش التحرير الفلسطينى (وهو الجناح العسكرى لمنظمة التحرير الفلسطينية التى كانت فى طور السبات لدرجة كبيرة فى ذلك الوقت) الذى كان يحكم سيطرته عليه سادته المصريون والسوريون ، ومنظمة الصاعقة التى تؤيدها وتديرها سوريا ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بزعامة جورج حبش ــ كما كان يوجد ثمانى أو تسع جماعات أخر أصغر من ذلك • وطوال سنة ١٩٦٨ شرعت هذه الجماعات فى اتخاذ خطوات نحو الوحدة ، سواء عسكريا أو سياسيا ولكن عـدم نجاحها فى ذلك كان أمرا ظاهرا • فعرفات كان مشـغولا بالاضطلاع بالهيكل الفارغ لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وملئه برجاله حتى يمكن أن تكون مظلة للجماعات المتخاصمة وعمل على أن يشرف على انشـاء المجلس الوطنى الفلسطينى وهو المجلس الذى اجتمع فى شهر يولية لاتخاذ الميثاق الوطنى الفلسـطينى •• واذا نحن نحينا هـذه الوثيقة الهزيلة جانبا ، فاننا نجد ان الاجتماعات لم تكن مظهرا طيبا لاتفاق جميع الآراء السياسية بما أنه قد فاحت فى الاجتماع الرائحة النفاذة للخلافات الايديولوجية والحزازات الشخصية •

وبينما كان عرفات يواصل البحث الطويل عن أرضية مشتركة فان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين اختارت الجو ميدانا لنشاطها وقامت بأسر طائرة العال بين روما واسرائيل وأجبروا الطيار على أن يطير الى الجزائر • وبعد مساومات دامت خمسة أسابيع تم تبادل الاسرائيليين الذين كانوا يستقلون الطائرة بسجناء فلسطين فى اسرائيل • وشجعت هذه النفحة الضئيلة من النجاح فوق المسرح العالمى الجبهة الشـعبية لتحرير فلسطين على أن تضرب مرة أخرى فهاجم اثنان من الفدائيين طائرة شركة العال بمطار أثينا فى ٢٦ من ديسمبر وصرعوا أحد المسافرين • وفى هـذه المرة جاء رد الفعل الاسرائيلى والذى قال بعضهم انه رد فعل مبالغ فيه ــ تقول جاء ساحقا حيث هبطت قوة من رجال الكوماندوز بقيـادة رافول ايتان فى مطار بيروت ونسـفت ثلاثة عشر طائرة من طائرات الخطوط العربية ، وشربوا القهوة فى بار المطـار وعادوا الى بلدهم ، ودفع ايتان ثمن فنجان القهوة ولكنه لم يدفع ثمن الطائرات ــ ولقد قدروا الخسائر بسبعين مليون دولار •

بدأ عـام ١٩٦٩ وقوات الفدائيين فى الأردن معلقة بين عجزها عن أن تخوض حربا فعالة ضد اسرائيل وعدم رغبتها فى المخاطرة بنزال حسين • ولقد استمرت قذائف الكاتيوشا تمرق عبر الاردن ، واستمر الاسرائيليون فى الرد الانتقامى ، ضد الاردنيين عادة ليكون ذلك حافزا لهم على كبح جماح الفدائيين ولمـا اجتمع المجلس الوطنى الفلسطينى بالقاهرة فى شهر فبراير قاطعته الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مفضلة الاستمرار فى شن هجماتها على وسائل الموصلات العالمية • ففى شـــهر فبراير هاجمت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين طائرة فى مطار زيورخ وقتلت اسرائيلين اثنين ، وفى أغسطس اختطفت طائرة يوينج أمريكية وفى شهرى سبتمبر ونوفمبر نسفت مكاتب شركة العال بالقنابل فى كل من بروكسل وأثينا • وفى مطلع عام ١٩٧٠ نسفت طائرة وهى مرحلة التحليق بعد مغادرتها مطار زيورخ بوقت قصير وقتل الركاب الذين كانوا فيها وعددهم سبعة وأربعون فردا من بينهم ثلاثة عشر اسرائيليا فقط • وعند هــذه النقطة أدان عرفات سياسة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وبذلك ختم بالشمع الأحمر على عام من الشقاق بين مختلف الجماعات الفلسطينية • وكل ما كان يجمع بينهم هو اشتراكهم فى العداء للملك حسين • وهذا الموقف كان يتحول فى سرعة الى موقف لا يطيقه أى من الجـانبين •

وفى لبنـــان كان ثمة موقف مماثل أخذ فى التشكل لأن الفدائيين كانوا قد دخلوا البلاد فى خريف ١٩٦٨ ، وبحلول شهر مارس ١٩٦٩ كان حوالى ثلثمائة « يعملون » فى منطقة وادى نهر الحصبانى ، وشـــنوا عدة غارات قليلة ، ولكنهم كانوا مشغولين على الأكثر فى عملية تأسيس وجود لهم • ولم تكن الحكومة اللبنانية تشعر بقلق بالغ لوجودهم ، وأبقاهم الجيش بحزم فى منطقة ضيقة لا يبرحونها ، مما صعب من مهمة جلب الامدادات من سوريا على طول ما يسمى « بممر عرفات » ، وفى أكتوبر حاول الفدائيون بتشجيع من سوريا اختراق الحصار المضروب حولهم ولكن سارع الجيش اللبنانى الى الحـاق هزيمة سريعة بهم • فتدخل ناصر ووقع الجانبان على اتفاقية القاهرة « اللبنانية » ، وهى الاتفاقية التى سمحت للفدائيين بحرية أقل مما كانوا يبغون ولكن ذلك كان أكثر مما كان الجيش اللبنانى مستعدا لان يعطيه لهم • وسرعان ما أنهار هــذا الاتفاق غير الثابت ونشـــأ عن ذلك حرب أهلية صغيرة

بين المسيحيين اللبنانيين اليمنيين وبين الفدائيين • وهـذه الحرب هى الأخرى دخلها المدعوون من كل جانب فى نهاية الامر وسارت العملية المألوفة فى طريقها الا وهى غارات للفدائيين وأعمال عسكرية انتقامية اسرائيلية على طول الحدود ، وقام الاسرائيليون وعلى نحو ما كان متكهنا به ببناء سور متين وصاروا خبراء مهرة بشكل فريد فى اختراق الحدود تفوق مهارتهم مهارة الموجودين على الجانب الآخر •

ومرة ثانية فى الاردن ، نجد أن حسينا ارتكب خطأ فى يناير سنة ١٩٧٠ بمحاولته كبح جماح الفدائيين ، فبعد مرور أربعة أيام كان قد قتل ثمانون فردا منهم غير أن الباقين كانوا قد سيطروا على نصـف عاصمته فتراجع حسين وسمح له الفدائيون بأن يفعل ذلك لأن أيا من الطرفين ما كان يريد الدخول فى مجابهة كاملة ، أما حسين فبدافع من الخوف من ولاء ضباطه السوريين وأما الفدائيون فبدافع الخوف بعضهم من البعض الآخر • ولكن موقفا كهذا ما كان ليستمر الى ما نهاية •

وفى شهر أغسطس أشعلوا نار الحرب حين قرر ناصر أن يقبل مبادرة روجرز للسلام وينهى بذلك حـرب الاسـتنزاف بينما ان الفلسطينيين الموجودين فى القاهرة عارضوا فى ذلك فما كان من ناصر الا أن أغلق محطاتهم الاذاعية • وأما حسين فانه لم يكن فى مثل هـذا المركز القوى الذى يحسد عليه ناصر ، ولكنه هو الآخر كان عليه أن يختار بين مصالح دولته هو وبين مصالح الفلسطينيين وكان أن تردد طوال أسبوعين ثم ظهر على شاشة التليفزيون فى التاسع والعشرين من أغسطس ليعلن قراره وهو أنه قد قبل مبادرة روجرز ، والأكثر من ذلك فهو لن يسكت على نقد حكومته أو أن يتحداها أحـد • وكنتيجة لذلك فان الجيش الاردنى اضطلع بحقه الطبيعى فى أن تكون له الكلمة العليا بالنسبة الى السلطة العسكرية فى سائر أنحاء الاردن • وبذلك أشعل الفتيـل •

وظل الفتيل مشتعلا وهو يقترب ، على القصف ، من مخزن البارود فأندلعت الاضطرابات بالشـوارع فى معظم المدن الأردنيـة ، وأعلن العراقيون أن أى محاولة من جانب حسين لسحق الحركة الفدائية سوف يقاومها الجيش العراقى •

وطلب حسين مساعدة الدول فتلقى « التأييد المعنوى » ، وفشلت محاونة لاغتياله • وقامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين باختطاف ثلاث طائرات مدنية دولية فى السادس من سبتمبر وطارت بهم الى مطار داوسون ، وهو مطار بريطانى قديم للهبوط فى الصحراء شمالى عمان • وكان المفروض أن الركاب أخذوا رهائن فى مقابل حسن سير وسلوك الملك حسين ، ولكن اختطاف الطائرات لم يكن له من أثر غير تحويل الرأى العام العربى المعتدل وتعميق الخلافات بين صفوف الفدائيين • وخلال ذلك الوقت كان الفدائيون يستولون على المدن والاراضى فى شمالى الاردن وينتظرون وصول العراقيين • وأعلن قيام « أول سوفييت عربى » فى مدينة أربد •

وفى يوم ١٧ من سبتمبر افتتح حسين رسميا الحرب الأهلية التى مضى عليها عشرة أيام بأن أطلق خيرة رجال البدو على عمان ، ولم يضيع الجيش وقتا فى الملاطفات مفضلا أن يقصف الفدائيين بالدبابات والمدفعية والطيران واستمر القتال من بيت الى بيت مدة ستة أيام وبسقوط منطقة القلعة التى كانت فى أيدى الفدائيين كان ذلك دليلا على أن الجيش قد تمكن من « تهدئة » عمـان •

ولكن فى الشـمال فان الحرب التى استمرت كانت أقل سـهولة بالنسبة الى حسين • ففى اليوم الأول اندلع القتال فى كل المدن الكبرى ، وبحلول المساء كان معظم المملكة شمالى نهر الزرقا قد سقط فى أيدى الثوار • وفى الايام التى تلت اخترقت الدبابات السورية ودبابات جيش التحرير الفلسطينى الحدود واتجهت جنوبا صوب عمان ، ولكنها أجبرت على التراجع على طريقى أربد والرمثا يوم الثانى والعشرين من سبتمبر حيث أجبرها اللواءان الاردنيـان المدرعان الأربعون والسـتون على التقهقر • وحتى لو فرض ان تلك الدبابات قد اخترقت الدفاعات الاردنية لما كان محتملا أن يسقط الملك حسين لان الأوامر كانت قد صـدرت لفرقة أمريكية تحمل جوا بالوقوف على أهبة الاستعداد فى ألمانيا الغربية وفى أمريكا ذاتها فى مواجهة مثل هـذا الخاطر المزعج كما احتشـدت المدرعات الاسرائيلية فى الجولان لاحتمال أن تضرب فى سوريا •

وفى يوم الخامس والعشرين من سبتمبر وافق حسين وعرفات على وقف اطلاق النار ، وصودق على وقف اطلاق النار بعد ذلك بيومين فى

اتفاقية القــاهرة (الاردنية) وكانت شروط الاتفاقية مشــابهة لشرط الاتفاقية اللبنانية فباستطاعة الفدائيين أن يبقوا ولكن تحت رقابة أكثر حزما • وقد تبع هــذه التسوية غير الحاسمة تعيين وصفى التل « الرجل الشديد » اليمينى على رأس الحكومة الاردنية فكان ذلك نذير ســوء بالنسبة للفدائيين • فكان من الواضــح أن حسينا عازم على أن أى تساهلات جديدة سوف تأتى من جانب معارضيه •

وفى خلال فصل الشتاء وفى ربيع سنة ١٩٧١ استمرت الاشتباكات المتقطعة بين الجيش والفدائيين ، وبلغت ذروتها بالقتال العنيف الذى دار فى نهــاية شهر مايو • ولم يخف التوتر أو يسكن ، وفى ١٣ من يولية تحرك حسين نهائيا لتطهير مملكته من الفدائيين • وبعد ذلك بستة أيام كان قد تم القاء القبض على حوالى ٢٣٠٠ فرد ، وفر غيرهم كثيرون من الاردن • ومما له مغزاه العميق أن عددا لا بأس به فضل الوقوع أسيرا فى أيدى الاسرائيليين على الوقوع فى الاردن • ولا غرابة فى أن واحدا من الضباط الاسرائيليين خلع على وصــفى التل ــ شكرا ــ وصــف « الرجل الذى قتل من الفدائيين فى سنة واحدة أكثر مما قتلنا منهم فى عشر سنوات » • وقد وافق الفدائيون على هــذا الكلام • ولقد أطلقت النار على وصفى التل فى وقت لاحق من تلك السنة وذلك على أيدى جماعة فلسطينية جديدة يرجع اسمها الى « ايلول الأسود » لسنة ١٩٧٠ •

وصل أولئك الفدائيون الذين نجوا من قبضة الملك حســين آخر الأمر الى لبنان ، وكان لبنان الآن هو القاعدة الوحيدة للاغارة منهــا على اسرائيل واستمر ذلك فى خلال سنة ١٩٧١ ولكن نفس الدائرة من الاغارات والاغارات الانتقامية تمخض عنها حملة حكومية جديدة ضد الوجود الفلسطينى ، ولم يعد الجيش اللبنانى أكثر تقبلا من الجيش الاردنى لأى وجود عسكرى آخر فى بلاده • فعاش الفدائيون على موعد مع المعاناة ، قد تقلص نشاطهم ضد اسرائيل تقلصا قاسيا •

وهكذا فانه بانتهاء عام ١٩٧١ كانتجماعات الفدائيين الفلسطينين قد فشلت فى تحقيق قاعدة سليمة لها من أجل النضال الذى كانت تعترفه ضد اسرائيل • فهم بعد أن طردوا من الأردن • وكانوا تحت السيطرة الكاملة فى سوريا ، وقيد نشاطهم فى لبنان فانهم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا يذكر خلال عملهم الدائب الذى استمر خمس سنوات فيما خلا تزايد

الاعتراف بهم بوجودهم والهجمات المستمرة على المدنيين الاسرائيليين من جانب أيلول الأسود • ولقد تضاعفت عمليات أختطاف الطائرات فى الأشهر الأولى لعام ١٩٧٢ • وفى نهاية شهر مايو قتل عدد من الذين نظموا أنفسهم على نسق « الجيش اليابانى الأحمر » ستة وعشرين شخصا فى مطار اللد مستخدمين القنابل اليدوية والمدافع الرشاشة • وأما جماعة أيلول الأسود ، ولكى لا يتفوق عليها أحد ، فانها اتبعت ذلك باغتيال عدد من الرياضيين الاسرائيليين فى دورة الألعاب الرياضية الأوليمبية بميونخ • وعلى الرغم من ان هذه الهجمات قد دخلت بالقضية الفلسطينية الى دائرة الضوء العالمية ، الا أنها لم تفعل بها كذلك الا لكى تنفر الكثيرين منها ممن كان تعاطفهم الأساسى تجاه النزاع العربى الاسرائيلى مصورة بؤس الفلسطينيين الذين حرموا مما كان لهم • ثم ان هذه الهجمات بدلا من أن تكون دليلا على قوة الفلسطينيين فانها لم تزد عن كونها قد أكدت عجز الفدائيين فى مواجهة اسرائيل نفسها ، وهى التى ردت على الهجمات المذكورة بشن غارة جوية قامت بها مائة طائرة على سوريا ولبنان ، وبغزو دام ٣٦ ساعة لجنوبى لبنان ولقد دفع كثير من اللاجئين أرواحهم ثمنا للسذاجة السياسية — والتعبير الماركسى هو قولهم « الجساره » — للجماعات الفلسطينية المتطرفة •

لقد فشلت محاولة الابقاء على تهديد أساسى لأمن اسرائيل عن طريق الفدائيين والنشاط الارهابى فشلا ذريعا ، كما فشل الفلسطينيون فى أن يصبحوا قوة عسكرية لها أى وزن وان كان قد صاروا قوة سياسية لا يمكن تجاهلها • وطالما ان اسرائيل ترفض التفاوض فان النضال السياسى كان على درجة ضئيلة من الملاءمة من حيث الصراع على فلسطين • وبانتهاء سنة ١٩٧٢ كان استمرار النضال يعتمد من جديد اعتمادا كليا على القوة العسكرية التقليدية للدول العربية •

* * *

الفصـــل الحادى عشر

طائرات فانتـــوم تحلق فوق القـــاهرة

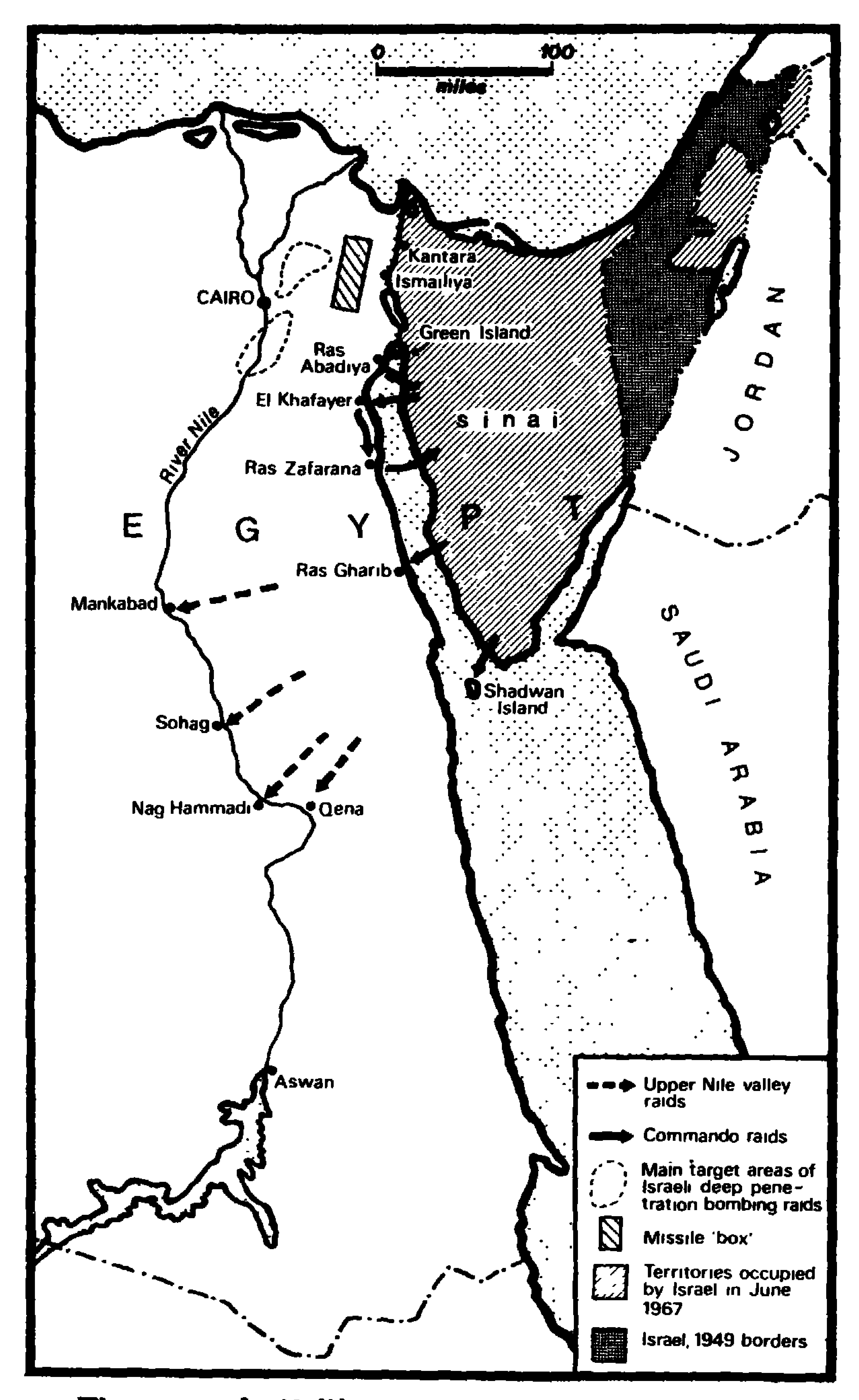
حرب الاستنزاف ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠

ان احراز مائة انتصار فى مائة معركة ليس هو ذروة البراعة . ولكن اخضاع العدو بدون قتال هو زروة البراعة . وبالتالى فان الأهمية القصوى فى الحرب تنصب على الهجوم على استراتيجية العدو . ويلى ذلك فى الأهمية تمزيق تحالفاته . ثم مهاجمة جيشـــه . أما أسوأ سياسة فهى مهاجمة المدن . فلا تهاجم المدن الا اذا لم بكن هناك بديل آخر .

ســــون تــزو

ــ ١ ــ

وافق ناصر فى أعقاب نكسة عام ١٩٦٧ على ثلاثة مبادىء سلبية هى لا سلام ولا اعتراف ولا مفاوضـــات ــ على اعتبار أنها أساس علاقات مصر فى المستقبل مع اسرائيل . وكان من المتعين أن تكون هذه المبادىء السلبية أكثر من مجرد حملة « رافضة » مركزة ، وانما يتحتم تطبيقها بصورة ايجابية وفى حالة اللاءتين الأخيرتين كان الامر يتطلب ما هو أكثر قليلا من عدم الاكتراث العملى ، ولكن بدا أن « اللاسلم » يدل على مســـتوى معين من الحرب . وبما أن لم يكن هنـــاك أمل فى استئناف الحرب شاملة النطاق التى شهدها شهر يونيو عام ١٩٦٧ كان لزاما لذلك أن يسعى الجيش المصرى لطرق أنماط شتى مناسبة من حرب



The war of attrition

محدودة • ولكن ما هو المدى الذى ستصبح عنده هذه الحرب محدودة أو ما هو المكان الذى ستصبح عنـــده كذلك ؟

قرر ناصر أن هـــذه المشكلة ليست عاجلة • وانتظر بلا جدوى أن يرغم الضغط الدولى المغيرين الاسرائيليين على النكوص على أعقابهم تماما مثلما انتظروا هم ــ فى ظل أوهام قوية بالمثل ــ بلا جدوى تحول انتصارهم الى سلام يكون مرضيا • وفى نفس الوقت استعرض كلا الجانبين عضلاته العسكريين بين الفينة والأخرى • وأغرق المصريون المدمرة الاسرائيلية ايلات وخسروا استخدام معـــامل تكرير بتـــرول السويس نتيجة رد انتقامى اسرائيلى كان لا مفر منه • فانصبت جل جهود المصريين فى المجال الدبلوماسى مثلما سردنا ذلك فى الفصل التاسع وكنتيجة للاخفاق • الواضح فى كسر الجمود الدبلوماسى ولظهور جيش مصرى جديد بعد عمليات التطهير واعادة التنظيم التى شهدتها فترة ما بعد الهزيمة المنكرة فانه كان من الضرورى بل ومن الممكن على حـــد سواء دراسة الخيارات العسكرية القائمة بصورة كاملة فى خريف عام ١٩٦٨ حين أخذ النشاط فى قناة السويس يتزايد •

وشرع المصريون فى طرق بداية خاطئة • ففى شهرى ســـبتمبر وأكتوبر تم توجيه نيران مدفعية حامية الوطيس على الضفة الشرقية التى يسيطر عليها الاسرائيليون مما أسفر عن وقوع خسائر فادحة فى الأرواح • ونظرا لعجز الاسرائيليين عن الرد بنفس هذا الاسلوب فقد انتقموا بالقيام بغارة من رجال الكوماندوز المحمولين بطائرة هليوكوبتر على وادى نهر النيل الأعلى حيث نسفوا محطة المحولات الكهربائية فى نجع حمادى وألحقوا أضرارا جسيمة بالجسور الواقعة على نهر النيل هناك وفى قنا مما أدى الى اسكات المدفعية المصرية فى منطقة القناة •

ولعل هذا كان أخطر خطأ وقع فيه المصريين قبل حرب الاستنزاف وأثناءها• ويعتقد أوبالانس "O'Ballance" ان المصريين لو كانوا قد أبدوا شجاعة وأثناءها • ويعتقد أوبالانس ان المصريين لو كانوا قد أبدوا شـــجاعة وطنية وانتهجوا أسلوبا أكثر جسارة وواصلوا قصف الاسرائيليين الذين لا يتمتعون بالحماية الى حد كبير على الضفة الشرقية للقناة بوابل مكثف متواصل من نيران المدفعية لأرغموهم بذلك على الارجح على التقهقر والابتعاد عن مرمى المدفعية • ولكن بدلا من ذلك توقف المصريون عن اطلاق النيران لأشهر عدة ، وبالتالى وفروا للاسرائيليين الوقت اللازم

لبناء التحصينات اللازمة لتجنب الخسائر فى الارواح ــ على الضفة ــ الشرقية والمعروفة باسم خط بارليف •

وبحلول شهر مارس ١٩٦٩ كانت الأحداث تدفع ناصر للقيــام بتجربة أخرى • اذ كانت بداية قيام الفلسطينيين باختطاف الطائرات وتولى عرفات زعامة منظمة التحرير الفلسطينية تهديدات موجهة الى زعامته للعــالم العربى « التقدمى » • ولم يكن بالامكان مواجهتهــا الا بالاقدام على اجراء مصرى له مغزاه ضــد اسرائيل وشجع احجام الرئيس جونسون الواضح عن أن يبيع لاسرائيل المقــاتلات القاذفة الأمريكية الجديدة من طراز فانتوم ناصر على الاعتقاد بأن العدو صار منعزلا بأكثر من أى وقت مضى • وكانت هناك أيضا رئيسة وزراء جديدة هى جولدا مائير يتعين التأثير عليها وتخويفها وبالتالى فتح المصريون نيران مدافعهم مرة أخرى فى منطقة السويس يوم ٦ مارس •

وهدد الاسرائيليون بقيام سلاح الطيران الاسرائيلى باجــراء مضاد • وكان من الواضح أن ناصر وضــع ذلك فى اعتباره بالفعل • فقد أعلن فى نهاية شهر مارس وبلا داع ــ ان وقف اطلاق النار المعلن فى يونيو ١٩٦٧ « لاغ وباطل » • واعتبر البعض ان هذا القول هو بداية « حرب الاستنزاف » وفضل آخرون اعلان ناصر الرسمى الآخر الصادر يوم ٢٣ يونيو • وعلى أى الأحوال كان بوسع يوثانت أن يعلن يوم ٢٢ ابريل ومعه حق ، ان هناك حالة حرب حقيقة قائمة على طول قنــاة السويس وان جهود الأمم المتحدة (لوقف الاشتباكات) كانت غــير فعالة بصورة شبه مطلقة وذلك ان استئناف المصريين للقتال كان يكتسب طابع السرعة شــيئا فشيئا •

وكان المقصد الاول للمصريين هو أن يضاعفوا الى الحد الأقصى مزاياهم المعروفة على العدو ــ مدفعية أكثر تفوقا وقدرة أكثر تفوقا وقدرة أكبر على تحمل الخسائر فى الأرواح ــ بقية الحفاظ على حالة حرب مستمرة فى منطقة السويس • وســوف « تنزف دما » القوات الاسرائيلية المرابطة على ضفة القناة ، ولن يسمح لخط الهدنة بأن يتحول على نحو من الصلابة الى حدود وسوف يترتب على ذلك تدخل دولى لصلحة مصر أو هكذا كان التصور •

ولم يكن بوسع الاسرائيليين الاقدام على ما هو أكثر من دفاع سلبى يتمثل فى اقامة المزيد من التحصينات فى منطقة القناة ولكنهم سيسعون لمضاعفة ما يتمتعون به من مزايا الى الحد الأقصى ــ البراعة التكتيكية ومرونة القيادة ــ بشنهم غارات خارج هذه المنطقة من شأنها اشاعة عدم الاستقرار • وقد أحرزت غارة نجع حمادى نجاحا فى هذا الصدد حيث انها جمدت بفاعلية أصوات المدافع المصرية طيلة خمسة أشهر • ولكن من سوء طالع الاسرائيليين ان الغارة الثانية من هذا النوع التى شنوها فى أواخر شهر ابريل عام ١٩٦٩ باءت بالفشل الذريع •

واستمر الوابل المدفعى المكثف خلال شهرى مايو ويونيو وقامت مجموعات صغيرة من رجال الكوماندوز بشن غارات فى عمق سيناء وبلا فعالية أحيانا • وشن الاسرائيليون بالمثل غارات من رجال الكوماندوز ولكن اعداد القتلى المتصاعدة فى منطقة القناة ــ ٧٠٠ قتيل منذ حرب يونيو ــ حملتهم على التفكير فى رد أكثر دمارا • واتخذ القرار فى شهر يونيو بالرد على المدفعية المصرية « بمدفعية طائرة » من جانب السلاح الجوى الاسرائيلى • ففى ١٩ يوليو هاجم رجال الكوماندوز الاسرائيليون الجزيرة الخضراء الواقعة فى خليج السويس ، ودمروا شبكات التحكم الخاصة بمنشآت الرادار التى كانت تغطى القطاع الجنوبى من قناة السويس • وفى اليوم التالى وبينما الأمريكيون يسيرون فوق سطح القمر ويحتكرون صدارة الانباء فى العالم اخترق السلاح الجوى الاسرائيلى الدفاعات المصرية المحكمة وشرع فى شن الهجوم •

وتأهب السلاح الجوى المصرى ، الذى كان ولا يزال يشعر باحباط نتيجة اضطراره لعدم المشاركة فى حرب يونيو لملاقاة العدو وقد أصبحت روحه المعنوية مرتفعة وان كانت خبرته التكتيكية لا تزال ضئيلة • وعلى الرغم من أن الطيارين المصريين أدوا المهام المنوطة بهم على نحو أفضل مما كان متوقعا فانهم برهنوا على أنهم ليسوا ندا للطيارين المخضرمين بالسلاح الجوى الاسرائيلى ، ومن ثم وجدوا أنفسهم مرغمين عند نهاية الاسبوع الاول على البقاء على الارض مؤقتا لتجنب المزيد من الخسائر • وبعد أن تخلص السلاح الجوى الاسرائيلى من عدو من الجو تقدم نحو ضرب عدو يربض على الارض • وتم أولا مهاجمة مواقع

المدافع المصرية المضادة للطائرات وصواريخ سام ٢ وبعد ذلك مهاجمة القوات المصرية المرابطة على القناة وشرايين امدادهم .

واستمرت هذه الهجمات خلال فترة الصيف وامتدت حتى الخريف وفى أوائل شهر أكتوبر أعلن ديان كما لو كان يستعيد أحداث الماضى عن شن « هجوم جوى محدود » « على شبكات العدو للصواريخ والانزار المبكر » . كذلك كان الجيش يلعب دورا نشطا ، اذ قام بغارتين أخريين فى وادى النيل بالصعيد فى شهرى يونيو وأغسطس . وفى ٩ سبتمبر تم ارسال قوة كبيرة — مكونة من ستة دبابات وثلاث حاملات جنود مدرعة (وجميعها مركبات سوفيتية تم الاستيلاء عليها عام ١٩٦٧) و ١٥٠ رجلا من رجال الكوماندوز — بحرا عبر قناة السويس الى الخفاير حيث تحركت بخفة على طوال الساحل لمسافة خمسين ميلا مدمرة فى طريقها قافلة قوات مصرية لم يساورها أى شك فى القوة المغيرة وعدة محطات رادار وسرقت دبابة سوفيتية جديدة تماما من طراز تى—٦٢ قبل أن تعود أدراجها الى سيناء مستقلة المعدية .

ونجم عن هذه الغارات والهجوم المتواصل من جانب السلاح الجوى الاسرائيلى انخفاض فى الروح المعنوية المصرية . وعلى الرغم من رغبة الجيش فى الانتقام من تدمير صواريخه ومنشآت رداره وطائراته ودباباته فقد عجز عن القيام بهجوم عبر القناة خشية العواقب المترتبة على ذلك . وبدا أن الميراث الوحيد « حرب الاستنزاف »هو نصف المليون لاجىء تراكمت أعدادهم نتيجة الجلاء عن مدن منطقة القناة القنطرة والاسماعيلية والسويس . وهكذا خسر ناصر حربه .

— ٢ —

وأحرز الاسرائيليون انتصارا له مغزاه باعادة فرضهم الركود العسكرى وبالتالى الجمود السياسى . ولو أعادوا زمام المبادرة الآن الى المصريين لأمسى من الصعوبة بمكان معرفة ما الذى يمكن أن يفعلوه بها . ولكن الزعامة الاسرائيلية رفضت أن تفرض على قوتها أداء مثل هذا الدور السلبى وبدلا من ذلك اتخذت قرارا خاطئا للغاية بشن غارات تغلغل الى عمق الاراضى المصرية .

واتخذ هـذا القرار ــ الذى لقى معارضـة حتى داخل مجلس الوزراء الاسرائيلى ــ جزئيا لأسباب عسكرية ، فمن شأن الغـارات أن تفرض تشتت القوات المصرية المضادة للطائرات وأن توقف تدفق الامدادات على جبهة القناة ٠ ومع هذا بدا أن المحرك الرئيسى وراء غارات التغلغل فى العمق هو الرغبة فى اضعاف أو القضاء على الوضع السياسى لناصر فى مصر ٠ وكان هذا تفكيرا أحمق ذلك لأن الاثر الناجم عادة عن مثل غارات القصف هذه هو تعزيز السلطة السياسية ، وهو ما كان بوسع أى شخص فى هانوى فى حدود ذلك الوقت أن يبلغ به الزعامة الاسرائيلية ٠ والأهم من ذلك أن ناصر وجد نفسه مرغما على مطالبة السوفييت بمستوى غير معروف حتى ذلك الحين من التدخل فى الشئون العسكرية المصرية ٠ وكان هذا التدخل ــ المستعان به للدفاع عن مصر ضد السلاح الجوى الاسرائيلى سيقود حتما الى خلق مقدرة هجومية مصرية فى منطقة القناة اذا أخذنا فى الاعتبار طبيعة الارض والاسلحة المعنية ٠ وقد جعلت غارات التغلغل فى العمق حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ممكنة على نحو لم يكن ليفعله أى شىء آخر ٠

ويمكن الرجوع بالمسئولية فى هذا الصدد قليلا الى الوراء فالغارات لم تكن ممكنة الا بعد أن حصل السلاح الجوى الاسرائيلى على المقاتلات القاذفة الجديدة من طراز فانتوم ف ــ ٤ من الولايات المتحدة ولم تكن طائرات فانتوم تتمتع فقط بالسرعة والاندفاع المطلوبين فى القتال الجوى ولكنها كانت تتمتع أيضا بطاقة على حمل أسلحة تزن سبعة أطنان ولها جيوب تحت جناح الطائرة بها الأجهزة المضادة للمعـدات الالكترونية والضرورية لتضليل صواريخ سام ٢ س٠ فلم يكن بمقدور الاسرائيليين فى أى وقت من قبل الغاء مثل هذه الحمولات الثقيلة من المتفجرات بمثل هذه الدقة ومع تضاؤل حجم المخاطرة التىيتعرض لها طياروهم الاثيرون لديهم ٠ وقد أدى بيع الأمريكيين هذه الطائرات لاسرائيل الى تغيير خطير فى ميزان القوة بين اسرائيل ومصر ٠ واذ كان السوفييت على وعى كامل بهذه الحقيقة فقد حاولوا عرقلة اتمام هذه الصفقة وفشلوا ٠ وكان كل ما حصلوا عليه من نيكسون هو عرض كاذب يتسم بالنفاق ــ بتجميد بيع الأسلحة بعد تلك الصـفقة ٠

وكانت مصر ابان تلك الآونة بلا دفاع فى واقع الأمر ٠ فقام السلاح الجوى الاسرائيلى خلال شهرى يناير وفبراير بضرب أهداف فى قلب

مصر ، فبعضها يبعد عن القاهرة بأقل من خمسة أميال • وتفاخر ديان بقوله « ان مصر كلها ساحة قتال بالنسبة لنا » • ولا شك فى أنها بدت كذلك حقا • ففى ١٢ فبراير قتل قرابة مائة مدنى مصرى حينما قصف السلاح الجوى الاسرائيلى « عن خطأ » مصنعا فى أبو زعبل • وفى نفس الوقت كان ناصر قد سافر الى موسكو بالفعل •

وحث الزعيم المصرى السوفييت فى موسكو خلال اجتماعين دونهما هيكل على نحو ممتع فى كتابة « الطريق الى رمضان » • على تزويده بالمساعدة العسكرية التى كان فى مسيس الحاجة اليها • فطلب أولا الحصول على القاذفات بعيدة المدى يمكنه استخدامها لتوجيه رد انتقامى ، ولكن طلبه هذا قوبل بالرفض وطالب ثانيا بامداده بدفاع فعال ضد طائرات الفانتوم الاسرائيلية وعرض السوفييت تزويده بصواريخ سام ٣ اسى (الأكثر فعالية ضد الطائرات التى تطير على ارتفاع منخفض ، ولكن كانت هناك أطقم مصرية غير كافية ،وتستغرق عملية التدريب ستة أشهر •وحينذاك طلــب ناصر الاستعانة بأطقم سوفيتية للعمل بالمواقع القائمة فى داخل البلاد وحينما أوضح برجينيف ـــ الذى كان يطيل أمد المناقشة لتصنيع الوقت أن شبكات الدفاع الفعالة من الصواريخ تتطلب أيضــا وجود طائرات، طلــب ناصر الحصول على طائرات يقودها طيارون سوفييت كذلك • وتحدث الزعماء السوفييت الذين أذهلهم هذا المطلب الى حـــد ما ـــ بعبارات غير مفهومة عن التزامات دولية وبالتالى فجر ناصر قنبلته الأخيرة • قال « أن هذا يعنى أن هناك طريقا واحدا مفتوحا أمامى : سأعود الى مصر وأطلع الشعب على الحقيقة •• وهى أن الأمريكيين سادة العالم سواء شاء ذلك أم أبى ولن أكون الشـــخص الذى يستسلم للامريكيين ولكن سوف يحل آخر محلى سيتعين عليه الاقدام على ذلك » • ووافق السوفييت •

واستمر الصراع فوق سماء مصر مع قيام السلاح الجوى الاسرائيلى بغارات يومية • ثم لاحظ الطيارون الاسرائيليون شيئا جديدا فى منتصف شهر مارس • فالعمل يجرى فى تشييد مواقع لصواريخ ســام ٣ فى عدة نقاط استراتيجية داخل البلاد ، كما كان يجرى بناء شبكــة متداخلة من صواريخ سام ٢ اس والمدافع المضادة للطائرات داخل حزام عريض يقع غربى القناة بمسافة عشرون ميلا تقريبا • واعترض الاسرائيليون بعد ذلك بأسابيع قلائل حديثا باللغة الروسية على الموجات الجوية لقد

تولى مائة وخمسون طيارا سوفيتيا يقودون طائرات ميج ٢١ ج اس مسئولية الدفاع عن مناطق وادى النيل والدلتا •

وكان على الاسرائيليين أن يتخذوا الآن قرارا آخر • فأما أن يكفوا عن القيام بغارات التغلغل فى عمق مصر بحيث يصبح وضعهم أسوأ مما كان عليه حين بدأوا شن هذه الغارات واما أن يخاطروا بوقوع مواجهة مباشرة مع الاتحاد السوفيتى فى السموات المصرية • واختاروا توحى الحذر فى الوقت الذى جعلوا من المعروف فيه أنهم يعتبرون خطأ يقع غربى القناة بمسافة خمس وعشرون ميلا تقريبا أنه هو الخط الفاصل بين القوتين ووافق السوفييت ضمنا على هذه « الحدود » الجديدة القائمة فى السماء •

واستخف بناصر الطرب • وأعلن فى الأول من شهر مايو على نحو من المبالغة غير البسيطة أن « قواتنا استعادت زمام المبادرة بقيامها بعمليات عسكرية جريئة فى الجو وعلى الأرض » • وأنفق الجيش المصرى جزءا كبيرا من طاقته فى هذه الآونة على انشاء شبكتهم من صواريخ سام • وكان استكمالها بنجاح سيكون مزعجا للسلاح الجوى الاسرائيلى ولكنه لن يكون أمرا خطيرا بالنسبة اليه طالما أن أجهزته المضادة للمعدات الالكترونية برهنت على مقدرتها على ارباك آلات توجيه الصواريخ • ولكن لو كان لدى السوفييت معدات أكثر تقدما يزمعون تقديمها • وهو تكهن محتمل • فلن تكون السماء فوق الشبكة فقط ولكن أيضا مساحة من السماء تصل الى القناة تقريبا — اذا أخذنا فى الاعتبار « المدى المائل » للصواريخ • منطقة محظور فعلا أن يطرقها السلاح الجوى الاسرائيلى فبذل الاسرائيليون قصارى جهدهم خلال شهرى مايو ويونيو للحيلولة دون استكمال بناء شبكة صواريخ سام •

وبالرغم من أن هجماتهم أسفرت عن وقوع خسائر ضخمة فى الأرواح المصرية فقد برهنت فى النهاية عن فشلها مثلما أدرك الاسرائيليون يوم ٣٠ يونيو بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة • واذا كان المصريون قد حركوا فى الليلة السابقة صواريخ سام ٢ ا س المعدلة (أو صواريخ سام ٣ اس حيث يوجد خلاف على هذا الأمر ، الى الشبكة • واكتشف الطيارون الاسرائيليون أن أجهزتهم المضادة

للمعدات الالكترونية لم تعد فعالة وأسقط لهم أربع طائرات فانتوم فى يوم واحد .

واستنجدت اسرائيل بالولايات المتحدة ، ووصلتها خلال أيام (وربما خلال ساعات) ، طائرات أمريكية محملة بأجهزة معدلة مضادة للمعدات الالكترونية . واستأنف السلاح الجوى الاسرائيلى هجومه حيث بذل جهدا آخر مستميتا خلال شهر يوليو لتدمير شبكة الصواريخ التى ضمت آنذاك نحو ستمائة منصة لاطلاق الصواريخ وما يربو عن ألف مدفع مضاد للطائرات . وانهمر سيل من المتفجرات الشديدة وقنابل النابالم كالمطر على المواقع وعلى عمالها وجنودها ولكن بدا فى نظر الطيارين الاسرائيليين انه كلما تصاعد الدخان من أنقاض موقع للصواريخ حلمكانه آخر جديد تماما . وعجز السلاح الجوىالاسرائيلى عن شل فعالية شبكة صواريخ سام . وتقلصت الخيارات الاسرائيلية الآن الى ثلاثة خيارات بعد أن كانت على ما يبدو خيارات عديدة فى بداية العام .

وهذه الخيارات الثلاثة هى : حرب شاملة ، الانسحاب من القناة أو وقف اطلاق النار . واختارت اسرائيل المسار الأخير بعد أن تعرضت لضغط مكثف من جانب الامريكيين الذين استبد بهم الذعر الآن ازاء الوجود السوفيتى الذين كانوا أنفسهم السبب فيه .

كذلك كان المصريون راغبين فى هذا . فخسائرهم فى الارواح زادت عن ثلاثمائة قتيل كل يوم خلال شهر يوليو ، وكان الجيش فى حاجة ماسة لبرهة يلتقط خلالها أنفاسه . كما كان من المفيد — على أقل تقدير — استكمال العمل فى شبكة الصواريخ تحت ظل سماء آمنة . وأفضى ناصر بدخيلة نفسه لبرجنيف قائلا له أنه يقدر فرص نجاح مبادرة السلام التى أقدم عليها روجرز بما لا يزيد عن نسبة نصف فى المائة ، ولن يضر فى شىء استكمال شبكة الصواريخ الشاملة فى الفترة الفاصلة بين وقف اطلاق النار وفشل المبادرة . أو بطبيعة الحال نقل شبكة الصواريخ الى الأمام وبمجرد أن سكتت المدافع يوم ٧ أغسطس شرع المصريون على نحو من الانتهاك الصارخ لشروط وقف اطلاق النار فى نقل شبكة صواريخ سام فى اتجاه القناة وفى غضون بضعة أيام كانت هنالك شبكة متكاملة تماما من مواقع الرادار وسام ٢ أ س

وسام ٣ اس ومدافع مضادة للطائرات حصلت عليها مصر حديثا من طراز زد أس يو ٢٣ اكس ٤ •

وكان هذا يشكل تهديدا خطيرا للسيطرة الاسرائيلية على الضفة الشرقية اذ كانت خطة قوات الدفاع الاسرائيلى فى التصدى لعبور مصرى للقناة • قائمة على أساس قدرات خط بارليف على التحذير المسبق والتعويق المحدود ، والتقدم السريع للمدرعات الاسرائيلية من قلب سيناء الى الطرق المنحدرة المعدة لها مسبقا على الضفة الشرقية ، وقدرة السلاح الجوى الاسرائيلى على دعم التحصينات وابطاء معدل العبور من خلال شن هجمات مباشرة على الجو والمشاة المصريين على حد سواء • الى أن تصل أولا الوحدات المدرعة ثم ثانيا وحدات الاحتياطى • فاذا أسقطنا من حسابنا مقدرة السلاح الجوى الاسرائيلى على ممارسة نشاطه على نحو من الحصانة فوق القناة — نتيجة تقوم شبكة صواريخ سام فى اتجاه القناة الآن — لم يعد أمام اسرائيل سوى خط وهمى من التحصينات ومدرعات ستتقدم لتجد طرقها المنحدرة وقد احتلها العدو فعلا وبات الجيش المصرى يتمتع حاليا بالمقدرة على شن هجوم ناجح عبر القناة وسوف يستفيدون من ذلك بعد انقضاء ثلاثة أعوام أخرى من الدبلوماسية العقيمة •

* * *

الفصــل الثانى عشر

نهــاية طريق

التفاوض واعادة الانحيازات ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢

ان الحكم هو القدرة على الاختيار ..

قول منسوب لبير منديس ـ فرانس

ـ ١ ـ

لن ترتكب الخطأ الذى وقعت فيه بريطانيا . فنحن من الحكمة بحيث لن نحاول حكم العالم ، وانما سنملكه فقط ولا يمكن ان يوقفنا شىء ..

لودويل دينى مؤلف كتاب « امريكا تتغلب على بريطانيا »

اذن عقد جديد من الزمان ببدء عالم جديد . اذ شــهد الكوكب الأرضى تغييرات جمة .. وليس بأقلها تلك التى وقعت بهــذا الركن المزعج من العالم المسمى بالشرق الاوســط . وقد واجهت اسرائيل صعوبات شاقة ابان حرب الاستنزاف ، ولم يكن هناك أدنى شك فى أن الأنشطة الارهابية التى قام بها فلسطينيون وباسم الفلسطينيين تركت أثرها على احساس البلاد بالأمن . وكانت البــلاد تواجه حالة ركود يشوبها التوتر حيث تقف على نحو من التوازن بين امتدادها الجــديد والأزمات الداخلية التقليدية . وما من شك فى أنه قد تم علاج التصدعات السياسية فى أعقاب حرب يونيو . فقد انضم حزب رافى بزعامة بن جوريون الى التحالف عام ١٩٦٨ لاعادة تأسيس مجموعة حاكمة آمنة مرة أخرى .

ولكن من الناحية الأخرى كان حزب جاحال برئاسة منـــاحم بيجين قد خرج من الحكومة بعد انضمامه اليها عام ١٩٦٧ بثلاث سنوات وبسبب قبول اسرائيل لوقف اطلاق النار الذى فرضه الأمريكيون • وقد تولى بيجين السلطة فى النهاية عام ١٩٧٧ حينما شق حزب ليكود برئاســته طريقه الى الفوز على متن موجة صغيرة من مشاعر الاستياء الشــعبى من الركود المستمر فى الموقف العربى الاسرائيلى علاوة على القلق المتصاعد فيما يتعلق بامكانيات اسرائيل الاقتصادية (وقد بلغ معدل التصخم آنذاك نسبة ٣٠ فى المائة تقريبا) وحقا فان قلب البــلاد الاسرائيلية ظل آمنــا تماما خلف مناطقها الشاسعة الخاضعة للادارة العسكرية غير أن وجود هــذه المناطق خلق فى الوقت نفسه عــددا من المشكلات الخطيرة • فكلما مر الزمن تضاعفت حاجة اسرائيل لضــم الأراضى • وتضافر الضغط الشعبى من جانب الاسرائيليين الذين يتسلط ما ورد فى التوراة على عقولهم مع الحاجة الاقتصادية لاملاء سياسة تستهدف ضم الأراضى فى النهاية وعلى نحو مستتر ان أمكن • ولكن كيف يتأتى لاسرائيل ضم ما يربو عن مليون عربى كانوا لا يزالون يعيشون بالمناطق المحتلة ؟ • لم يكن بالامكان الاعتماد على الهجرة الى هــذه المناطق ومعدل المواليد اليهود وحدهما للتصدى لاحتمال وجود أغلبية عربية فى النهاية • وليس بوســع اسرائيل ارســاء عمد نظام للتمييز العنصرى أكثر وضوحا من ذلك القائم من الناحية الفعلية فى ظل الادارة العسكرية • وعلى أى الأحوال فانه كان من شأن مثل هذا التحرك القضاء فى النهاية على أية آمال فى اقرار السلام وما كان ليساعد على استعادة الأرضية التى فقدتها اسرائيل بين دول أفريقيا وآسيا الذين سعت لخطب ودهم كشركاء لها فى التجارة • ولكن كان البديل لهذه الخيارات وهو الوقوف دون حراك وعدم الاقدام على أى خطوة مستحيلا بالمثل • وكانت هناك فى أوائل السبعينات بالفعل خططا لبناء مدينة تستوعب ٥٠ ألف نسمة بميناء باميت فى سيناء غربى قطاع غزة • وأقيمت خلال فترة السبعينات مستوطنات يهودية فى المناطق المحتلة • بتصريح من الحكومة أحيانا ولكن بموافقتها الضمنية فحسب فى معظم الأحيان •

وعلى الرغم من هذا كله كفل ذلك المزيج الصهيونى القديم من النظرة العملية للأمور والتحلى بالصبر اقدام اسرائيل على بضع تنازلات سواء للسلام أو لمشكلاتها الداخلية • ومما ساعدها على هذا الاتجــاه

تغيير اهتمامات السياسة الامريكية • فبعد أن أسقط الامريكيون عن وجههم قناع عدم التورط ازداد نشاطهم شيئا فشيئا سعيا لايجاد تسوية سلام بالشرق الأوسط • ومع هذا ففى الوقت الذى أخذوا يسعون فيه لاقرار السلام بلا نظرة أنانية من جانبهم فانهم شقوا طريقهم على نحو مستتر لاحتلال مركز الهيمنة السياسية فى المنطقة ، وذلك بما يتفق مع سياسة نيكسون ـ كيسنجر وكانت اسرائيل بطبيعة الحال جزءا لا يتجزأ من هذا المشروع ، ولكن كان هذا هو وضع مصر والأردن والسعودية أيضا • وربما كانت السعودية أهم هذه الدول قاطبة نظرا لما لديها من احتياطيات بترول ضخمة (٢٥٪ من امدادات العالم المعروفة) •

وفى عام ١٩٦٩ وفى الوقت الذى كان لا يزال بالمستطاع أن يقال فيه بحق عن الاتحاد السوفيتى أنه يهيمن على قطاع كبير من العالم العربى طرح وليام روجرز وزير خارجية الولايات المتحدة مشروعه لاقرار سلام بالتفاوض وأعلن أن سياسة الولايات المتحدة ستكون منذ ذلك الحين فصاعدا سياسة « متوازنة » ، وسار قدما نحو تنفيذ كلمته بتقديمه واحدا من أكثر المشروعات التى شهدتها منطقة الشرق الأوسط توازنا منذ فترة طويلة • وترتب على ذلك تلك النتيجة التى أضحت مألوفة على نحو يبعث على الضجر الآن ومفادها أن أسلوب روجرز المتوازن لم يرض أحدا وانما أغضب الجميع • ورفضه العرب والاسرائيليون على حد سواء • وكان سبب ذلك كما كتب عنه محمد حسنين هيكل صديق ناصر القديم وموطن سره هو أنه « توجد بالشرق الأوسط قوتان محليتان لا يمكنهما اقرار السلام وقوتان عظميان لا يمكنهما اشعال نيران حرب » • ولم يكن هناك الكثير الذى يمكن عمله نظرا لافتراض وجود منافسة مستمرة بين الدول العظمى فى المنطقة • وكان هذا الافتراض على وجه التحديد هو ما سوف تثبت الايام خطأه •

اذ برهنت مصر فى نهاية الستينات على أنها أكثر قليلا من مجرد عبء على كاهل الاتحاد السوفيتى • وأدى الانقلاب الليبى الذى وقع عام ١٩٦٩ بقيادة معمر القذافى الذى كان مناهضا بعنف للسوفييت آنذاك الى اضطراب العلاقات المتوترة بالفعل نتيجة تقارب ناصر مع السعوديين (ومع الامريكيين من خلالهم) • وكان لدى القذافى أيضا أموال بترولية وأعلن اعجابه الشديد بناصر وارتباطه ارتباطا أقوى بالمثل العليا للقومية العربية • وبدا أن الحدود المشتركة بين ليبيا ومصر تجعل منهم

حلفاء طبيعيين ، وانضموا فى أكتوبر ١٩٧١ الى اتحاد فيدرالى عربى جنبا الى جنب مع سوريا (التى كانت تخضع فى ذلك الحين للزعامة المعتدلة نسبيا لحافظ الأسد) • وبدأ محور اهتمام الروس ينتقل جنوبا وشرقا • فقد أضحوا معنيين بصفة خاصة بالأوضاع فى القرن الافريقى والخليج الفارسى • ولا مرية فى أن من بين الأسباب الرئيسية لذلك التطور توقع السوفييت سقوط نظام الحكم السعودى المحافظ بتطرف • ومن المحتمل أن اهتمام الاتحاد السوفيتى قد شجع عليه استيلاء اليساريين على الحكم فى اليمن الشمالية واليمن الجنوبية (محمية عدن السابقة) قبل نهاية الستينات • وكان قسم كبير من منطقة شبه الجزيرة العربية فى حالة مخاض توشك أن تتمخض عن انتفاضة ثورية ، وما من شك فى أن الاتحاد السوفييتى كان يضع عينيه على بترول السعودية •

وكذا كانت مصر تعيد النظر فى علاقتها بالاتحاد السوفييتى • فمصر أصبحت مدينة بشدة لأنصارها السوفييت ، الذين كانوا يصرون فى أغلب الأحيان على انتهاج أسلوب عمل لا يحظى بشعبية لدى المصريين • وبصرف النظر عن ذلك ، أخفق الاتحاد السوفييتى بصورة واضحة فى حل المسألة الملحة المتعلقة باسرائيل • وفى ضوء نظرية هيكل عن القوتين العظميين فان شيئا واحدا فقط كان بالامكان عمله وهو أنه : على مصر أن تتخلص من قيودها الروسية ولا ريب فى ان حينما بدأت حرب الاستنزاف تكبدت مصر نفقات طائلة • وفى صيف عام ١٩٧٠ كانت مبادرة روجرز للسلام هى طوق النجاة • وبدا النفوذ الأمريكى على اسرائيل رهانا أفضل لناصر من انغماسه أكثر من ذلك فى عبودية سوفييتية أبدية • وذلك على الرغم من انه احتاط لهذا الرهان باستخلاص المزيد من العروض الروسية لتزويده بالأفراد والأسلحة •

ولم يكن الأمريكيون بطبيعة الحال من السذاجة بحيث يعرضون ممارسة ضغط على اسرائيل لا لشىء سوى مصلحة مصر • وعلى الجانب الآخر من سيناء أعطى روجرز ٥٠٠ مليون دولار لاسرائيل قيمة معونة عسكرية كانت فى حاجة ماسة اليها مقابل موافقتها على الالتزام بوقف اطلاق النار بالرغم من تقديرها المخالف للوضع • وهكذا فان أمريكا شرعت بفاعلية تبحث على الانزعاج •

وكانت وفاة ناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ أماره على نقطة تحول فى العلاقات السوفييتية — المصرية • وكان خليفته نائب الرئيس أنور

السادات رجلا أكثر مرونة وأشد ضراوة . فخلال أشهر من وفاة ناصر كان قد طهر الزعامة المصرية من المعارضة جميعها . وهاجم على وجه الخصوص الموالين للسوفييت داخل نطاق الزعامة ، ممهدا بذلك الطريق قبل موعد وصول ويليام روجرز الى القاهرة لاجراء محادثات . ودفعت الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية السادات للارتماء في أحضان أمريكا على نحو متزايد وربما يفسر طرد الخبراء العسكريين السوفييت في يوليو سنة ١٩٧٢ ببساطة على أنه لغة حياد ، ولكنه كان مع ذلك جزءا من تحول عنيد بعيدا عن دائرة نفوذ السوفييت ، وهو التحول الذي بلغ أوجه بممارسة سياسة « الباب المفتوح » لتشجيع الاستثمار الغربى فى أعقاب حرب أكتوبر .

وابتعدت كل من مصر وروسيا احداهما عن الأخرى تدريجيا ، ومع هذا حاربت مصر فىحرب أكتوبر بالاسلحة والمساعدة السوفييتية . ولكن مع انتهاء الحرب ووصول الموقف الى طريق مسدود جديد ، تطلعت مصر فى اتجاه الغرب طلبا لايجاد حل لمشكلاتها .

— ٢ —

خرج التجار زحفا من بين البنادق ..

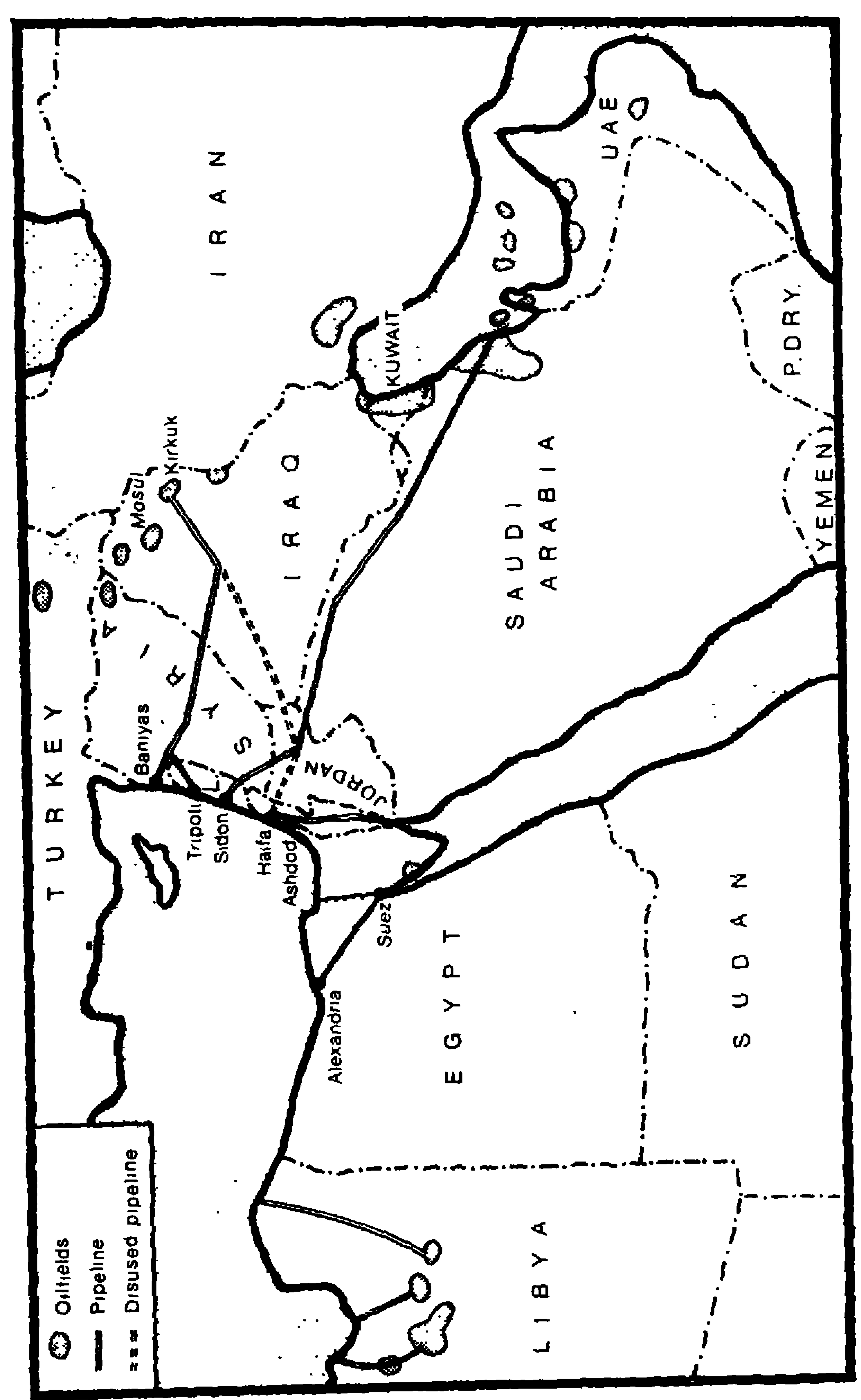
بير تولت برريشن فى كتابه عن اخبار حمامات الدم التى نصبها المحافظون فى اليونان

كان البترول بطبيعة الحال هو العامل المحرك الأكبر فى الصراع على الشرق الاوسط خلال السنوات الأخيرة . اذ انحصرت اهتمامات أمريكا الرئيسية فى تأمين استثماراتها البترولية القديمة والسيطرة على الامدادات من البترول لشركائها التجاريين الكبار (ومناقشتها) .. السوق الأوروبية المشتركة واليابان .

ففى أواخر الستينات أصبحت أمريكا مستوردة للبترول بصفة نهائية لأول مرة . وعلى الرغم من أن الفجوة بين الواردات والصادرات كانت هامشية فحسب فان التوسع الاقتصادى الامريكى كان سينطوى حتما على تزايد حجم فاتورة حساب الواردات فى وقت كانت آبار البترول المحلية تنتج أعلى معدلات لها وما على المرء سوى التطلع الى نفسه ليرى مدى حيوية البترول لاقتصاد صناعى حديث . فأهميته

لا تقتصر فقط على السيارات ، ولكنها تتجاوزها الى صناعات البلاستيك، والأدوية ، والمواد الغذائية للحيوان وأنواع عديدة من المنتجات اليومية التى لو لم توجد لتغيرت حياة الجميع تغييرا كبيرا • وعلى حـد قول « كريســتوفرا توجيذات » فى عبــارته التى لا تنسى أن البترول هو «العملية الأكبر» وهو الذى يصوغ شكل الحروب ويحمى الامبراطوريات، منشىء الصـناعة وممون الأمم • فاذا أمكن لدولة ما السـيطرة على امدادات العالم من البترول سيصبح وضعها آنذاك محصنا من أى هجوم عليها • والواقع هو أن خمسا من أكبر سبع شركات بترول فى العـالم اليوم هى شركات أمريكية الجنسية •• شركات أسو ، وموبيل ، وكلف ، وسوكال (وتكساس أو الشركتان الباقيتان هما شل وبريتش بيتروليم) ولجميعها عمليات واسعة النطاق فى الشرق الاوسط •• تلك المنطقة التى يتراوح حجم احتياطياتها ما بين ٦٠ و ٧٠ فى المائة من حجم الاحتياطيات البترولية المعروضة فى العالم •

وكانت أمريكا قد تحركت بادىء ذى بدء الى داخل الشرق الاوسط على نحو منظم من أواخر العشرينات فى أعقاب ترتيب تم التوصل اليه بين شركة البترول الفرنسـية المملوكة للدولة والمقـاول « كالوستى جولينكيان » وأربع شركات بترول معروضة اليوم باسم اسو وموبيل وشل وبريتيش بتروليم • واقتسمت الشركات فى واقع الأمر المنطقة التى كانت تخضع سابقا لسيطرة الامبراطورية العثمانية فى سـعيها وراء اكتشاف حقول بترولية منتجة • وعرف الترتيب الذى تم التوصـل اليه باسم اتفاقية الخط الاحمر (أنظر الخريطة رقم ٤) لأن الاراضى المعينة تم تحديد نطاقتها بقلم رصاص أحمر على خريطة صغيرة • وكانت بريطانيا أكبر قوة بترولية فى الشرق الاوسط لسيطرتها على حقول فى العراق وفارس الى أن تم التوصل الى اتفاقية الخط الأحمر • ولكن هذه الاتفاقية مهدت الطريق فى التحقيق أمام سيطرة الامبريالية البترولية الامريكية على مقاليد الأمور فى الشرق الاوسط • وبدأ هذا يحدث بعـد نهاية الحرب العالمية الثانية حينما بدا واضحا أن هناك حقولا بترولية كبرى تقع داخل نطاق منطقة الخط الأحمر • وطالبت السعودية فى أوائل عام ١٩٤٩ ، وحصلت على اتفاق بالمناصفة بنسبة ٥٠ الى ٥٠ من شركة أمريكية ويقضى بالحصول على أنصبة متساوية فى الأرباح من وراء بيع خام البترول • وقضى هذا الاتفاق على اتفاقية الخط الاحمر وأوجد



Oil in the Middle East

الاوضاع المناسبة لادخال تعديلات أساسية على هيكل صناعة البترول بالشرق الأوسط • أضف الى ذلك أن هذه العملية كانت ممكنة بفضل موافقة الحكومة الامريكية فى ذلك الحين على ترتيبات ضريبية خاصة بالنسبة لشركات البترول الامريكية • وفى عام ١٩٥٣ أسقط انقلاب دبرت له وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الحكومة الايرانية التى كانت قد أممت البترول الايرانى قبل هذا التاريخ بعامين ليس الا • وفى مقابل ذلك حصلت الشركات الامريكية على نصيب بنسبة ٤٠٪ يكونورتيوم من الشركات الاحتكارية يستخرج البترول الايرانى ويقوم بتكريره وشحنه وبهذه الوسائل ووسائل أخرى مشابهة قامت شركات البترول الامريكية بدور الوكلاء السياسيين فى الشرق الأوسط ، وعلى العكس من ذلك استخدمت الحكومة الامريكية نفوذها بما يعود بالفائدة على شركات البترول •

وكان اهتمام روسيا بالبترول فى البداية الى حد كبير على دورها كدولة مصدرة • وأمكن للاتحاد السوفيتى باقتصاده المتخلف نسبيا وامداداته الوفيرة من البترول بأراضيه أن يستخدم صادراته من البترول كوسيلة للحصول على عملة صعبة وكسلاح سياسى • وكان الاتحاد السوفيتى على وجه الخصوص يمد كثيرا بالبترول الدول التى يسعى للتأثير عليها أو اجتذابها الى داخل فلكه • والبترول سلعة تصدير مثالية حيث تعتبر نوعيته واحدة بدرجة أكبر أو أقل ويرغب فيه العالم كله ويسهل نقله • وقد وعد الاتحاد السوفيتى الحكومة الهندية عام ١٩٦٠ بامدادها بالبترول بسعر منخفض الى حد كبير • وردت الشركات الأمريكية على ذلك بخفض سعرها •• وبالتالى خفضت الدخل العائد على الدول المنتجة • ولما كان البترول فى واقع الامر هو سلعة التصدير الوحيدة بالنسبة للقسم الأكبر من الدول المنتجة فى الشرق الاوسط ، ومن ثم يمكن أن يكون لأى خفض مفاجىء فى السعر وقع الكارثة على اقتصادياتها • فقد كانت هذه الحقيقة علاوة على مشاعر الضيق التى انتابت هذه الدول لعدم التشاور معها بشأن الجولة الاخيرة من خفض الأسعار هى الحافز على تشكيل منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) فى مؤتمر دعا الى عقده الزعيم العراقى عبد الكريم قاسم •

وكانت منظمة أوبك من عدة أوجه نوعا من أنواع النظير للحركات القومية • التى أصبحت نشطة فى كافة أنحاء العالم الثالث ، ابان فترة

الخمسينات . والعلاقة بين منظمة أوبك والقومية العربية هى بنــوع خاص علاقة معقدة وهامة اذ تنزع مصالح الدول المنتجة للبترول لتجاوز الحدود السياسية والدينية والثقافية التى تشكل عقبات أمام اتمــام الوحدة فى أماكن أخرى . ومع هذا لم ترد منظمة أوبك لبضع سنوات عن كونها مجرد تجميع للحماية يسعى جاهدا للحفاظ على أسعار البترول عند مستوى محدد . ولكن الدول العربية داخل اطار منظمة أوبك انتقلت على جناح السرعة لاتخاذ موقف الهجوم مع حلول نهاية الستينات ، ويرجع هذا جزئيا الى الطلب المتزايد على البترول والى رد فعل الضغوط السياسية من داخل وخارج عدد من الدول العربية المنتجة للبترول مثلما يرجع جزئيا أيضا الى الحاجة لتمويل القومية العربية . وبعد حرب يونيو بفترة قصيرة أوجد تدعيم حركة القومية العربية امكانية استخدام ما أصبح معروضا باسم « سلاح البترول » ومع هذا لم توافق الدول الهــامة المنتجة للبترول ، وبالأخص السعودية ، الا فى أوائل السبعينات على التفكير فى سحب اعداداتها من البترول كوســيلة لارغام أمريكا على التدخل فى القضية العربية الاسرائيلية وأما قناة السويس (التى أغلقت على أى الاحوال عام ١٩٦٧) فانها أضحت غير مناسبة الى حد كبير من وجهة النظر هذه لأن الجزء الاكبر من البترول كان ينقل حينذاك فى ناقلات بترول ضخمة لا تستطيع المرور عبر الممر المائى الضيق لقناة السويس . وكان القسم الأكبر من الكمية الباقية ينقل فى أنابيب البترول وهى خط أنابيب اسرائيلى يمتد من ايلات الى حيفا وخط أنابيب التابلاين الهــام الذى يمر عبر الجولان .

وحينما فرضت الدول العربية الاعضاء فى منظمة اوبك حظرا فعالا على تصدير البترول عام ١٩٧٣ لم يكن هذا بالنجاح المطلق ، ومرد هذا جزئيا انه كانت هناك امدادات بديلة من البترول متاحة من جانب الدول المنتجة غير العربية ولكنه يرجع أساسا الى أنها كانت لفتة يعوزها الحماس الى حد ما . فهى من ناحية جاءت فى وقت كان يشهد فعلا ضغطا عاما من جانب منظمة أوبك يرمى لزيادة أسعار البترول زيادة كبيرة بهدف تعويض الارتفاعات التضخمية فى سعر السلع المستوردة من الغرب ، ولتوفير رأس المــال الاستثمارى . وبالتالى كان هــذا عنصرا من عنــاصر المساومة ، بقدر ما كان سلاحا سياسيا . كما كان من ناحية أخرى يلائم الاهداف الامريكية بقدر تعارضه معها .

والحق الحظر البترولى العربى ضررا بالغا بأمريكا على نحو كان كافيا لاقناع نيكسون بتقديم « مشروع استقلال الطاقة عام ١٩٨٠ » ولكن تردد أن أمريكا لم تكن ضحية بقدر ما كانت المتهمة باثارة « أزمة الطاقة » فقد بدت أكثر ردود الفعل خطورة من جانب أكثر مناطق العالم استيرادا للبترول ـ ألا وهى السوق الأوروبية المشتركة (ومن بينهـا بريطانيا) واليابان فى نفس الوقت الذى كانت أمريكا قد بدأت تعانى فيه حقيقة من النتائج المترتبة فى هذه المناطق عن انتاج رخيص نسـبيا وتتمثل فى : معدل عال للواردات ومعدل منخفض للصادرات • فـكان حظر البترول العربى نكسة جاءت فى الوقت المناسب للسوق الاوروبية المشتركة واليابان مما بعث افتراضا على ارتياح أمريكا الشديد •

وبصرف النظر عن كل هذا يعتبر احتكار شركات البترول لتسهيلات التكرير والتوزيع ضمانا قويا بعدم اتحاد الدول المنتجة للبترول اجراء فعالا من جانبها وحدها • وكان هذا هو على وجه التحديد ، الدرس المستخلص من أزمة البترول الايرانية فى الفترة من عام ١٩٥١ الى عام ١٩٥٣ حيث كانت ايران ذاتها أولى الضحايا فى تلك الملحمة •

ومع هذا فهناك بعض المنافسة التى تواجه شركات البترول • وهى منافسة تنبع من الاتحاد السوفيتى ، ولا غرو فى ذلك • اذ كان السوفييت يسعون خلال السنوات الاخيرة لوضع نظام متكامل للعالم كله للامداد بالطاقة ، وهو النظام الذى عقدوا النية على زعامته وبغض النظر عن هذا المسعى فان الاتجاه المتزايد فى الاتحاد السوفيتى نحو اقتصـاد استهلاكى على النمط الغربى قد نشأ عنه زيادة الطلب هناك على البترول وحقا توجد بشرق سيبيريا احتياطيات بترول ضخمة ، ولكن الاتحـاد السوفيتى لا يملك رأس المال ولا التكنولوجيا لانشاء الشبكات الضرورية لاستخراج البترول والامداد به • وكان الحل الذى توصل اليه الروس بسيط الى حد مذهل • منهم يستوردون بترولا رخيص الثمن من الشرق الأوسط (من ايران والعراق المتجاورتين أساسا) ويعيدون تصدير بعضه محققين الأرباح ، وتساعد الكمية الباقية على اشباع المتطلبات المحلية • وأمكنهم بالأحرى وهم يتصرفون كما لو كانوا شركة بترول عملاقة كسب عملة أجنبية قيمة لمساعدتهم فى تمويل تطوير حقول بترولهم وفى نفس الوقت زيادة البترول المتاح الحصول عليه فى روسيا ويعمل هذا النظـام بفاعلية تامة منذ أواخر الستينات ، ولكن طرأ تغيير على احدى الركائز

الهامة للسياسة الخارجية السوفيتية باعتبار روسيا مستوردة محتملة كبرى للبترول بدلا من أن تكون دولة مصدرة للبترول • فاهتمام الاتحاد السوفيتى المتزايد بالسعودية والخليج الفارسى جعله يشتبك فى نزاع مضطر مع الولايات المتحدة • ولهذا السبب أضحى دعم أمريكا المستمر للسعودية أمرا حاسما • فمع تضاؤل النفوذ السوفيتى فى العالم العربى بصفة عامة بفضل مصر والصراع العربى الاسرائيلى الى حد كبير أضحى من الأهداف الرئيسية للسياسة الخارجية الامريكية تأمينها وحدة عربية عبر اتساع عريض من الانظمة السياسية التى تتدرج من دول محافظة غنية بالبترول مثل السعودية الى دول أخرى فقيرة من المفترض أنهـا دول اشتراكية مثل مصر • فاذا كانت الولايات المتحدة قد تعلمت أى شىء من جمال عبد الناصر فهو أن تحقيق وحدة عربية ، أو ايجاد حل للصراع العربى ــ الاسرائيلى أمران لا ينفصـلان ، ومن المحتمل أن يظلا كذلك ••

وخطت جهود أمريكا لامتلاك العالم خطوة أخرى فى طريق التحقيق حينما وضع وليام روجرز قدمه فى ساحة الشرق الأوسط فى صيف عام ١٩٧٠ فى محاولة لاقرار « سلام عادل ودائم » •

— ٣ —

ان ما يمكن ان يفعلوه هنا هو اشعال نيران حرب .
والا فما الذى يمكن ان تتوقعه بخلاف ذلك مع جموح السلام فى المنطقة كلها ؟ او تعلم ما هى مشكلة السلام ؟ لا تنظيم له . .

برتولد بريخت فى شجاعة ام

وكانت مقترحات روجرز بوقف اطلاق النار عام ١٩٧٠ التى تنص على انشاء منطقة تسكين تجمد بها الأوضاع (محلك سر) على كلا جانبى قناة السويس (المدة ثلاثة أشهر بصفة مبدئية) واحياء مهمـة يارنج مقبولة من حيث المبدأ لـكل من مصر واسرائيل • وكان لكلاهما ما يكسبه من وراء ذلك • فمصر كانت تريد توقف غارات التغلغل فى العمق واتاحة الفرص لها لجلب تعزيزات فى الوقت الذى سعت فيه اسرائيل للحصول على معونة وأسلحة لاعادة وارساء عمد تفوقها فى المنطقة • ومن

العسير وصف أى من هذه الأهداف بأنها أهداف سلمية ، ولكن السلام استتب على حدود اسرائيل لبرهة من الزمن •

وكان الفلسطينيون بحاجة الى وقت كاف لالتقاط الانفاس بعد الضربة شبه القاضية التى سددتها اليهم قوات البدو الموالية لحسين •• واكتشاف حسين نفسه الذى كان ينعم بالحرارة التى انعكست عليه من انتصار دموى أن قدرته على الاعتدال اتسع نطاقها الى حد كبير من جراء نجاح عمليات القمع التى مارسها • وتقع سوريا ولبنان الى الشمال بلاده • وظل نظام حكم الأسد الجديد يساند رجال العصابات الفلسطينيين من قوة الصاعقة (وقد اقترب عدد أفرادها على جناح السرعة من اجمالى عدد فتح كبرى جماعات رجال العصابات) • ولكن الأسد تحرك على نحو مضطرد للاقتراب بصورة أوثق من موقف السادات « المعتدل » • وأما لبنان — الهادىء كشأن روما — فقد استسلم يعتمد ورباطه جأش لتدفق اللاجئين عليه من حمام الدم الذى نصبه حسين • وفى واقع الأمر لم تكن « أيلول الاسود » مجرد شعار عربى آخر •• بل كانت شعار المنتقم • وكان الصمت فى لبنان ينذر بالسوء ••

وكان العراقيون فى نفس الآونة فى وضع مزعزع كالمعتاد رافضين فيما يبدو لكل شىء ولكل شخص ، وربما لا يتحقق أى سلام معهم أبدا ، ولكن لا يهم •• فعشرات عدة من الاميال من أراضى شعب آخر تفضلهم عن اسرائيل ••

ومرة ثانية يبدو أن فرص التوصل الى تسوية عامة هى فرص حقيقية تماما • فقد اتصل يارنج من كل من اسرائيل ومصر فى شهر فبراير عام ١٩٧١ ، وعرض عليهم اقتراحا باقرار سلام منفصل ، وكان هذا تنازلا كبيرا لاسرائيل ولكن العرض انطوى على تنازلات من جانب اسرائيل أيضا ، ورأى الاسرائيليون أن لا حاجة بهم للتنازل عن أى شىء الآن بعد أن ساد الهدوء منطقة الحدود ثانية • فان ينسحبوا الى حدود سيناء ما قبل عام ١٩٦٧ ، ولن يتقهقروا فى واقع الامر الى أكثر من عشرة كيلو مترات من ضفة قناة السويس حتى على الرغم من أنه من غير الحكمة على الصعيد العسكرى الاحتفاظ بهذا الوضع ، كذلك لن تكون هناك بطبيعة الحال أية تسوية لمشكلة اللاجئين بما يتفق مع القرار رقم ٢٤٢ •

وبدأ المصريون يفقدون ثقتهم فى استعداد أمريكا لممارسة ضغط على عدوهم بعد أن أعلنوا استعدادهم « للتوصل الى اتفاقية سلام مع اسرائيل » ورفضت اسرائيل الالتزام بأى اعلان معين عن نواياها حيال المناطق المحتلة • وواصل السادات طرح مقترحات محددة وعرض فى أبريل ١٩٧١ اعادة فتح قناة السويس مقابل انسحاب جزئى للقوات الاسرائيلية • واقترح أن تكون هذه هى المرحلة الاولى من انسحاب مرحلى من جميع المناطق المحتلة • والتقط الأمريكيون الاقتراح ونسقوا سعيا حثيثا من أجل التوصل الى نوع من أنواع الاتفاقيات المؤقتة ولكن الاسرائيليين لم يكونوا مهتمين بالقناة (نظرا لفتح خليج العقبة) بل وكانوا حتى أقل حرصا على الجلاء عن الأراضى المحتلة • فتعثرت امكانية التوصل الى تسوية وأخفقت ••

كان الاسرائيليون يعزلون أنفسهم بذلك تدريجيا عن مجتمع الأمم وعلى الرغم من حملة الارهاب الفلسطينى المتصاعدة أضر تعنت اسرائيل بما كانت تعلنه عن نواياها السلمية وجعله لغوا باطلا • وحاولت أمريكا خلال بضعة أشهر من عام ١٩٧١ الضغط على اسرائيل من خلال وقف بيع الطائرات اليها وكانت هذه لفتة أخرى يعوزها الحماس الكامل • ولكن مع بدء عام ١٩٧٢ وما اقترن بذلك من بدء حملة الانتخابات الامريكية دق قلب نيكسون ووعد اسرائيل بامدادها بالمزيد من طائرات فانتوم وسكاى هوك •

وفى الوقت نفسه كان السادات قد أعلن أن عام ١٩٧١ هو « عام الحسم » • ولكن لم يتخذ قرار ولم يتم الاقدام على أى اجراء • وفشل التدخل الشخصى من جانب السكرتير العام الجديد للأمم المتحدة فى كسر الجمود فى الموقف • وأخفق اعلان الأسد الرسمى بأن سوريا ستوافق فى النهاية على القرار رقم ٢٤٢ فى تحريك الاسرائيليين أو اقناع الامريكيين بحسن نوايا العرب • ولم يغير طرد السادات للروس من الموقف شيئا •

وبدا كما لو كان هناك شخصية ما تحتل منصبا رفيعا فى الادارة الأمريكية قد قررت السعى لتحقيق هدف الركود فى الموقف فى الشرق الأوسط فعلى الرغم من عداء العرب لاسرائيل فان مصر كانت قد ارتبطت بالولايات المتحدة ومرجع ذلك الى حد كبير هو أن اسرائيل

وأمريكا كانتا حليفتين تربطهما صلة وثيقة • ولكن كلما حاول السادات ارضاء أمريكا ازداد اعتماده على النوايا الطيبة لها • ومن سوء حظ مصر أن هذا كان يتفق بصورة كاملة مع موقف نيكسون ـ كيسنجر الخاص بتعزيز وضع اسرائيل فى محاولة تستهدف استمرار دفع مصر تجاه علاقة أوثق بأمريكا • وكان الامريكيون يشعرون بأن الركود فى الموقف طالما أنه لا يزال ركودا فى الموقف أفضل من فرص تسوية ارادة أى من الطرفين • واكتشف السادات أنه يجد دائما مبررات لأمريكا ، وهى مبررات لن يكون بالامكان التستر على ضعفها طالما تنتهى الانتخابات بالولايات المتحدة عام ١٩٧٢ وواصل نيكسون بعد اعادة انتخابه مساعدة اسرائيل وتحريضها • ولم تعد هناك مبررات لدى السادات لعدم القتال •

وقد تردد أن كيسنجر حينما أصبح وزيرا للخارجية عام ١٩٧٣ قدر أن الحاق هزيمة عسكرية محدودة بالاسرائيليين من شأنها أن تجعلهم أكثر مرونة حتى مما يمكن أن يثمر عنه سحب المعونة • ولو كان الأمر كذلك فلا شك أن هذا الحساب استند على افتراضين هما : أنه بوسع أسلحة الصواريخ المصرية التى أمد السوفييت مصر بها فرض مثل هذه الهزيمة المحدودة على اسرائيل اذا استخدمت فى هجوم مفاجىء ، وأن الاتحاد السوفيتى لن يتورط فى صراع لا هتناه مع اسرائيل • وهى افتراضات كبيرة ولكنها ليست غير قابلة للتصديق • فقد بينت التجربة الماضية أن الروس ينفرون قدر نفور الامريكيين من الانغماس فى حرب يتعذر السيطرة عليها فى الشرق الأوسط زد على ذلك أن فترة أوائل السبعينات شهدت تحركات نحو الوفاق بلغت أوجها فى محادثات نيكسون ـ بريجنيف فى يونيو ١٩٧٣ ومن الواضح أن أمريكا والاتحاد السوفيتى احتلا دور شرطة العالم • ومن ناحية أخرى فان بذل جهد للمخابرات كان يمكن أن يميط اللثام عن حالة ترسانة مصر وعلاقاتها الحقيقية بروسيا •

وحينما التقى نيكسون وبرجنيف على أى الأحوال أبديا بوضوح عدم اهتمام جلى بقضية الشرق الأوسط •• هذا اذا كان لنا أن نستخلص ذلك البيان المشترك الذى صدر فى أعقاب اجتماعهما • أما بالنسبة للسادات فان هذه هى القشة الى قصمت ظهر البعير ، اذ اهتز أمله الأخير

فى اقرار تسوية سلمية • وشرع السادات يضع خطته لشن هجوم محدود على اسرائيل بدهاء يميز شخصا بعلم الطريقة التى تتراكم بها أوراق اللعب •• الواحدة فوق الأخرى وليست لدينا أى وسيلة تمكننا من معرفة المدى الحقيقى لأهداف مصر الحربية ولكن من الواضح للوهلة الأولى أيضا لم تتضمن ابادة اسرائيل ، اذ كان السادات يشك فى أن لديه القوة التى تمكنه من طرد اسرائيل من سيناء •• حتى مع العون المتمثل فى شن هجوم سورى شبه يائس حتما فى الجولان واذا ألقينا نظرة على كيفية تدبير الخطة وتنفيذها فسيبدو أنه من المرجح أنه انتوى حمل الخط الأمامى الاسرائيلى على التقهقر الى ممرات سيناء فى محاولة من جانبه لاقناع أمريكا بتصميم مصر واقناع اسرائيل بالحاجة الى التفاوض •

وهكذا التقت مجموعة من الضباط المصريين والسوريين فى الاسكندرية يوم ٢٢ أغسطس عام ١٩٧٣ — وسط جو من السرية المطلقة — لمناقشة التفاصيل النهائية لخطتهم الخاصة بشن هجوم فى سيناء والجولان فى آن واحد • ولم يعد الامر يتمثل فى « لا سلم ولا حرب » • ولتكن الحرب •

* * *

الفصـل الثالث عشر

الطاووس والثعلب

مقدمة للحرب : نوفمبر ١٩٧٢ ــ أكتوبر ١٩٧٣

تظاهر بأنك دونه وشجعه على غطرسته ..

« سـون ترو »

ــ ١ ــ

انقضت الآن خمس سنوات منذ هزيمة العرب فى عام ١٩٦٧ ، خمس سنوات لم يتغير فيها سوى القليل فى لب الصراع العربى ــ الاسرائيلى . فاللاجئون الفلسطينيون كانوا لا يزالون فى مخيماتهم ، ولم تكن الدول العربية قد اعترفت بعـد باسرائيل . وظلت الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ خاضعة للاحتلال . وكانت اسرائيل لا تزال بدون حدود آمنة مثلما سيتضح ذلك بعد مرور أحد عشر شهرا على هـذا التاريخ . ولم تكن الزعامة الاسرائيلية قد أدركت بعد . وعلى الرغم من خوضها غمـار أربع حروب أنه لا يمكن اقـرار الأمن فى الشرق الاوسط الا على أسـاس تسوية سياسية وليس اسـتنادا على قوة الأسلحة ..

وظل السـيرك الدبلوماسى يستعرض ألعـابه أمام متفرجين غير متحمسين طيلة عامين من انتهاء « حرب الاستنزاف » رسميا . وكان الوضع يتمثل فيما أشار اليه ناصر بايجاز بالغ عام ١٩٦٩ حينـما قال « لا يمكن أن يكون هناك أى أمل فى التوصل الى أى حل سياسى الا اذا أدرك العدو أننا قادرين على ارغامه على الانسحاب بالقتال » .

وساد لدى العرب الاعتقاد بأنه سيطرأ آنذاك فقط تغيير فى الأفكار الاسرائيلية عما هو مقبول وما هو غير مقبول •

وقد سعت القيادات العليا العربية ولا سيما القيادة العليا المصرية للتوصل الى مثل هذه المقدرة منذ عام ١٩٦٧ • وكان ناصر قد عمد بعد حرب يونيو مباشرة الى الاعتكاف وقتا من الزمن لسماع أشرطة تسجيل يروى فيها الجنرالات الاسرائيليون تفسيرا للأسباب الكافة وراء نجاحهم وكانت تلك الاسباب المألوفة تماما : عمليات عسكرية سريعة ومرنة سهل القيام بها توفر قوة بشرية مدربة جيدا وذات قدرة على التصرف تعتبر تجسيدا نموذجيا لمجتمع تكنولوجى متحد •

ولم يكن بمقدور المصريين أن يأملوا فى التصدى للاسرائيليين على قدم المساواة فى هذا النوع من أنواع الحروب • فالقاعدة الاجتماعية لم تكن قائمة ببساطة • ولكن مصر تمتعت بمزايا عسكرية • أعداد أكبر يمكن تجنيدهم من الرجال المسلحين ، القدرة على تحمل حرب طويلة وخسائر أكبر فى الأرواح ، وزعامة عسكرية لديها ولع بالمعركة المنظمة التى يمكن تخطيط واعداد وتوجيه كل اجراء أخير فيها من القمة •

وحاولت « حرب الاستنزاف » التى شنها ناصر تعبئة هذه المزايا لمصلحة مصر وبالتالى توجيه ضربة الى نواحى الضعف لدى اسرائيل : قدرة ضعيفة على تحمل الخسائر فى الأرواح وعجز الاقتصاد عن الصمود فى وجه حرب طويلة وقد أثمرت هذه المزايا لوقت قصير وكان من المحتمل ارغام الاسرائيليين على التقهقر فى سيناء لو صمد المصريون أكثر • ولكن انشاء خط بارليف قلل الى الحد الأدنى من خسائر اسرائيل فى الارواح، واستخدم السلاح الجوى الاسرائيلى آنذاك كورقة رابحة ليس لدى المصريين مقابل لها • وعلى الرغم من أنها نهاية هذه الحرب شهدت اكتساب المصريين ــ بفضل السوفييت ــ ورقة رابحة مقابلة على شكل شبكة دفاع كافية من الصواريخ الا أن الهدف الأصلى منها والخاص « باستنزاف » القوة البشرية الاسرائيلية والاقتصاد الاسرائيلى لم يتحقق • فقد تحمل السلاح الجوى الاسرائيلى وطأة القتال ، وكان السلاح الجوى الاسرائيلى قوة نظامية • ولم يتطلب الأمر أى تعبئة اضافية ولم يعان الاقتصاد الاسرائيلى المثقل فعل بالأعباء ، أية ضغوط اضافية •

كان هذا هو الوضع الذى ورثه السادات فى أواخر عام ١٩٧٠ بعد وفاة ناصر المفاجئة فى شهر سبتمبر • وكان السادات يعلم بالمثل أن العمل العسكرى وحده هو الذى من المحتمل أن يحطم الركود الدبلوماسى فى الموقف ، وكذلك كان عليه أن يقرر ما هو الشكل الذى سيكون عليه هذا العمل العسكرى • ففى البداية يبدو أنه اعتقد أن الاقدام على حركات مسرحية لافتة للنظر سيكون كافيا لاحياء الجهد الدبلوماسى وتم التخطيط للاقدام على محاولتين من هذا القبيل • لكن صدر الأمر فى ديسمبر ١٩٧١ ــ بوقف هجوم جوى مصرى على شرم الشيخ • حينما اندلعت نيران الحرب الهندية الباكستانية وانتزعت صدارة العناوين الرئيسية بالصحف التى كان من المأمول الاستحواذ عليها • وكذلك صرفوا النظر فى أكتوبر ١٩٧٢ عن فكرة انشاء جسر يحتله رجال الكوماندوز فى وسط سيناء حينما رفض صادق وزير الحربية اجازة مثل هذا التبديد الانتحارى لأفضل عناصر قواته ، فاستبدل بالفريق اسماعيل واستسلم السادات لفكرة استئناف الحرب التقليدية فى المستقبل القريب •

وقد اكتسب فى هذا الصدد الارث الرئيسى الذى خلفته « حرب الاستنزاف » وراءها ألا وهو تحريك شبكة الصواريخ الى الأمام والدفاع الفعال المضاد للطائرات فوق منطقة القناة الذى يكفله حاليا مداه المنحدر أهمية بالغة • وبسبب حرمان السلاح الجوى الاسرائيلى من حرية دخول السماوات فوق القناة نشأت منطقة يمكن للجيش المصرى فيها الاستفادة بمزاياه فى مواجهة نقاط ضعف العدو • فشن هجوم عبر القناة هو بمثابة معركة مثالية أمكن التخطيط لها وتوجيهها من القمة معركة قادرة على استيعاب الاعداد المتفوقة لمصر ، ويكون من المأمول فيه أن ترس دعائم ركود جديد أكثر دموية وتتدخل الدول الكبرى وسترغم اسرائيل على تقديم تنازلات حيث تعانى من المتاعب على المستويين العسكرى والاقتصادى •

كذلك كان التخطيط العسكرى قابلا للتطبيق فى الجولان حيث يمكن للجيش السورى التقدم فى اتجاه الحافة الغربية من الهضبة تحت ستار شبكة صواريخ مماثلة وقدروا أنه اذا أمكن ارغام الاسرائيليين على التقهقر والانحدار عن هضبة الجولان فسيجدون أن شق طريقهم الى قمة الهضبة ثانية عن طريق القتال سيكون أمرا باهظ التكاليف كما

سيكون مضيعة للوقت ، فمنذ نهاية عام ١٩٧٢ فصاعدا وكل من مصر وسوريا تخططان وتمهدان للعودة الى ساحة القتال التقليدية •

وعلى الرغم من كل التوترات الناجمة عن وجــود ذلك الحشد الكبير من المستشارين السوفييت فقد طرأ تحسن كبير على جيــوش كلا الدولتين فأصبحت أكبر حجما وأفضل تسلحا وتدريبا • ولا ريب فى أنه كانت لهما نقاط ضعف ، ولكن كان عليهم القتال بقدر ما يستطيعون• فقــد تعلمت الزعامات السياسية والعسكرية العربية فى النهاية كيف تحسب أهدافها على ضوء ما لديها من وسائل لتحقيق هذه الأهداف ، وبالتالى ان تحاول تحقيق الممكن • وكان كل جانب من جوانب العملية القادمة يخضع لتحليل بالغ الدقة : طريقة انتشار القوات ، عمليــة العبور ، اختراق السور الرملى على الشاطىء الآخر للقناة ، وتدمير المدرعات الاسرائيلية القادمة • وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه عملية الملاحظة الدقيقة لكل تحرك اسرائيل على الضفة الشرقية والتعرف على روتين العدو والتخطيط بناء عليه كانت وحدات مصرية فردية يجرى تدريبها بلا توقف على أداء أدوارها الفردية • واختصر الوقت اللازم لمد جسر عبر القناة من ثلاثة أيام الى خمس ساعات ، وأمكن أيضــا اختصار الوقت اللازم لاختراق السور الرملى الى النصف من خلال الاستخدام الحاذق الخراطيم اطفاء الحريق وسيتم التصدى للمدرعات القادمة عن طريق الانتشار الواسع النطاق للمدفعية المزودة بصواريخ مضادة للدبابات ، ومواجهة باللاسلكى ، وبالقنابل اليدوية الصاروخية ، مع التصدى لسلاح الطيران الاسرائيلى باستخدام صاروخ سام — ٧ المضاد للطائرات والجديد نسبيا ويستخدمه الأفراد • ولم يترك سوى القليل جدا لعامل الصدفة فيما يتعلق بالمرحلة الأولى من خطة المعركة • فاذا كان المصريون قد عجزوا عن تحريك جيش مرن سريع الحــركة فلا شك فى أنه كان باستطاعتهم تحريك جيش قادر على القيام بعملية محكمة ومعدة بنــاء على تدريب ممتــاز •

وكانت القيادة العليا المصرية واثقة من نفسها ولكن من الطبيعى أنه كلما زاد عنصر المفــاجأة زاد احتمال استغراق التعبئة فى اسرائيل وقتا أطول وازدادت سهولة التعزيزات المصرية على الضفة الشرقية • ولبلوغ هذا الهــدف فكرت العقــول فى وزارات الحربية والاعــلام والشئون الخارجية المصرية فى خطة خداع مذهلة وقامت بتنفيذها •

وفرص الوضوح المتزايد للاستعدادات التى تتخذ للهجوم ضرورة تحويل أنظار الاسرائيليين • فاتخذوا العرب موقفا دبلوماسيا معتدلا أشــبه بموقف الحمائم ، واغتنموا كل فرصة سنحت لهم للتشجيع على انشغال الاسرائيليين بالجماعات الفلسطينية • ووقع الاختيار على يوم ٦ أكتوبر لبدء الهجوم على أساس اتجاه التيارات فى القناة على وجه الخصوص ولكن لان هذا اليوم أيضا كان يوافق « يوم كيبور » •• أقدس الأيام فى التقويم اليهودى • وسوف يكون الاسرائيليون مشغولين تماما بهذه المناسبة وبحملتهم الانتخابية • زد على ذلك انهم لن يتوقعوا التعرض لهجوم عربى فى شهر رمضـــان •

بل ان مسألة شوناو التى وقعت فى الأسبوع السابق على الحرب كانت تحويلا لانتباه الاسرائيليين • فقد قام مسلحان عربيان يوم ٢٨ سبتمبر باحتجاز قطار يقوم برحلات بين براغ وفيينا عند منطقة الحدود النمساوية • وكان يستقل هذا القطار يهود سوفييت فى طريقهم الى اسرائيل عن طريق مركز المرور العابر الترانزيت ــ بقلعة شوناو • وطالب المسلحان اللذان أطلقا على نفســهما اسم « نسور الثــورة الفلسطينية » باغلاق مركز شوناو • ووافقت الحكومة النمساوية على اغلاقه مما بعث على ذعر اسرائيل ، وظلت طاقات الزعامة الاسرائيلية موجهة لعدة أيام نحو تغيير هذا القرار فى الاتجاه العكسى • واتضح فيما بعد ان مجموعة « الصقور » تخضع لسيطرة منظمة الصــاعقة الفلسطينية التى يهيمن عليها السوريون • ومن العسير الاعتقاد بأن العملية برمتها كان لها وقع المصادفة فحسب لخطة الخداع العربية •

أما بالنسبة لأولئك الاسرائيليين الذين كانوا لا يزالون يراقبــون حدودهم فقد كان هناك حرص شديد لكى يبدو النشاط العربى القائم فى أى صورة أخرى خلا أن تكون نواياه هجومية • ولم يتم الاقدام على أى خطوة من شأنها أن تشير الى تغيير فى الروتين العادى • وبما أن هــذا الروتين انطوى على القيام بمناورات ضخمة فى خريف كل عام لم يكن بالتالى تحرك القوات والمعدات على نطاق واسع بالأمر غــير المعتاد • ولم يلاحظ الاسرائيليون أن الأولوية التى كانت تتجه الى منطقة القناة ابان ساعات النهار دأبت على العودة ابان ساعات الليل على شــكل كتائب فحسب • ومن الناحية الأخــرى فمن المرجح ان المخابرات الاسرائيلية كانت تلاحظ بتلهف الأنباء الواردة بالصــحف

المصرية عن منح الضباط أجازات للقيام « بعمرة » خلال شهر رمضان ، والأنباء المتسربة عن عمد والتى تلقى ظلالا من الشك على كفاءة شبكة الصـــواريخ المصرية •

فلم يكن نشوب حرب أمرا متوقعا • ومن المسلم به حقا انه بدا أن هناك مستوى من النشاط العربى أعلى من المعتاد ، ولكن كان بالامكان تفسير ذلك على أنه رد فعل ــ يتوجس ريبة للمعركة الجوية الاسرائيلية ــ السورية التى نشبت يوم ١٣ سبتمبر • وظن الاسرائيليون بثقـــة ان العرب يكادون يتوقعون التعرض لهجوم • وهو مبرر فسر انتشار قواتهم بصورة دفاعية • وكان بالامكان بطبيعة الحال انتشار هــذه القوات على نحو هجومى بدون مجهود كبير ، ولكن هذا الوضع كان ينطبق على أى لحظة خلال العام الماضى • فلم تكن هناك حاجة للشعور بالذعر وتعبئة القوات مثلما حدث فى شهر مايو • فقد كلفتهم هــذه التعبئة أموالا طائلة •

وهكذا كان الاسرائيليون على استعداد لان ينخدعوا •

— ٢ —

كانت القوات الاسرائيلية قد احتلت أراضى تابعة لدول خط الجبهة العربية الثلاث عام ١٩٦٧ ووفرت « الحدود » الجديدة للاسرائيليين فى كل حالة عمقا استراتيجيا أكبر ••• كذلك كانوا فى كل حالة من هــذه الحالات متفوقين عسكريا أنفسهم • وفى الجــولان أصبح الاسرائيليون ينظرون الى أسفل على السوريين وليس العكس ، أما على خطى الجبهة المصرى والاردنى فكانت هناك مواقع مائية ضخمة تفصل قوات الدفاع الاسرائيلية عن أعدائها • وكان السلاح الجوى المصرى قد فقد قواعده فى سيناء وتبعا لذلك طال أما الفترة الزمنية اللازمة لانذار الاسرائيليين بوقوع هجوم جوى مصرى • وكانت اسرائيل قبل عام ١٩٦٧ مضطرة بسبب الطبيعة الجغرافية للأراضى للاقتصاد على توجيه ضربة اجهاض وشن الهجوم الخاطف • أما الآن فقد ساد الاعتقاد بأنه فى وســع قوات الدفاع الاسرائيلية انتظار اقدام العدو على الخطوة الأولى دون التعرض لخسارة فادحة وسوف تقتصر الصفة السياسية المخزية لكلمة « العدوان » على العرب ولكن « الحدود » الجديدة كانت بعيـــدة عن كونها مصــدر حركة مطلقة • فقد طرحت مشكلات عسكرية يتعــذر

حلها فيما يبدو • اذ كان مشهد جيش مصرى يتحرك على نحــو من الكثافة الى داخل سيناء ينطوى دائما على انذار مسبق بقرب وقوع هجوم عربى • ولم تكن سوريا لتجرؤ على التحرك ضد اسرائيل بدون مثل هــذا الدعم وكذلك فانه لم يكن بامكان مصر لأسباب واضــحة خاصة بامداد الجنود وتموينهم القيام بعملية انتشار لجيشها فى الصحراء بصورة دائمة • ولكن كان بالامكان بعد عام ١٩٦٧ العمل على انتشار القسم الأكبر من الجيش المصرى على طول خط جبهة القناة ، وهو أمر حدث كثيرا بالفعل • ولم يعد هناك منذ ذلك الحين فصــاعدا أى انذار حاسم بهجوم برى عربى •

ومع هذا كانت اسرائيل تعجز ــ لأسباب اقتصادية عن العمل على انتشار قوة موازية على الضفة الشرقية لقناة السويس • كمــا كانت قوات الاحتياط التى سيتعين عليها قطع مسافة أطول ستستغرق وقتا أطول للوصول الى مواقعها • وكان من الواضح أن قسما كبيرا من الأمر اعتمد على نوعية أجهزة المخابرات الاسرائيلية • فلو كان بوسعها التكهن بنوايا العرب فى مرحلة مبكرة بصورة كافية لامكن آنذاك ارسال قوات الاحتياطى الى ساحة المعركة فى الوقت المناسب لتعزيز هــذه الوحدات القليلة المرابطة بصفة دائمة الى جوار قناة السويس •

وظل انتشار هذه الوحدات الأخيرة مسألة موضع نزاع داخــل نطاق زعامة قوة الدفاع الاسرائيلية • فقد كان المقصود من تحصينات خط بارليف التى أقيمت ابان المراحل الأولى من « حرب الاستنزاف » هو أن تكون وسيلة مضادة للتصدى لنيران المدفعيــة المصرية وليس وسيلة مضادة للتصدى لمحاولة لعبور القناة • وكانت أهميتها الثابتة بالنسبة لهذا الامر غير مؤكدة • فقد دفع « طال » بأن بالامكان تجاوزها بسهولة ، وبالتالى فلا تتعدى مهمتها أداء ما هو أكثر من دور مراكز للانذار المبكر • ويجب أن تترك مهمة الدفاع لوحدات مدرعة متحركة • ورد عليه جافيتس واليعازر من بين آخرين بأن قناة السويس لا تشكل مانعا له معنــاه الا اذا احتفظ الاسرائيليون بوجود مادى ضــفتها الشرقية • وينبغى أن تشكل تحصينات شبكة دفاعية بقدر ما تشــكل شبكة انــذار •

ولم يتخذ أى قرار واضح فى هــذا العدد فى أعقاب « حــرب الاستنزاف » مباشرة • وتم تعزيز خط بارليف (من خلال انشاء المزيد

من الممرات المنحدرة لسير الدبابات والطرق • ومراكز قيـادة تحت الأرض وشبكات للمياه والاتصالات ، وتزويده بكثافة بالجنود • ودأبت المدرعات المتحركة على القيام بدوريات حراسة بين المساحات الخالية التى تفصل بين الحصون ولكن هذا أخفق فى ارضاء « طال » • وظل يحث على الاستعانة بالمزيد من المدرعات المتحركة وانزال وضع الحصون الى مرتبة مراكز للانذار • وحينما تولى اليعازر رئاسة الاركان عـام ١٩٧٢ كان متأثر أكثر من اللازم بعدم وجود أى نشاط للعدو فى منطقة القنـاة فوافق على خفض وضع الحصون بدون أن يصدر أمر مقابل ذلك بتكثيف مستوى دوريات الحراسة المدرعة • وهكذا أضحت الحصون الآن قوية جدا بما يتجاوز دورها كمواقع للانذار ، وضعيفة جدا على نحو لا يكفل لها أداء دور دفاعى • ومن شأن هجوم مصرى أن يوقع المحتلين ببسـاطة فى مصيدة •

أما على الجبهة السورية فقد كان نفس الوضع الأساسى ينطوى على خطر أكبر • فقد كانت مصر عام ١٩٦٧ العدو الاقوى والاقرب ، وصمد الاسرائيليون فحسب فى مواقعهم فى الشـمال فى الوقت الذى كانوا يتخذون فيه قرار فى الجنوب • أما الآن فان الجيش المصرى كان بعيدا جدا فى الجانب الآخر من سيناء ، وأصبح الجيش السـورى هو الذى يمثل الخطر المباشر • وسيتعين على قوات الدفاع الاسرائيلى فى هـذه المرة أن تسوى حساباتها على الجولان أولا •

ويمر خط الجبهة الاسرائيلى الآن عبر المنطقة الوسطى من الهضبة وهى سهل منبسط تتخلله تلال بركانية متفرقة • وقد أقيمت سلسلة من التحصينات عبر الخط وتتضمن مصاطب للمدفعية تحميها حقول ألغـام وأسلاك ومن دبابتين الى ثلاث دبابات ومواقع دفاعية اضافية فوق تلك التلال وخلف الخط مباشرة • وأقيم مركز مراقبة الكترونى على قمـة منحدرات جبل الشيخ لكشف الهضبة كلها • وفى وقت مبكر من عـام ١٩٧٣ تم توسيع نطاق الشـبكة الدفاعية أكثر من ذلك • فشقت طرق جديدة ، وحفر فى البازلت خندق عميق مضـاد للدبابات مغطى بطرق جديدة منحـدرة للدبابات •

وكان التفاؤل واضحا بالنسبة للجولان مثلما كان سائدا بالنسبة لسيناء فسوف يعوض الخندق الافتقار لوجود عراقيل طبيعية ويعمل على ابطاء أى هجوم سورى • ثم ستوقفه بعد ذلك المدرعات المرابطة كاحتياطى والسلاح الجوى الاسرائيلى • وستصل قوات الاحتياطى بعد تعبئتها وترد الهجوم على أعقابه • كان هذا هو السيناريو المتوقع لسير الأحداث • وكان البعض من حسن الادراك بحيث ساوره الشك فيه • وأشار طال الى ما يراوده من مشاعر قلق من قيام السوريين بالعمل على انتشار شبكة متكاملة لصواريخ سام سيعوق الى حد كبير من عمليات السلاح الجوى الاسرائيلى ، وبالتالى سيدع التحصينات والوحدات المدرعة الصغيرة تتحمل وحدها وطأة الهجوم السورى • ولكن رأيه لقى تجاهلا فلن تنشب الحرب •

وكان من رأى اليعازر وديان أن الحرب محتملة الوقوع • وتوقع اليعازر أن يقوم العرب بشن هجوم دبلوماسى جديد بعد انتخابات الرئاسة الامريكية فى أواخر عام ١٩٧٢ • وسوف يفشل جهدهم فى هذا المجال بطبيعة الحال ، ومن ثم فسيلجأون على الارجح للحرب التقليدية مرة أخرى فى عام ١٩٧٣ • وكان هذا هو السبب فى اصراره • وعلى عكس نصيحة المخابرات على تعبئة باهظة التكاليف للقوات الاسرائيلية فى شهر مايو • ولكن سرعان ما تبددت هذه الازمة • وثبت خطأ اليعازر والذين استبعدوا قيام العرب باشعال حرب زادت ثقتهم فى هذا الاعتقاد الخاطىء • وأشار ديان أيضا فى شهر مايو الى أنه « يجب علينا أن نضع فى الاعتبار تجدد الحرب فى النصف الثانى من أشهر الصيف » ولقى رأيه تجاهلا هو الآخر • فحتى لو نشبت حرب فسوف يكسبها الاسرائيليون بلا أدنى مشقة • وبالتالى فلم يكن هناك أى سبب يبرر الشعور بالقلق •

وفى الوقت الذى زاد فيه معدل استعدادات العرب وأضحى أكثر وضوحا فى الشهر الأخير من أشهر « السلام » ظل اقتناع الاسرائيليين بفكرتين متناقضتين فى آن واحد قائما • فالعرب لن يهاجموا والاسرائيليون سينتصرون • وأخذت القوات المصرية والسورية المرابطة على خطوط الجبهة تزداد قوة يوما بعد يوم مثلما حدث فى ديسمبر ١٩٧١ وديسمبر ١٩٧٢ ومايو ١٩٧٣ • وسوف يكونون قريبا وللمرة

الرابعة على استعداد لشن هجوم شامل • لكنهم لم يفعلوا ذلك فى المرات الثلاث الأولى • وما هو وجه الخلاف بين هذه الازمة والازمات الاخرى؟ ان اسرائيل لا تستطيع الاقدام على تعبئة أخرى غـير ضرورية وقد استحوزت عملية شوناو على اهتمام الأمة • وأما العرب أولئك الحمقى التعساء فانهم يعدون دفاعا ضد هجوم اسرائيلى يتخيلونه • أو أنهم كانوا « يهوشون » • ووجد الاسرائيليون ردا على كل دليـل أطرح أمامهم لتبرير التيار السائد للتفاؤل الذى بالرضا عن النفس •

ومن حسن حظ اسرائيل أنه اتخذ قراران لهما أهمية بالغة ، والأول اتخذه ديان واليعازر • فحينما كانا فى زيارة الجبهة الشمالية فى منتصف شهر سبتمبر اجتذب انتباههما حشد من المدفعية السورية المتوسـطة المدى • وكان هذا اما خطأ سورا أو « دلالة واضحة فى نظر أى مراقب عسكرى على توفر نية الهجوم » • الا أنه لم يكن يبـدو عليهما ذلك الانزعاج العام ، فقد كان رضاء الاسرائيليين عن أنفسهم كبيرا • ولكن سيبرهن اصدارهم الأمر بصعود اللواء المدرع السابع الممتاز الى قمة الهضبة على أهمية القصوى أثناء تلك الليلة الطويلة ، ليلة ٦ — ٧أكتوبر •

وأخذت اسرائيل فى غضون هـذه الفترة تترقب تلاشى سـحب الأزمة انتظرت ذلك حتى الساعة ٠٠ر٤ من اليوم السادس حينمـا تم ايقاظ زيئيرا رئيس المخابرات ليستمع لانباء تفيد بأن العرب سيشنون هجوما فى ذلك اليوم • والتقى ديان واليعازر بعد ذلك بساعتين لاتخاذ قرار بشأن التعبئة • ووافق ديان حتى فى هذا الوقت المتأخر على التعبئة الجزئية فقط ، تلك التعبئة الكافية لأداء أغراض دفاعية • كذلك رفض مناشدة اليعازر بتوجيه ضربة اجهاض جوية ، وهو رفض عزرته « وزارة المطبخ » برئاسة جولدا مائير فى الساعة ٠٠ر٨ ، اذ حذر السفير الأمريكى السيدة جولدا مائير من أن شحنات الاسلحة الامريكية لاسرائيل مشروطة بعدم توجيهها الضربة الأولى •

وكان من المتوقع نشوب الحرب فى الساعة ٠٠ر١٨ ، وهو توقيت خطـأ كما اتضح بعد ذلك • واتخذ طال القرار الثانى الذى كانت له أهمية بالغة ، وذلك بعد اجتماع « وزارة الحرب » فقد قرر أن ارسال

قوات الاحتياطى على وجه السرعة الى جبهة الجـولان أمر لا يمكنه انتظار اتمام عملية التعبئة العادية من خلال ألوية • وأن عليهم ارسال قوات الاحتياطى فى سرايا وفصائل وتجمعات لهذا الغرض ، أيا كان الشكل الذى ستصل به • اذ ضاعت فترة الانذار • وأصبحت السرعة الآن هى كل شىء •

وكانت خطة الدفاع الاسرائيلية تقوم فى كلا الجبهتين على ثلاثة شروط هى : فترة انذار لمدة أربع وعشرين ساعة ، هجوم عربى غـير كفؤ كالعادة ودعم كامل من جانب السلاح الجوى الاسرائيلى للقـوات البرية على خط الجبهة والتى تفوقها القوات العربية عددا بكثير • ولكن لم تتوفر أى من هذه الشروط فالشرط الأول كان قد تبدد بالفعـل • وسرعان ما سيحذو الشرطان الآخران حذوه •

* * *

الفصـــل الرابع عشر

وقت مقدس ، وحرب غير مقدسة

حرب أكتـــوبر ١٩٧٣

حرب • حرب ، حرب حمقاء ..

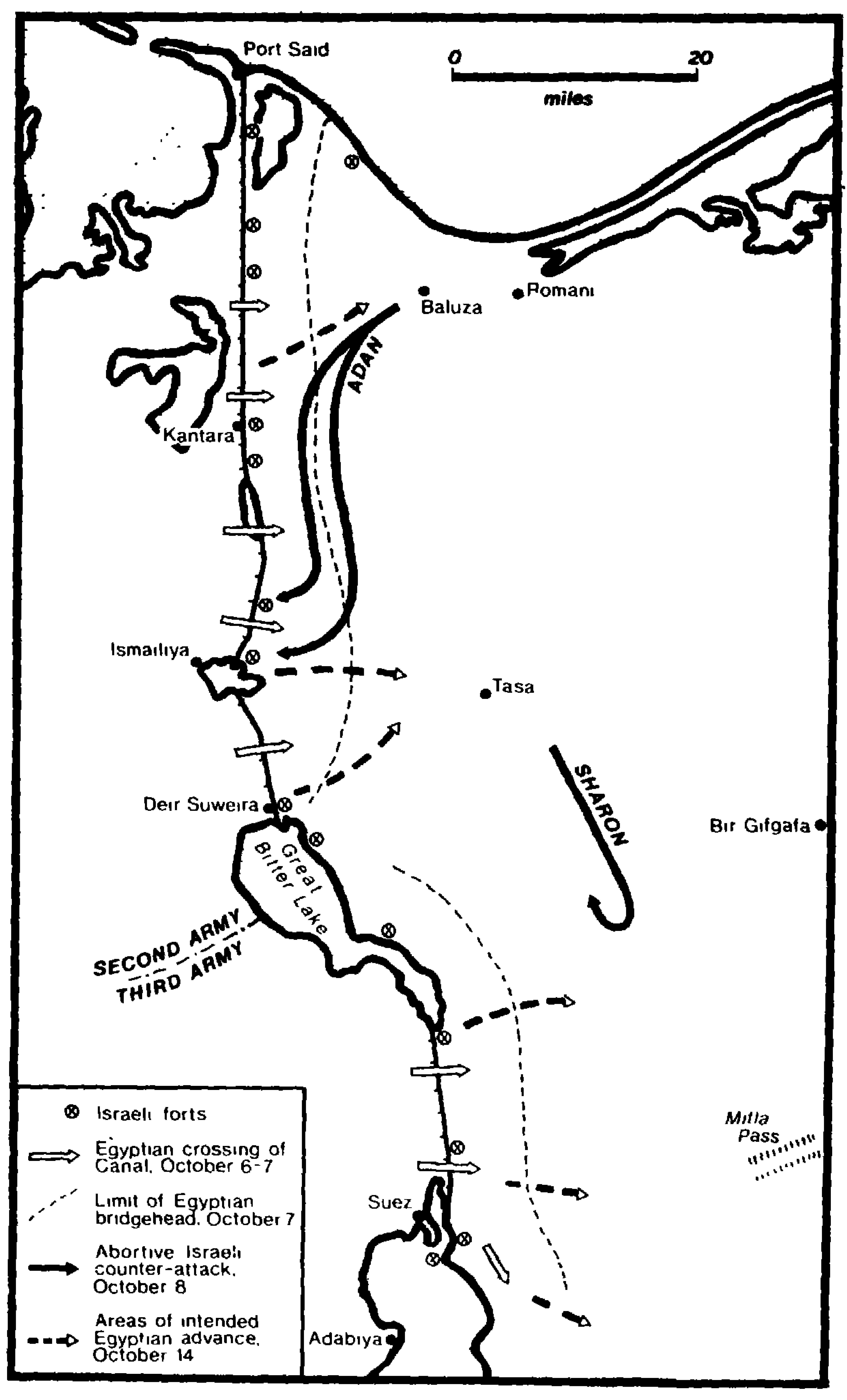
موشى ديـــان

لقد قاتلنا وسنواصل القتـــال لتحرير أرضنا التى استـــولى عليها الاحتلال الاسرائيلى عـــام ١٩٦٧ ، ولايجاد الوســـائل نحو اســـتعادة واحترام الحقوق المشروعة للشعب ..

أنور السادات ٦ أكتوبر ١٩٧٣

— ١ —

بدأ الهجوم المصرى فى الساعة ١٤٫٠٠ من يوم ٦ أكتوبر • وشن السلاح الجوى هجوما فى عمق سيناء ، فهاجم المطارات الاسرائيلية ، وبطاريات الصواريخ ، مواقع المدفعية ومنشآت الرادار والقيادة • وفتح ألفان من المدافع المصرية على الضفة الغربية للقناة نيرانها على المواقع الاسرائيلية الواقعة عبر المياه ، وتحركت مئات الدبابات المصرية فى الطرق المعدة سلفا على الدشم المرتفعة لفتح نيرانها على حصـــون خط بارليف • وفى الساعة ١٤٫١٥ قامت الموجة الأولى من قوات المشاة باعتلاء ظهور زوارقها لعبور المسافة القصيرة التى تفصل بين شطرى القناة • وبعد ذلك ببضع دقائق كانوا يتسلقون الدشـــم على الطرف



Egypt returns to Sinai, 6-14 October

القصى • وكان بعضهم يحمل أنابيب معدنيـــة على أكتافهم ، والبعض الآخر يحمل ما بدا أشبه بحقائب السـفر المستخدمة فى الرحـلات ، وآخرون يجرون خلفهم مقطورات صغيرة يسهل حملها ونقلها • وأما الأنابيب فكانت عبارة عن منصات لاطلاق صواريخ آربى جى ٧ المضادة للدبابات ، وأما حقائب السفر فكانت تحتوى على صواريخ « ساجر » المضادة للدبابات والموجهة باللاسلكى ، وأما المقطورات فكانت تحمـل صواريخ سام ٧ اليدوية المضادة للطائرات وحينما وصلت قوات المشـاة المصرية الى قمة التحصينات الاسرائيلية غرست الاعلام وبدأت فى فك متاعهـا •

وفتحت جهنم نيران مدفعيتها حولهم جميعـا • وكانت هنـاك حمولات زوارق متتابعة من المشاة تعبر القناة من خلفهم • وحينمـا كانوا يصلون الى قمة التحصينات كانت الموجة الأصـلية تتحرك الى الامام الى مسافة مائتى ياردة داخل الصحراء • ووصلت الموجتان الثالثة والرابعة لتنضـما الى الموجتين الأولى ، والثانية وقفزت وحدات شتى الى الامام داخل سـيناء • وحينما حلت سـاعة الغروب كانت قوات المشاة المصرية قد ثبتت أقدامها بقوة على مسافة تبعد عن القناة بميل وبميلين وفى اليوم التالى تقرر ضرورة تعميق رأس الجسر أكثر من ذلك وتنظيمه بحيث يتمكن من الصمود فى وجه الهجوم الاسرائيلى المضاد الذى لا مفر منـه •

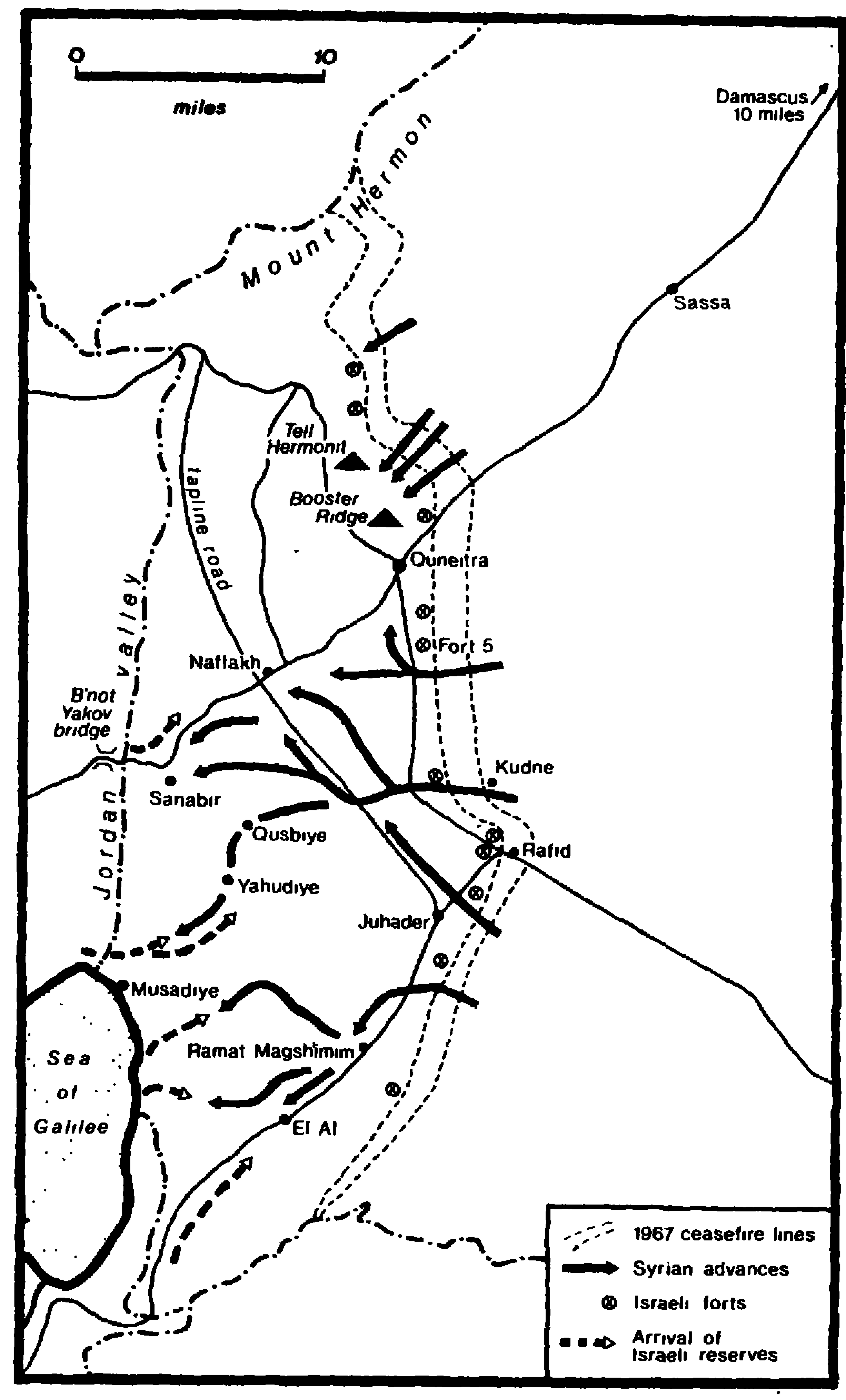
وفى مؤخرتهم وفى نفس هذه الليلة الاولى كان المهندسون المصريون يوجهون خراطيم مياه الاطفاء بكثافة شديدة الى الدشم الاسرائيلية مما أسفر عن انتشار الفجوات بها ، علاوة على قيامهم بربط أجزاء الكبارى السوفيتية الجديدة بعضها ببعض • وصمدت التحصينات الرملية فى وجه الوابل المتدفق من المياه فى ذلك القطاع من القناة الواقع جنوبى البحيرات المرة ، وعندئذ وجهوا مدرعات الجيش الثالث وجهة أخرى بسرعة الى ميدان القتال عن طريق نقطة عبور على مقربة من الاسماعيلية • وتعرضت الحصون الاسرائيلية لهجوم من جانب وحدات مشاة تلقت تدريبا خاصا • وكان كل شىء يتم وفقا لخطة بارعة • غير أنهم كانوا قد ضخموا كثيرا الخسائر المتوقعة فى الأرواح • فقد استشهد مائتان وثمانية من المصريين فى هجوم عبور القناة مقابل ما توقعوه بأن يتراوح هذا العدد من ثمانية وعشرة آلاف شـهيد •

أما على الجانب الاسرائيلى من القناة فكان هنــاك ٤٣٦ جنديا يحرسون الحصون ، وحفنة من الدبابات وسبع بطاريات مدفعية تواجه هذا الهجوم من جانب قرابة مائة ألف جندى مشاة و ٦٠٠ دبابة . (فقد ظلت الألف دبابة المصرية الأخرى ترابط على الضفة الغربية لبضــعة أيام) وكان هناك على مسافة أبعد من سيناء الألوية الثلاث التابعة لفرقة ماندلر المدرعة وبحوزتها ٢٧٧ دبابة . وكان هذا هو حجم قوة الهجوم المضاد المستهدف .

كان الجنرال شمويل جونين هو القائد العام فى سيناء ، وهو الذى قاد اللواء السابع المدرع بامتياز عام ١٩٦٧ . وكان قد شغل هذا المنصب منذ فترة قصيرة فحسب ، ولم تكن التحسينات التى تصور على الفور أنه من الضرورى ادخالها على النظام الدفاعى الاسرائيلى قد خرجت بعد الى حيز التنفيذ . وها هو الآن وبعد غروب شمس يوم ٦ أكتوبر يحاول التعرف على الجهــد المصرى الرئيسى من خــلال معلومات المخابرات المتناثرة التى تصله بمقر قيادته فى طاسا .

ولم يتضح له الا نحو الساعة ١٦٫٣٠ أن المصريين يعبرون بكامل قوتهم على طول جبهة القناة كلها . فلم يكن هناك « جهد رئيسى » . وحينذاك وجد نفسه مرغما عند هذا الحد على تحريك مدرعات «ماندلر» الى الامام وفقا لتخطيط اسرائيلى معد قبل الحرب . ففعل ذلك . ولم يكن قد اتضح بعد أن مدى الهجوم المصرى يتجاوز أى شىء تكهن به المخططون الاسرائيليين .

وفى الساعات الأولى من مساء ذلك اليوم تحركت ألوية الدبابات الثلاث فى اتجاه القناة وانخرطت فى خضم المعركة حيث اختفت على قدر علم ماندلر وجونين داخل ستار حقيقى من « ضباب الحرب » وفى واقع الامر كانت هذه الألوية قد اتجهت مباشرة الى أكثف سد من النيران المضادة للدبابات لم يعرف له العالم مثيلا من قبل . وصبت المدفعية المصرية المتقدمة المتناثرة مثل « بقع متناثرة على سطح كثبان رملية » على حد وصف أحد الضباط الاسرائيليين وهو يستعيد فى ذهنه صورة ما حدث ــ وابلا من الصواريخ والقنابل اليدوية الصاروخية من صواريخ « ساجر » وآربى جى ٧ اس التى استخدموها . وكما كتب ديان فيما بعد فان : هذه الأسلحة لم تكن « تشكل ثورة ولكن بالأحرى مصــدر



Golan: the Syrian attack, 6-8 October

خطر اضافى فى ميدان المعركة يدعو الى توخى حرص أكبر فى استخدام المدرعات • ويقين على الدبابات اللجوء الى استخدام أسلوب القنصى والاقلال من دورها كمجموعة من الفرسان تخب الأرض خبا » • ولكن قادة المدرعات الاسرائيليين لم يستخلصوا هذا الدرس الا بعد انقضاء بضعة أيام فنظرا الى تشربهم الحماس والاندفاع الذى تتميز به تكتيكات الهجوم المفاجىء المدرع التى أرس طال عمدها أخذوا يعدون بمدد عالتهم فى اتجاه القناة كما لو كانوا صورة معاصرة للواء الخفيف •

وقد بدا لجونين فى حلول الساعة ٠٠ر٠١ من يوم ٧ أكتوبر أو نحو ذلك أن الألوية بلغت حافة المياة وخفضت من وطأة الهجوم على معظم الحصون المحاصرة • ولكنه كان تقييما خادعا • فالدبابات كانت تندفع بالتأكيد عبر الرمال فى مثل اندفاع حركة المياة ، ولكن الرمال كانت تجف من خلفها والمياه تتبخر ببطء • وأخذ عدد متناقص بصفة مستمرة من الدبابات يندفع جيئة وذهابا خلال ساعات الليل بناء على خطة دفاعية أسىء تصورها • فقد صرفت الحصون ــ التى كان تعزيزها البشرى من الضآلة بحيث عجزوا عن الدفاع عن أنفسهم ومن الكثافة بحيث لا يمكن التخلى عنهم ــ المدرعات الاسرائيلية بصــورة دائمة عن التركيز على مهمتها الأولى الخاصة بالقضاء على الهجوم المصرى فى المساحات الخالية الواقعة بينها • فكل اندفاع للمدرعات عبر الصحراء جعلها هدفا للنيران المضادة للدبابات التى كانت تندلع من الكثبان والاستحكامات العالية على كلا جانبى القناة • ومع بدء ساعات الفجر كانت الحقيقة المخيفة تتضح بمقر جونين • فمن بين الــ ٢٧٧ دبابة لم يبق غير حوالى ٥٠ دبابة • وقد ثبت المصريون أقدامهم جيدا على الضفة الشرقية • والأدهى من ذلك كله أنه لن يكون هنــاك أى دعم من جانب الســلاح الجوى الاسرائيلى ، وكما علم جونين بذلك فى الســاعة ٤٥ر٦ ، فالاختراق السورى عبر الجولان اكتسب أبعاد الأزمة ، ولا يمكن الاستغناء عن أى طائرات لاستخدامها بمنطقة القناة •

— ٢ —

فى الساعة ٠٠ر١٤ من يوم ٦ أكتوبر وفى الوقت الذى بدأ فيه القصف المصرى فى سيناء قامت طائرات الميج السورية بطلعات على مستوى منخفض فوق المواقع الاسرائيلية بالجولان ، وفتحت المدفعية السورية

نيرانها على طول امتداد خط وقف اطلاق النار وخلف هذا الخط كانت هناك ثلاث فرق مشاة (كل فرقة تتكون من ١٨٠ دبابة ، ولواءان مستقلان من الدبابات تقف جميعا فى انتظار اشارة البدء بالتحرك) • وكانت هذه هى قوة الاختراق • ورابطت فى مؤخرتها الـ ٤٦٠ دبابة التابعة لفرقتى المدرعات السورية فى انتظار فتح ثغرة أمامها لكى تتقدم •

أما على الجانب الاسرائيلى فكانت القوات على خط الجبهة تتكون من لواءين مدرعين هما اللواء السابع ولواء باراك ، وتحت امرتهما ١٧٧ دبابة ، ومن الحاميات الصغيرة للنقاط الحصينة الأحد عشر • فانتشر اللواء السابع المدرع الأقوى والأكثر خبرة الى الشـمال والغرب من القنيطرة ، وهى المنطقة التى كان من المتوقع أن تشهد الهجوم السورى الرئيسى وانتشروا لواء باراك الى الجنوب من طريق الكوبرى الذى يربط بين القنيطرة ونبات يعقوب شاملا بذلك منطقة أوسع على الجبهة بقدر أقل من المدرعات • وكان رافائيل ايتان قائد القوات الجديد فى الجولان قد تساءل على مسمع من الجميع قبل ذلك بثلاثة أيام عن النتائج التى يحتمل أن تترتب على قيام السوريين بجهد كبير فى هذا القطـاع الجنوبى • ولم يتلق أى رد على تساؤله من هيئة قيادته •

وكان السوريون على وشك أن يجيبوا له على تساؤله • فقد تصورت خطة هجومهم ثلاث نقاط اختراق كبرى : شمال القنيطرة ، بين القنيطرة والحصن رقم (٥) وبين قودنى وجوهادر • ولكنها كانت خطة مرنة ، فالمدرعات الاحتياطية ستستخدم فى أوسع الثغرات نطاقا • وأوسع هذه الثغرات نطاقا ستكون أكثر نقاط للاختراق الثلاث تطرفا ناحيـة الجنوب •

وكان السوريون ــ وشأنهم فى ذلك شـأن المصريين ــ قد قاموا بتدريبات طويلة وصعبة بتوطئة لدخول هذه الحرب : بناء خنادق مضادة للدبابات اقتحام تلال بركانية ، التعود على استخدام شبكات الصواريخ السوفيتية الجديدة • وها قد حانت الآن لحظة وضع كل شىء موضع الاختبار • وتحركت المشاة الميكانيكية التى تدعمها الدبابات خلف ستار كثيف من القصف المدفعى الى الأمام فى مواجهة الخط الاسرائيلى • وتبعتها ألوية الدبابات • وكان من المأمول أن يتمكنوا مع حلول منتصف الليل من التطلع من قمة هضبة الجولان الى أسفل حيث الجليل •

غير أن الأحداث فى الشمال لم تسر كما كان مخططا لهـا • اذ قامت الدبابات السورية فى مجموعات تتكون من اثنى عشر دبابة أو أقل وبدعم من حاملتى جنود مدرعتين أو ثلاثة باقتحام الخط فى تلك المساحات الخالية الواقعة بين المواقع الحصينة ووقعت فى مصـيدة النيران طويلة المدى المخضرمة التى أطلقها اللواء السابع المدرع • ولم تكن التكتيكات المتبعة واسعة الخيال :

كانت مجموعات الدبابات تتجمع على مقربة من بعضها على الدوام وبدا أنها تجهل تضاريس الأرض مثل الطبات الأرضية أو الشعاب ، واندفعت المجموعات المدرعة بدلا من ذلك فى اتجاه العدو مباشرة • ولم يكن لها من غطاء سوى وابل من نيران المدفعية ، وقلما اتبعت الدبابات ذاتها التدريب العسكرى التكتيكى(٢) المتعلق باطلاق النار والحركة • أضف الى ذلك أن جنود المشاة السوريين كانوا يميلون الى البقاء على ظهر حاملات الجنود المدرعة بدلا من الهبوط منها للتعامل مع جيوب المقاومة الاسرائيلية • ونتج عن ذلك أن خطوط الدبابات وحاملات الجنود المدرعة التى كانت تسير كل فى اثر الآخر ثبت أنها أهداف مثالية لجنود المدفعية الاسرائيليين وسرعان ما تتأثر على طول امتداد ذلك الجزء من الهضبة الواقع بين سلسلة جبال بوستر وتل الشيخ الحطام المشـتعل بالنيران •

وبالنسبة للشمال فان الخبرة الاسرائيلية والاعداد السورية نزعت كل منهما الى تبديد فعالية الأخرى • فكانت المعركة تنشب ثم تعـود وتنشب ثم تنشب من جديد طيلة ثلاثة أيام • أما فى الجنوب فقد برهن عدم التوازن العددى على أنه فوق طاقة احتمال لواء باراك الأقل خبرة • وعلم قائده بن شوهام مع انتهاء ساعات مغرب هذا اليوم بالاختراقات الكبيرة التى تمت جنوبى قودتى وشمالى وجنوبى جوهادر واذ صارت المعلومات التى تصل اليه بمقر قيادته فى نفاخ أكثر ازعاجا وأقل فائدة فانه قرر أن يستطلع الأمر بنفسـه برفقة وحدة صغيرة شكلها لهـذا الغرض ولكنه عند وصـل منطقة جوهادر ولم تزد الصورة وضوحا أمام عينيه اذ أنه فى ذلك الوقت تقريبا ، وفى أول الليل ، كان القطـاع الجنوبى قد تفسخ وصار عبارة عن سلسلة من المحاولات المحلية التى لا رابط بينها لصد الزحف السورى • وعلى عكس الحـال مع اللواء السابع المدرع الذى تماسك وظل يحارب كوحدة لا تتجزأ فان لواء باراك

كان قد صار الآن مشتتا فى مساحة واسعة وهو يواجهه بدباباته البالغ عددها ثلاثين دبابة أو نحوها ممـــا تبقى لديه هجـــوم ما يزيد على ٤٠٠ دبـــابة •

ولم يكن بامكان السلاح الجوى الاسرائيلى تقديم دعم كبير • فعلى الرغم من أن الطائرات الاسرائيلية كانت مزودة بمعدات ألكترونية مضادة للصواريخ بأعداد كافية للتغلب على الخطر المعروف لصـــواريخ سام ٢ اس وسام ٣ اس فانها كانت بلا دفاع فى واقع الامر ضـــد صواريخ سام ٦ اس الجديدة المتحركة • وأسقط ما يزيد عن أربعين طائرة على الجولان فى هذه الأمسية الأولى ، وجمدت الهجمات الجوية لمدة ساعتين فى الوقت الذى كانت تجرى فيه على عجل مناقشة اتباع تكتيكات جديدة • واستأنفت الطائرات الاسرائيلية نشاطها بعد الغسق حيث أخذت تنطلق بخفة ورشاقة : « فى منحنى منخفض متجه شمال فوق الأراضى الأردنية ملتزمة بالطيران فوق المحيط الخارجى المتعرج للسماوات الى أن قصفت هضبة الجولان لضرب المدرعات السورية فى الاجنحة ثم مرقت بعد ذلك فى خط منحنى فى اتجاه غرب جبل الشيخ •• ومن حسن حظها أنهـــا لم تمر فوق مواقع صواريخ سام المميتة • ونجح هذا التكتيك نجاحا جزئيا وانخفض معدل الخسارة •• ولكنه كان لا يزال يبعث على القلق » • وكان الوضع كذلك بالتأكيد • اذ سوف يتعين على الســـلاح الجوى الاسرائيلى التعود منذ ذلك الحين فصاعدا على سيادة للسماوات معرضة للخطر •

أما برا فقد تحركت الوحدات السورية المدرعة حينما حل المســـاء فى الطريق الذى يمر به خط التابلاين فى اتجاه نفاخ واتجهت بحذر شديد صوب الطرق المؤدية الى بحر الجليل ووادى نهر الاردن • ولم يكن بوسع بقايا الجسر الذى أقامه بن شوهام وقف تقدمهم ولكن كان بمقدورها تعويق سيرهم ، فقد كان هذا واجبا لا مفر منه • فلو بلغ السوريون قمـــة الهضبة قبل أن تبلغها قوات الاحتياطى الاسرائيلية الأولى لوجدت هذه القوات نفسها تحت رحمة المدافع السورية المصوبة اليها من فوق • وخلال ساعات الليل قامت وحدات صغيرة من الدبابات الاسرائيلية ، وفى بطولة ، بأداء لعبة القط والفأر مع الطوابير السورية المتقدمة ، وكانت أحيانا تدمر من تلك الوابير ما يعادل عددها هى خمس مرات •

ولكن مع أول ضوء للنهار يوم السابع من أكتوبر فان الوقت كان لا يزال متدهورا من وجهة النظر الاسرائيلية فالسوريون لم يكفوا عن

تعزيز القطاع الجنوبى بالمزيد من الدبابات •• وكانت هناك الآن ٦٠٠ دبابة تعمل ضد عشرة أو خمسة عشر دبابة كانت هى التى تبقت من لواء ابن شوهام وكانت صفوف الدبابات السورية الرئيسية قد صارت على مرمى البصر من بحر الجليل بطريق العال جنوبى رامات ماجشيميم متجاوزة بذلك اليهودية على الطريق المفضى الى الموسادى ومقتربة بذلك من تقاطع طرق نفاخ الحيوى ، ومن هناك يمكنها أن تهدد جناح ومؤخرة اللواء السابع المدرع الذى كان غارقا حتى أذنيه فى القتال •

وتصرفت القيادة العليا الاسرائيلية بعزيمة تستحق الاعجاب • فقد طلب ديان من السلاح الجوى الاسرائيلى لدى زيارته لجبهة الجولان فى ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم وادراكه مدى خطورة الموقف — تركيز قوته الكاملة ضد المدرعات السورية • وهكذا فى الوقت الذى شعر فيه جونين بالأسى لانسحاب الطائرات من سيناء تعرضت الجولان للهجمات الأولى من الهجمات العديدة التى قامت بها الطائرات فى ذلك اليوم • وفى نفس الوقت تدافقت وحدات الاحتياطى الأولى من وادى نهر الاردن فى الطريق الصاعد الى الهضبة • ولما كان ايتان يثق فى قوة صمود اللواء السابع المدرع فانه وزع الوحدات الجديدة فى القطاع الجنوبى • وسرعان ما سيطر أحد تشكيلات جنود الاحتياط على تقاطع الطرق فى القصبة • فاصطدمت القوات السورية التى كانت قد تجاوزت هذا الموقع بوحدة أخرى لقوات الاحتياطى كانت تتحرك صاعدة من الغرب • وشدت بالمثل الطرق الأخرى المؤدية الى بحر الجليل • وأمكن بذلك وقف التقدم السورى — الذى كان قد صار فى عدة أماكن على بعد خمسة عشر دقيقة فقط من وادى نهر الأردن — أمكن وقفه حيث هو •

ومع هذا ففى الوقت الذى قضى فيه على الضغط الواقع فى الجنوب • ازداد الضغط فى الوسط وفى الشمال • وتعرض معسكر نفاخ — مقر القيادة الاسرائيلى الرئيسى فى الجولان — لهجوم عليه قرب فترة الظهيرة • وكانت الدبابات السورية قد اخترقت سياج المحيط الخارجى فى الوقت الذى وصل فيه ايتان — الرابط الجأش كعادته دائما أبدا فى خندقه تحت سطح الأرض المسيطرة على الجبهة كلها وعلى ذلك السيل من قوات الاحتياطى المتدفقة من الغرب • وأنقذت نفاخ بفضل وصول وحدة من وحدات الاحتياطى فى الوقت المناسب • أما فى الشمال

فقد قاتل اللواء السابع المدرع بدون أى أمل فى المساعدة العاجلة •وصمد فى وجه هجوم آخر مكثف لمدة خمس ساعات من الساعة ٠٠ر٠٨ صباحا يوم ٧ أكتوبر ، وذلك فى المنطقة الواقعة بين سلسلة تلال بوستر وتل الشيخ • وهى منطقة سرعان ما اشتهرت بعد ذلك بأسماء شتى مثـــل « المقبرة » و « وادى الدموع » • وشن السوريون هجوما آخر فى نفس الليلة ، وأيضا فى اليوم التالى واليوم الثالث الى أن انتصف يوم الثلاثاء وأخذ جنود اللواء السابع المدرع الذى لم يعد باقيا له من دباباته الأصلية سوى سبع دبابات فقط يحملقون بأعين غير واضحة الرؤية من الاجهاد فى بقايا ٢٦٠ دبابة سورية تحطمت فى أسفل الوادى •

ظل هذا المشهد الذى يبعث البهجة فى النفوس قائما يومين آخرين من مقبل الايام فقد كانت موجة الهجوم السورى لا تزال فى عنفوانها حينما غربت شمس يوم ٧ أكتوبر ونشر الليـــل ظلامه • كان الهجوم السورى أشبه بمجرى من المياه سد مجراه عند نقطة معينة فسعى الى شق مجرى جديد له وكانت الدبابات الرئيسية بأحد التشكيلات فى مرحلة من مراحل هذا القتال ترابط خارج صنابير ، أى على مبعدة ثلاثة أميال فقط من جسر بنات يعقوب وعلى الرغم من الخسائر القادمة المستمرة التى لحقت بالسلاح الجوى الاسرائيلى فلم يمنعه هذا من هجــوم ساحق ، قرب الغسق • وحولت الطائرات اهتمامها لقوافل الامداد الأقل تسليما من منطلق الاعتقاد بأن تقضى الوقود والذخيرة سيؤدى الى وقف تقدم المدرعات السورية • وأتى هذا الأسلوب ثماره • اذ توقف تقدم المدرعات نهائيا مع حلول المساء فى ذلك اليوم •

وهكذا مرت الأزمة ، ولكن ليس المعركة • وبدا أن ارغام السوريين على التقهقر الى خط الهدنة وما بعد خط الهدنة سيستغرق بعض الوقت وسيتطلب جهد قطاع لا يستهان به من السلاح الجوى الاسرائيلى ولن يكون بالامكان تحريك قوات كبيرة الى الجنوب لمواجهة المصريين طوال عدة أيام مقبلة •

— ٣ —

غير أن الحاجة كانت ماسة الى هذه القوات فى سيناء • فرأس الجسر المصرى أضحى حاليا حزاما شبه مستمر من الأراضى بعمق عدة أميال وتحتفظ به خمس فرق مشاة وزهاء ٨٠٠ دبابة • وكان العمل

على منع تقدم هذه القوة عن مدافعها الحالية أمرا يتطلب بذل الاسرائيليين جهدا كبيرا ، أما ارغامها على التراجع عبر القناة فسيتطلب حشدا أكبر مما كان متاحا فى سيناء يوم ٧ أكتوبر •

وبدأت تشكيلات الاحتياطى الاسرائيلى تصل هذا اليوم ، وقسم جونين جبهته بين الفرق الثلاث التى كانت لديه الآن • وقاد « برين » عدن الفرقة المرابطة فى أقصى الشمال ، وقاد « أريك » شارون البطل — الوغد الفرقة الوسطى و « ألبرت » ماندلر الفرقة التى كانت فى الجنوب• وكان نجاح العبور المصرى — ناهيك عدد العداوات الشخصية القائمة فعلا — قد بعث الانقسام فى صفوف هؤلاء القادة ، فضلا عن أنه كان واضحا أنه لا يوجد احساس موحد بالهدف على جبهة سيناء • ولم تسهم زيارتان قام بهما موشى ديان ابان ساعات النهار فى تحسين الاوضاع الا قليلا • ففى الزيارة الأولى دعا الى الانسحاب الى خط يقع شرقى ممرات سلسلة الجبال الوسطى ، ودعا فى المرة الثانية حين ازداد تفاؤلا الى الانسحاب الى الممرات ذاتها • وبدت أعصاب وزير الدفاع ، فى لحظة من اللحظات أنها على وشك الانهيار • وكذلك كان الحال بالنسبة لأعصاب شارون ، وان كان من الطبيعى فى حالة أن يكون هذا الانهيار فى الاتجاه العكسى • اذ كان مؤيدا بصورة مطلقةلشن هجوم اسرائيلى عاجل على القناة • ورأى جونين — المرؤوس له سابقا ورئيسه حاليا — أن هذا أمر مضحك لسخافة ، وصرح بذلك علانية وأخذ شارون يسرى من نفسه بتوجيه الاهانات لجونين •

ومن حسن الطالع أن اليعازر رئيس الاركان ظل محتفظا برباطة جأشه نسبيا • ولم يجد أية حاجة عاجلة للانسحاب المذعور ، كذلك لم يرى أى امكانية مباشرة لشن هجوم مضاد على النطاق الذى تصوره شارون فالسلاح الجوى الاسرائيلى — الذى كان لايزال منغمسا بالجزء الأكبر من طاقته فى القتال بالجولان — لم يكن قد طرح بعد أى حل مرض للمشكلات التى يثيرها نظام الصواريخ المصرى • وكانت الدبابات الاسرائيلية لا تزال مزودة بصورة مطلقة تقريبا بقذائف تخترق المدرعات تجعلها صالحة تماما للقضاء على الدبابات المصرية ولكنها عديمة الجدوى تقريبا فى مواجهة قوات المشاة التى تطلق الصواريخ •

وأصدر اليعازر أوامره بالرغم من هذه المشكلات بشن هجـوم مضاد محدود فى اليوم التالى • وكان عامل الوقت هو المحرك له فيمـا يبدو • فقد كان الاسرائيليون يعلمون أنهم لا يستطيعون شن حرب لأكثر من ثلاثين يوما بدون الحاق ضرر لا يمكن اصلاحه باقتصادهم ، وكلما تم السماح للمصريين بأخذ حمامات شمس على الضفة الشرقية ازدادت صعوبة زحزحتهم عن مواقعهم وهو استنتاج كان صحيحا ظاهريا فقط فانقضاء يومين أو أكثر كان حريا أن يفيد الاسرائيليين بأكثر مما يفيد المصريين ـــ ومن العسير ألا نعتقد بأن بقية من شعور زائد بالثقـة بالنفس كانت مسؤولة فى المقام الاول عن اتخاذ هذا القرار •

وثبت أن التخطيط للهجوم وتنفيذه لم يكن سليما بقدر سـلامه الدافع • اذ كان على مدرعات عدن الاتجاه جنوبا الى مسافة ميلين من القناة وبصورة موازية وبالتالى تحترق صفوف المشاة المصريين بدون التحرك الى داخل مرمى المدافع والصواريخ المنتشرة على طول دشـم القناة • فاذا نجحت المدرعات الاسرائيلية بهذه الطريقة فى ارغام رأس الجسر المصرى على التقهقر فى شمالى البحيرات المرة تقوم مدرعات شارون آنذاك بمناورة مشابهة جنوبى البحيرة •

أما اذا أخفقت قوات عدن فعندئذ كان على فرقة شارون أن تتحرك غربا لكى تنجدها •

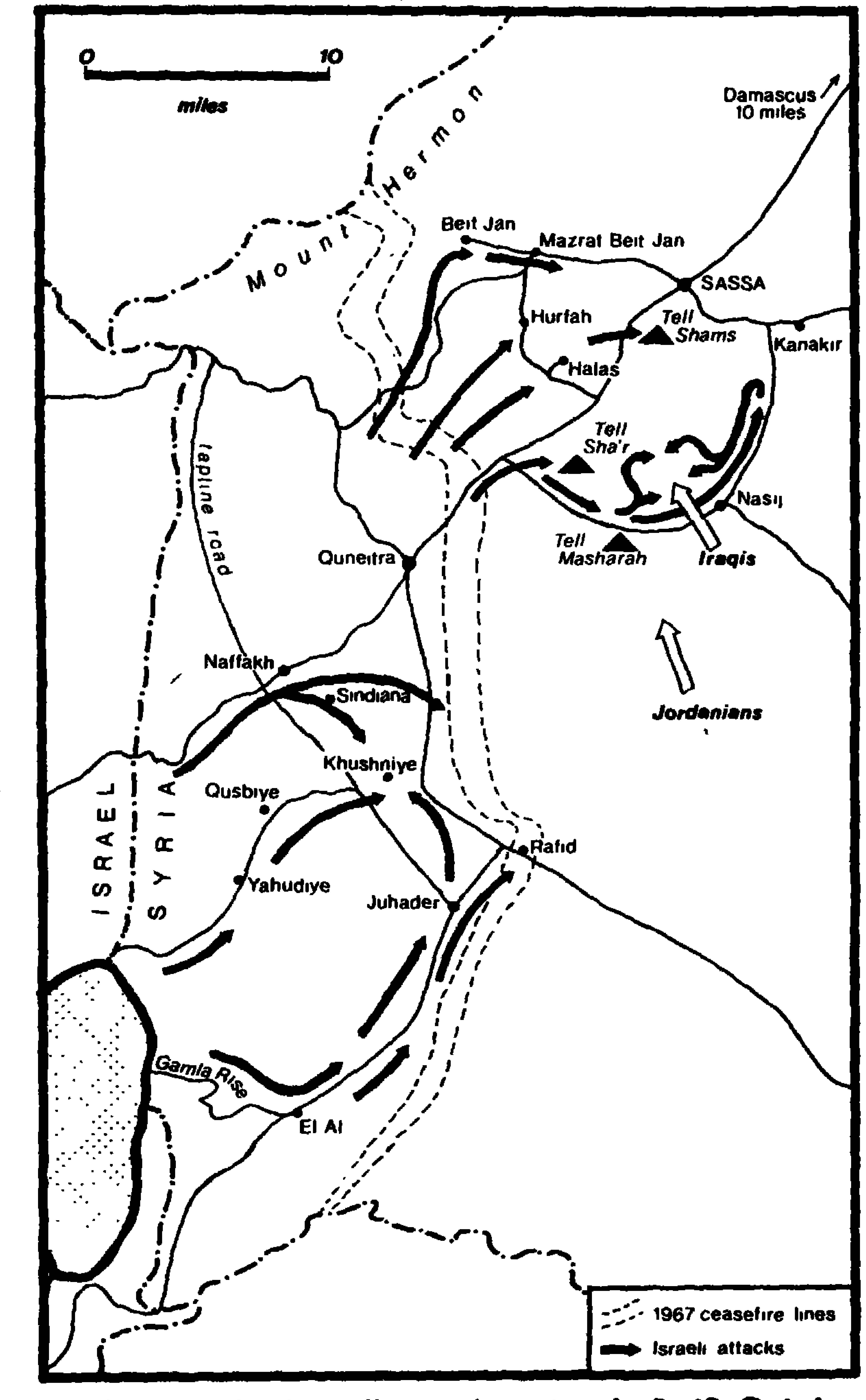
وبدا لأول وهلة كما لو كان هجوم عدن يحقق نجاحا ، وصـدر الأمر لشارون بالاتجاه جنوبا ، ولكن سرعان ما تكشف أن عدم وجود مقاومة مصرية ناشىء عن خط السير الخطأ الذى سار فيه عدن • فبدلا من أن يتحرك جنوبا على مسافة ميلين من القناة، تحرك لمسافة خمسـة أميال بعيدا عنها • فكانت مدرعات عدن تسير ببساطة أمام رأس الجسر المصرى بدلا من أن تخترق وحينما تنبه عدن للخطأ الذى وقع فيه واتجه بمدرعاته جنوبا تعرض بسرعة لستار مكثف مروع من صواريخ المشاة المصريين • وكانت خسائره فى الدبابات شديدة • وحينما سأل عدن أحد قادته عن سبب انسحابه أجابه بقوله : « اذا ظللت توجه الى الاسئلة فلن يتبقى أى أحد يمكنه الرد عليك فى غضون بضع دقائق» • أما شارون الذى أمره جوتين بتغيير اتجاهه الجنوبى والاسراع لنجدة عدن وقـد ثبت تردده فى أن يطيع • واتهمه جونين ـــ الذى ثارت ثائرته لهـذا

المسلك ، بعدم اطاعة الأوامر وطالب بعزله من قيادته • ورد عليه شارون بأن الأوامر كانت تتسم بالتخبط ! وبينما كان الاثنان يزيدان من حدة عدائهما المتبادل ويصبان الزيت على نار العداوة اندلعت النيران الحقيقية فى دبابات عدن بالصحراء •

ووصل ديان واليعازر مساء ذلك اليوم لتسوية الأوضاع • وكان من الجلى على الصعيد العسكرى أن ارتباط الجيش الاسرائيلى بمفهوم طال عن الاعتماد كله على المدرعات تجاوز المدى • فمصدر قوة عام ١٩٦٧ تحول الى رحلة الموت عام ١٩٧٣ واستقر رأى الاثنين على ضرورة اتخاذ القوات الاسرائيلية فى سيناء وضعا دفاعيا استراتيجيا الى حين تسوية الحساب تماما مع سوريا • أما بالنسبة للشجار الشخصى فقد حاول اليعازر وديان اقناع جونين وشارون باصلاح ذات البين •

ولكن سرعان ما اتضح مدى اخفاقهما فى هذه المحاولة • فقد قرر جونين انتهاج سياسة المحافظة على قوة الجيش الاسرائيلى فى سيناء بناء على الأوامر التى تلقاها • ومن الواضح أن هذا القرار لم يترك أثرا على شارون ، ففى اليوم التالى الموافق ٩ أكتوبر شن هجوما ضخما فى القطاع الاوسط • وكان الأمر كارثة • اذ وقعت القوة التى تمثل رأس الحربة تحت قيادة الكولونيل ياجورى فى كمين مصرى • كانت دبابات وجماعات صواريخ أخرى موزعة بدقة على كلا جانبى الطريق فى مواقع مستترة وتقدمت قوة (قوة ياجورى) قدامها من ١٠٠ الى ١١٠ دبابة فى اتجاه الجنوب على جبهة بعرض ما بين ١ و ١٫٥ كيلو متر على كلا جانبى الطريق وامتنع ستار الصواريخ فى العمق عن اطلاق النيران وفقا لخطة مرسومة ، وكذلك فعلت بقية القوات ، الى أن وصلت مقدمة دبابات العدو الى خط الطريق الجانبى وحينذاك انطلقت حمم المنطقة بأسرها على شكل مجموعة ضخمة من القذائف المتفجرة(٤) • وفقد الاسرائيليون خمسة وثلاثين دبابة على أقل تقدير وخضعت لياجورى فترة زمنية رئيسية على شاشة التليفزيون المصرى ، الأمر الذى أصابه بالامتعاض •

ومن المذهل ، وأيضا من حسن حظ اسرائيل أن شارون المنحرف لم يطرد فى الحال • بل ان ديان أوصى فى حقيقة الأمر بأن يتبادل هو وجونين المناصب ، ولكن جولدا مائير رفضت تأييد هذا الرأى • فاسرائيل



Golan: the Israeli counter-attack, 8-13 October

لم تكن فقط وسط حرب ، ولكنها كانت أيضا وسط معركة انتخابية وشارون زعيم حزب معارضة • وتفتق ذهن اليعازر عن حل لهذه المشكلة بتعيينه حاييم بارليف فى المنصب الجديد « مندوب رئيس الأركان فى سيناء » • وسوف يكون بارليف القوة وراء ضعف عرش جونين ، وسوف يهتم بشارون ، أو هكذا كان الأمل • لكن بارليف حاول بعد ذلك ببضعة أيام ــ وكما فصل جونين من قبله ــ فرض عزل شارون ، ولكن الفشل كان نصيبه •

وفى الوقت الذى كانت فيه هذه المجموعة تتصرف على النحو الذى فعله الجنرالات الألمان فى مواجهة موسكو أخذت القيادة الشمالية الأقل فوضوية تدفع بالحرب القهقرى الى خط الهدنة السورى ثانية • ففى الجولان تم شن هجوم مضاد يوم ٨ أكتوبر • فتحركت فرقة جديدة بقيادة بيليد فى طريقى جملا رايز والعال فى اتجاه رافض ، هذا فى الوقت الذى أرغمت فيه فرقة جديدة بقيادة لينر السوريين على التقهقر فى طرق اليهودية وتابلاين وسنديانا • وطوال ذلك اليوم واليوم الذى يليه زحف الاسرائيليون الى الامام تواجههم مقاومة سورية شديدة الى أن نجحت القوتان صباح يوم ١٠ أكتوبر فى التلاقى وايقاع السوريين فى مصيدة جيب كبير يقع حول منطقة حشدهم فى الحسينية • وعند الظهر كان السوريون قد تراجعوا الى خط بداية هجومهم يوم ٦ أكتوبر بعد أن خسروا ٨٥٠ دبابة •

وعلى الرغم من ضخامة الخسائر السورية فانها لم تكن حاسمة • فقد كان الجيش السورى أبعد ما يكون عن الهزيمة ، اذ كان ولا يزال لديه أكثر من ٥٠٠ دبابة صالحة الاستعمال وظلت شبكة الصواريخ تسقط طائرات اسرائيلية • وكانت الشبكة الدفاعية البرية الموضوعة على عمق مثالى وفى دقة بالغة تمتد على الطريق حتى دمشق • وكانت تجرى بالفعل عملية نقل جوى سوفييتية ضخمة لامداد سوريا بقطع الغيار والاسطوانات • وكان الهدف الاسرائيلى ، وهو « باسكات » الجبهة السورية بعيدا عن التحقيق ببضعة أيام • فكان من المتعذر تبعا لذلك القيام بعملية للقوات على نطاق واسع من الجولان الى سيناء •

وكان هذا هو أحد العوامل الثلاثة التى حالت دون شن هجوم اسرائيلى على رأس الجسر المصرى فى سيناء • وكان العامل الثانى هو انتشار الفرقتين المدرعتين المصريتين على الضفة الغربية للقناة • لأن

أى محاولة اسرائيلية لاقامة عمد وجود اسرائيلى عبر القناة قبل أن تعبر تلك الدبابات المصرية من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية بقيادة الهجوم المصرى المتوقع فى عمق سيناء ، وكان عددها ٧٠٠ دبابة أو نحوها ، نقول ان أى محاولة اسرائيلية من هذا القبيل قبل أن تعبر تلك الدبابات كانت تكون انتحارا وتبعا لذلك رفضت مرارا وتكرارا مطالب شارون المتكررة بالتصريح له بشـــن مثل هذا الهجوم • وكان اليعازر وبارليف على استعداد للانتظار • انتظار عبور المدرعات المصرية ، انتظار أن يترك الجيش برمته الأمان النسبى الذى يكفله له غطاؤه من الصواريخ وبعدها يتحمل العدو عبء الهجوم وسوفيردهم الاسرائيليون على أعقابهم ، وستتوفر كل فر ص النجاح لغزو الضفة الغربية •

وكان العامل الثالث الذى يحول دون وقوع هجوم اسرائيلى هو أقوى العوامل الثلاثة جميعا • فبعد أن نشبت الحرب بعدة ساعات طلبت الحكومة الاسرائيلية رســـميا من الولايات المتحدة اقامة جسر جوى لامدادها بالمعدات العسكرية • وتوقعت موافقة سريعة على طلبهـــا ولكنها بدلا من ذلك حضر اليها هنرى كيسنجر • فقد كان وزير خارجية الولايات المتحدة مصمما على الحفاظ على الوفاق مع السوفييت ، وكان واضحا أن الوضع الراهن بالشرق الاوسط يعرض للخطر • زد على ذلك أن الوضع الجديد الناجم عن النجـــاح الذى أحرزه العرب فى الأيام الأولى للحرب ـــ وهو هزيمة اسرائيلية محدودة فى واقع الأمر ـــ بعث الامل فى التوصل الى حل دائم للمشكلة العربية ـــ الاسرائيلية المتفاقمة على الدوام • فاذا أمكن ارغام اسرائيل على قبول وقف اطلاق النـــار حيث هو وبالتالى تكتسبمكاسب العرب طابع الشرعية فانطريق التوصل الى تسوية شاملة قد يبدو فجـــأة وكأنه لم يفت أوانه بعد • وكانت الطريقة الوحيدة لامكان اكراه اسرائيل على قبول مثل هذه المهانة هى فى وقف امدادات الأسلحة • ورفض كيسنجر صراحة فى البداية تسليم شحنات الأسلحة ، وحينما تعرض لضغط لحمله على الموافقة على ذلك من حيث المبدأ بذل قصارى جهده لعرقلة تسليمها •

وكاد هذا الأسلوب أن يؤتى ثماره فمع نهاية الأسبوع كانت قوات الدفاع الاسرائيلية تعانى من نقص خطير فى الدبابات وقذائف المدفعية والطائرات • وباتت الحكومة الاسرائيلية وظهـــرها الى الحـــائط على استعداد للموافقة على وقف اطلاق النار على طول الخطوط التى اقترحها

كيسنجر فهذا النقص فى الاسلحة والذخيرة جعل موضوع شن هجــوم فى سيناء موضوعا غير وارد وبدا أنه لن تتاح لاسرائيل فرصة توجيه ضربة مضــادة للمصريين •

— ٤ —

كان حكم القاهرة على الموقف مختلفا • فالرئيس السادات كان قد بدأ هذه الحرب بهدف واحد فى ذهنه : ألا وهو كسر الجمود فى الموقف باجباره القوتين العظمتين على فرض تسوية على الاسرائيليين المترددين• ولو قورن هذا ببضعة أميال من الصحراء فلن تعنى الا القليل • وهو ما كان ليقبل أية مقترحات لوقف اطلاق النار لا تشتمل على ضــمانات أكيدة لتسوية سياسية شاملة • فأما هذا المطلب أولا شىء • واذ كان يرى أن قواته متأهبة للزحف واقتحام سيناء وهى منتصرة فانه وجــد صعوبة فى الاعتقاد بأن ذلك قد تكون حصيلته لا شىء •• فرفض شروط كيسنجر وسحب الاسرائيليون ، شاكرين ، موافقتهم • ونظرا لافتقار حكومة الولايات المتحدة الامريكية لبدائل متعولة فانها ، بدأت فى مد أحد خطوط تموينها الجوى الى اسرائيل مقــابل خط التموين الجوى السوفيتى للعرب • واستطاعت قوات جيش الدفاع الاسرائيلى التنفس مرة أخرى •

وهكذا أصبح الشرطان الأساسيان الأخريان للهجوم الاسرائيلى عبر القناة متيسرين هما الأخرين • وفى صباح ١١ أكتوبر تحركت القوات الاسرائيلية فى الجولان عبر خط وقف اطلاق النار لسنة ١٩٦٧ وهاجم اللواء السابع للمدرعات شمال الطريق الرئيسى لدمشق مقاتلا فى طريقه الى بيت جان وحورفة وحلس بعد ظهر ذلك اليوم • وفى اليوم التالى استولى اللواء على مزرعة بيت جان وتقدم الى ضواحى ساسا الا أن محاولة الاستيلاء على موضع تل شمس صــدت وتكبد الاسرائيليون خسائر فادحة • كان السوريون يتقهقرون بطريقة منظمة ، ولم يكن هناك تكرار للفرار المذعور الذى حدث عام ١٩٦٧ •

كانت المشكلة الرئيسية التى تواجه الجيش السورى هى الفجــوة المتزايدة بين الفرقتين المنسحبتين نحو الشمال الشرقى والفرقة المنسحبة نحو الشرق والجنوب الشرقى •

وفى يوم ١١ أكتوبر تدفقت لواءات لانر المدرعة عبر هذه الفجوة لتستولى على تل شعر • وفى اليوم التالى شكل الاندفاع السريع عبر تاسيج ثم فى طريق القناقير تهديداً للموقع السورى فى ساسا من جهة الشرق • وأصبحت هذه النقطة الاساسية على الطريق الرئيسى فى ذلك لحين تحت الهجوم كلا الطرفين •

وأنقذ الموقف وصـــول الفرقة العراقية الثالثة للمدرعات جنوب شرقى ناسيج فى الوقت المناسب •

كان وصول هذا التشكيل ذروة محاولاته ، حيث أن لانر قد نصب على وجه السرعة وعند سحبه للمدرعات على طريق القناقير ، كميناً لهذا التهديد الجديد لجناح جيشه • ووجد العراقيين أنفسهم مجبرين فى حينه على دفع مدرعاتهم البالغ عددها ١٨٠ مدرعة فيه حيث فقدوا ٨٠ مدرعة فى هذه العملية •

ومنذ هذا التاريخ ــ مساء ١٢ أكتوبر ــ هدأت الجبهة وأصبحت فى حالة استقرار مفحم بالضجيج مع استيلاء الاسرائيليين على نتوء كبير جديد من الأراضى السورية • ولم يكن لوصول الفرقة الأردنية لمساندة القوات العربية تأثيرا كبيرا نظرا للعجز الفظيع فى التنسيق بين القيادات العربية المختلفة • ففى احدى المناسبات شنت الفرقة الاردنية هجوما سبق الاعداد له على المواقع الاسرائيلية حول تل مشرح ، ولكن قبل وصولها الى العدو ضربت بنيران العراقيين الذين كان من المفروض أنهم سيعضدونها ، وانهال عليها رصاص القوات الجوية السورية • أما الاسرائيليون فانهم كانوا قد بدأوا بالفعل فى نقل الوحدات جنوبا الى سيناء •

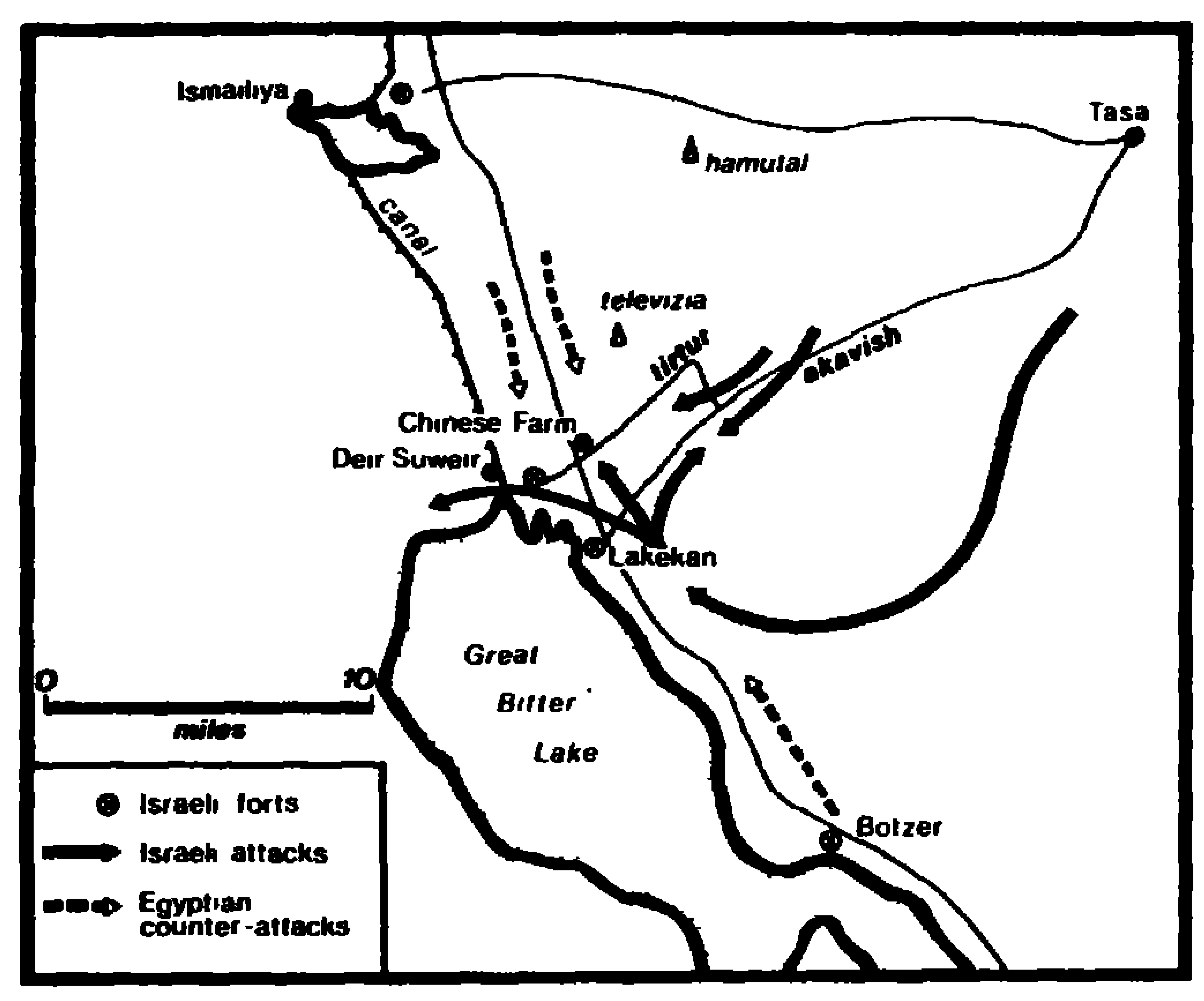
كان المصريون يستعدون هم أيضا للتحرك • وكانت خطتهم الاصلية تتصور هجوما مدرعا ضخما هدفه بير جفجافا فى الفترة من ١١ ــ ١٥ أكتوبر • وهذه المرحلة الثالثة ، خلافا لمرحلتى العبور وتثبيت الأقدام لم يكن مخططا لها تفصيلا ، ومع مرور الأسبوع الأول بدا أن اسماعيل لم يكن راغبا فى خوض المخاطر الواضحة التى ينطوى عليها الهجوم • فقد تشكك ، وثبت أنه كان على حق فى شكه ، أنه متى ابتعدت دباباته من غطائها الصاروخى فسوف يثبت مرة أخرى أن قدرتها أقل من مثيلاتها الاسرائيلية •

ولـــكن الأحداث والشعب كانوا يدفعون اســـماعيل الى المغامرة الكبرى وكان واضحا أن النجاح العسكرى الذى تم احرازه حتى ذلك الوقت كان غير كاف لتحقيق الأهداف السياسية المرجوة ، أضف الى ذلك أن الموقف على الجبهة السورية قد يمنح القوات الاسرائيلية فرصة العمل السريع فى سيناء • ولم يكن مما يثير الدهشة أن يطلب السوريون الذين ظلوا طوال أسبوع يتحملون وطأة الهجوم الاسرائيلى ، من المصريين أن يفعلوا شيئا فى سيناء لتخفيف الضغط عليهم وفى يوم ١١ أكتوبر لم تكن قد بقيت لاسماعيل فرصـــة كبيرة للمناورة • ففى ذلك اليوم خرجت الفرقتان المدرعتان المصريتان غرب القناة من مخابئها وبدأت فى العبور الى سيناء •

وخـــلال يوم ١٣ أكتوبر صـــعدت القوات المصرية هجماتهـــا الاستكشافية على طول الخط وفى اليوم التالى بدأت الهجوم الشامل ، حيث أطلقت ما يقـــرب من ألف دبابة مقابل عـــدد مماثل على الخـــط الاسرائيلى • وعلى الرغم من أن المصريين فكروا فى الهجوم وأعدوا له أعدادا لا بأس به ، الا أنه تميز بالعجز المحزن فى التصور التكتيكى • فالدبابات المصرية مثلها فى ذلك مثل الدبابات الاسرائيلية منذ أســـبوع مضى تحملت مهمة طائشة فى مواجهة المدافع المضـــادة للدبابات التى وضعت فى أماكن مختارة وفى مواجهـــة الصواريخ المضـــادة للدبابات والدبابات وخارج مظلة الصواريخ التقت القوات الجوية الاسرائيلية والقوات الجوية المصرية لقاء الند للند بنتائج متنبأ بها من كلا الجانبين أيضا • فمع حلول عصر ذلك اليوم كانت القوات المسلحة المصرية تنسحب غربا تاركة خلفها ما يربو على ٢٥٠ دبابة مبعثرة عبر الرمال • لقد أطلق الجيش المصرى مهمة • والآن سيكون لشارون مجده •

— ٥ —

ظلت القيادة العليا الاسرائيلية تدرس لسنوات طويلة المشـــاكل المحيطة بتصعيد عملية عبور القناة ، وقد اتخذت بالفعل عدة ترتيبات • فعلى بعد ميل أو ما يقرب من ذلك شمال الموضع الذى تدخل عنده قناة السويس البحيرات المرة الكبرى فى مواجهة أبو صوير تم حفر الاستحكام الرملى الاسرائيلى وأعيد تغطيته وتمييزه بطوب أحمر • وعلى قرب منه فى الصحراء تم تشييد موقف مركبات ذى أسوار لحماية القوة العابرة •



Chinese Farm

وبانقضاء الأسبوع الثانى من الحرب كان المصريون مسـيطرين سيطرة تامة على الضفة الشرقية وربما توقع الاسرائيليون قدرا معينا من الصعوبة فى الوصول الى جهة المعبر المقترحة تلك • ولكن هنا كان الحظ حليفهم • ففى خلال الهجوم الفاشل الذى قام به من تلقاء نفسه يوم ٩ أكتوبر اكتشف أحد ألوية شارون المدرعة معلومات لا تقـدر بثمن • فقد كانت هناك فجوة عرضها ٢٥ كيلو مترا بين الجناح الشمالى للجيش الثالث المصرى على مقربة من قلعة بولتزر وبين الجناح الجنوبى للجيش الثانى المواجه لأبو صوير • وبدا الطريق واضحا وبالنسبة الى شارون فلقد كانت واضحة بطبيعة الحال منذ أن بدأت الحرب ، فلم يكن المصريون سبب فشل هجماته الأولى ، وانما كان السبب فى ذلك المساندة غيرالوافية منجانبه هو • فاذا ما نحينا جانبا هذا السخف ، فانه كان المتفق عليه بصفة عامة أن الظروف المواتية لشن هجوم كلاسيكى اسرائيلى مدرع لا توجد الا فى الضفة الغربية للقناة وأن هناك ، وهناك فقط،يمكن كسرحالة الجمود فىالموقف العسكرى•وقد ظل شارون حتىيوم ١٤ أكتوبر مقيد الحركة بواسطة رؤسائه ، ولكن بعد كارثة هزيمة المدرعات المصرية فى ذلك اليوم رجحت أخيرا كفة الأمل فى النجاح على كفة المخاطر المحفوفة بها العملية • وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء أعطى العـازر الضوء الأخضر لشارون • وكان عليه أن يستولى على رأس جسر على

الضفة الأخرى للقناة وأن يدفع بفرقة عدن من خلال رأس الجسر هذا الى السهول القائمة خلفه •

وفى الساعة ١٧,٠٠ من اليوم التالى ١٥ أكتوبر هاجمت احدى ألوية شارون المدرعة المواقع المصرية فى مواقع(*) تليفزيا وهاموتال بهدف سحب القوات المصرية بعيدا عن منطقة العبور • وبعد ذلك بساعتين اندفعت القوة الرئيسية عبر شعاب البرية فى اتجاه البحيرات المرة الكبرى • وكان على اللواء المدرع الأمامى بقياده ريشيف الاستيلاء على مفترق الطرق بالقرب من المزرعة الصينية(**) والتحرك نحو الشمال الشرقى على طول طريق عكافيش وطرطور وتطهيرهما من القوات المصرية • وخلف ريشيف لواء مظلات ووحدة دبابات من لواء مدرعات آخر تابع لشارون ، وكان عليهم جميعـا عبور القناة بالقوارب والألواح الخشبية واقامة رأس جسر بعمق ثلاثة أميال على الضفة الغربية •• وكان على فرقة عدن القيام بهجوم بجسر سبق تشييده عبر هذا الممر ـ على طول طريق طرطور كافيش وعبر مفترق طرق المزرعة الصينية ، وفوق القناة الى أفريقية (كما أصر شارون على تسميتها) وأن يتم كل ذلك فى ليلة واحدة •

منذ البداية والعملية تخلفت عن جدول شارون الزمنى المبالغ فى تفاءله • فالمظليون والدبابات عبروا القناة قبل الفجر ولكن فقط عن طريق الاندفاع عبر فجوة ضعيفة بين البحيرة والمعركة الآخذة فى الانتشار حول المزرعة الصينية • وواجهت ريشيف متاعب حقيقية • اذ وجد قوته فجأة وسط جيش مترامى الأطراف ، ذى حشود تمتد على امتداد البصر ، مكونة من مئات المصفحات والمدافع والدبابات والصواريخ ووحدات الرادار وآلاف القوات المتحركة هنا وهناك •

لقد هاجم الاسرائيليون رأسا على غير عمد المقر الادارى لقيادة الفرقة الـ ١٦ مشاه المصرية التى كانت قد ضيقت الخناق فى اليوم السابق على الفرقة المنهكة ٢١ مدرعات • وما أن وصلت قوة ريشيف الى مفترق

(*) هذه الاسماء ، وتلك الخاصة بالطرق المذكورة اسفل هى دلالات عسكرية اسرائيلية .

(**) اطلق الجنود الاسرائيليون الذين كانوا يكتسحون المنطقة عـام ١٩٦٧ اسم المزرعة الصينية حيث انهم اكتشفوا مستندات بهـا رموز تشـبه الرموز الصـينية والحقيقة ان متخصصين يابانيين فى الزراعة كانوا يستخدمون المنطقة فى تجارب للرى .

الطرق الا وانفتحت عليها من جميع الاتجاهات آلاف الأسلحة من كافة الأنواع واشتعلت المنطقة كلها على مدى البصر بالنيران •

واقتحمت القوة التى بعث بها أكافيش ، وأعـاد المصريون اغلاق الطريق فى أعقابها ومع بزوغ الفجر كان الاسرائيليون يعانون من خسائر فادحة ومتصاعدة حول المزرعة الصينية ، فالطرق كانت ما تزال مغلقة أمام عدن وكان الجسر الذى سبق تشييده ، وكذا قوة صغيرة من المظليين عبر القناة و ٢٨ دبابة يقضون منتظرين بقلق هجوما مصريا مضادا •

هل حدث ثمة شىء أعاق شارون ؟ سؤال سخيف ! فهو كان يريد الاندفاع الى أفريقية • وكان الأمر هادئا للغاية بالنسبة له فى رأس الجسر الذى لم يكن قد لحظه أحد بعد ، فقد كان مثل « أكابولكو » مثلما جـاء فى تعليق أحد أفراد قواته• وكان جونين أبعد ما يكون عن المزاح • فأمر شارون بغضب شديد أن يبقى ثابتا فى مكانه وان ينظم رأس الجسر • ورفض شارون محتجا بذكاء يقترب من الهوس — بأن الحفر والتمركز على الضفة الغربية سيكشف عن قواته ويجعل وجودها ظاهرا للعيان ، وبذلك يقوم المصريون بهجوم مضاد لها وبعد انهاء المحادثة بسباب على قدر المستطاع وضع شارون السماعة وقسم قوته من الدبابات الى جماعات صغيرة ودفعها للاغارة على أفريقية • وبعد ذلك بساعا تقليلة وجد لديه الجرأة لطلب تعزيزات من جونين وبارليف لرأس جسره الذى أصبح نصفه شاغرا • وردا عليه بأنهما مشغولان للغاية فى تنفيذ مهمة شارون فى فتح الممر على الضفة الشرقية •

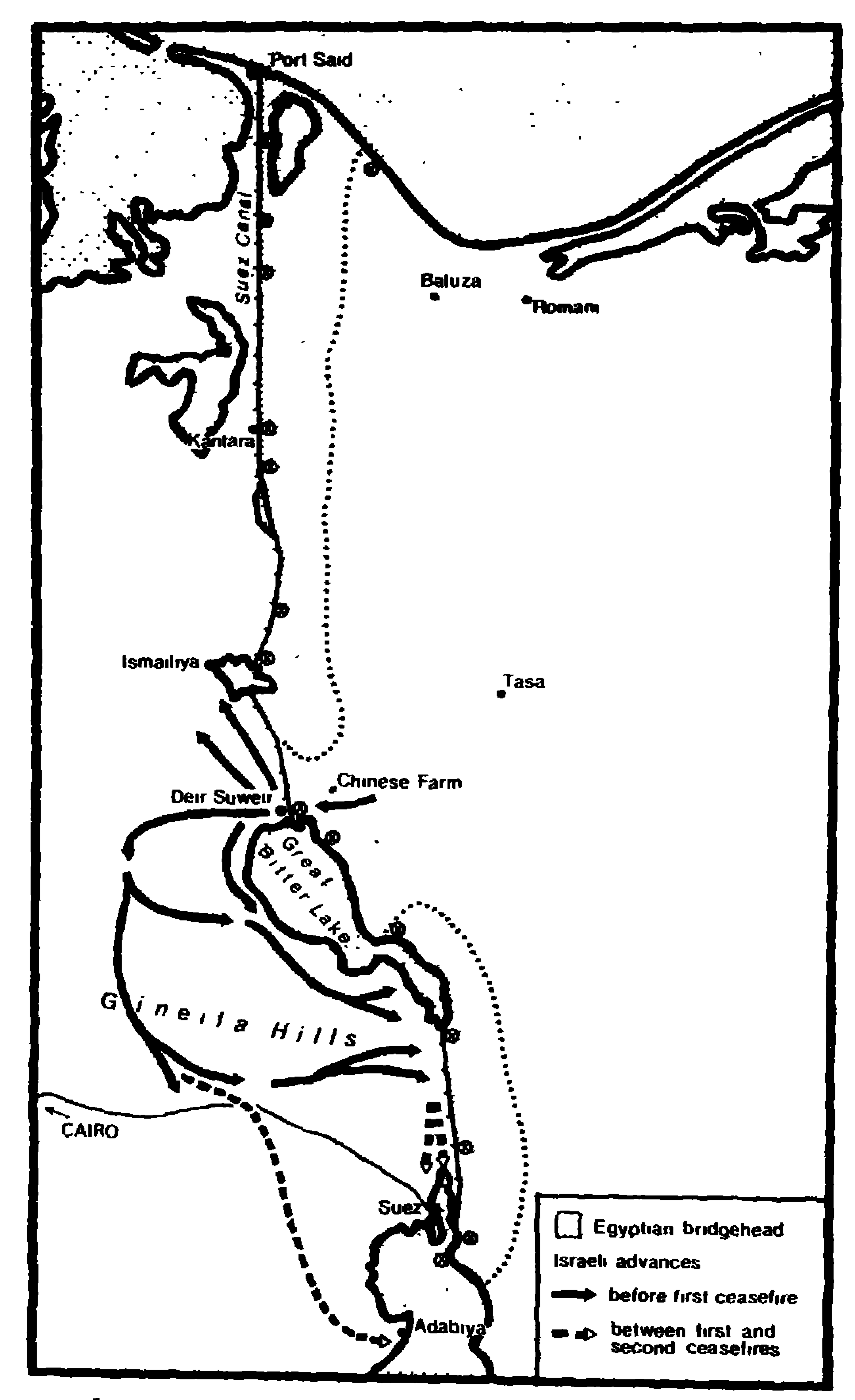
ومما لا شك فيه أن جونين وبارليف كانا على حق فى رفض التعزيزات لشارون ، وان كان شارون على حق فى ارساله جماعات صغيرة • لقـد أصيب المصريون بحالة انعدام وزن رهيبة نتيجة للهجوم على المزرعة الصينية وكان من المهم أن يظلوا على هذا الوضع • لقد حدث منذ ثلاثة وثلاثين عاما مضت أن كان جوديريان يقوم ، وهو فى منتهى السعادة ، بهجوم بدباباته فى شمالى فرنسا عندما تلقى أوامر من قيـادته العليا بالتوقف • فكتب بعد ذلك قائلا « اننى ما كنت لأتوقف ولا كنت بمستطيع الموافقة على هذه الأوامر التى انطوت على التضحية بعنصر المفاجأة الذى حققناه » • وهذه اللهجة مماثلة للهجة شارون لو أننا نوعنا عنها العنف

الروسى • كما أن المنطق يقول ذلك أيضا • فالمفاجأة ، والسرعة تبقى العدو فى حالة تخمين • وعدو مثل الجيش المصرى ، بصفة خاصة ، يضرب به المثل فى الجمود وعدم المرونة •

كان بنيان القيادة المصرية مجهزا تجهيزا أفضل قليلا عما كانت عليه عام ١٩٥٦ للتصرف مع شارون فالاختلاف بين هذا الجيش والجيوش المصرية السابقة يكمن فى اعتراف اسماعيل بالافتقار الى المبادرة على المستويات السفلى ، ورسمه لحظته الاستراتيجية على هذا الأساس لقد تطلبت خطة العبور المصرية مبادرة صغيرة نفيسة من أى فرد مبادرة كشفت عن نفسها بنفسها ولكن ما أن أخذ الاسرائيليون موقف المبادرة الا وورث اسماعيل بسرعة كافة نتائج افتقار الجيش المصرى التقليدى لهـا فى الميدان • وكان من الغريب أن تستغرق المعلومات الدقيقة وقتا طويلا للتوصل الى غرفة عمليات تحت الأرض خارج القاهرة ، ولكن الى أن تم ذلك وأخذت موجة جديدة من الأوامر طريقها عن طريق التسلسل القيادى لأركان الجيش المصرى قد أصيب فعلا بالشلل •

كان شارون يعلم كل هذا ويحفظه عن ظهر قلب • ولم يكن يعلم أن الضفة الغربية للبحيرات المرة الكبرى فى يد وحدات فلسطينية وكويتية الأمر الذى زاد من تعقيد قنوات القيادة المصرية ، أو أنه عندما وصلت الى اسماعيل الأنباء بعد ظهر يوم ١٦ أكتوبر ، كانت بشأن عبور خمسة دبابات برمائية للبحيرات • ولكنه كان بوسعه أن يقدر أن شيئا من هذا القبيل قد يحدث • فهو كان يعلم بالفطرة أن المصريين ما كانوا ليستطيعوا التصرف السريع ازاء تهديد مكشوف ومرئى •

وبطبيعة الحال فان المصريين عندما هوجموا ردوا على الهجوم ردا قويا عنيفا • ومن هنا دارت المعركة الدموية التى استمرت ثلاثة أيام حول المزرعة الصينية حيث سعى بارليف وجونين وعدن لتأمين الممر الى شارون « أكابولكو » على الضفة الغربية • وهنا أصبح التهديد للمصريين مرئيا الى أقصى درجة ، ومع حلول مساء السادس عشر وصل الشاذلى لتولى المهمة •



Israel crosses into Africa, 19-24 October

لقد ظل الاسرائيليون يشقون طريقهم طوال النهـار ببطء عبر حقول الألغام الكثيفة ، والمواقع المضادة للدبابات محاولين تجنب وابل الصواريخ وصوت القذائف من حولهم • وفى تلك الليلة حاول عدن مرة أخرى مع فرقته بمساندة المشاة • فتح طريقى طرطور وأكافيش فظل الطريق الأول مغلقا ولكن استبسال لواء مظلات اسرائيلى فى الدفاع عن الأرض بين الطريقين نتج عنه نقل الجسر سالما الى كافيش قبل الفجر • وفى الصباح الباكر من اليوم التالى صـعد المصريون أخيرا هجماتهم المضادة على الممر من الشمال والجنوب • ولسوء الحظ لم يكن توقيت هذه الهجمات مناسبا ، فقد كان أمام الاسرائيليين وقت لصد هجوم الفرقة ٢١ مدرعات من الشمال فى حين أن القـوة المصرية المهاجمة من الجنوب ــ وهى ٩٦ دبابة تابعة للواء ٢٥ مدرعات ــ كانت لا تزال تتقدم نحو شاطىء البحيرات المـرة الكبرى وعندما وصلت بالقرب من قلعة لاكاكين وجدت هذه القوة نفسها فجأة ، مهاجمة من ثلاث اتجاهات منفصلة • واشتعلت النيران فى ٨٦ دبابة مصرية •

أصبح الممر الآن مأمونا ، وان كان لا يكاد ينعم بالسلام وفى أقصى جانب القناة كانت جماعات شارون المغيرة تدمر مواقع صواريخ سـام على الأرض ، وبالتالى كشفت السماء للقوات الجوية الاسرائيلية • وفى ظهر ١٧ أكتوبر بدأت مدرعات عدن فى التقدم عبر الجسر المقام حديثا لمساندة رأس الجسر الأفريقى • وفى ساعة متأخرة من اليوم التـالى كان الشاذلى يدفن رأسه بين يديه ويقول وقد أصابه الخذى : « انتهت الحرب » لقد وقعت كارثة • وكان هذا هو ما حدث بالفعل •

— ٦ —

فى خلال الأيام الثلاثة التالية عندما كانت دبابات عدن تندفع جنوبا نحو تلال جنيفا ، كانت عمليات الضغط من أجل وقف اطلاق النـار تتزايد على الحكومة الاسرائيلية ومع ذلك واصلت قوات جيش الدفاع الاسرائيلى نضالها لاتمام الفصل الأخير قبل أن تسدل القوى العظمى ستار الأمان •

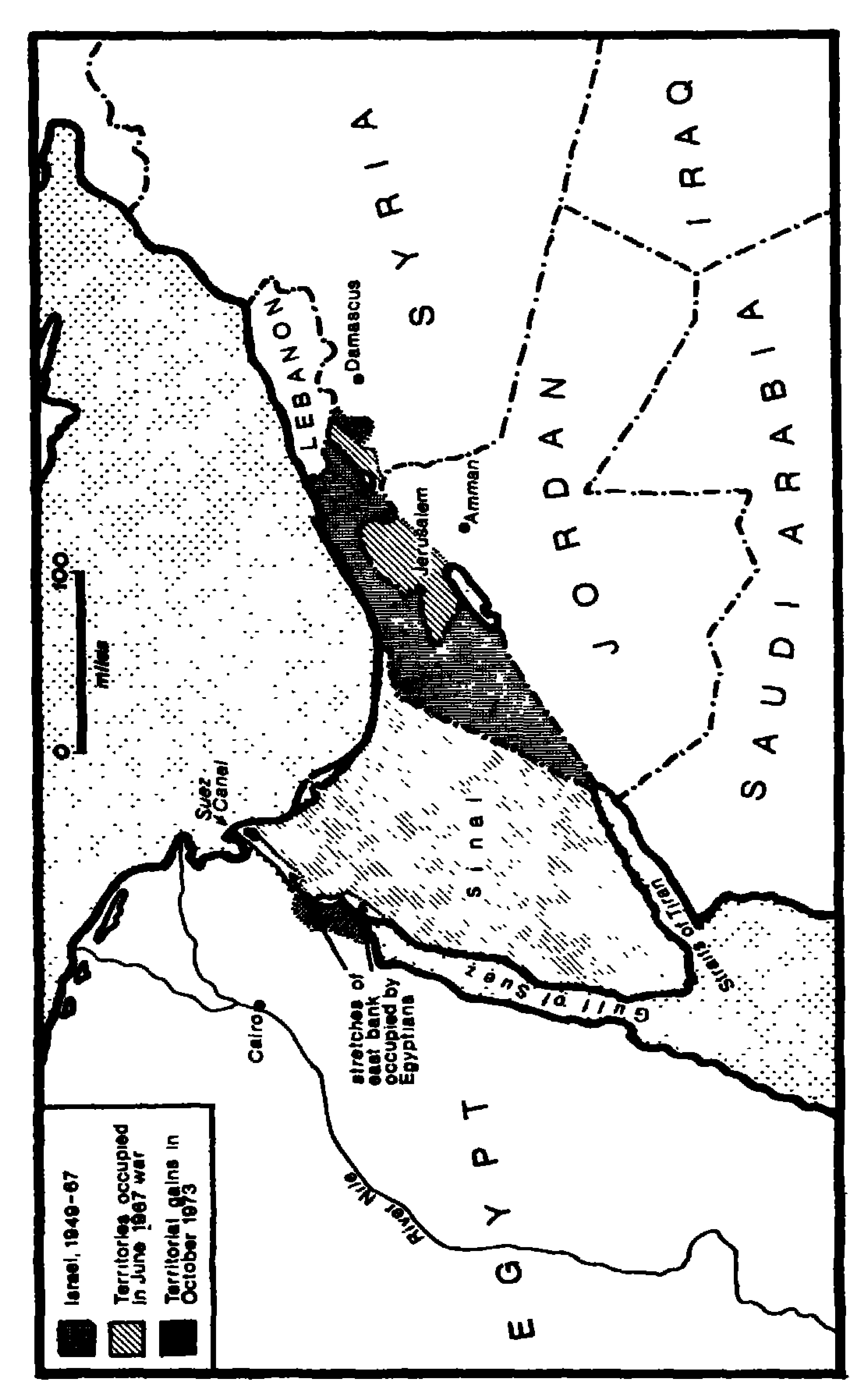
كان السادات أكثر اسـتعدادا ، يوميا ، لانهـاء المغامرة ، على ألا تكون الشروط مهينة للغاية • وحدث قبل ذلك بيومين أن نزل كوسيجين

من الطائرة فى مطار القاهرة ، وكان فى محفظته صور بالقمر الصناعى للهزيمة الكاملة للمدرعات المصرية يوم الرابع عشر ـ وسرعان ما اختلى به الرئيس المصرى المتيقظ البديهة ومعه صور جديدة لرأس الجسر الافريقى الذى أقامه شارون • وكان يتعين بطريقة أو بأخرى اقناع الامريكيين بوقف الاسرائيليين الهائجين ، والا فلن يجد السوفييت أنفسهم بديلا للتدخل الفورى لانقاذ مصر •

وثبت فى النهاية أن الأمريكيين لم يكونوا فى حاجة كبيرة الى الاقناع • ففى واشنطن لم يغب عن الأذهان الاندفاع نحو مواجهة القوى العظمى ، رغم الغيوم الكثيفة السوداء لووترجيت • ولكن لم يكن هذا كل شىء ففى ١٧ أكتوبر اجتمع وزراء بترول دول الأوبك فى الكويت وتم الاتفاق على تخفيض الانتاج ٥٪ حتى يحين الوقت الذى يتم فيه « تنفيذ » قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالشرق الاوسط • وكان السعوديون هم الذين أبقوا على الرقم فى مستوى معتدل حيث أنه حدث أثناء محادثاتهم فى واشنطن فى نفس ذلك اليوم أن تلقى السعوديون تأكيدات شخصية من نيكسون بتجاوب أمريكى ايجابى • ومن ثم كانوا أكثر الناس غما عندما طلب نيكسون فى اليوم التالى موافقة رسمية من الكونجرس لخط التموين الجوى مع اسرائيل دون أن يضع فى الاعتبار ، على ما يبدو ، كيف سيفسر هذا التصرف • وطبيعى أن السعوديين قد فسروا ذلك كصفعة على الوجه ورد فيصل بالأسلوب الصحراوى الحقيقى، الصفعة صفعتين حين أوقف فجأة ارسال الـ ٦٥٠ر٠٠٠ برميلا من البترول يوميا الى الولايات المتحدة •

كان هذا أمرا خطيرا وعندما دخل بريجنيف المهتاج على الخط الساخن مساء يوم ١٩ كان كيسنجر مستعدا وفى الصباح الباكر من اليوم التالى سافر الى موسكو •

وفى الوقت الذى كان يحدث فيه فى القطب الشمالى المتجمد يستلهم ايحاء لمقترحاتلوقف اطلاق النار يوافقعليها الطرفان ، كان الاسرائيليون يندفعون صوب الحزب تجاه طريق القاهرة ـ السويس الذى هو شريان



24 October, 1973

الحياة بالنسبة للجيش الثالث المصرى لم يكن الوجود الاسرائيلى على الضفة الغربية كافيا ، فانه يعنى مجرد رد على وجود المصريين على الضفة الشرقية • ولم يكن الاسرائيليون يفكرون بلغة التماثل • لقد اعتزموا الوصول الى خليج السويس ، وعزل الجيش الثالث عزلا شاملا فذلك هو النصر ولكن هل كان هناك وقت ؟

فى ساعة متأخرة من مساء يوم ٢١ اتفق كيسنجر وبريجنيف على تفاصيل قرار مبهم كالعادة لوقف اطلاق النار • فعلى الجانبين وقف اطلاق النار ثم يتبع ذلك وفى نفس الوقت تنفيذ القرار ٢٤٢ وبدء المفاوضات المباشرة • وكان يتعين تنفيذ هذا بعد مرور اثنى عشر ساعة على موافقة مجلس الأمن عليه فى تلك الليلة فى الساعة ٦ر٥٣ • بحسب التوقيت الاسرائيلى من يوم الاثنين ٢٢ أكتوبر • فتوسلت جولدا مائير الى نيكسون أن يمد الفترة الزمنية من أجل العمل على استقرار المواقع لكن توسلها قوبل برفض قاطع وربما لفت الرئيس الأمريكى نظرها الى عدم تضمين المقترحات « فرض » وقف اطلاق النار بالقوة •

وربما لم يفعل ذلك • وعلى كل لم يختلف الامر كثيرا فان الاسرائيليين ما كانوا ليتوقفوا • ففى الساعة ١٨ر٥٣ كانوا قد دفعوا وحداتهم الى طريق القاهرة — السويس ليس الا ، فاستمرت الحرب وخلال يوم ٢٣ اندفعت القوات الاسرائيلية جنوبا لتصل الى خليج السويس عند الأدبية وانهزم المصريون سواء رضيت القوى العظمى أو لم ترض •

ولم ترض القوى العظمى واتهم السوفييت الامريكيين بالخيانة وهددوا بالتدخل من جانب واحد • ورد نيكسون وكيسنجر بوضع القوة النووية الأمريكية الضاربة فى حالة تأهب ، فصرح السوفييت بأنه حدث سوء فهم • وظل الجيش الثالث واقعا فى الشرك وانتهت الحرب • لقد قتل ما يقرب من ٢٠٫٠٠٠ عربى و ٢٫٥٠٠ اسرائيلى • ومع أن اسرائيل كسبت حربا أخرى ، الا أنها استعدت لخسارة سلام آخر •

الفصل الخامس عشر

العجلة تدور دورة كاملة

تطورات ١٩٧٣ — ١٩٧٨

ومع استمرار الحـــرب يزداد الشبه بين الجانبين يوما بعد يوم . ان العجلة تدور دورة كاملة . هل ستدرك اننا نحن وهم كل منا ظل للآخر واننا منهم وهم منـــا . فمتى ســـوف يرفع النقاب ؟ وربما ان القديسين لا يزالون يقبلون المجذومين ، ولكن المجذوم لم يقبل القديس الا فى آخر لحظة .

ار. ديه. لينتج ، سياسة التجربة

— ١ —

وفى يوم الجمعة الموافق ٢١ ديسمبر ، بعد انتهاء الحرب بحوالى ثمانية أسابيع اجتمع ممثلون من مصر والأردن واسرائيل فى جنيف . وفى ظل فسيفساء سيبيا التى تصور تطور الانسان وتخطيه عصر البربرية اتهمت اسرائيل العرب بأنهـــم يفكرون بنفس العقليـــة ويعتنقون نفس الايديولوجية التى أسفر عنها ظهور غرف الموت بالغاز واتهم العـــرب اسرائيل « بالعدوان والارهاب » فهم على الأقل كانوا يتكلمون .

كانت هذه المعجزة السريعة بعض الشىء من صنع هنرى كيسنجر الى حد كبير . فقد قرر وزير الخارجية الأمريكى عازما على أن يصـــل الأطراف المتحاربة فى هذه المرة الى مائدة المحادثات على الاقل . ومن أسباب ذلك الشهرة الشخصية بأنه يحل المشاكل غير القابلة للحل . وثمة سبب آخر هو أن المصالح الأمريكية فى هذه المرة كانت عرضة للخطر لقد

هزت حرب أكتوبر بشكل واضح سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى وهى السياسة التى كانت تشكل أساس السياسة الخارجية لنيكسون وكيسنجر • وتمزقت الرغبة المشتركة لتجنب المواجهة ، بكيفية ما ، عن الانذار النووى الأمريكى • فاذا ما كان ذلك نذير سوء بالنسبة لازمات المستقبل ، فان الحظر العربى على تصدير البترول كان قد بدأ بالفعل فى انزال خسائره بالاقتصاد الغربى ، ولم يكن فيصل يظهر أى ميل لتخفيف الضغط وأصبح السلام ، أو على الأقل التقدم الملحوظ نحو السلام هو الأمر اليومى •

كان العرب يرغبون فى ذلك نسبيا • فقد قاتلت مصر وسوريا كلتاهما قتالا شديدا ضد الاسرائيليين الذين لم يقهروا حتى الآن ، وربما أنهم خسروا ، ولكن الشرف العسكرى والكبرياء القومى تم استردادهما بشكل معقول • والآن وبعد عقدين من تكبيل اقتصادياتهما للابقاء على معدات الحرب الضخمة أصبحت دول المواجهة مستعدة للتحدث • ومع وجود سلاح البترول والحق فى جانبهم كان العرب يأملون فى أن تدفع الولايات المتحدة اسرائيل الممانعة الى جنيف •

وأما اسرائيل فكانت أمة غاضبة ومضطربة ــ فقد كلفتها الحرب غاليا سواء من حيث الخسائر فى الأرواح أو من حيث حجم الخسارة التى لحقت باقتصادها الذى كان اقتصادا ضعيفا قبل أن يلحق به هذا الضرر • أضف الى ذلك أن عدم الاستعداد الواضح للمؤسسة السياسية والعسكرية لمواجهة الهجوم العربى أثار تساؤلات خطيرة بالنسبة لقدرة تلك المؤسسة على الاستمرار • واذا كانت اسرائيل قد كسبت الحرب على الأقل فلماذا اذن لا يترجم هذا النصر العسكرى الى مكاسب سياسية ؟ فىحقيقة الأمر ان العكس هو الذى كان يحدثفعزلة اسرائيل الدبلوماسية كانت آخذة فى الازدياد حيث تخلت الحكومات الأوروبية والافريقية لأسباب تتعلق بالبترول وتضامن العالم الثالث ، على التوالى ، تخلت عن سفينة الصهيونية التى لا زالت عائمة • وربما كان من الممكن مواجهة هذا الموقف فان اسرائيل مدينة ببقائها وعدم محوها للولايات المتحدة ، وللولايات المتحدة وحدها • ولكن اذا كانت القدرة المستمرة لقوات الدفاع الاسرائيلية قد اعتمدت ، على نحو ما تبين بجلاء كامل خلال الحرب الحديثة ، على الامدادات العسكرية الامريكية المستمرة ، واذا كان الاقتصاد قد اعتمد بالمثل على مساعدة حكومة الولايات المتحدة وعلى

التدفق المستمر لتبرعات الجالية اليهودية الأمريكية ، فان الولايات المتحدة كانت تريد السلام • فذهبت اسرائيل الى جنيف وهى تتوقع ألا يخدم السلام قضيتها مثلما أن الحرب لم تخدمها •

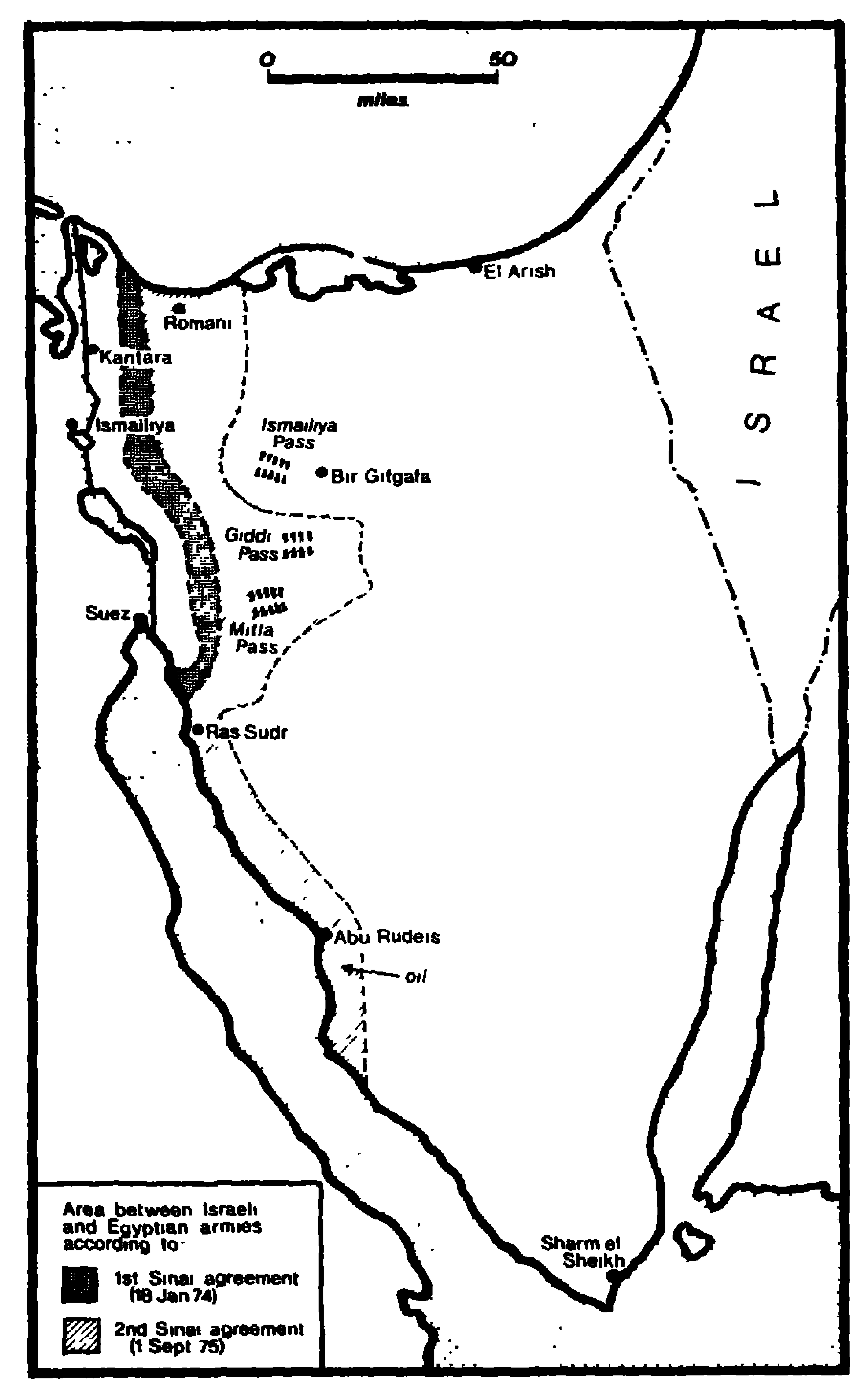
ولقد أشرك كيسنجر معظم الأطراف فى مائدة المؤتمر ، ولكنه لم يستطع مد حبل المفاوضات العامة الى أبعد من التشهير المتبادل فى كلمات الافتتاح ومن المشكوك فيه أن يكون قد توقع ذلك • فمواقف الطرفين كانت متباعدة جدا عن البعض الآخر بشكل واضح لا يسمح باجراء مفاوضات ناجحة نحو تسوية شاملة فقد أوضح الملك فيصل تماما أن حظر البترول لن يرفع الى أن يتم انسحاب اسرائيل الى ما وراء حدودها لسنة ١٩٦٧ أو على وجه التحديد الى أن يصبح فى استطاعة الملك فيصل نفسه الصلاة فى القدس الشرقية تحت الحكم العربى • وواضح أن الاسرائيليين لم يكونوا على وشك تنفيذ مثل هذا الانسحاب بين يوم وليلة ، أو أنهم سوف ينسحبون على الاطلاق • ولهذا فان كيسنجر كان أكثر اهتماما بتوفير شكل ومظهر التقدم نحو السلام وأصبح لزاما معالجة المشكلة خطوة فخطوة على أن يبدأ ذلك بالمسائل الأسهل ـ سيناء والجولان ـ ثم التحرك تدريجيا فى جو من الثقة المتبادلة والمتزايدة نحو لب المشكلة : ألا وهو الضفة الغربية والفلسطينيون • وكان كيسنجر مقتنعا بأنه لو أمكنه أن يخطو مجرد خطوة واحدة لأمكن اقناع فيصل بالاعتدال فى موقفه • وكان كيسنجر يأمل فى أنه باستغلال خوف نظام الحكم السعودى من نفوذ متطرف وبصفة خاصة النفوذ السوفيتى فى المنطقة ، وبالتعهد بمواصلة الضغط الأمريكى على اسرائيل فانه يستطيع أن يتحاشى خطر أزمة البترول وأن يحصل على مساندة عربية معتدلة لأجل احراز تقدم بطىء من وحى أمريكا نحو السلام •

وتبعا لذلك فقد كانت جهوده خلف الكواليس فى جنيف مكرسة للتوصل الى اتفاق بين اسرائيل ومصر لفك اشتباك عسكرى محدود فى سيناء • واذ كان واضحا أن هذا فيه مصلحة لكلا الجانبين اذ كان يمكن مصر من أن تضفى الشرعية على مكاسبها فى أكتوبر ، كما كان يمكن اسرائيل من سحب قواتها من موقع متعذر الدفاع عنه بشكل متزايد فى الضفة الغربية للقناة فان تأخير التوقيع حتى منتصف يناير لم يكن راجعا الا الى الشك المتبادل والانتخابات الاسرائيلية •

ان هذه الاتفاقية الخاصة بفك الاشتباك فسيناء ومثيلتهافى الجولان فى شهر مايو ، قد قللت بشكل أكيد خطر نشوب الحرب من جـديد ، ورفعت السعودية الحظر على تصدير البترول فى شهر مارس • الى هذا الحد وكل شيء على ما يرام • ولكن هل قربت الاتفاقية المسـافة نحو تسوية شاملة أية خطوة ؟ أم أنها تجنبت الحاجة الى مثل هذه التسوية الشاملة ؟ من المحتمل أن يكون قد خطر لكيسنجر كما خطر للاسرائيليين بكل تأكيد أن « خطوة أو خطوتين » قد تغنيان عن مزيد من الخطوات • فاذا أمكن التخلص من مصر وسوريا ، اذا من سيدبر الأمر لصـالح الفلسطينيين ؟

وكانت الاجابة بطبيعة الحال هى أنه لن يمكن التخلص من مصر وسوريا وأن مثل هذه الآمال مبنية على جهل واضح بحقيقة العرب • فهناك ثلاث طرق تقليدية لتقسيم العالم العربى الى قسمين فهو يقسم وفقا للايديولوجية ، والثروة ، والقرب من اسرائيل • وهذه التقسيمات تميل الى التوافق فأغنى هذه الدول وأكثرها رجعية ظلت أبعد ما يكون عن القتال ، وأكثرها فقرا وتطرفا كانت فى الصفوف الأمامية مباشرة • ولكن هذا لم يكن معناه أن للمجموعة الاولى كافة الامتيازات ففى الشرق الأوسط لا تقاس القوة بالثروة وحدها ولكن تقاس وفقـا للأحلام الايديولوجية والالتزام بالقضية العربية فى مواجهة اسرائيل • فاذا كان فى استطاعة جماعات ثورية قليلة تجاهل القيود التى فرضتها الحكومات المضيفة ، وتجاهل الحاجة الى المساعدة المالية ، فان عددا قليلا من أنظمة يمين الوسط يمكنها تجاهل الدعوة المتطرفة الى حمل السلاح دون التعرض لغضب جيرانها أو شعوبها نفسـها •

ولقد فرض هذا النسيج المتشابك تشابك خيوط العنكبوت من الثروة والأحلام سلسلة هائلة من صنوف الكبح والتوازن السياسى على دول الشرق الأوسط وحركاتها فاذا كان باستطاعة قادة مصر التحول الى اليسار بقدر ما يسمح به السعوديون والأمريكيون فحسب ، دون التردى مرة أخرى فى الاعتماد على السوفييت ودخول حرب جديدة مع اسرائيل، فانه بوسعهم التحول الى اليمين بقدر ما تسمح به حركة التعاطف العربى فحسب ــ وشعار القومية العربية مقصور الى حد كبير على الجماعات اليسارية ــ نقول بوسعهم ذلك دون أن يفقدوا مراكزهم فى العـالم العربى وتأييد شعبهم الخاص • وينطبق نفس هذا المنطق على معظم



The Sinai disengagement agreements

الدول العربية الأخرى فسوريا تستقر على توازن صعب قوامه الحاجة الى التأييد المصرى والسعودى لها فى المواجهة مع اسرائيل من ناحيــة والجذب الايديولوجى للعــراق والفلسطينيين من ناحيــة أخرى • ان السعوديين يحتاجون الى السلام لتخفيف تأثير المتطرفين ، ويحتاجون الى المتطرفين لاضفاء الصبغة الشرعية على قبول الحركة العربية للسلام• والنتيجة النهائية لكل هذا هى اجماع عربى ضيق النطاق تستطيع أى دولة أو حركة عربية تجاهله عند الشعور بالخطر على نفسها • فكما أن منظمة التحرير الفلسطينية وبنفس القدر من عدم توقع ما كان ليمكنها آن تنتظر تأييد هذا الاجماع لحلمها الذى تنادى به وهو قيــام دولة فلسطينية العلمانية الاشتراكية وكذلك فان أى زعامة مصرية أو سورية تبحث عن سلام منفصل مع اسرائيل كانت ستجد نفسها منبوذة بين العرب •

فالأولى أن يقف كل الى جانب الآخر ويقدم التضحيات • فــكان على المصريين والسوريين أن يواصلوا حمل أعبائهم العسكرية وكان على السعوديين أن يساعدوهم فى تحمل نفقاتها • وكان على الفلسطينيين أن يضحوا بأحلامهم السعيدة من أجل راحة الشيوخ • كان هذا هو الطريق الوحيد ولذلك فقد كانت فكرة كيسنجر لفصل العرب والتعامل معهم تدريجيا ، حلما سخيفا • وأثبتت الشهور الثمانية عشر التالية الشىء الكثير •

— ٢ —

كان السادات فى مصر ينهج سياسة داخلية تتناسب وصداقاته الدولية الجديدة ، محولا دولته عن الرؤية الناصرية الاشتراكية العربية الى اتجاه اقتصادى أكثر تحررا ، والى مجتمع تغذيه السعودية بثروتها والآمال المعقودة على الاستثمار الامريكى • وأما العــلاقات السوفيتية المصرية التى أخذت فى التدهور فى عام ١٩٧٠ فانها زادت سوءا نتيجة لتصرفات السوفييت أثناء الحرب ــ وبنوع خاص الضغط الســوفيتى لوقف اطلاق النار فى وقت مبكر هو يوم ٦ أكتوبر ــ واعجاب السادات المتزايد على الدوام بالأمريكيين وكان رد فعل السوفييت على الاخير هو التباطؤ فى ارسال الاسلحة ، ورد السادات باهانات محجبة بقناع شفاف وفى الداخل قوى الزعيم المصرى مركزه بابعــاد محمد حسنين هيكل الناصرى ذى التأثير الكبير من رئاسة تحرير الأهرام وأظهر رغبتــه فى

السلام بالبدء فى تطهير قناة السويس وطبيعى أن كل هذا أدخل السرور على قلب أصدقائه فى واشنطن والرياض ، واذا كان زملاؤه العرب أقل تعبيرا عن عاطفتهم فانهم كانوا مستعدين فى تلك اللحظة لتأجيل حكمهم .

أما اسرائيل فلم يكن لديها مثل هذا الاحساس بالاتجاه الذى تسير فيه . ففى نهاية عام ١٩٧٣ أعادت الانتخابات العامة لحزب العمل — جولدا مائير — الى الحكم وأن يكن بأغلبية ضئيلة للغاية . كانت الأمة تشعر بحالة تردد ، وأكد التمثيل النسبى أن الحكومة ستعكس ذلك الشعور ، ففى شهر أبريل قدمت لجنة اجرانات تقريرا عن تقصى الحقائق فى أزمة أكتوبر ، وعلى الرغم من أن جولدا نفسها قد برئت ، الا أن مستوى الاتهامات المضادة كان كافيا لاستدعائها فى يوم ما . وأخذ رابين رئيس الاركان السابق ، وهو شخصية ضعيفة ، على عاتقه مهمة المزج بين الاغلبيات فى الكنيست .

وعلى الصعيد الدولى ، كانت اسرائيل تتلقى رسائل متضاربة . ففى خلال شهرى مارس وأبريل بينما كان المصريون يسترضون الغرب ، كان السوريون يدبرون معركة استنزاف على مستوى منخفض فى الشمال . وبينما كان الامريكيون يواصلون ضغوطهم ، الدبلوماسية على اسرائيل لاتخاذ موقف معتدل ، كانت الجماعات الفلسطينية المتصلبة لا تظهر غير الغضب والتحدى بغاراتها المتوحشة فى مستهل الصيف ..

حاولت الحكومة الاسرائيلية أن تساير الأحداث وحث رابين زملاءه على قبول اتفاقية فك الاشتباك على الجولان ، بل وترك بعض الأراضى التى وضعوا يدهم عليها بقصد امتلاكها فى منطقة نابلس بالضفة الغربية، ولكن اذا ظن أحد أن هذا القرار الأخير انما هو دليل على حدوث تنازلات وشيكة فيما يتعلق بالضفة الغربية فان هذا الظن خاطىء حيث أنهم أبلغوا واضعى اليد على تلك الأراضى بأن يضعوا أيديهم على أراض أخرى فى مكان آخر من المنطقة المحتلة . أضف الى ذلك أن خطط اسرائيل التى أعلن عنها فى أواخر العام بالنسبة الى مستقبل القدس أبرزت مساحة مترامية الأطراف ممتدة من بيت لحم الى رام الله ، وشرقا حتى مستوطنة « المرتفعات الحمراء » الجديدة على الطريق الى أريحا ، وفى هذه الأثناء قام سلاح الطيران الاسرائيلى بالاغارات الشديدة المتكررة على معسكرات اللاجئين فى جنوب لبنان ..

وفى شهر أكتوبر قام كيسنجر بجولة أخرى كان يزور خلالها أربعة عواصم فى اليوم الواحد ولكن دون ما نتيجة كبيرة تذكر . ووجه السادات جل همه من أجل اتفاق آخر فى سيناء . وأعرب الاسرائيليون عن اهتمام يشوبه التحفظ ، أما فيما عدا ذلك فلم يكن هناك من أحد متحمسا للموضوع . فالسعوديون رفضوا فى حرص توريط أنفسهم ، والسوريون كانوا لا يستطيعون التفكير فى مثل هذا الاتفاق الا اذا كان مرتبطا باتفاق آخر خاص بالجولان . ولكن بالنسبة للجولان لم يكن هناك الا فرصة ضئيلة للمساومة ، فقوات جيش الدفاع الاسرائيلى كان لا يمكنها القيام بأكثر من انسحاب رمزى لا تعود معه الى وادى نهر الأردن . ولذلك فقد رفض الاسرائيليون . وقرر السوريون ، بمنطق معادل ، أنه لا مستقبل فى الاتفاقيات الثنائية ، وأنه يتعين التوصل الى تسوية شاملة — تشمل الفلسطينيين — والا فلا . وطبيعى أن يوافقهم الفلسطينيون على ذلك . وبعد مرور عام من الشجار الداخلى الشرير ، استعدت منظمة التحرير الفلسطينية للظهور مرة أخرى على المسرح العالمى . ففى مؤتمر القمة بالرباط فى شهر أكتوبر من عام ١٩٧٤ تقرر أن منظمة التحرير الفلسطينية « هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » ، وظهر عرفات ظهور الظافر المنتصر أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة وهو مسلح بمثل هذا الاعتراف .

ومما لا شك فيه أن كل هذا جعل السادات يفكر وكان هناك أمران حتميان يوجهان سياسة الحاجة الى الابقاء على كرة السلام فى حالة حركة ، والحاجة الى الابقاء على زملائه القادة العرب فى حالة رضا . وفى ذلك الوقت قرر أن الأمر الأول أكثر أهمية . وكان لا يزال فى مشاكل مع السوفييت . فقد ألغيت زيارة بريجنيف المقترحة قبل القيام بها بوقت قصير وواصل السوفييت رفضهم لتأجيل سداد مصر لديونها ، ولامداد مصر بمزيد من الاسلحة . وبدا أن الاقتصاد المصرى يغرق تحت عبء الانفاق العسكرى والبيروقراطية الثقيلة الموروثة من العهد الناصرى ، ولما كان السادات فى حاجة الى صداقته مع أمريكا لانه كان فى حاجة الى الضغط على اسرائيل من أجل السلام ، وفى حاجة الى الاستثمارات الاقتصادية ، فانه غامر باغضاب زملائه العرب من أجل اتفاقية ثانية فى سيناء ولكن على شرط أن تكون اتفاقية طيبة .

واستمرت المساومة خلال عام ١٩٧٥ وفشلت جولة كيسنجر فى مارس فى تحقيق المعجزات — فالاسرائيليون يطلبون الكثير جدا فى مقابل اعطاء القليل جدا ، انهم يطلبون أن تكف مصر عن الأعمال الحربية أربع سنوات فى مقابل أن يتقهقروا الى منتصف ممرات سيناء • وسرعان ما ظهرت بعد ذلك السياسة الأمريكية المعتادة سياسة الترهيب والترغيب، فذكر فورد الكلمة المرعبة « جنيف » ووعد بكمية هائلة من الاسلحة فوافقت اسرائيل فى منتصف الصيف ، على خط وراء الممرات • وتطلع السادات حوله فى حذر حيث رأى سوريا متورطة للغاية فى مواجهة العراق ، وأزمة لبنان آخذة فى التصاعد ، وبعد أن حصل على موافقة متحفظة من الملك خالد (وكان فيصل قد اغتيل فى شهر مارس) وأنقص فترة اللاحرب الى النصف فانه وقع على الاتفاقية •

كانت سوريا غاضبة ، وبالمثل منظمة التحرير الفلسطينية • ووجد السادات نفسه مضطرا الى اغلاق محطة الأخيرة فى اذاعة القاهرة • الا أن هذا لم يكن الا اجراء مؤقتا • فبدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية لم يكن السلام ممكنا • وأصبح على السادات فى ذلك الحين التودد اليهم لاقناعهم بالعودة الى حظيرة الجماعة • كان هناك شىء واحد واضح • لقد وسع حدود الاجماع العربى الى أقصى حد كان بالامكان مده اليه فى أمان • وقد كانت هذه هى آخر خطوة فى طريق الاقتراب « خطوة فخطوة » • اذ سيكون من المتعين الآن أن تحدث قفزة • ولكن أولئك الموقفين فى مركز النزاع وحدهم — وهم اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية — أن يقدموا تنازلات لها معنى • وكان على أمريكا أن تضغط على الأولى وعلى العرب أن يضغطوا على الأخيرة • فقد دارت العجلة دورة كاملة منذ عام ١٩٤٧ • ومرة أخرى أصبح على المتنافسين على فلسطين المطالبين بها أن يتقابلوا وجها لوجه •

— ٣ —

ان اقبال عام انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة الأمريكية منح الاسرائيليين فترة راحة من سياسة كيسنجر للترهيب والترغيب • فلن يحصل أحد على أصوات فى الانتخابات من جراء معاداة الشعب اليهودى الكبير ذى النفوذ الواسع فى أمريكا • كما أن الدول العربية لن تسبب الكثير من المتاعب • فمصر كانت لاتزال مشغولة بالابتعاد عن (الناصرية)،

منتظـرة الوعـود الأمريكيـة ، ومحـاولة اقـامة البرهـان على أمانتها واخلاصها لحركة القومية العربية أمام بقية العالم العربى ، غير ان حركة القومية العربية ذاتها كانت فى حالة مشوشة ، فالنظام السورى كان يشن حملة أيديولوجية فى جبهتين ضد الاعتدال المصرى والتطرف العراقى باحثا عن جبهتين تعوضانه عن الصداقة مع الملك حسين أو منظمـة التحرير الفلسطينية • وفى لبنـان أقحمت الولاءات الطبقية والطائفية والوطنية نفسها آخر الأمر فى حرب أهلية ذات ضراوة متصاعدة امتصت الطاقات العسكرية للفلسطينيين امتصاصا كاملا •

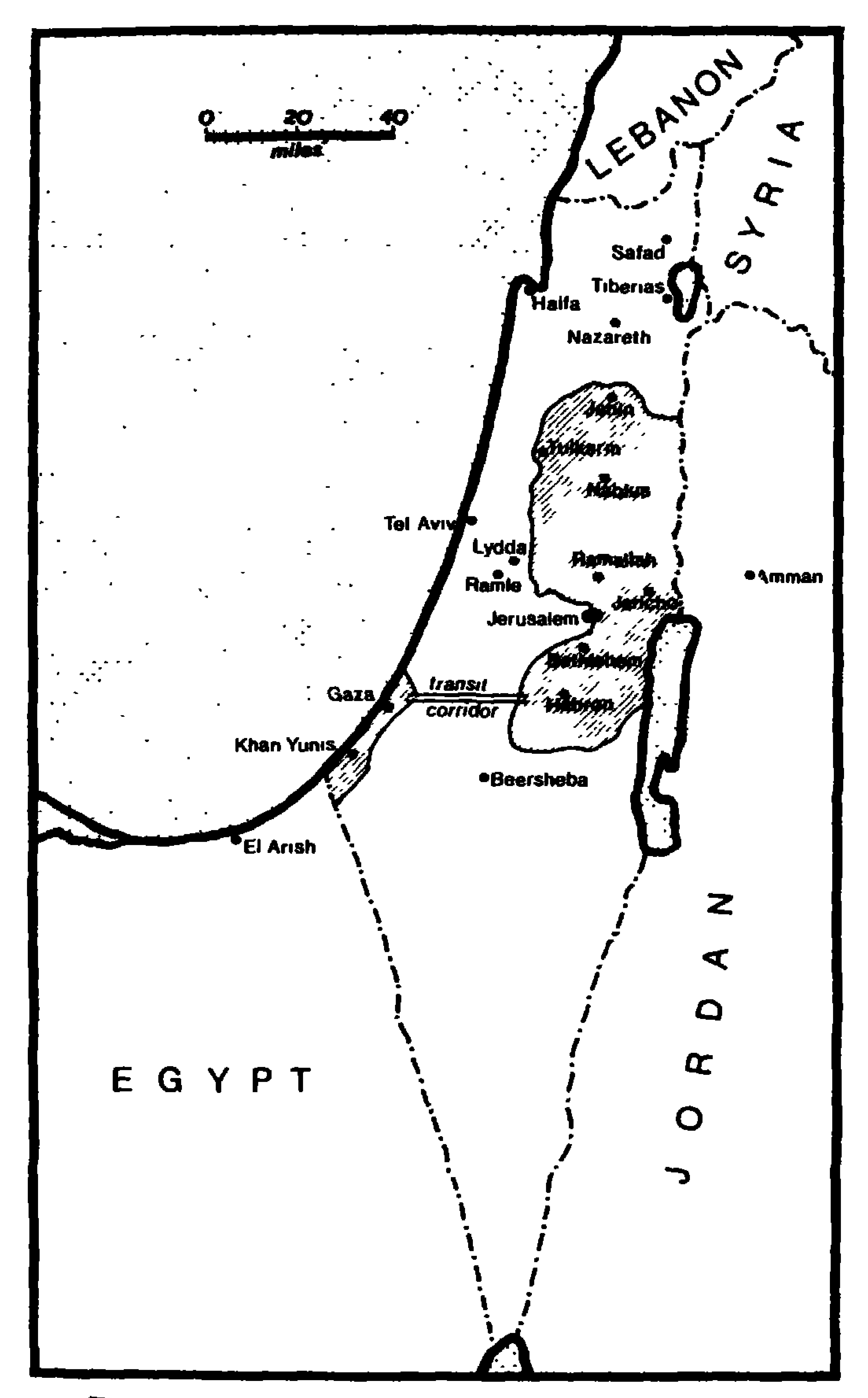
ولكن اذا كانت اسرائيل قد توقعت فرصة لالتقاط الأنفاس فانهـا بذلك كانت مخطئة خطأ محزنا • فقد وجدت حكومة رابين الضـعيفة نفسها خاضعة لضغوط اقتصادية وسياسية متزايدة • فعبء نفقـات الدفاع استمر فى اضعاف الاقتصـاد مما خفضت معه قيمـة الليرة الاسرائيلية عشر مرات ما بين أغسطس ١٩٧٥ وأغسطس عام ١٩٧٦ • ولم يحل دون وقوع كارثة اقتصادية غير تدفق المعونة الأمريكية • وأما بالنسبة للامدادات العسكرية فان الموقف كان مماثلا • فعلى الرغم من أن اسرائيل كانت تحرز تقدما فى مجال تطوير صناعة محلية للأسلحة فتشيد مصانعها الخاصة لانتاج طائرات كافير ودبابات من جوربون ، وطائرات الهيلوكبتر ، وقوارب الصواريخ فان مصادر رأس المال اللازم ظل هو الولايات المتحدة الأمريكية بحيث أنه فى عام ١٩٧٦ أصـبحت المساعدة الأمريكية تشكل ٣٥٪ من ميزانية قوات الدفاع الاسرائيلى • وهذا الاعتماد المتزايد كان ينطوى على زيادة تعرض اسرائيل للضغط الأمريكى اذا ما اختار أى رئيس قادم للولايات المتحدة ممارسته •

وكما رأينا فقد أصبحت هناك الآن منطقة واحدة فقط يمكن ممارسة مثل ذلك الضغط منها ، ألا وهى المسألة الفلسطينية • ففى غضون عام ١٩٧٦ بدأ الفلسطينيون الذين يعيشون تحت ظل الحكم الاسرائيلى أخيرا يرفعون صوتهم الوطنى • فقد أدى شغب فى مدرسة للأطفال يوم ١٣ مارس الى قيام أول مظاهرات طويلة الأمد ، بعد ذلك بأسبوعين فى الضفة الغربية المحتلة ، فاستقال العمد ، وفرض حظر التجول أكثر من مرة وحدثت اعتقالات عديدة • ثم دعوا الى القيام باضراب عام يوم ٣٠ مارس وبقيت نصـف القوة العربية العـاملة فى المنازل • وفى أثنـاء الاضطرابات التى صاحبت ذلك قتل ستة من الفلاحين العرب وتم اعتقال

أكثر من ثلثمائة وواصل الاسرائيليون ، مع هذا الجنون المحبب الذى يضفى شكله على كثير من أعمالهم ، انتخاباتهم المحلية حسب المواعيد المحددة لها ، وكانت النتائج الانتصار للقضية الوطنية بصفة عامة ، ولمنظمة التحرير الفلسطينية بصفة خاصة وكنذير شؤم بالنسبة لمستقبل اسرائيل فان اضطرابات الضفة الغربية كان لها صداها داخل اسرائيل نفسها وشكل الشعب العربى المعادى أخطارا على اسرائيل أشد بكثير من أية أخطار كانت للجيوش العربية فى أى وقت مضى . فأما أن تحدث تسوية شاملة ، أو أن تشدد اجراءات الأمن فى المناطق المحتلة ..

وواصلت حكومة رابين اتباع منهجها المتردد . ففرضت قيودا جديدة ولكن قلما كانت بيد من حديد . وكان الفشل الاسرائيلى فى الاتفاق على سياسة شاملة بخصوص المستوطنات اليهودية غير الشرعية فى الأراضى المحتلة مجرد انعكاس للفشل فى الاتفاق على المصير النهائى لتلك الأقاليم . وقد صاحب هذا الضعف السياسى خطوة بخطوة زيادة مستمرة فى القوة العسكرية لاسرائيل وقد ظهر بوضوح المدى البعيد الذى يمكن أن تصل اليه قوات الدفاع الاسرائيلى فى غارة عنتيبى فى مستهل شهر يوليو ١٩٧٦ . فقد عادوا برهائن الى الوطن ولكن ما هى فائدة مثل هذه القدرة العسكرية ، على المدى الطويل ، فى حين أن المشاكل الأساسية مشاكل سياسية ؟ وما هى فائدة القدرة على الوصول الى أهداف بعيدة بينما هم يرقدون على أبواب اسرائيل نفسها ؟ .

وعلى الجانب الآخر الفاصل العظيم لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية خالية من المشكلات . فلقد وافق العالم العربى على « أنها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى » وأضفت الأمم المتحدة الشرعية من الناحية الفعلية على ذلك المطلب بالسماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالاشتراك فى مناقشة مجلس الأمن لمسألة فلسطين فى مستهل عام ١٩٧٦ . ولكن هذا لم يتضمن الموافقة لا على امكانية تنفيذ السياسة الرسمية لمنظمة التحرير الفلسطينية ولا على الرغبة فى ذلك لان المنظمة كانت لا تزال تركز على حقوق الفلسطينيين فى ديارهم فى فلسطين وبالتالى القضاء على الدولة الصهيونية ، وخلق دولة علمانية متعددة الأجناس بدلا منها . وكان المعتدلون من أمثال عرفات قد أفصحوا فى أحاديثهم الخاصة عن رغبتهم فى اقامة دولة فلسطينية فى الأراضى المحتلة على الضفة الغربية وقطاع غزة كخطوة أولى . واذا كان ثمن هذه



The projected Palestinian state

الدولة هو الاعتراف باسرائيل فعندئذ قد يكون من المتعين دفع هـذا الثمن • واذا كانت هذه الدولة الصغيرة ستبرهن الايام على أنها أصغر مما ينبغى فحينئذ هناك دعاوى الاردن الخاصة بالملك على حد تعبير عرفات الذى أعلن عنه فى أكثر من مناسبة •

ولكن كثيرا من الفلسطينيين لم يوافقوا على ذلك • وبعضهم كان لا يزال ـ عضوا فى منظمة التحرير الفلسطينية ، والبعض الآخر انضم الى جبهة الرفض ، وكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسـطين بزعامة حبش ـ تلك الجبهة المنشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية حاليا ـ وتتلقى تأييد العراق وليبيا ، نقول كانت ضد أى اعتراف باسرائيل وضد التخلى عن أى هدف من الأهداف المتطرفة وكانوا يصرون على طريق النضال ، ولم يكن السلام من بين أهدافهم فكان يتعين اذن الحد بشدة من قوتهم قبل أن تستطيع « جبهة الموافقة » وهى مصر ، وسـوريا «عادة» والسعودية ومعظم منظمة التحرير الفلسطينية أن تعلن لاسرائيل وللعالم تأييدها لبرنامج يحقق الحد الأدنى من الأهداف • ولحسن حظ السادات بأصدقائه فقد أتاحت الحرب اللبنانية الفرصة لاخضـاع منظمة التحرير الفلسطينية بصفة عامة وجعلها تحت السيطرة على كره من المنظمة •

ان جذور الصراع اللبنانى خارج نطاق هذه الدراسة ولا يمكن التعرض لها هنا الا بايجاز • وترجع جذور هذا الصراع أساسا الى أن عملية تقسيم السلطة السياسية ، وفقا لاحصائية طائفية عفا عليها الزمن ، قد أعطت المسيحيين اللبنانيين هيمنة ، لا يستحقونها ، على الكيان السياسى • وما لا شك فيه أن هذه الهيمنة ما كانت لتكون بمثـل هذه الدرجة من القابلية للانفجار لو أن المسيحيين لم يحصلوا على نصيب الأسد من خيرات البلاد الاقتصادية كذلك • ولقد تلاقى الخطان الطائفى والطبقى ، ونتيجة لذلك فان الاضطراب الطائفى المنقطع فى مسـتهل صيف عام ١٩٧٥ ، لم يلبث أن تصاعد بسرعة الى صراع طبقى قاس • فواجه « اليسار الاسلامى » « اليمين المسيحى » ••

وسرعان ما تورط الفلسطينيون « الرافضون عسكريا » ، بينما فضل المعتدلون ، رغم تعاطفهم الواضح مع « اليسار » اللبنانى المسـلم عدم اقحام أنفسهم بطريق مباشر • فقد كان لبنان ملاذا لمنظمة التحرير الفلسطينية لا تستطيع المخاطرة بفقده ، وكان معظم قادتها مترددين فى

المخاطرة بالتدخل العلنى • وفضلوا على ذلك تقديم المساعدات من وراء حجاب بينما قاموا بدور الوسطاء فى العلن •

لم يكن مثل هذا الدور الفلسطينى الخسيس فى صالح الجماعات المسيحية الأكثر عـداوة وهى التى كانت شغوفة بأن تصـور الصراع اللبنـانى على أنه نزاع بين اللبنانيين والفلسطينيين ، وبالتـالى كانت حريصة على حجب العوامل الاجتماعية والاقتصادية التى قسمت المجتمع اللبنانى نفسه • ومن ثم فانه فى نهاية العام هاجم المسيحيون معسكرات اللاجئين فى بيروت وانجذبت الجماعات الفلسطينية المعتدلة الى الحرب جديا • وقد خول لهم تدريبهم العسكرى وتسليحهم تبوأ دور الصدارة بسرعة فى التحالف الراديكالى المسلم ومن هذه النقطة بدأت الحرب تتحول ضد الجماعات المسيحية • ولمـا كان الجيش اللبنانى عاجزا بسبب نفس التقسيمات التى قسمت الأمة فانه تفكك آخر الأمر فى ينـاير سنة ١٩٧٦ • وبدت البدائل السياسية قاصرة على أمرين ، اما التقسيم أو انتصار « يسارى » شامل •

ولم يكن أى من هذين الاحتمالين ليثير جارتى لبنان : اسرائيل وسوريا فالأولى كانت تكره التدخل علنا فى هذه المرحلة ، خوفا من احتمال نشوب حرب واسعة النطاق فى الشرق الأوسط • ولكن سوريا ما ان علمت عن طريق الولايات المتحدة الأمريكية أن اسرائيل سوف تتقبـل تدخلها حتى زايلها التردد •

كانت أسباب التدخل السورى معقدة وان كان لها بكل تأكيد ، مصالح واضحة • فمن الواضح أنه لو قامت يسيطر عليها « اليسار » المسلم والفلسطينيون فلربما تحالفت مع البعثيين المنافسين فى العراق مما يشكل تهديدا أيديولوجيا لنظام الأسد فى سوريا • أضف الى ذلك أن مثل هذه الدولة لو أنها قامت لانتهجت لا محالة ، موقفا متطرفا فى مواجهة اسرائيل ولفقدت سوريا زعامتها « للجبهة الشرقية » وربما جروها الى نزاع جديد مع اسرائيل ، فى وقت يختاره آخرون غيرها مع ما يحتمل أن ينجم عن ذلك من المصائب •

كان أول تحرك للأسد فى شهر يناير هو ارساله كتائب ضخمة من الجماعات الفلسطينية الخاضعة للسيطرة السورية ، ومن جيش التحرير الفلسطينى ومن الصاعقة الى لبنان • غير أن هذه المحاولة لتأكيد السيطرة

السورية على القوات « اليسارية » فشلت فشلا محزنا ، نظرا لمروق كثير من أعضاء جيش التحرير الفلسطينى ــ والصاعقة ولحاقهم بالجماعات المنافسة • وأصبح البديل الوحيد الباقى هو قيام الجيش السورى بغزو دموى شامل وهذا ما حدث فى الوقت المناسب فى نهاية شهر مايو • وكان دوره هو فرض تسوية ، وكان معنى ذلك فى ظل الظروف العسكرية السائدة ، هو انقاذ « اليمين » المسيحى من انتصار « اليسار » المسلم • وطبيعى أن الأخير عارض بشدة • وصوب السوريون يساندهم المسيحيون مدافعهم ضد حلفائهم السابقين •

كان زعماء العرب المعتدلون ــ وهم السادات وحسين وخالد ــ حريصين كعهدهم على اظهار تضامنهم مع الفلسطينيين علنا ، ولكنهم بالمثل كانوا حريصين فيما بينهم على الاقلال من نفوذهم الراديكالى • فتحولت قوة « حفظ السلام » السورية الى قوة عربية عامة بوسيلة بسيطة وهى رسم شارة جديدة على الدبابات السورية • وفى خلال فصل الصيف جرى طحن المقاومة الفلسطينية فى هدوء •

وبحلول شهر سبتمبر كانت المهمة قد انجزت الى حد كبير ، وأخذ الجميع يتطلعون الى تسوية • فقد سيطر الأسد سيطرة فعالة على لبنان ، وفى منطقة الحدود الجنوبية كان الجيش الاسرائيلى يثبت وجوده• وأصبح الفلسطينيون متحمسين للمحافظة على ما تبقى لهم من قوة • وكان الزعماء العرب الآخرون يعتبرون أن منظمة التحرير الفلسطينية روعت بما يكفى لكى يجعلها أكثر استعدادا لتعديل موقعها بالنسبة لتسوية سلمية بالشرق الأوسط وانها لا تزال حية بما يكفى للمحافظة على الأسطورة الرومانتيكية للتضامن العربى ومما لا شك فيه أنهم لاحظوا بمزيد من الرضا أن « فتح » عرفات التى تكبدت معظم القتال قد دعمت زعامتها داخل منظمة التحرير الفلسطينية •

فتم استدعاء جميع أطراف النزاع اللبنانى الى الرياض وطلب منهم تسوية الأمور • فصفح السادات عن الأسد بالنسبة للتدخل ، والأسد صفح عن السادات بالنسبة لاتفاقية سيناء الثانية • وحرر خالد بضعة شيكات سخية • وفى شهر نوفمبر راقبت منظمة التحرير الفلسطينية ، على مضض ، الدبابات السورية التابعة لقوات الردع العربية وهى تدخل بيروت • ووجد الاجماع العربى من جديد ولم يكن

لجميع الأصوات القوية المنبثقة من ليبيا والعراق كبير وزن ، حيث أن القوة العسكرية لدول المواجهة ، والقوة الايديولوجية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، والقوة المالية للسعوديين كانت جميعها تسير فى طريق معتدل نحو السلام مع اسرائيل أو هكذا كانوا يأملون •

— ٤ —

شـــجع تنصيب جيمى كارتر رئيســا للولايات المتحدة الأمريكية العرب على الاعتقاد بأن عام ١٩٧٧ سيكون هو عامهم • فهو طالما ذكر أن التسوية السلمية للشرق الأوسط تحتل مكانا بارزا فى قائمة أولوياته ، كما وأن تصوره للشكل الذى يحتمل أن تأخذه التسوية كان أقرب لتصور العرب الخاص من تصور أى رئيس أمريكى سابق فوجب أن تكون السنة هى سنتهم • وأنه وان كانت مباحثات كيسنجر قد كشفت الغطاء عن الصراع من أجل ذلك الجزء من الأرض الممتد ما بين نهر الاردن والبحر الا أن ذلك الصراع ظل كامنا أسفل طبقات العداء العربى — الاسرائيلى ولم يتجاوروه ولأول مرة منذ عهد ترومان يتعين تكريس الطاقات الأمريكية من أجل فلسطين ، أما عن سيناء والجولان فكانتا مسألتين ثانويتين تخلفتا عن احساس القومية العربية بالكبرياء والواجب وعن نضال اسرائيل من أجل الأمن فى عالم معاد • ومع أن ايجـــاد حل للمســألة الاقليمية الخاصة بفلسطين لن يكفل الواجب أو الأمن ولكن من المؤكد أنه سيجعلها أقل من أن يكونا مسألة حياة أو موت •

انه يتعين المشاركة فى فلسطين • ولم ولن يكون هناك مهرب من هذا الاستنتاج دون الحرب الأبدية • فاذا تحتم على اليهود الفلسطينيين — والذين أصبحوا نهائيا اسرائيليين — التسليم بعدالة قضية عرب فلسطين ، وعندئذ يتحتم على عرب فلسطين قبول الحقيقة الراســخة لوجود اسرائيل داخل حدود ما قبل عام ١٩٦٧ • وفى عام ١٩٧٧ اعترفت السياسة الامريكية علانية بالأمر الواضـــح • وبات يتعين خلق دولة فلسطينية فى الأراضى المحتلة للضفة الغربية وقطاع غزة •

ولقد اعتقد الكثيرون أن تسوية تبنى على أســاس هذه الدولة المقترحة يمكن أن تبشر بعهد جديد من السلام والاستقرار والتنمية فى الشرق الأوسط يستفيد منه كل انسان تقريبا ولن يكون صانعو التسوية

الغربيون هم وأشياعهم بأقل المستفيدين • فدول المواجهة العربية ربما استطاعت وقف تدهورها الاقتصـادى وتحقيق الاسـتقرار لأوضاعها السياسية متى تحررت من النفقات الدفاعية الثقيلة ودعمها رأس المـال الغربى • كما يمكن لنظم الحكم الغنية بالبترول أن تقول وداعا لعلاقات الحب والكراهية بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية حبها لحليفهـا « فى العالم الحر » وكراهيتها لعدوها المناصر للصهيونية ولن يكون هناك أبدا ما يغريها مرة أخرى على التدخل فى امدادات الطاقة للعالم الغربى وأما اسرائيل فلن تترك وحيدة ، بل سيضغطون عليها بأى وسـيلة كانت يثبت أنها ضرورية للوصول بها الى وضع تتمتع فيه بأقصى درجة من الأمن عرفتها على الاطلاق وسيكون للفلسطينيين وطنهم ، ولو أنه وطن صغير ، يمارسون فيه نشاطهم الأساسى محليا فى أمل • ولن يكون للاتحاد السوفيتى دور ما يلعبه بالمنطقة مستقبلا •

ولكن على الرغم من أن المصالح الغربية قد وضعت فى الاعتبـار الا أن ـ تسوية كهذه يبدو فعلا أنها تقدم الحل الأمثل للمشكلات قصيرة الأجل الخاصة بالشرق الأوسط • فوجود وطن قومى فلسطينى من أى حجم أو أى أبعاد سيحسن من مأساتهم الطويلة ويتيح لهم الفرصـة على الأقل ، لتقرير مستقبل قومى متحررا من ضغوط مواجهة اسرائيل ، متحرر من الحاجة الى استجداء المعيشة من العالم العربى المتشـكك والكاره لذلك • ثم ان قيام علاقات طبيعية متمهلة بين اسرائيل وجيرانها العرب من شأنه أن يقلل من خطر الصراع النووى بين الدول المختصة وبين أصدقائها من الدول الكبرى أن اسرائيل الآمنة قد تشعر أنه بوسعها أن تشجع على تطور ذلك الوجه الايجابى للانفصام التاريخى للصهيونية : ألا وهو الجماعية التى قدسوها فى مستوطنات الكيبوتز وفى كثير من المؤسسات القديمة أيام الريادة الأولى ليبشوق ، ان مثل هذا الاتجـاه داخل اسرائيل لا شك سيعنى الكثير بكل تأكيد وعلى المدى الطويل ، بالنسبة لتصور حبش عن فلسطين الاشتراكية أكثر مما تعنيه سنوات الصراع الدموى الحالى الذى تفكر فيه جبهة التحرير الفلسطينية •

والأهم من ذلك كله ـ ومع عدم وجود أى احتمال قريب فى حدوث تغيير اجتماعى جذرى فى الشرق الأوسط فان مثل هذه التسوية تقدم الاحتمال الوحيد لتجنب حرب أخرى •

ولقد كان القادة العرب متنبهين جيدا لهذه الحقيقة فالسلام من مصلحة نظم حكمهم ، ولذلك كانوا مستعدين لتقديم التنازلات اللازمة واذ لم يكن الفلسطينيون ، بعد لبنان ، فى وضع يستطيعون فيه أن يقاوموا « تسوية معقولة » ، فقد ظلت الاختلافات قائمة داخل صفوف منظمة التحرير الفلسطينية ، فمعظمهم كان مستعدا للذهاب الى جنيف وان اختلفوا حول ما يمكن أن يتقبلوه وهم قد لمحوا الى أنهم سيعترفون باسرائيل اما بطريقة مباشرة أو عن طريق قبول القرار ٢٤٢ بعد تعديله — اذا ما اعترفت اسرائيل نفسها بحق منظمة التحرير الفلسطينية فى تمثيل « الأمة » الفلسطينية • وانتصر العرب أن تبدى اسرائيل، تحت ضغط الولايات المتحدة ، رغبتها فى تقديم تنازلات •

ولكن خاب أملهم • وأصبح العناد الاسرائيلى ، بدلا من تناقصه أكثر صلفا مع تولى بيجين الحكم • فلما كانت الوزارة الجديدة قد دعمت بتعيين ديان الخارج على الحزب فى وزارة الخارجية وتعيين شارون المتحمس للاشراف على برنامج الاستيطان فان رئيس الوزراء الجديد كان معارضا لأية تنازلات من أى نوع كان • وأخذوا يرمزون بلطف الى الضفة الغربية على أنها « منطقة محررة » ووصفوا أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية بأنهم ارهابيون ، ثم لا شىء أكثر وبدا أن اسرائيل ستعتمد على عنصر الزمن مرة أخرى ، ونوع من التحرك لاضفاء الصفة الشرعية على مكاسبها فى عام ١٩٦٧ لانه وفقا لتحليل الأمور تحليلا دقيقا لم يكن يوجد أحد فى القدس يصدق أن حكومة أمريكية يمكن أن تقلل حقا « الرواتب » العسكرية والاقتصادية لصالح استقلال فلسطينى مناهض لأمريكا • •

وفى بادىء الأمر لاح أن فى ذهن كارتر مثل هذه النوايا التى لا تصدق • فخرج عن طريقه ليرد المجاملة على المقدمات الاستهلالية للسادات وشجع آمال الفلسطينيين بحديثه علنا عن وطن قومى فى الأراضى المحتلة للضفة الغربية وقطاع غزة • ولكن بمرور الوقت فى عام ١٩٧٧ أصبح واضحا أن كارتر رأى أن السعى التدريجى الذى تشترك فيه كلتا الدولتين العظيمتين هو الضمان الوحيد لسلام مستقر ودائم • ومن ثم فسوف لا يضغط على اسرائيل لجعلها تدخل تسوية سابقة لأوانها وبالتالى فهى تسوية خطرة •

وكان ذلك كارثة بالنسبة الى السادات ، فهو كان يريد التحـرك ولكن اذا كانت الاضطرابات التى ثارت من أجل الخبز فى مستهل ذلك العام قد أفصحت عن حاجة مصر للسلاح ، فان أحدا آخر لم يبد عليه أنه يهتم اهتماما بالغا بالسلام • فالاقتصاد مستمر فى التدهور ، والقوات المسلحة يعوزها العتاد ، والسوفييت رفضوا فى ازدراء جميع عروض الصلح • وكان السادات فى حاجة الى انجاز عمل يساعد على تهدئة الاضطراب الشعبى ، أو فى نفس الوقت اجبار شخص ما (مفضلا كارتر) على الانتباه الى مطالبه • ولما كان السادات غير راغب ، وغير قادر على شن حرب فانه حاول الاغراء بدلا من ذلك فذهب الى القدس وخاطب الكنيسيت ، بل وقبل جولدا مائير • وعلى الرغم من أنه لم يتنازل عن شىء سوى مبدأ التفاوض المباشر ، والاعتراف الضمنى عن طريق مثل هذه الزيارة ، الا أن الأطراف الأخرى فى النزاع وقعت فى الارتباك والخلط فسارع الأسد والفلسطينيون المعتدلون الى طرابلس للاجتماع بدول وجماعات الرفض • وأبن السادات بقوة وان كانوا قد فشلوا فشلا ذريعا فى الاتفاق على أى شىء أكثر ايجابية • وأما حسين والسعوديون الذين كانوا فى « المعسكر المعتدل » فيما مضى ، وكارتر فأنهم حاولوا كل بطريقته الخاصة مواجهة هذه التجربة التى هزت المعتقدات السائدة هزا عنيفا • فطار حسين هنا وهناك موزعا وعوده على الجميع بأنه متفق معهم فيما بينه وبينهم ولكنه لا يستطيع أن يقول ذلك علانية بعد • وأعرب السعوديون الذين فى استطاعتهم أن يكونوا أكثر تحفظا ، أعربوا عن دهشتهم وليس أكثر • وأما كارتر فغالبا ما كانت آراؤه تلتقى مع آراء آخر شخص يكون قد تحدث معه•وانتظر الجميع رد فعل اسرائيل — سواء سلبا أو ايجابا بما يكفى لاخراجهم من هذا الشرك الجديد •

وانتظروا دون جدوى • فبيجين كان على الأقل مستعدا للتحدث حول مسائل واقعية ، ووفقا لذلك تم عقد المباحثات المصرية الاسرائيلية وشكلت اللجان • ولكن لاح أن أكثر ماتتجه اسرائيل لتقديمه للفلسطينيين هو شكل من أشكال الحكم الذاتى على الضفة الغربية اقليم « حكم ذاتى » محاط بالمدافع الاسرائيلية •

وكان هذا أقل حتى مما أمل فيه السادات وأصبح السادات وحيدا أمام بديلين على درجة متساوية من الخطر • فهو كان فى استطاعته قبول

موقف اسرائيل أو على الأقل تجاهله والمضى فى تحقيق سلام منفرد مدعيا طوال الوقت أن رفاقه العرب لم يتركوا له فرصة للاختيار . ولكن تنفيذ ذلك لم يكن من شأنه فقط رفض زعامة مصر القديمة للعالم العربى فحسب وانما تعريض مركز السادات شخصيا للخطر .

ويبدو الآن ان الاحتمال الأكبر هو أن يعود متذللا الى حطـام الاجماع العربى وقد ضيق من فرصته للمناورة تضييقا شديدا ضخامة خروجه عن الصف . فاذا كان الأمر كذلك فان السلام فى المسـتقبل القريب يكون لا محل له . وبدلا من ذلك فان المسرح سوف يعد لحرب أخرى ومن المشكوك فيه ان اسرائيل ستنتظر كما فعلت فى عام ١٩٧٣ . وربما تؤدى ضربة اجهاض اسرائيلية على جبهة الجولان الى الحرب التالية التى تتبعها مذبحة مروعة فى سيناء ولسوف يحل محل السادات والأسد ، وسواء قبل تلك الحرب أو بعدها ، أشخاص أكثر تطرفا ، ويحتمل أن يكون أولئك الأشخاص من اليمين واليسار على التوالى ، أى يمين فى حالة السادات ويسار فى حالة الأسد . وسيدخل الاتحاد السوفييتى حلبة الشرق الأوسط مرة أخرى بعد أن يكون قد فرض شروطه . وربما تلجأ اسرائيل ، اذا ما ضيق عليها الخناق ، الى استخدام الأسلحة النووية التى يصعب التنبؤ بنتائجها . وستقوم دول الخليج بقطع البترول ونتائج ذلك ما أسهل التنبؤ بها . وفى داخـل اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، سيمنى المعتدلون بالهزيمة وتختفى فكرة « فلسطين العربية الى جانب اسرائيل » وتصبح فـكرة وقد طواها التـاريخ .

— ٥ —

يجب ألا يسخف أحد بضخامة مخاوف اسرائيل فالنمو الفاحش ضـد السامية فى أوروبا فى فترة ما بين الحروب واكتماله الرهيب لن ينسى سريعا فأولئك الذين بقوا على قيد الحياة ، وأولئك الذين وصلوا الى شواطىء فلسطين فى القوارب المحطمة فى هجرة ما بعد الحرب يتذكرون الأهوال التى هربوا منها والدليل الواضح على فظاعة النازى كثيرا ما ظهر على شاشات أجهزة تليفزيوناتنا الغربيـة أن الصـور أصبحت الآن كلاشيهات تاريخية أورثتنا الرجفة وان كنا أساسا غير مكترثين ، بوصفها صدى عهد آخر . أما بالنسبة لأناس من أمثـال

بيجين • الذين انتموا لأولئك البشر الذين كتبت لهم الحيـــاة من بين أكداس الهياكل البشرية البشعة فان الصورة لا تزال كما هى ولم تتغير فى شىء وهم لا يزالون فى نفس العهد • انهم يعرفون ما يمكن أن يفعله شعب بشعب آخر • والعرب وقد وقعوا فريسة غضبهم الطائفى فانهم لم يفعلوا الا القليل لتهدئة مخاوف عدوهم •

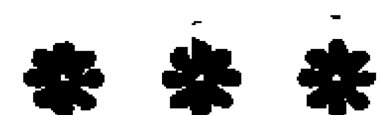
على أن الخوف والشعور بالذنب يحدثان أمورا غريبة فى التفكير الجماعى اذ يبدو أن كثيرا من الاسرائيليين يعتقدون اليوم ان فلسطين كانت « خالية من الناس » عندما وصلوا اليها ، وأن عرب فلســطين أحضروا اليها من أماكن أخرى للعمل فى المزارع اليهودية • وهــذا خيال بحت ، وان لم تخل الخيالات من أهمية والأقرب الى العقل أن يدعى الاسرائيليون أن العرب الذين يعيشون داخل اسرائيل يتمتعون بمستوى حياة أعلى وبمزيد من الحريات الديمقراطية أكثر من أولئك الذين يعيشون فى الدول العربية المجاورة • فهذا ليس بعيدا جدا عن الحقيقة ، وان لم تكن الحجج المشابهة التى يثيرها حكام جنوب أفريقيا هى الأخرى بعيدة جدا من الحقيقة • ان منح الحقوق الاقتصادية ، والسياسية ، لا صلة له بالموضوع تقريبا ولا مجال للحديث عنه اذا كان حق تقرير المصير الذى هو حق أساسى بالدرجة الأولى يقابل بالجحود والنكران ان الدولة الاسرائيلية لم تخلق لخدمة العرب •

لم يكن اليهود وحدهم المحتكرين للمأساة الجماعية ففى الحقيقة انهم بهروبهم من مأساتهم الخاصة خلق اليهود مأساة لشعب آخر ، هو عرب فلسطين ورفض اسرائيل التفاهم على أساس هذه الحقيقة وحتى الاعتراف بها هو لب الصراع الحالى • فالفلسطينيون لا يمكن تجاهلهم أو التخلص منهم أو توقع اقامتهم فى مكان آخر أكثر ملاءمة • وليس أدل على ذلك مما جاء فى مذكرة شروقى حين يقول :

« فلو ان البلد التى يحثوننا على أن نعيش فيها أفضل بكثير ممــا يصورونها لنا ، ولو انها مبرأة » مما نعترض به عليها ، فانهــا مع ذلك ليست مسقط رأسنا ولا هى الأرض التى ترتبط بها عواطفنا ، فليس بها رؤى طفولتنا ولا مقابر آبائنا ••• وما الذى يجب أن نحكم به على ظروف الطرد حينما تجبر طائفة بأسرها تضم أشخاصا من جميع الطبقات وجميع الأوصاف ، من الطفل الوليد الى الرجل العجوز الطاعن

فى السن ، الى المريض ، الى الأعمى ، الى الاعرج ، الى قصير النظر ، الى الطائش ، الى اليائس ، كما تضم الحكيم المتعقل ، والحذر الفطين ، والمجد الكادح وجميعهم أجبروا على الرحيل نتيجة لمـا لا طاقة لهم باحتماله من أنواع الاثارة والاضطهاد التى تعرضوا لها باسم القانون » « لقد طرد الشروقييون ناحية الغرب وفى فيلم حديث وصـف زعيمهم كيف ذهب الى واشنطن ساعيا الى الانصاف فقيل له « أن تسـعى معناها أن تثابر » ويقول « ففكرت فى ذلك زمنا طويلا ••• ثم أعلنت الحرب على الولايات المتحدة » • فلا عجب فى أن الفلسطينيين أعلنوا الحرب على اسرائيل فانهم حاربوا — كما فعل اليهود ضد البريطانيين — بالأسلحة البدائية والوحشية التى للضعيف •

ان هناك مأساتين يواجهان بعضهما الآخر فى فلسطين • وكلتاهما يجب أن تفسـح المكان للاخرى • وقد حـان الوقت الذى يتعين فيه المصـالحة بين المجذوم والقديس •



الكرونولوجيا

تعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها
وفقا لتسلسلها الزمنى

القسم الأول :

التاريخ	الأحداث
١٨٨١ — ١٨٨٢	بداية الهجرة اليهودية الحديثة الى فلسطين .
١٨٨٢	بريطانيا العظمى تفرض سيطرتها على مصر .
١٨٩٧	المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل .
١٩٠٤ — ١٩٠٥	أول عمليات شراء منظمة من جانب الصهيونيين للأرض فى فلسطين .
١٩١٥	خطاب باكماهون « يعد » بتأييد بريطانيا لاستقلال العرب آخر الأمر .
١٩١٦	بداية الثورة العربية ضد الحكم العثمانى . اتفاقية سايكس بيكو تقسيم الشرق الأوسط الى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية وروسية .
١٩١٧	وعد بالفور يتحدث عن اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .
١٩١٨	نهاية الحرب العالمية الأولى تشهد حل الامبراطورية العثمانية .
١٩٢٠	بريطانيا العظمى تمنح حق الانتداب لادارة فلسطين .
	تأسست المنظمات الصهيونية الكبرى — هيسترادوت ، هاجاناه — فا — آدليومى فى فلسطين .
١٩٢٢	الكتاب الأبيض لتشرشل عن مستقبل فلسطين .
١٩٢٩	قيام اضطرابات عربية خطيرة ضد الصهيونية وما تبع ذلك من صدور الكتاب الأبيض لباسفيلد وفيه يحبذ فرض القيود على الهجرة اليهودية وشراء اليهود للأراضى .

التـــاريخ	الأحـــداث
١٩٣١	أول مؤتمر عربى عام يعقد فى القدس .
١٩٣٣ — ١٩٣٦	ازدياد الحركة المعادية للسامية فى أوروبا ينجم عنها زيادة حادة فى الهجرة اليهــودية الى فلســطين .
١٩٣٦	الاضراب العربى العام فى فلسطين وبريطانيـــا ترسل مزيداً من القوات . مصر تصبح مستقلة اســميا .
١٩٣٩	صدور كتاب بريطانى أبيض جديد يقترح قيـــام دولة فلسطينية على أساس التوازن السكانى القائم آنئذ (٢ من العرب مقابل ١ يهودى) على أن ينفذ ذلك فى خلال عشر سنوات .
١٩٤١	اشتراك الهاجاناه فى الغزو البريطانى لسوريا .
١٩٤٢	الصهيونيون يقرون برنامج بلتمور .
١٩٤٤	جماعة ارجون تستأنف الحملة الارهابية ضـــد الاحتلال البريطانى .
١٩٤٥	تكوين الجامعة العربية .
١٩٤٦	شرق الأردن يمنح الاستقلال .
١٩٤٧	بريطانيا تعرض المشكلة الفلسطينية على الأمم المتحدة التى تقرر فى شهر نوفمبر تقسيم البلاد على اسس طائفية . وقيام الحرب الأهلية .
١٩٤٨	جيش التحرير العربى يتســلل الى فلســطين « اعتبارا من شهر يناير فصاعدا » . وتعبئة الطائفة اليهــودية تعبئـــة كاملة فى شـــهر فبراير .
	اليهود يستولون على طبرية وصفد وحيفا ويافا فى أواخر شهر ابريل وأوائل شهر مايو .
	انتهاء الانتداب البريطانى يوم ١٤ مايو . اعلان قيام دولة اسرائيل فى نفس اليوم .
١٩٤٨	
١٥ مايو	خمس جيوش عربية تغزو فلسطين .
١١ يونيـــو	وقف اطلاق النار أول مرة .
٨ — ١٨ يوليو	الاسرائيليون يتخذون موقف الهجوم ، واستيلاؤهم على الجليل العربى والناصرة واللد والرملة .
١٧ — ١٨ يوليو	وقف اطلاق النار الثانى .
١٧ سبتمبر	اغتيال برنادوت وسيط الأمم المتحدة فى القدس.

التـــــاريخ	الأحـــــداث
١٥ ــ ٢٢ أكتوبر	أول معركة من أجل الاستيلاء على النقب واستيلاء الاسرائيليين على بير سبع .
٢٢ ديسمبر	بدء المعركة الثانية من أجل الاستيلاء على النقب.
١٩٤٩	
ينـــاير	التقــدم الاسرائيلى فى ســيناء يوقفــه الانذار البريطانى محادثات الهدنة تبدأ فى رودس .
مـــارس	الاسرائيليون يســـتولون على جنــوب النقب ويضمنون موقع ايلات مستقبلا على ساحل خليج العقبة .
	الهدنة الأخيرة (مع شرق الأردن) يتم التوقيــع عليهــا .
١٩٥٠	
مـــايو	اتفاق الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنســـا على الحد من مبيعات الأسلحة للشرق الأوسط .
١٩٥١	
يوليـــو	الحكومة الاسرائيلية تصدر قانون العودة .
	خليج العقبــة يغلق فى وجه الملاحة الاسرائيلية اغتيال الملك عبد الله ملك الأردن .
١٩٥٢	
يوليـــو	الملك فاروق ملك مصر يطيح به انقلاب الضباط .
أغسطس	المناداة بالملك حسين ملكا على الأردن .
١٩٥٣	
أغسطس	انقـــلاب من صـــنع وكالة المخـــابرات المركزية الأمريكية يطيح بمصدق المناهض للغرب .
ســـبتمبر	اسرائيل تبدأ فى تحويل مياه نهر الأردن .
ديسمبر	بن جوريون يستقيل من منصبه كرئيس لوزراء اسرائيل .
١٩٥٤	
يوليـــو	عملية التخريب الاسرائيلية فى القاهرة (مصـــدر قضية لافون فيما بعد) .
أغسطس	صفقة فرنسية ــ اسرائيلية للأسلحة تمولهـــــا الولايات المتحدة .
اكتـــوبر	حادثة بات جاليم الاتفاقيـــة الانجليزية المصرية بشأن الجلاء عن قاعدة قناة السويس .
نوفمبـــر	حرب الاستقلال الجزائرية تبدأ .

التـــاريخ	الأحـــداث
١٩٥٥	
فبـــراير	استقالة لافون .
	عودة بن جوريون كوزير الدفاع .
	الاسرائيليون يشنون غارة على غزة .
	تشكيل حلف بغـــداد .
أبريـــل	مؤتمر باندونج .
مـــايو	موافقة الاتحاد السوفيتى على بيع الأسلحة لمصر .
اغسطس	غارات الفدائيين تبدأ من مصر .
ســـبتمبر	مصر تحصل على صفقة أسلحة تشيكوسلوفاكية.
نوفمبـــر	اسرائيل تحتل منطقة العوجة المنزوعة السلاح .
ديســـمبر	الولايات المتحدة وبريطانيا تعرضان تمويل السـد العـــالى .
١٩٥٦	
يوليـــو	الولايات المتحدة تسحب عرضها لتمويل السـد العـــالى .
	ناصر يعلن تأميم قناة السويس .
٢٣ اكتوبر	اتفاق بريطانيا وفرنســا واسرائيل على شن هجوم منسق ضد مصر فى معـــاهدة سـيفر السرية .
٢٩ اكتوبر	بدء حملة سيناء باســقاط المظليين بالقرب من ممر متلا .
٣٠ — ٣١ اكتـــوبر	الاسرائيليون يشقون طريقهم فى سيناء .
٥ نوفمبـــر	اسرائيل تستولى على شرم الشيخ .
	الهجوم الانجليزى — الفرنسى على بورسعيد .
٧ نوفمبـــر	وقف اطلاق النـــار .
١٥ نوفمبر	وصول قوات الطوارىء الدولية لتحفر الحـــدود الاسرائيلية المصرية .
١٩٥٧	
ينـــاير	الانسحاب الاسرائيلى من سيناء يبدأ بناء على الضغط الأمريكى الكبير ويتم فى مارس .
مـــارس	الأردن ينهى تحالفه مع بريطانيا
أبريـــل	قناة السويس يعاد فتحها للملاحة .

التـــــاريخ	الأحــــــداث
١٩٥٨	
فبراير	مصر وسوريا تتحدان فى الجمهورية العربيـــة المتحـــدة .
يونيـــو	وقوع انقلاب فى بغداد يطيح بالحـــكام الموالين للغرب .
يوليـــو	أزمة فى لبنان ومشاة البحرية الأمريكية تتدخل . القوات البريطانية فى الأردن .
١٩٥٩	
ديسمبر	الاتحاد السوفيتى يوافق على بناء السد العالى .
مارس	العراق تنسحب من حلف بغداد .
١٩٦١	
ينـــاير	تأسيس منظمة الدول المنتجة والمصدرة للبترول (أوبك) .
ســـبتمبر	انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة .
١٩٦٢	
يوليـــو	الجزائر تحصل على استقلالها من فرنسا .
ســـبتمبر	اعلان الجمهورية فى اليمن .
أكتـــوبر	مصر ترسل قواتها الى اليمن .
١٩٦٣	
فبـــراير	الاطاحة بعبد الكريم قاسم فى العراق .
مـــارس	البعث يتولى السلطة فى سوريا .
يونيـــو	أشكول يصبح رئيسا للوزراء فى اسرائيل .
ديسمبر	استكمال العمل فى قناة المياه الوطنية الاسرائيلية.
١٩٦٤	
ينـــاير	أول مؤتمر قمة عربى يعقد فى القاهرة .
	انتخاب الشقيرى رئيسا لمنظمةالتحرير الفلسطينية المشكلة حديثـــا .
١٩٦٥	منظمة فتح تبدأ شن غاراتها داخل اسرائيل .
١٩٦٦	
فبراير	وقوع انقلاب موال للسوفيت فى سوريا .
نوفمبـــر	مصر وسوريا توقعان على ميثاق للدفاع المشترك ــ الاسرائيليون يشنون غـــارة على ســـامو فى الأردن .

التـــاريخ	الاحـــداث
١٩٦٧	
٧ أبريل	اشتباك جوى اسرائيلى سورى كبير — السوريون يطلبون تطبيق ميثاق الدفاع المتبادل مع مصر .
١٣ مايـــو	تقارير لم تتأكد عن حشود اسرائيلية على الحدود الســـورية .
١٦ مايـــو	ناصر يطلب من قوات الطوارىء الدولية اخـــلاء شرم الشيخ .
٢٣ مايـــو	ناصر يغلق مضايق تيران .
٣١ مايـــو	ناصر وحسين ينسيان خلافاتهما فى القاهرة .
١ يونيـــو	ديان وزيرا للدفاع الاسرائيلى .
٥ يونيـــة	حرب الأيام الســـتة تبدأ بهجوم جوى اسرائيلى على القوات الجوية العربية .
٥ — ٦ يونية	الاسرائيليون يخترقون سيناء .
٧ يونيـــو	مدينـــــة القـــدس القديمـــة تسقط فى أيدى الاسرائيليين .
٩ يونيـــو	القوات الاسرائيلية تصل الى قناة الســـويس فى الجنوب وتجتاح مرتفعات الجولان فى الشمال .
١٠ يونيـــو	حرب الأيام الستة تنتهى .
يوليـــو	بدء تسلل رجال حرب العصابات للضفة الغربية المحتـــلة .
اغسطس	اجتماعات قمة عربية فى الخرطوم . وزراء البترول يجتمعون فى بغداد .
نوفمبـــر	مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يصدر القرار رقم ٢٤٢ تعيين جوناريارنج ممثلا خاصا للأمم المتحدة فى الشرق الأوسط .
١٩٦٨	
ينـــاير	جونار يارنج يزور مصر والأردن واسرائيل .
٢١ مـــارس	الاسرائيليون يهاجمون المعسكر الفلســـطينى فى الـــكرامة .
يوليـــو	الاتفاق على الميثاق الوطنى الفلسطينى .
سبتمبر	تحرك الفلسطينيين الى جنوب لبنان .
اكتـــوبر	الاسرائيليون يشرعون فى اقامة تحصـــينات خط بارليف على الضفة الشرقية لقناة السويس . القوات الاسرائيلية تغير على وادى النيـــل فى صعيد مصر .

التـــاريخ	الأحـــداث
٢٦ ديسمبر	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تهاجم طـائرة لشركة طيران العال فى مطار اثينا .
٢٨ ديسمبر	الكوماندوز الاسرائيليون يهاجمون مطار بيروت .
١٩٦٩	
مارس	جولدا مائير تخـلف أشـكول كرئيسـة لوزراء اسرائيل .
	ناصر يعلن أن قرار وقف اطلاق النار الصادر لسنة ١٩٦٧ « لاغ وباطل » . حرب الاستنزاف تبـدأ .
ابريل ــ مايو	تراشق المدفعية عبر قناة السويس .
١٩ يوليـو	سلاح الطيران الاسرائيلى يهاجم القوات المصرية فى منطقة القتال وخلفها مباشرة (واستمرار الغارات الى نهاية العام) .
١ سـبتمبر	حدوث انقلاب فى ليبيا يؤدى الى تولى القـذافى السـلطة .
اكتـوبر	اتفاقية القاهرة بشأن لبنان بين الحكومة اللبنانية والفلسطينيين مبادرة روجرز للسلام (اعلانها فى ديسمبر) .
١٩٧٠	
ينـاير	حسين يحاول كبح جماح الفلسطينيين ولـكنه يضطر الى التنازل عن هذا المطـلب . بدء تغلغل غارات القوات الجوية الاسرائيلية فى عمق الأراضى المصرية .
فبـراير	ناصر يتـوجه الى موسـكو طلبـا للمسـاندة العسكرية .
مـارس	سام ــ ٣ اس يظهر فى جهاز الدفاع المصرى .
ابريـل	الطيارون السوفييت يتولون الدفاع عن الأراضى المصرية من الداخل .
مايو ــ يوليو	معركة الصـواريخ .
اغسطس	وقف اطلاق النـار بعـد قبول اسرائيل ومصر مقترحات روجرز .
٦ سبتمبر	الجبهة الشعبية لتحرير فلسـطين تخطف ثلاث طائرات مدنيـة وتهبـط بها فى مطار داوش بالقرب من عمان .

الأحداث	التاريخ
الحرب الأهلية الأردنية .	١٧ ــ ٢٧ سبتمبر
اتفاقية القاهرة (الأردنية) بين حسين والفلسطينيين .	٢٧ سبتمبر
وفاة ناصر . وتولى السادات الرئاسة (وكان نائبا للرئيس) .	٢٨ سبتمبر
	١٩٧١
يارنج يتقدم بمقترحات الى كل من مصر واسرائيل ــ نص هذه المقترحات .	فبراير
السادات يعرض فتح قناة السويس مقابل انسحاب اسرائيل على مراحل . ورفض هذا العرض .	ابريل
الحرب الأهلية الأردنية الثانية . طرد رجال حرب العصابات الفلسطينيين من الأردن .	١٣ ــ ٢٠ يوليو
	١٩٧٢
الجيش اليابانى الأحمر يهاجم مطار اللد .	مايو
جماعة أيلول الأسود تغتال الرياضيين الاسرائيليين فى دورة العاب ميونيخ .	سبتمبر
	١٩٧٣
القادة العسكريون العرب يتفقون على خطة للهجوم على اسرائيل .	ابريل
اسرائيل تعبىء قواتها بناء على أنباء كاذبة من المخابرات .	مايو
معركة جوية كبرى بين سوريا واسرائيل .	١٣ سبتمبر
بدء حادثة شوناو .	٢٨ سبتمبر
المصريون يهجمون عبر قناة السويس ، والسوريون يهجمون فى الجولان .	٦ اكتوبر
نجاح العرب فى دفع القوات الاسرائيلية الى التقهقر .	٦ ــ ٧ اكتوبر
الهجوم الاسرائيلى المضاد فى سيناء يفشل ، ووقف السوريين فى الجولان .	٨ اكتوبر
الاسرائيليون يستعيدون زمام المبادرة فى الجولان.	٩ ــ ١٢ اكتوبر
الهجوم المصرى يهزم .	١٤ اكتوبر
الاسرائيليون يعبرون قناة السويس .	١٦ اكتوبر

التـــاريخ	الأحـــــداث
١٨ أكتـــوبر	السعوديون يفرضون حظر تصـــدير البترول للولايات المتحدة .
٢٢ أكتـــوبر	وقف اطلاق النار الأول .
٢٣ أكتـــوبر	الاسرائيليون يـــكملون تطـــويق الجيش المصرى الثـــالث .
٢٤ أكتـــوبر	وقف اطلاق النار الثانى .
ديسمبر	مصر واسرائيل والأردن يجتمعون (اجتمـــاعا وجيزا) فى جنيف .
١٩٧٤	
ينـــاير	الاتفاقية الأولى للفصل بين القوات فى سيناء .
فبـــراير	المصريون يشرعون فى تطهير قناة السويس .
مـــارس	السعوديون يرفعون الحظر على البترول .
ابريـــل	رابين يخلف جولدا مائير كرئيس للوزراء .
مايـــو	اتفاقية الفصل بين القوات فى الجولان .
١٩٧٥	
مايو فصاعدا	النزاع الطائفى فى لبنان يتصاعد الى حرب أهلية.
ســـبتمبر	الاتفاقية الثانية للفصل بين القوات فى سيناء .
١٩٧٦	
ينـــاير	الجماعات الفلسطينية الواقعة تحت ســـيطرة السوريين تتدخل فى لبنان .
مارس ــ أبريل	اضطرابات واسعة النطاق فى الضـــفة الغربية المحتلة .
مايـــو	الجيش السورى يغزو لبنان .
يوليـــو	الاغارة على عنتيبى .
ســـبتمبر	مؤتمر الرياض يهدىء الموقف المشتعل ، مؤقتا ، فى لبنان .
١٩٧٧	
ينـــاير	تنصيب جيمى كارتر رئيســـا للولايات المتحـــدة الأمريكية ، ووزير الخارجية الأمريكى فانس يقوم (فى فبراير) بجولة فى الشرق الاوسـط ـــ أعمـــال شغب فى مصر بشأن اســـعار المواد الغذائية .

التـــاريخ	الأحـــــداث
مـــارس	حسين وعرفات يتصالحان فى اجتماع القمـــــة العربى الأفريقى بالقاهرة .
	كارتر يطالب بوطن للفلسطينيين تحت الوصـــاية الأردنيـــة .
	رابين يتعرض لثانى فضيحة كبرى تصدم حزبه خلال بضعة أشهر .
	المجلس القومى الفلسطينى المجتمع فى القـــاهرة يوافق على امكان التفاوض مع اسرائيل .
ابريـــل	الاضطرابات تشتعل فى لبنان مما يؤدى الى حرب فعلية « بالنيابة » بين اسرائيل وسوريا .
مـــايو	اضطرابات واسعة النطاق فى الضفة الغربية .
	حزب ليكود برئاسة مناحم بيجين يفـــوز فى الانتخـــابات الاسرائيليـــة ويشـــكل الوزارة الائتلافيـــة .
	الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يصدران بيانا مشتركا عن الشرق الأوسط يدعوان فيـــه الى استئناف عقد مؤتمر جنيف .
يوليـــو	فشل المحادثات التى جرت بين مصر والاتحـــاد السوفيتى وكان الهدف منها الصلح بينهما .
يونيـــو	محادثات بين بيجين وكارتر ، وبين الســـادات وحســـين .
	اسرائيل تعلن عن سياسة الاستيطان فى الضفة الغربية وتنشىء حدودها الجديدة (فى نوفمبر) على نهر الأردن .
اكتـــوبر	الاتحاد السوفيتى يضاعف تأييده ومساندته لمنظمة التحرير الفلسطينية .
نوفمبـــر	غارات قصف اسرائيلية ضد لبنان .
	بيجين يهيب بالسادات أن يحققوا السلام .
	الســـادات يوافق على أن يخـــاطب الكنيست (ويفعل ذلك فى ٢١ نوفمبر) .
١٩٧٧ ــ ١٩٧٨	
نوفمبر ــ يناير	سلسلة من المحادثات الثنائية تضم مصر واسرائيل والولايات المتحدة وبريطانيا تتوج بزيارة بيجين لمصر وتكون لجـــان مصرية ــ اسرائيليـــة سياسية وعسكرية .

التاريخ	الأحداث
	السادات يغلق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في القاهرة ويخرج الوزراء الموالين للسوفيت من حكومته .
ديسمبر	مؤتمر طرابلس الذى حضرته سوريا وليبيا والجزائر والعراق ومنظمة التحرير الفلسطينية يرفض مبادرة السادات .
	بيجين يرفض الاعتراف بحق منظمة التحرير الفلسطينية فى تمثيل الفلسطينيين .
١٩٧٨	
يناير	محادثات كارتر مع حسين والسادات خلال جولة عالمية له .
	اللجان المصرية ـ الاسرائيلية ، السياسية والعسكرية تجتمع فى القدس والقاهرة .

* * *

فهـرس

الصفحة

الجـزء الأول

الجـــزء الثـــانى

الصفحة

رقم الايداع ٥٠٩٩/١٩٨٠

الترقيم الدولى ٣-٢٨-٧٢٦٤-٩٧٧ ISBN

الرقم	مسلسل	التاريخ
٩٩	٢١٤٢	١٩٨٠


مطابع الأهرام التجارية
القاهرة

الهيئة العامة للاستعلامات
القاهرة



